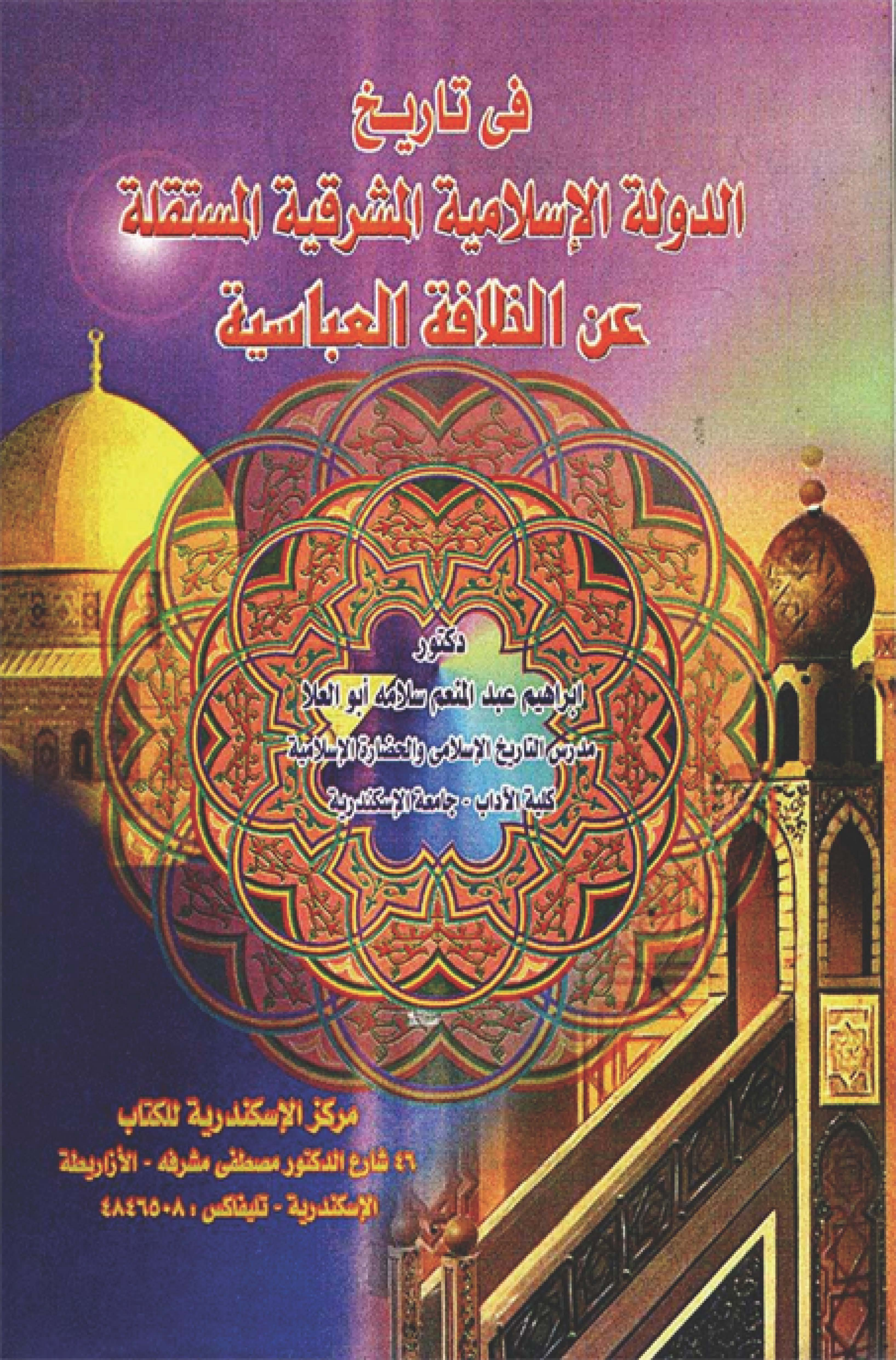

فى تاريخ
الدولة الإسلامية المشرقية المستقلة
عن الخلافة العباسية
دكتور
إبراهيم عبد المنعم سلامه أبو العلا
مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
مركز الإسكندرية للكتاب
٤٦ شارع الدكتور مصطفى مشرفه - الأزاريطة
الإسكندرية - تليفاكس : ٤٨٤٦٥٠٨٠

فى تاريخ
الدولة الإسلامية المشرقية المستقلة
عن الخلافة العباسية

دكتور
إبراهيم عبد المنعم سلامه أبو العلا
مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

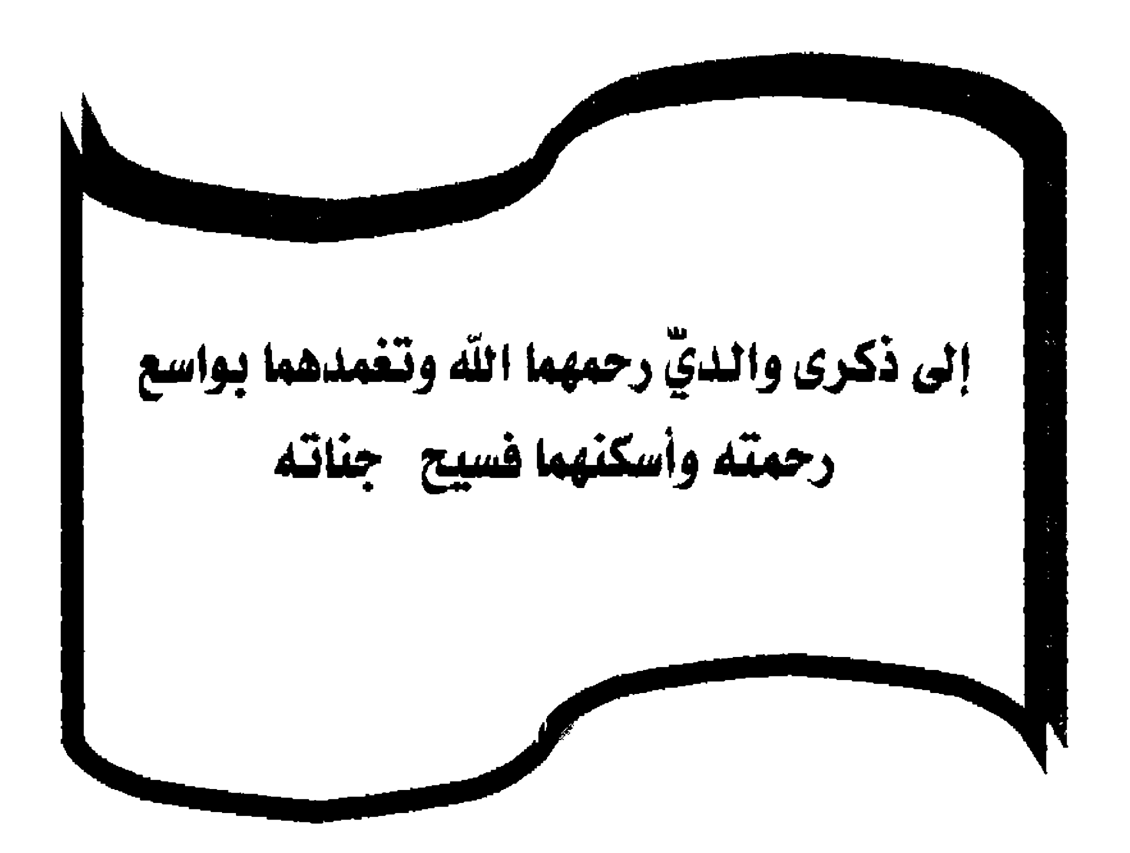
٢٠٠٥

مركز الاسكندرية للكتاب

٤٦ شارع الدكتور مصطفى مشرفة - الازاريطة

الاسكندرية - تليفون وفاكس : ٤٨٤٦٥٠٨

إهداء



إلى ذكرى والديّ رحمهما الله وتغمدهما بواسع
رحمته وأسكنهما فسيح جناته

مقدمة

إنطلق المسلمون من شبه الجزيرة العربية لنشر الإسلام فى الآفاق، فشلمت فتوحاتهم عالما واسعا من الأقاليم والأجناس والشعوب واللغات المتباينة من أواسط آسيا شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا. وعلى الرغم من وحدة الدولة الإسلامية خلال عصرى الراشدين والأمويين ، إلا أن هذه الأقطار الواسعة التى اتحدت برباط الإسلام، لم تتحد فى قومياتها أو بيئاتها أو لغاتها، فقد ظل كل إقليم له قوميته وشعبه وبيئته ومصالحه الخاصة به. ثم جاءت الدولة العباسية التى قامت على أكتاف الموالى الفرس والتى كانت تحمل فى أحشائها بذور الانفصال، فالدولة منذ قيامها كانت تهدف إلى المساواة بين العرب وبين الشعوب المفتوحة جرياً على حكم الإسلام، فأيقظت بذلك الروح القومية بين تلك الشعوب.

غير أن الدولة العباسية رغم مركزية نظام الحكم لم تحافظ على وحدة أقاليم العالم الإسلامى لاسيما المناطق الطرفدارية البعيدة عنها، فانفصلت عنها الأندلس وبعد قليل قامت الدولة الإدريسية فى المغرب، وبات من الطبيعى أن ينزع كل إقليم إلى الاستقلال بشئونه عن السلطة المركزية فى بغداد كلما سنحت له الفرصة بذلك. ولقد نتج عن المركزية الإدارية التى انتهجتها الدولة العباسية، أعباءً ثقالاً على خلفاء العصر العباسى الأول، وذلك باتساع أملاك الخلافة وتعددها، مما أدى إلى ظهور

حركات المعارضة والعصيان التى عبرت عن النزعة الإقليمية فى معظم الولايات خاصة الشرقية.

وحين بدأت الدولة العباسية تدرك خطر هذه الحركات الانفصالية، لجأت فى علاجها إلى سياسة اللامركزية فى الحكم، وقسمت الدولة منذ عهد الخليفة هارون الرشيد إلى مناطق إدارية ثلاث وعهد بإدارتها إلى ولاة العهد من أبنائه، كما أقر الدولة الأغلبية التى أقامها إبراهيم بن الأغلب فى أفريقية. وسار الخليفة المأمون على هذه السياسة اللامركزية استجابة لتطلعات الولايات من ناحية، ولتخفيف الأعباء الجسيمة عن كاهل الخلافة كسلطة مركزية من ناحية أخرى، فوافق المأمون على قيام الدولة الزيدية فى اليمن (٢٠٤هـ/٨١٩م) لمواجهة الحركات العلوية التى كانت تهدد مركزية الخلافة فى اليمن والحجاز، كما اضطر المأمون أيضا أمام تعدد حركات المعارضة بالخروج عن التبعية للعباسيين، إلى قبول النظام اللامركزى فى خراسان نفسها رغم اعتبارها هى وسائر أقاليم المشرق الإسلامى المعين الخصيب الذى تستمد منه قوتها وأنظمتها منذ بداية نشر دعوتها؛ فقلد الطاهريين حكمها للإشراف على شئون الولايات الشرقية، كذلك قلد العباسيون فيما بعد آل سامان بلاد ماوراء النهر حفاظا على أملاكهم هناك، ولنشر الإسلام فيما ورائهم من أمم الترك الوثنية. وعلى الرغم من استقلال هذه الدويلات استقلالا جزئيا، فقد حافظت على ولائها واعترافها بالسيادة الروحية العباسية حتى فى أشد فترات ضعفها.

ولاشك أن هذه النزعات الاستقلالية فى المشرق قد أضرت بوحدة الدولة الإسلامية سياسيا، إلا أنها قامت بدور إيجابى فى نشر الإسلام فيما وراء الحدود الإسلامية فى آسيا والهند، كما أدى التنافس بينها إلى

ازدهار الحضارة الإسلامية فى تلك الجهات وظهور مراكز حضارية زاهرة فيها يؤمها العلماء والأدباء والتجار مثل نيسابور وسمرقند وبخارى.

ويتناول هذا الكتاب تاريخ بعض الدويلات الإسلامية المشرقية التى استقلت عن الخلافة العباسية. وهو يحتوى على ثمانية فصول خصصت الأول منها للحديث عن الدولة الطاهرية فى خراسان، وتحدثت فى الفصل الثانى عن الدولة الزيدية فى طبرستان، وأفردت الفصل الثالث للحديث عن الدولة الصفارية فى سجستان ، أما الفصل الرابع فهو عن دولة السامانيين فى بلاد ماوراء النهر، وتناولت فى الفصل الخامس بعض جوانب من حضارة الصفاريين والسامانيين، فى حين خصصت الفصل السادس لدراسة تاريخ الدولة الزيدية فى إقليم الديلم، وفى الفصل السابع تحدثت عن الدولة الغزنوية وفتوحاتها فى أفغانستان وبلاد الهند، وأخيراً تناولت فى الفصل الثامن تاريخ الدولة الغورية فى أفغانستان والهند. واختتمت الكتاب بثلاثة ملاحق ترتبط ارتباطاً وثيقا بموضوع الكتاب، كما زيلته بثلاث خرائط توضيحية،

والله ولى التوفيق.

د. إبراهيم عبد المنعم سلامه أبو العلا

الفصل الأول

الدولة الطاهرية

(٢٠٥-٢٥٩هـ/ ٨٢٠-٨٧٢م)

- تقديم.
- عرض جغرافي لإقليم خراسان.
- الطاهريون والدولة العباسية.

  (صعود نجم طاهر بن الحسين)
- قيام الدولة الطاهرية.

  ولاية طاهر بن الحسين على خراسان وتأسيس الدولة الطاهرية.

  (٢٠٥-٢٠٧هـ/ ٨٢٠-٨٢٢م)
- ولاية طلحة بن طاهر (٢٠٧-٢١٣هـ/ ٨٢٢-٨٢٨م).
- ولاية عبد الله بن طاهر (٢١٣-٢٣٠هـ-٨٢٨-٨٤٥م).
- ضعف الدولة الطاهرية في عهد حكامها الأواخر.

  (٢٣٠-٢٥٩هـ/ ٨٤٥-٨٧٤م)

الفصل الأول

الدولة الطاهرية

(٢٠٥ – ٢٥٩هـ / ٨٢٠ – ٨٧٢م)

تقديـــــم:

بدأت بلاد فارس (إيران) تتطور تطوراً إسلامياً بعد الفتح العربى الإسلامى لها مباشرة، فقد بدأت الصبغة الإسلامية والثقافة الإسلامية تنتشر فيها منذ إتمام حركة الفتح العربى، وقد اشتدت الحركة الإسلامية فيها بدخول أهلها الذين أطلق عليهم الفاتحون اسم الموالى فى الإسلام، ثم أخذت شخصيتها الإسلامية فى الظهور معبرة عن نفسها بانضمامها إلى حركات المعارضة التى قامت فى وجه الحكم الأموى، فقد إنضم الموالى الفرس إلى حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى، ثم فى جيوش مصعب بن الزبير، ثم فى ثورة محمد بن الأشعث، ولعل نجاح القيسية بزعامة عبد الله بن خازم فى السيطرة على خراسان، وضرب (إبن خازم) النقود الذهبية باسمه دون الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، يعتبر من أولى المحاولات الاستقلالية فى خراسان، ويعلق البلاذرى على حركة ابن خازم بقوله "وولى ابن خازم ابنه محمداً هراة، وجعل على شرطته بكير بن وشاح وصفت له خراسان" [١]. غير أن هذه المحاولة فشلت بمقتل زعيمها إبن خازم على أيدى رجال الخليفة الأموى لرفضه مبايعته، وكان ذلك فى عام ٧٢ هـ.

---

(١) البلاذرى، فتوح البلدان، علق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣، صـ٤٠٥.

وكانت غطرسة العرب وجشع ولاتهم، من أسباب جنوح أهل خراسان للثورة ، ولذلك كان الجراح بن عبد اللّه عامل الخليفة عمر ابن عبد العزيز على خراسان يرى أن خراسان لا يمكن حكمها إلا "بالسيف والسوط"[1]. ورغم محاولة بعض الخلفاء الأمويين احتواء جنوح الخراسانيين للثورة، إلا أن هذا لم يمنعهم من العمل على تقويض هذه الدولة. ويرجع الطبرى ببداية الحركة الشيعية فى خراسان والتى كانت ترمى إلى إسقاط البيت الأموى، إلى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، غير أن الحارث بن سريج لم يرفع علم المسودة (العباسيين) إلا فى عام (١١٥ هـ/ ٧٣٤ م)، كما خرج يحيى بن زيد العلوى فى خراسان على طاعة الأمويين، ولكنه قتل بها فى عام ١٢٦هـ/٧٤٣ م، وعلق جسده بباب جوزجان، وظل معلقا هناك إلى حين انتصار أبى مسلم الخراسانى على قوات الأمويين.

ولكن بداية ظهور القومية الإيرانية ظهوراً واضحاً كان فى عام ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م، لأن الإيرانيين كانوا وراء الحركات التى أدت إلى نجاح العباسيين في الوصول إلى السلطة بمساعدة أبى مسلم الخرسانى وأهل خراسان فى هذا التاريخ[2]. ولعل خوف العباسيين من تزايد نفوذ أبى مسلم الخراسانى، وجنوحه للاستقلال بخراسان، كان من أسباب

---

(١) عن سوء معاملة الجراح بن عبد اللّه لأهل خراسان انظر : ابن خلدون، العبر، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت ١٩٩٦، ج٣، صـ٩٥.

(٢) عن أحوال خراسان فى أواخر العصر الأموى، ودور أبى مسلم فى الثورة عليهم راجع : الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ، ج٧، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ،القاهرة ١٣٥٧هـ. ج٤. صفحات متفرقة، نبيلة حسن محمد، محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية، بيروت، بدون تاريخ، صـ١٥ - ٣٦.

تخلصهم منه فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور. ولقد شهد العصر العباسى الأول نفوذ الموالى الفرس فى مجالات الدولة المختلفة، ولهذا عرف عند المؤرخين بعصر النفوذ الفارسى الأول، إذ نشهد فيه سيطرة العنصر الفارسى وغلبته على جميع مناحى الحياة أدبية ومادية، فقد كان من الطبيعى أن يعتمد العباسيون على الفرس وعلى أهل خراسان بوجه خاص فى تصريف شئون دولتهم إعترافا منهم بفضلهم عليهم. ولذلك أسلم الخلفاء العباسيون فى هذا العصر أزمة أمورهم إلى الفرس، وأفسحوا لهم المجال فى تولى المناصب الكبرى، فتولى البرامكة الوزارة واستبدوا بالدولة دون الخليفة هارون الرشيد، كذلك ظهر التأثير الفارسى فى الحركات الدينية التى اتجهت اتجاهاً قومياً شعوبياً يستهدف الطعن فى السيادة العربية، وإحياء المجد الفارسى القديم، وقد عمد الشعوبيون الفرس إلى تمجيد العنصر الفارسى والحط من شأن العرب، والتعصب للفارسية أدبياً وسياسياً واجتماعياً[١]. وبدأ الشعب الإيرانى يعبر عن نفسه تعبيراً قومياً بظهور الإمارات المستقلة عن الخلافة العباسية، وأولها الدولة الطاهرية فى خراسان التى كانت أسبق أقاليم المشرق الإسلامى فى النشاط السياسى فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، إذ بدأت فيها تيارات سياسية تهدف إلى الاستقلال منذ عهد الخليفة المأمون.

عرض جغرافى لإقليم خراسان :

كلمة خراسان مركبة من مقطعين :"خور" أى شمس، و"اسان" بمعنى شروق، أى أن خراسان تعنى شروق الشمس. وهى تذكرنا بعبارة الإمام محمد بن على العباسى التى وجهها إلى دعاته حينما أرسلهم سراً

---

(١) عبد العزيز الدورى، العصر العباسى الأول، بغداد، ١٩٤٥، صـ١٥٨ وما بعدها، السيد عبد العزيز سالم، العصر العباسي الأول، الإسكندرية ١٩٩٥، صـ ٦ ـ ٨.

إلى خراسان، لبث الدعوة العباسية هناك بقوله "...... وبعد فكأنى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح هذا الخلق"[١]. وخراسان فى الفارسية القديمة، معناها "البلاد الشرقية". وكان هذا الاسم فى أوائل العصور الوسطى يسرى بشكل مطلق على جميع الأقاليم الإسلامية فى شرق الصحراء الكبرى (المفازة) حتى حدود بلاد الهند، فخراسان فى مدلولها الواسع كانت تضم كل بلاد ما وراء النهر فى الشمال الشرقى، عدا سجتان وقوهستان، وكانت حدودها صحراء الصين والبامير من ناحية آسيا الوسطى، وجبال هندكوش من ناحية الهند. إلا أن حدودها صارت فيما بعد أكثر حصراً وأدق تعييناً كما يذكر "لسترنج"، حتى يمكن القول إن خراسان أحد أقاليم إيران كان يمتد إلى نهر جيحون فى الشمال الشرقى، وكان يشمل جميع المرتفعات فيما وراء مدينة هراة (القسم الشمالى الغربى من أفغانستان الحالية)، وكذلك البلاد الواقعة فى أعالى نهر جيحون من ناحية البامير[٢].

وكان إقليم خراسان فى أيام العرب، ينقسم إلى أربعة أرباع تُنسب كل ربع إلى إحدى المدن الأربع الكبرى التى كانت فى أوقات مختلفة عواصم للإقليم وهى : نيسابور، ومرو، وهراة، وبلخ. وفى أعقاب الفتح الإسلامى الأول للإقليم، كانتا عاصمتا خراسان فى مرو، وفى بلخ، إلا أن

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت (مصورة من طبعة بريل ١٩٠٦)، ص ٢٩٤، مجهول، أخبار الدولة العباسية، وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق عبد العزيز الدورى وعبد الجبار المطلبى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧١، صـ٢٠٦ ـ ٢٠٧، أحمد مختار العبادى، فى التاريخ العباسى والفاطمى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية بدون تاريخ، صـ١٤٩.

(٢) لسترنج (كى)، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة وتعليق بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة، بغداد ١٩٥٤، صـ٤٢٣.

الطاهريين (كما سنذكر) نقلوا دار الإمارة إلى ناحية الغرب فجعلوا نيسابور عاصمة الإقليم فى أيامهم، وهى أكبر مدينة بين هذه الأرباع. ولأهمية نيسابور باعتبارها عاصمة الدولة الطاهرية، سوف نلقى الضوء عليها.

ففى الفارسية الحديثة ينطق اسمها : نيشابور، وهى فى العربية : نيسابور. وهو مشتق من (نيوشاه بور) فى الفارسية القديمة، ومعناه : (موضع، أو عمل سابور الطيب). وسميت المدينة بذلك نسبة إلى الملك سابور الثانى الساسانى الذى جدد بناءها فى القرن الرابع الميلادى، فى حين أن الذى أسسها كان سابور الأول بن أردشير بابكان. وفى صدر الإسلام أطلق على نيسابور : أبرشهر، ومعناها بالفارسية (مدينة الغيم)، ولقد ظهرت هذه التسمية (أبرشهر) فى السكة القديمة التى ضربها فيها الخلفاء الأمويون العباسيون. وأطلق عليها الجغرافيون العرب مثل المقدسى اسم "إيرانشهر" أى مدينة إيران. غير أن هذا الاسم كان اسما شرفيا وغير رسمى[١].

وكانت نيسابور فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مدينة عامرة بالمبانى، مساحتها مقدار فرسخ فى مثله، ولها مدينة وقلعة "القهندز" وربض، وبها ميدان يعرف بمعسكر، وبقربه دار الإمارة، وتفضى إلى ميدان آخر عرف باسم ميدان الحسينيين، والحبس يقع على مقربة من دار الإمارة، ومقدار المسافة بين كل بناء من هذه الأبنية الحيوية بالمدينة نحو من ربع فرسخ. وللمدينة أربعة أبواب (باب القنطرة، باب سكة معقل، باب القهندز، باب قنطرة تكين)، وهى عامرة

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ٢٩٩، ٣١٤، ويسميها ابن حوقل (صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩، ص ٣٦١) إبرشهر.

بالأسواق بأربضها، وأعظم أسواقها : سوقان أحدهما يعرف بالمربعة الكبيرة، والآخر يعرف باسم المربعة الصغيرة. وأسواقها مكتظة بالحوانيت، وبها كثير من الخانات والفنادق لسكنى الغرباء والتجار، وفيها أصناف كثيرة من المتاجر، ووجدت خانات متخصصة لكل حرفة على حدة، فهناك خان الأساكفة، وخان البزازين، وخان الخرازين وغيرها.

ويذكر ابن حوقل أنه ليس في كل خراسان مدينة "أصح هواء وأفسح فضاء وأشد عمارة من نيسابور"، وتجارها أهل ثراء، ويؤمها السابلة والقوافل كل يوم، مما يدل على ضخامة تجاراتها وعظمة أسواقها. وتصدر أصناف كثيرة من ثياب القطن والأبريسم إلى سائر البلدان. ويضيف المقدسي أن شرب أهلها من نهر يقال له وادى سغاور، ينحدر إليها من قرية "بشتنقان". ويدير سبعين رحى، ومنه تحمل قنى كثيرة تجرى تحت الأرض، ويجرى النهر فيها مسافة فرسخ، وإذا ما جاوزت القنى المدينة ظهرت على وجه الأرض فتسقى المزارع والبساتين، وبالإضافة إلى مياه نهر وادى سغاور، كان يوجد فى داخل نيسابور وفى دورها آبار كثيرة عذبة[١].

ويذكر ياقوت الحموى أن المدينة كانت تسمى فى أيامه (ق ٧ هـ/ ١٣ق م) : نشاوور. وأنه لم ير فى خراسان مدينة أحسن منها، وكانت محلة شاذياخ أهم محلاتها وكانت قديماً بستاناً لعبد الله بن طاهر فى أوائل القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، حين نزل نيسابور واتخذها داراً للإمارة. وتقوم نيسابور فى الوقت الحالى كما يذكر (لسترنج) فى الجانب

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦٣، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٠٠، ٣١٤، ٣٣٩، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٢٥ ـ ٤٢٦.

الشرقى من سهل نصف دائرى تكتنفه الجبال ويواجه المفازة وهى فى جنوبه. وإشتهرت فى سهل نيسابور كما يذكر المقدسى (ق ٤هـ/ ١٠م) أربعة رساتيق بوفرة خصبها وهى (الشامان، ريونو وما زالت قائمة فى غرب نيسابور، وما زُل، وبشتفروس). وإلى جنوب شرقى نيسابور ينقسم طريق خراسان العظيم، عند مرحلة عرفها العرب باسم (قصر الريح)، ومنها كان طريق مرو يتجه شرقاً، وطريق هراة إلى الجنوب الشرقى[١].

ومن أهم مدن ربع نيسابور مدينة المشهد (مشهد الإمام) وهى اليوم قاعدة القسم الإيرانى من خراسان، ومدينة طوس وهى على بعد بضعة أميال من شمال المشهد، وبها قبر هارون الرشيد (ت ١٩٣هـ/ ٨٠٩ م) وقبر الإمام الثامن على الرضا وقد مات من سم دسه له المأمون (ت ٢٠٢هـ/ ٨١٧ م). وتتألف مدينة طوس من مدينتين توأمين هما (الطابران ونوقان)، وتعود شهرة نوقان فى (ق ٣هـ/ ق ٩ م)، إلى صنع البرام التى تحمل إلى سائر البلدان، وكان يستخرج من جبالها أيضاً معدن الذهب والفضة والنحاس والحديد. ومن مدن ربع نيسابور أيضا بيهق وسبزوار، وجوين وجاجرم وإسفرايين، وأستو وكوجان، ورادكان ونسا، وابيورد، وكلات وخابران وسرخس[٢].

أما بقية أرباع خراسان (مرو، بلخ، هراة) فسوف نقف عندها، عندما نأتى على ذكرها فى ثنايا الحديث عن تاريخ الدويلات المستقلة فى الفصول التالية من الكتاب.

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٥٢.

(٢) عن وصف هذه المدن راجع : لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، صـ٤٢٩ ـ ٤٣٨، والمصادر المذكورة هناك.

الطاهريون والدولة العباسية :

(صعود نجم طاهر بن الحسين) :

ارتبط الطاهريون بالأسرة العباسية ارتباطاً وثيقاً منذ أن كانت دولتهم ما تزال فى رحم الأحداث التاريخية، ولم تخرج بَعْد إلى الوجود الفعلى فالجد الأعلى للطاهريين ويدعى (رزيق) كان فى الأصل مولى لأبى محمد طلحة بن عبد اللّه الخزاعى الذى تولى سجستان لسلم بن زياد، وكان رزيق هذا قد اعتنق الإسلام فى البصرة على يد الإمام على بن أبى طالب فى عام ٣٦هـ/ ٦٨٤ م، وكان لأبناء رزيق علاقة وثيقة بالأسرة العباسية منذ بداية دعوتها، فقد كان مصعب بن رزيق جد طاهر بن الحسين مؤسس الدولة الطاهرية حاكماً لمدينة (بوشنج) بولاية هراة[1]، ونراه فى زمن الدعوة العباسية يشغل منصب الكاتب لأحد رجال أبى مسلم الخراسانى، وقد ورد اسمه أيضاً خلال حكمه لبوشنج فى أخبار ثورة (يوسف البرم) الذى انتزع منه هذه المدينة كما يذكر (المؤرخ الكرديزى صاحب كتاب زين الأخبار).

---

(١) بوشنج أو فوشنج تقع على مسيرة يوم من غرب هراة. ومكانها حالياً مدينة غُريان، ولقد وصف ابن حوقل بوشنج بقوله أن بناءها حسن تحف به الأشجار، وبها اشجار العرعر الذى يحمل خشبه إلى سائر النواحى. ولبوشنج سور وخندق وثلاثة أبواب. ويذكر ياقوت الحموى أن العجم فى عصره كانوا يطلقون عليها (بوشنك)، ومما اختصت به بوشنج الأرحية التى تديرها الرياح. وفى عام ٧٨٣هـ/ ١٣٨١ م، غزاها تيمور لنك ونهبها، على الرغم من ارتفاع أسوارها وعمق ماء خندقها (ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦٨، المقدسى، أحسن التقاسيم، صـ٢٩٨، ياقوت الحموى، معجم البلدان، القاهرة ١٩٠٦، ج١، صـ٧٥٨، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، صـ٤٥٣).

ويرجح (بارتولد) أن مدينة بوشنج قد ردت لمصعب بن رزيق عقب إخماد الثورة بها، وخلفه فى حكمها ابنه الحسين بن مصعب وكان من كبار أعيان خراسان، ولقد خدم الحسين بن مصعب الأمير عبد اللّه المأمون الذى تولى أعمال المشرق الإسلامى فى حياة أبيه هارون الرشيد، وكان من قواد جيشه ومن أقرب رجاله المقربين إليه، وحينما توفى الحسين بن مصعب فى عام ١٩٩هـ/ ٨١٤ م، حضر المأمون جنازته وبعث لأبنه طاهر وكان بالعراق يعزيه فى وفاة والده(١). وكان طاهر بن الحسين الذى ولد فى عام ١٥٩هـ/ ٧٧٥ م ببلدة بوشنج، من كبار القواد العباسيين حكمة وشجاعة، وقد بدأ نجمه فى البزوغ منذ عام ١٩٤هـ/ ٨٠٩ م، حينما شارك فى قيادة الجيش العباسى الذى حاصر الثائر رافع بن الليث بن نصر بن سيار بمدينة سمرقند فى بلاد ما وراء النهر، غير أنه يفهم من رواية (ابن خلدون) أن طاهرا بن الحسين كان يتقلد منصباً مرموقاً فى خراسان لعله منصب قائد الجيش بها، حينما استدعاه هرثمة بن أعين صاحب خراسان لقتال رافع بن الليث فابن خلدون يقول "وإستقدم - هرثمة - طاهر بن الحسين من خراسان فحضر عنده، وعاث حمزة الخارجي فى نواحي خراسان لخلائها من الجند" (٢).

وبعد وفاة والده الحسين بن مصعب، قلده المأمون حكم ولاية بوشنج خلفا له.

---

(١) بارتولد (فاسيلى فلاديميرو فتش)، تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الأولى، الكويت ١٩٨١، صـ٣٣١.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٢٨٧.

وفى عام ١٩٥هـ/ ٨١٠م بدأ الصراع بين ابنى هارون الرشيد الخليفة محمد الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨هـ/ ٨٠٨ ـ ٨١٣م)، وولى عهده عبد الله المأمون، وأخذ كل واحد منهما يعمل لإزاحة أخيه عن طريقه، فانفتح بذلك باب الفتنة بينهما. ولما علم الفضل بن سهل وزير المأمون بمسير جيش الخليفة الأمين إلى خراسان بقيادة على بن عيسى بن ماهان لإجبار المأمون على التنازل عن ولاية العهد وتجريده من سلطاته، أسند إلى طاهر بن الحسين ولاية (الرى) التى تقع فى الطرف الشمالى الشرقى من إقليم الجبال (عراق العجم)[١]، وعهد إليه بقيادة الجيش الذى أعده للتصدى لجيش الأمين، لما عرف عنه من شجاعة وإخلاص فى خدمة المأمون والخلافة العباسية (قتاله لرافع بن الليث)، فضلاً عما كان يتمتع به طاهر رغم حداثة ظهوره فى الأوساط العسكرية، من مقدرة حربية وحزم وسداد الرأى ومعرفة بمكائد الحروب، فنزل طاهر الرى ووضع بها المسالح والمراصد كما يذكر ابن خلدون[٢]، وعقد الوزير الفضل بن سهل بيده على سنان رمح طاهر اللواء الذى عمل من أجله ويذكر

---

(١) الرى هى مدينة ريجس Rhages عند اليونان، وكانت الرى فى ق ٤هـ/ ق ١٠م، أكبر المدن الأربع لإقليم الجبال وهى البلاد الممتدة من سهول العراق والجزيرة غرباً إلى صحراء فارس شرقاً، وقد وصفها ابن حوقل بقوله "ليس بعد بغداد فى المشرق مدينة أعمر من الرى، إلا أن نيسابور أكبر منها وأفسح رقعة". وكانت الرى أيام الخلافة العباسية تسمى المحمدية لأن محمد المهدى قد نزلها فى خلافة أبيه أبى جعفر المنصور وبنى أكثر مبانيها، وصارت أكبر دار للضرب، ووجد أسمها على كثير من النقود العباسية، واشتهرت الرى بكثرة متاجرها، وبها نهران للشرب، وبها بنائين جليلين هما دار البطيخ (سوق الفاكهة)، ودار الكتب (ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٠٤، ٣٢١ ، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٩٠-٣٩١ ، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، صـ٢٤٩ ـ ٢٥٠).

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٢٩٢.

(الجهشيارى) أن الحسين بن مصعب عندما علم بموافقة ابنه طاهر على المسير إلى الرى لقتال جيوش الخليفة الأمين، نصحه بعدم الاشتراك فى هذه الفتنة بين ابنى الرشيد، فرفض طاهر ورد على أبيه رداً يدل على الذكاء والطموح وقال له "خفت إن لم أقبل ما دعيت إليه، أن يقلد الأمر غيرى وأضم إليه، فلأن أكون متبوعاً أفضل من أكون تابعاً"(١).

وكان على قيادة جيش المأمون أيضاً قائداً آخر هو (هرثمة ابن أعين) الذى يرجع إليه الفضل فى إعداد جيش المأمون إعداداً قوياً. أما الأمين، فلم يكن موفقاً فى اختيار قواده، فقد اختار (على بن عيسى ابن ماهان)، وكان هذا القائد والياً على خراسان أيام الرشيد، ولذا كان يعرف أحوالها حق المعرفة، ولكنه كان مكروها من الخراسانيين لأنهم لم ينسوا له ظلمه وقسوته. ويذكر ابن خلدون أن الفضل بن سهل هو الذى دس أحد عيونه عند الفضل بين الربيع وزير الأمين، فأشار به عليهم. "لما فى نفوس أهل خراسان من النفرة عن ابن ماهان فجدوا فى حربه، ويقال حرّض أهل خراسان على الكتب إلى ابن ماهان ومخادعته إن جاء"(٢).

تقدم على بن عيسى بن ماهان نحو الرى لقتال طاهر بن الحسين دون أن يستعد له استعداداً كافياً، وذلك لأنه كان يستهين بشأن طاهر لحداثته، ولاغتراره بكثرة جموعه وتفوقه العسكرى (بلغ عدد جنده ما بين ٤٠ - ٦٠ ألف مقاتل)، وكان يقول فى هذا الصدد "مثل طاهر لا نستعد له"، فهو إنما "شوكة من أغصانى، ومثل طاهر يتولى الجيوش،

---

(١) الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة ١٩٣٨، صـ٢٠٥.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٢٩٢.

وقال لأصحابه : ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح والريح العاصف إلا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان، فإن السخال لا تقوى على النطاح، والبغال لا صبر لها على لقاء الأسد، وإن أقام تعرض لحد السيوف وأسنة الرماح، وإذا قاربنا الرى ودنونا منهم فت ذلك فى أعضادهم"[(١)]. وبلغ من غرور قائد جيش الأمين ووثوقه من الظفر بمنافسيه، أن أخذ معه قيد فضة ليقيد به المأمون كما يذكر الإمام السيوطى[(٢)].

وحدث الاشتباك بالقرب من الرى، ولما خرج أحد أصحاب ابن ماهان على طاهر بن الحسين بالسيف أظهر شجاعة فائقة، إذ حمل عليه وأخذ السيف بيده وصرعه، وعندما أحرزت قوات ابن ماهان تفوقا على قوات طاهر بن الحسين فى بداية المعركة أظهر طاهر رباطة جأش وكفاءة عسكرية عظيمة، فأمر جنده بالقيام بهجوم خاطف على قلب جيش على بن ماهان، فتحول الموقف لصالح طاهر، فانسحب جناحا ابن ماهان، وكثر القتل فى أصحابه وسقط هو قتيلا بضربة سهم فى الميدان، ولم ينقذ المنهزمين إلا حلول الليل بعد أن التجأ كثيرون منهم إلى معسكر طاهر بن الحسين بعد أن أمنهم، واحتوى طاهر على أموال ابن ماهان، واحتذ رأسه وأرسلها إلى المأمون، فطيف بها فى خراسان، فسر المأمون بهذا الانتصار وبويع له بالخلافة، وأمد طاهر بن الحسين بالأموال والرجال،

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٥، صـ١٤٣، ابن خلدون، نفسه، ح٣، صـ٢٩٢، سالم، العصر العباسى الأول، صـ٧٤.

(٢) السيوطى، تاريخ الخلفاء، تقديم عبد الله مسعود، دار القلم العربى، حلب، ١٩٩١، صـ٢٨٠. وإن كان ابن خلدون (العبر، ح٣، صـ٢٩٢) يقول أن السيدة زبيدة ام الخليفة الأمين هى التى أعطته هذا القيد بعدما أوصته خيرا بالمأمون، وقالت له : "إن سار إليك فقيده به مع المبالغة فى البر والأدب معه".

وسماه (ذا اليمينين)، وأمره أن يزحف إلى العراق عن طريق حلوان، "وعقد له على المشرق" كما يذكر ابن ظافر الأزدى[١].

ولقد تباينت ردود أفعال الناس فى بغداد لما قتل على بن هامان وهزم جيشه، فقد استهتر الخليفة الأمين بالخبر، إذ قطع عليه الناعى لذة الصيد وزجره لما أبلغه به، قائلا "ويلك ! دعنى فإن كوثرا صاد سمكتين وأنا ما صدت شيئا بعد"، ثم ندم على خلعه أخاه الأمين فيما بعد، بينما أرجف الناس ببغداد إرجافا شديدا[٢]. ولما وصلت الإمدادات العسكرية التى أرسلها المأمون إلى طاهر بن الحسين، قسم طاهر الجيش قسمين، اتجه بأحدهما إلى بغداد عن طريق حلوان والأهواز، فلما صار إلى الأهواز استولى عليها ثم امتد إلى واسط، وسار القسم الثانى من الجيش بقيادة هرثمة بن أعين إلى بغداد عن طريق حلوان، ولم تفلح الجيوش (٢٠ ألف فارس) التى أرسلها الأمين بقيادة عبد الرحمن بن الأنبارى لإيقاف هذا الزحف، بل إن طاهرا بن الحسين هزم هذه الجيوش مرتين عند همذان وملكها، ثم استولى على قزوين، وهزم القوات الكثيفة التى أرسلها الأمين مددا لعبد الرحمن بن الأنبارى بقيادة عبد الله وأحمد ابن الحريشى، فانهزم الجميع إلى بغداد، "وأقبل طاهر بن الحسين نحو البلاد وحده وأخذه إلى حلوان، فخندق بها وجمع أصد[illegible]" كما يذكر ابن خلدون[٣].

---

(١) ابن ظافر الأزدى، أخبار الدول المنقطعة تاريخ الدولة العباسية، تحقيق محمد بن مسفر بن حسين الزهرانى، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ١٩٨٨، صـ١٥٠، ابن الأثير، الكامل، ج٥، صـ١٤٣ - ١٤٥، السيوطى، تاريخ الخلفاء، صـ٢٨٠.

(٢) السيوطى، تاريخ الخلفاء، صـ٢٨٠ - ٢٨١.

(٣) ابن ظافر الأزدى، أخبار الدول المنقطعة، صـ١٥٠، ابن الأثير، الكامل، ج٥، صـ١٤٨، ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٢٩٤.

وكان للإنتصارين اللذين أحرزهما طاهر بـن الحسين علـى قـوات الأميـن أثرهمـا الكبيـر فـى إضعـاف الـروح المعنويـة لـدى قـواد وجيـوش الأمين، فبعد أن قلد الوزير الفضل بن الربيع أسد بن يزيد بـن مزيـد وكـان متعصبا لعروبته، قيادة الجيش وحرضـه علـى الاستبسـال فـى قتـال قـوات المـأمون الفـرس، مـن أجـل الحفـاظ علـى قـوة الشـعب العربـى، فشـل فـى تسييره لأن القائد العربى كان لـه مطـالب ماليـة، فاعتقلـه الخليفـة الأميـن، وقلد عمه أحمد بن مزيد حرب طاهر بن الحسين، وسير معه عبد اللـه بـن حميد بن قحطبة، ولما علم طاهر بذلك تمكن عن طريق جواسيسه وعيونه من الإيقاع بين قواد الأميـن، فـاختلفوا وقـاتل بعضـهم بعضـا حتـى اضطـر قائدا الجيش إلى الرجوع من (خانقين) إلى بغداد دون ملاقاة طـاهر، الـذى تقدم إلى حلوان نفسها فنزلها "وجاءه هرثمة فى جيش من عنـد المـأمون ومعه كتاب بأن يسلم إلى هرثمة ما ملكه من المدن"[١].

ساءت أحوال الخليفـة الأميـن وشـغب عليـه الجنـد، وانقلـب عليـه الحسين بن على بن عيسى بن ماهان أحد قادة جيشـه، ووثـب عليـه وهـو فى قصر الخلد، فأخرجه وخلعه وبـايع للمـأمون، وحبس الأميـن مـع أمـه وولده بقصر المنصور، كما اضطربت أحوال البـلاد وكـثر خـروج الثـوار على طاعة الأمين، فى الكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، والشام. وتقـدم الجيش الخراسانى نحو بغداد واتفق القائدان طـاهر بـن الحسـين وهرثمـة بن أعين علـى أن يقـوم الأول بمهاجمـة بغـداد مـن الغـرب بينمـا يهاجمـها الثانى من نـاحية الشـرق. وتقـدم الجيشـان حتـى بلغـا أربـاض بغـداد حيـث حدثت معارك مختلفة بين الفريقين، ولم يكن جيش الأميـن (الـذى خلصـه

---

(١) ابن الأثير، الكـامل، ج٥، صـ١٤٨ ـ ١٤٩، ابـن خلـدون، العبر، ج٣، ص٢٩٥ ـ ٢٩٦، نبيلة حسن محمد، المرجع السابق، صـ١٠١.

قائده السابق أسد بن يزيد من قيوده وأعاده إلى (قصر الخلد)، قويا، كما لم يكن قواده في حالة معنوية عالية، بل أن أسد بن يزيد قائد الجيش هرب جبنا عن ملاقاة قوات طاهر بن الحسين ودام الحصار مدة ١٥ شهر، وقد أصيب عمران بغداد من جراء هذا الحصار الطويل بأضرار كبيرة بسبب قذائف المنجنيق والنفط، فتهدمت أسوارها ومبانيها واشتعلت النيران في كل مكان، ونفذت الأقوات، وانتشرت الأمراض، فضاقت الأمور على الأمين ونفذت الأموال التي كانت بحوزته، فاضطر إلى بيع كل ما كان موجودا في خزائنه من الأمتعة، وضرب أواني الذهب والفضة دنانير ودراهم للإنفاق منها على الجيش[١].

على أن الذين أبلوا في هذا الحصار هم أهل بغداد ولا سيما جماعة العيارين أو الفتيان، الذين دافعوا عن بغداد ببسالة نادرة، وفي هذه الأثناء كتب طاهر إلى المأمون يستأمره في أمر محمد الأمين المحاصر بداخل بغداد، "فبعث إليه بقميص غير مقور فعلم أنه يريد قتله، فخلص الجيش إلى قصر محمد وأحدقوا به، فوجه إلى هرثمة يسأله الأمان فأمنه، وضمن له الوفاء من المسلمين"[٢]. ولعل الأمين فكر في أن يستأمن هرثمة بن أعين دون طاهر بن الحسين، لكبر سن الأول، ولقسوة الثاني فغضب طاهر من هذا الإجراء لأنه أراد أن يكون له شرف أسر الأمين. وأخيرا اتفق القائدان على أن يتولى هرثمة مهمة القبض على الأمين بينما تعطى شارة الخلافة (القضيب والبردة) لطاهر بن الحسين، غير أن طاهرا أمر جنده بالقبض على الأمين وقتلوه ثم ذبحوه، ومضوا برأسه إلى طاهر،

---

(١) المسعودي، مروج الذهب ومعاون الجوهر، طبعة بيروت، ١٩٦٨، ج٣، صـ٤٠٦، ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٢٩٩، السيوطي، تاريخ الخلفاء، صـ٢٨١. سالم، نفسه، صـ٧٦ - ٧٧.

(٢) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، صـ١٥١.

فأمر برفعه علي برج من أبراج مدينة بغداد حتى رآه النــاس، ثـم بعـث بـه إلى المأمون فى خراسان فى المحرم من سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣ م، وخلـص الأمر للمأمون[١]. ويعلق الدكتور العبادى على نهاية الصــراع بيـن الأمين والمأمون مبرزا دور طاهر بن الحسين فى ترجيـح كفـة المـأمون بقولـه : "إن الأمين لم يكن موفقا فى رجاله، فلم يكن لديه من الساسة والقواد مـن يضارع الفضل بن سهل أو طاهر بن الحسين، وهذا كان لـه أثـر كبـير فـى نجاح سياسة المأمون"[٢].

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن الفتنة بين الأمين والمأمون انظر : الطـبرى، تـاريخ الأمـم والملوك، ح٨، صـ٣٧٤ ـ ٣٧٨، ابن الأثـير، الكـامل، ح٥، صــ١٤٩ ومـا بعدهـا، ابـن خلـدون، العبر، ح٣ صــ٢٩٧ ـ ٣٠٢، سـعد زغلـول عبـد الحميـد، التــاريخ العباسى والأندلسى، طبعـة دار النهضـة العربيـة، بيروت، ١٩٧٧، صــ١١٤ ومـا بعدها.

(٢) أحمد مختار العبادى، فى التاريخ العباسى والفاطمى، صـ٩٨ ـ ١٠٠.

قيام الدولة الطاهرية

ولاية طاهر بن الحسين على خراسان وتأسيس الدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٠٧هـ/ ٨٢٠-٨٢٢م)

حُسم الصراع بين الأمين والمأمون لصالح الأخير، ويفهم من روايات ابن الأثير أن انتصار المأمون ما هو إلا انتصاراً للمشرق الإيرانى على المغرب العربى، ذلك الانتصار الذى أعاد إلى الأذهان قيام أمر العباسيين على أكتاف الخراسانية وزحف هؤلاء نحو الغرب وتغلبهم على العالم العربى الشامى؛ ولقد ترجم الوزير الفضل بن سهل الإيرانى الأصل شكل هذا الصراع الشعوبى أو العصبى بين العرب والفرس، فكان يشبه أصحابه بنقباء الحركة العباسية الأولى، وكان يقول كما يذكر ابن الأثير : "للتميمى نقيمك مقام موسى بن كعب، وللربعى نقيمك مقام أبى داود، وخالد بن إبراهيم نقيمك مقام قحطبة"[(١)].

ولما قتل الأمين نادى طاهر بن الحسين بالأمان ودخل بغداد يوم الجمعة فصلى بالناس وخطب للمأمون وذمّ الأمين، ووكل بحفظ القصور الخلافية، وأخرج زبيدة أم الأمين وابنيه موسى وعبد اللّه إلى الزاب الأعلى. وحسب السياسة التقليدية للخلفاء العباسيين عمل الخليفة المأمون بإيعاز من وزيره الفضل بن سهل على التخلص ممن يستشعر خطره من كبار رجال الدولة الذين مهدوا له الطريق إلى الملك، فأمر طاهر ابن الحسين أن يتخلى عن كل المدن التى افتتحها أثناء الصراع مع الأمين وهى كور الجبل والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن، وقدّم عليها

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٥، صـ١٣٧، سعد زغلول عبد الحميد، التاريخ العباسى والأندلسى، صـ١١٤.

الحسن بن سهل، كما أمره بأن يسير إلى قتال (نصر بن شبث بن سيار) الذى تغلب على نواحى حلب، وأسند إليه حكم الولايات المضطربة والتى لم تكن قد دخلت فى طاعته بعد، وهى الموصل والجزيرة والشام والمغرب[١].

ويذكر اليعقوبى أن طاهراً بن الحسين لم يتلق قرار تعيينه على هذه البلاد، إلا بعد أن ترك بغداد وشرع فعلا فى محاربة نصر بن شبث. ولما وصل نائب الحسن بن سهل إلى العراق أبدى طاهر بن الحسين استياءه وتبرمه تجاه هذه المهمة، وقال : "ما أنصفنى أمير المؤمنين" وفى رواية أخرى قال "حاربت خليفة، وسقت الخلافة إلى خليفة، وأؤمر بمثل هذا، وإنما كان ينبغى أن يوجه لهذا قائداً من قوادى". ولقد كان الفضل بن سهل كما ذكرنا وراء إخراج طاهر بن الحسين عن بغداد، لأنه حسده على المكانة الرفيعة التى وصل إليها بعد مقتل الأمين واستيلائه على العراق، ولذلك سعى فى إبعاده عن مسرح الأحداث فى العراق، ولقد ظل طاهر بن الحسين يحارب نصر بن شبث حتى استدعاه المأمون إلى بغداد بعد رجوعه إليها فى عام ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، فأناب طاهر ابنه عبد الله بن طاهر فى حرب نصر بن شبث، ووافى الخليفة المأمون عند النهروان قادماً من الرقة، ودخل معه بغداد فى صفر من نفس العام (٢٠٤هـ/ أغسطس ٨١٩م)؛ وبعد وصول الخليفة إلى بغداد قلد طاهر بن الحسين الجزيرة والإشراف على السواد، كما أسند إليه أيضاً منصب الشرطة فى جانبى بغداد الشرقى والغربى[٢].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٦، صـ٣٥٧، ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٣٠١ ـ ٣٠٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، صـ٣٦١، ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٣١٤.

وفى عام ٢٠٥هـ/ ٨٢٠ م أسند الخليفة المأمون إلى طاهر بن الحسين ولاية المشرق من مدينة السلام (بغداد) إلى أقصى عمل المشرق من حلوان إلى خراسان[١]، وتشمل هذه الولاية خراسان وسجستان وكرمان وطبرستان، إذ كانت الأحوال تنذر بالاضطراب والفتنة هناك. ولقد تعددت الآراء حول الأسباب التى جعلت المأمون يقلد طاهر بن الحسين هذه الولاية؛ فالأستاذ (عباس إقبال) يذكر أن المأمون قد قلده إياها مكافأة له على خدماته فى الظاهر، وإبعاداً له عن بغداد وقصرا ليد سيطرته عن أمور الخلافة فى الباطن، لا سيما وأن طاهر قتل الأمين أخاه، فأبعده المأمون عن ناظره بهذه الإمارة، وقد قبل طاهر هذه المهمة لأنه كان يخشى الخليفة المأمون على نفسه[٢]، فى حين يذهب الدكتور فتحى أبو سيف إلى أن ولاية طاهر بن الحسين لخراسان كانت جزءاً من اتجاه السياسة العباسية نحو اللامركزية فى الحكم، تلك السياسة التى بدأت معالمها منذ عهد الخليفة هارون الرشيد، وذلك استجابة لمطالب الولايات من ناحية، ولتخفيف الأعباء عن كاهل الخلافة كسلطة مركزية من ناحية أخرى. ولذلك وافق المأمون على قيام الدولة الزيدية فى اليمن (٢٠٤هـ/ ٨١٩ م) لتقف فى مواجهة الحركات العلوية أو الخوارجية التى كانت تهدد مركزيه الخلافة فى اليمن والحجاز، وبالمثل فإنه أمام الظروف التى تعرضت لها الولايات الشرقية من تعدد حركات المعارضة المطالبة بالخروج عن التبعية للعباسيين، اضطر المأمون إلى قبول النظام اللا

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٣١٤.

(٢) عباس إقبال اشتيانى، تاريخ إيران بعد الإسلام، نقله عن الفارسية د. محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٩، صـ١٤.

مركزى فى خراسان نفسها، رغم اعتبارها أرض الدعوة ومعينها العسكرى الذى لا ينضب(١).

ويذكر كل من ابن الأثير وابن خلدون روايتين حول ولاية طاهر بن الحسين لخراسان، يفهم من إحداها أن هذه الولاية تمت بفضل تدبيره هو نفسه، وذلك أن صديقه الوزير أحمد بن أبى خالد قد أثار شكوك الخليفة المأمون حول مقدرة والى خراسان (غسان بن عباد) فى دفع أخطار الترك الطامعين فى خراسان، فقال له "أخاف أن تخرج عليه خارجة من الترك فتهلكه". فوافقه المأمون فى شكوكه هذه وسأله عمن يصلح لولايتها، فأشار عليه بطاهر بن الحسين، غير أن المأمون خشى من استقلال ابن الحسين بها وقال عنه : "هو خالع"، فهدأ الوزير من وساوس الخليفة تجاه طاهر بن الحسين، وضمنه له، فاستدعاه الخليفة وقلده أمر هذه الولاية، فخرج من يومه إليها وعسكر خارج بغداد، وولى المأمون مكانة بالجزيرة إبنه عبد اللّه بن طاهر وكان ينوب عن أبيه فى منصب صاحب الشرطة ببغداد. ثم سار طاهر إلى خراسان فى آخر ذى القعدة سنة ٢٠٥هـ(٢).

أما الرواية الثانية فى سبب ولاية طاهر خراسان، كما يذكر ابن خلدون "أن عبد الرحمن المطوع جمع جموعاً كثيرة بنيسابور لقتال الحرورية، ولم يستأذن غسّان بن عبّاد وهو الوالى على خراسان، فخشى

---

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٥٣، ج٢، صـ٦٧، فتحى أبو سيف، خراسان تاريخها السياسى والحضارى من سقوط الحكم الطاهرى إلى بداية الحكم الغزنوى، القاهرة ١٩٩٥، صـ٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، صـ٣٦١، ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٣١٤ - ٣١٥، نبيلة حسن محمد، محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية، صـ١١٦.

أن يكون ذلك من المأمون، فاضطرب وتعصب له الحسن بن سهل، وخشى المأمون على خراسان فولى طاهرا وسار إلى خراسان فأقام بها إلى سنة سبع"(١). يقصد سنة ٢٠٧هـ. ويتضح من هذه الرواية أن الخليفة المأمون قلد طاهرا بن الحسين ولاية خراسان خوفا من استبداد واليها غسان بن عباد واستقلاله بها. وحرصا من الخليفة المأمون على بقاء هذه الولاية ذات المكانة الاستراتيجية بالنسبة للخلافة العباسية تحت السيادة العباسية، ولطالما لعب طاهر بن الحسين هذا الدور فى الدفاع عن أملاك العباسيين والقضاء على القلاقل والفتن فى الولايات المضطربة، كما حدث عندما قلده ولاية الموصل والجزيرة من قبل.

مما تقدم يتضح أن الخليفة المأمون قدم حرصه على بقاء ولاية خراسان تحت السيادة العباسية، خوفا من استيلاء الأتراك عليها أو استقلال غسان بن عباد بها، على شكوكه التى كانت تساوره ناحية طاهر بن الحسين. ولعله وافق على ولاية طاهر بن الحسين لخراسان من منظور النظام اللا مركزى، وفوضه فى حكم هذه الولاية حكما ذاتيا تحت السيادة العباسية، للإشراف على الشئون السياسية والاقتصادية للولايات الشرقية، وتحقيق هدف الخلافة فى إبقاء هذه الولايات تحت سلطانها، وذلك بتنسيق العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدولة الطاهرية وبين الخلافة العباسية بوصفها ممثلة الزعامة السياسية والروحية للعالم الإسلامى كما يذكر ابن طيفور (٢) .

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٣١٥.

(٢) أبن طيفور، كتاب بغداد، نشر عزت العطار الحسينى، القاهرة ١٩٤٩، ص ٧٤، فتحى أبو يوسف، خراسان، ص ٦.

ولقد ذكرنا اعتماداً على رواية (ابن ظافر الأزدى) أن المأمون أسبغ على قائده طاهر بن الحسين لقب (ذو اليمينين) وذلك بعد انتصاره على جيوش على بن عيسى بن ماهان فى مبتدأ الصراع بينه وبين الخليفة الأمين. غير أن الأستاذ (عباس إقبال) يذكر أن الأقوال اختلفت فى سبب هذه النسبة، (فالبيهقى) يقول إنه لما استقدم طاهر بن الحسين بعد فتح بغداد الإمام على بن موسى الرّضا بأمر الخليفة المأمون (وكان ما يزال فى خراسان)، وبايعه بولاية العهد، بايع طاهر بن الحسين ولى العهد الجديد بيده اليسرى، محتجاً فى ذلك بأن يده اليمنى مشغولة ببيعة المأمون فى خراسان، فقد كان عادة بنى العباس أن يحضر الخليفة ومعه ولى عهده إلى المسجد فى وقت أخذ البيعة، ويبايعهما الناس فيبايع الرجل الخليفة بيده اليمنى وولى عهده بيسراه ولما نقل على الرضا هذه الواقعة للخليفة المأمون، قال المأمون : أسمى يُسرى طاهر اليمنى أيضاً حتى لا تنفض بيعته للإمام على بولاية العهد، ومن ثم اشتهر طاهر بلقب (ذى اليمينين)(١).

ومن أهم الأحداث أثناء ولاية طاهر بن الحسين لخراسان، ازدياد نفوذ الخوارج فى إقليم سجستان التابع لسلطان صاحب خراسان، فقد اشتدت شوكة حمزة الخارجى الذى كان قد ثار فى سجستان منذ عهد الخليفة هارون الرشيد، ولكن طاهر بن الحسين كلف ابنه طلحه والى سجستان بالقضاء على فتنة الخارجى هذا، فدخل معه فى صراع كان النصر فيه سجالاً بينه وبين الطاهريين حتى انتهى الأمر بانتصار طلحة بن طاهر فى عام ٢١٣هـ، ووفاة حمزة فى هذا التاريخ.

---

(١) البيهقى، تاريخ البيهقى، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، القاهرة ١٩٥٦، صـ١٤١ ـ ١٤٢، عباس اقبال، تاريخ إيران، صـ١٤.

ويبدو أن طاهراً أراد الاستقلال الفعلى عن السيادة العباسية، وعزم على عصيان الخليفة المأمون بعد ما شعر بقوته، ففى جمادى الأولى من سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م، ظهرت ميوله نحو الحكم المستقل فأهمل اسم الخليفة المأمون فى خطبة الجمعة ودعا بصلاح الأمة، فكتب صاحب البريد بذلك إلى المأمون بخلعه، فدعا الخليفة بالوزير أحمد بن أبى خالد وعنفه وحمّله مسئولية جنوح طاهر بن الحسين نحو الاستقلال وألزمه بإنهاء هذا التمرد فقال له : "أنت ضمنته ! فسر وأتتنى به، ثم جاء من الغد الخبر بموته، فقال المأمون للبريد ونعم الحمد للّه الذى قدّمه وأخرّنا"(١).

وقد أثارت وفاة طاهر بن الحسين الفجائية الشكوك حول أسباب تلك الوفاة. واختلف المؤرخون حول ذلك، فقال بعضهم أن وفاته كانت طبيعية، بينما جاء فى روايات أخرى أن وفاته كانت غير طبيعية، وألصقت التهمة بالخليفة المأمون الذى دبر قتله بالسم. ولكن المرجح أن وفاة الطاهر بن الحسين كانت طبيعية ولم يكن للخليفة ووزيره دوراً فيها، يدلل على ذلك أن العلاقة بين الطاهريين وبين العباسيين كانت وثيقة وقائمة على الود والاحترام فقد كان بنى طاهر والمأمون (تجاوزاً) من أصل عنصرى واحد وهو العنصر الفارسى، ولم تكن لدى المأمون أية شكوك فى حسن نوايا طاهر بن الحسين، فقد تلقى الأخير قبل وفاته من المأمون رسالة تفيض ودا وتقديرا، كما أن الخليفة المأمون كتب لعبد الله ابن طاهر يعزيه فى والده ويعث إليه رسالة تفيض بالأسى والحزن على فقده، حقيقة أنه حمد الله على وفاته كما يذكر ابن خلدون، ولكن على ما

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣١٥.

يبدو أنه حمد اللّه على تجنب المسلمين شر حدوث فتنة لا يعلم أوارها إلا هو.

كذلك لو كانت وفاة طاهر بن الحسين من تدبير الخليفة المأمون، لتغيرت العلاقة بينه وبين بنى طاهر عقب وفاة طاهر، وكان فى إمكانه نكبتهم بعزلهم عن حكم خراسان وتجريدهم من مناصبهم العليا التى كانت فى أيديهم، كما فعل أبوه الخليفة هارون الرشيد مع البرامكة الذين جنحوا للسيطرة على دولته، ولكن الذى حدث هو العكس تماماً، فقد ظلت علاقة الأسرة الطاهرية بالخلافة العباسية مستمرة وقوية وقائمة على التفاهم والتعاون، وظل بنو طاهر يحكمون خراسان حتى سقطت دولتهم فى سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢ م على يد يعقوب بن الليث الصفار كما سنرى، وظل منصب شرطة بغداد وراثياً لأفراد هذه الأسرة حتى عام ٣٠٠هـ/ ٩١٣ م تقريباً. ولقد ثبت الخليفة المأمون طلحة بن طاهر على ولاية خراسان، وقد قابل الطاهريون ثقة المأمون بالإخلاص من جانبهم، وحرصوا على تطوير التعاون معه والاعتراف بسلطانه.

ولاية طلحة بن طاهر (٢٠٧ ـ ٢١٣هـ/ ٨٢٢ – ٨٢٨ م):

كان طلحة بن طاهر يحكم سجستان فى أيام أبيه وكان يعيش فيها حتى وفاة أبيه، فلما وصله خبر موت أبيه قدم خراسان بعدما قلده الخليفة المأمون أمرها، فبعث بدوره (إلياس بن أسد السامانى) لحكم سجستان. ويبدو أن الخليفة المأمون أراد الاستقرار لولاية خراسان تحت حكم الوالى الجديد، خوفاً من مهاجمة أعداء الخلافة العباسية لها، منتهزين فرصة وفاة القائد المحنك طاهر بن الحسين، ولذلك أرسل أحمد بن أبى خالد ليقوم بأمره، وبالفعل وجه أحمد بن أبى خالد اهتمامه لغزو بلاد ما وراء

النهر حيث توجد القبائل التركية المتوثبة للخروج على طاعة العباسيين ومهاجمة أملاكها فى المشرق، وافتتح أشروسنة. وأسر (كاووس بن خالد حذّ وابنه الفضل)، وبعث به إلى الخليفة المأمون، كذلك نجح أحمد بن خالد فى القضاء على تمرد الحسين بن الحسين بن مصعب بكرمان، وقبض عليه وأتى به إلى المأمون فعفا عنه. ونظراً لدور هذا القائد فى حفظ ولاية بنى طاهر فى خراسان، فقد وهبه طلحة بن طاهر ثلاثة آلاف ألف درهم وعروضاً بألف ألف، كما وهب لإبراهيم بن العباسى كاتب أحمد ٥٠٠ ألف درهم[١].

كذلك وجه طلحة بن طاهر اهتمامه لمواصلة قتال الخوارج فى سجستان للقضاء عليهم، ونجح فى التغلب التام على حمزة الخارجى. غير أن طلحة توفى بعد هذا الانتصار بقليل (٢١٣هـ/ ٨٢٨ م)، وأناب الخليفة المأمون خلافته إلى أخيه عبد اللّه بن طاهر وكان فى (كرمانشاه) يستعد لحرب (بابك الخرمى)، فأنفذ عبد اللّه بموافقة المأمون أخا له يدعى على إبن طاهر من جانبه إلى خراسان ليحكمها نيابة عنه"[٢].

ولاية عبد الله بن طاهر(٢١٣-٢٣٠هـ/ ٨٢٨-٨٤٥ م):

كان عبد اللّه بن طاهر ينوب عن أبيه طاهر بن الحسين بالشرطة فى بغداد، حينما كان والده حاكماً على الجزيرة. وعندما قلد المأمون طاهراً بن الحسين ولاية خراسان (٢٠٥هـ)، ولىّ مكانه بالجزيرة ابنه عبد اللّه، وجعل له المأمون ما بين الرقة ومصر وأمره بحرب نصر بن شبث، أما شرطة بغداد فقد استخلف عبد اللّه بن طاهر عليها اسحق بن

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٣١٥.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٣١٨.

إبراهيم بن مصعب وهو ابن عمه. وسار عبد الله بن طاهر لقتال نصر بن شبث وبعث الجيوش لحصاره (بكيسوم)، ثم سار بنفسه سنة (٢٠٩هـ) وحاصره بها حتى أجهده الحصار فطلب من عبد الله الأمان فأمنه وبعث به إلى المأمون. وبعد الانتهاء من أمره سار من الشام إلى مصر وكانت تغلى بالفتن والاضطرابات وسلطة الخلافة العباسية تضعف تدريجيا، لتمرد السرى بن عبد الحكم بها، واستيلاء طائفة البحريين الأندلسيين على الإسكندرية، وأدرك عبد الله بن طاهر أنه للقضاء على هذه الفتن جميعا لابد من استخدام الجيش والأسطول معا، فأرسل جيشا من الخراسانيين إلى مصر، وأقبل عبد الله بن طاهر بنفسه إلى مصر فى عام ٢١٠هـ، وانهزم (السرى بن الحكم) أمامه حتى نزل على الأمان، ثم بعث إلى الطائفة الأندلسية فى الإسكندرية بالحرب وحاصرهم بها أسبوعين، فسألوا الأمان على أن يرتحلوا إلى بعض الجزائر فى البحر المتوسط من غير البلاد التابعة للعباسيين، فنزلوا إقريطش. وظل عبد الله بن طاهر فى مصر حتى قلده المأمون ولاية خراسان[١].

أعطى موت طلحة بن طاهر وغياب أخيه عبد الله عن خراسان لقتال بابك الخرمى، فرصة هامة للخوارج فى سجستان فاستغلوها للهجوم على خراسان، وكان على بن طاهر نائب عبد الله فى حكم خراسان قد ولى (محمد بن حميد) على نيسابور بينما ظل هو فى بغداد، فكثر عيث الخوارج بخراسان، فأمر المأمون عليا بن طاهر بالمسير إلى خراسان، فسار ونزل نيسابور وسأل أهلها عن سيرة محمد بن حميد فسكتوا فعزله لسكوتهم. وبعد أن فرغ عبد الله بن طاهر من أمر مصر والإسكندرية،

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٣١٥ ـ ٣١٧.

سيرّه الخليفة المأمون إلى خراسان وأعطاه خمسمائة ألف درهم[١]. فبدأ عبد اللّه فى دفع فتنة الخوارج.

وفى عهد الخليفة المعتصم خرج محمد بن القاسم بن على بن عمر بن علىّ زين العابدين بن الحسين الملقب بالصوفى على طاعة العباسيين، وكان محمداً هذا ملازماً للمسجد النبوى بالمدينة حتى لزمه أحد الخراسانيين وزين له أحقيته بالإمامة، وصار يأتيه بحجاج خراسان يُبايعونه، ثم خرج به إلى (الجوزجان)[٢]، وأخفاه وأقبل على الدعاء له، ثم أظهر الدعوة للرضا من آل محمد على عادة العلويين، وكان يذهب إلى القول بالتوحيد والعدل وانضم إليه كثير من أهلها وحارب جيوش عبد اللّه ابن طاهر فى مواقع كثيرة فهزموه هو وأصحابه، ففر بنفسه إلى ناحية (نسا) القريبة من نيسابور[٣]، فوشى به بعض أهلها إلى العامل فقبض عليه وبعثه إلى عبد اللّه بن طاهر، فأرسله بدوره إلى الخليفة المعتصم فى

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٣١٨.

(٢) الجوزجان هى الناحية الغربية من ربع بلخ أحد أرباع خراسان، وكانت من أعمر النواحى وأكثرها سكاناً، وبها مدناً كثيرة، وكانت هذه النواحى عظيمة الخصب كثيرة التجارات، وأكثر ما كان يصدر منها الجنود المدبوغة التى كانت تحمل إلى خراسان (ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦١، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢٩٨ ، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، صـ٤٦٥).

(٣) نسا هى الوادى العريض المعروف اليوم بوادى المن، وقد وصف ابن حوقل مدينة نسا بأنها فى الكبر نحو مدينة سرخس، وأن مياهها جارية من الجبال المجاورة، أما المقدسى فقد امتدح جامعها وسوقها العامرة وقال "أقل دار، إلا وبها بستان وماء جار". وبها قرى كبيرة تنتشر حولها فى الوادى. ويذكر القزوينى أن نسا كان يطلق عليها أيضا (شهر فيروز)، نسبة إلى الملك الفارسى فيروز الذى بناها على ما يقال، ويرجح مترجما كتاب بلدان الخلافة الشرقية أن نسا تطابق مدينة (محمد آباد) الحالية أكبر مدن دره كز (ابن حوقل، نفسه، ص ٣٦١، ٣٧٨، المقدسى، نفسه، ص ٤٦٥-٤٦٦، القزوينى، آثار البلاد، ص ٤٦٥-٤٦٦ ، لسترنج، المرجع السابق، صـ٤٣٥ - ٤٣٦ هامش ٢٠).

منتصف ربيع الأول من سنة ٢١٩هـ، فحبسه بالعراق ووكل به مسرور الكبير فحبسه فى سرداب شبيه بالبئر فكاد يموت فيه. وقد اختلف الناس فى نهايته، فمنهم من يقول إنه مات مسموما، ومنهم من يقول إن بعض شيعته أخرجوه من سجنه بقبة بستان موسى التى أمر المعتصم بسجنه فيها وذهبوا به إلى مكان سرى، وهناك من يقول إنه حى لم يمت وأنه المهدى المنتظر، وأكثرهم من شيعته بالكوفة وبلاد طبرستان وإقليم الديلم[١].

كذلك تعاون عبد الله بن طاهر مع الخلافة العباسية تعاونا صادقا فى قمع الثوار الخارجين عليها. وكان (مازيار بن قارن) صاحب طبرستان منافرا لعبد الله بن طاهر، فكان لا يرسل إليه الخراج، وإنما يرسله إلى الخليفة المعتصم، فكان الأخير يرسل من يقبض الخراج ويدفعه إلى وكيل عبد الله بن طاهر يرده إلى خراسان، مما يدلل على استقلال خراسان فى عهد عبد الله بن طاهر استقلالا بمعنى الكلمة كما يذكر (بارتولد)[٢]، فاشتدت هوة الخلاف بين صاحب خراسان عبد الله بن طاهر ومازيار بن قارن، وعظمت سعاية ابن طاهر فى مازيار عند المعتصم حتى إستوحش منه. ولما طمع (الأفشين) قائد المعتصم فى ولاية خراسان، استخدم مازيار لتحقيق هدفه هذا، فأخذ يحرضه على عداوة ابن طاهر والدولة العباسية، ليضطر المأمون إلى إرساله لمساندة ابن طاهر فى حربه فيكون ذلك وسيلة له إلى الاستيلاء على خراسان ظنا بأن ابن طاهر لا ينهض لمحاربته. فانتفض مازيار وأجبر الناس على بيعته كرها وأخذ

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى، مقاتل الطالبيين، بيروت ١٩٦١، صـ٤١٨، المسعودى، مروج الذهب، ح٣، صـ٤٦٥، ابن خلدون، العبر، ح٣، صـ٣٢١، سالم، العصر العباسى الأول، صـ١٢٥- ١٢٦.

(٢) بارتولد، تركستان، صـ٣٣١.

رهائنهم، وعجل جباية الخراج فاستكثر منه، وخرب أسوار مدينتى (آمل وسارية)[١]، فأنفذ عبد الله بن طاهر عمه الحسن بن الحسين فى جيش كثيف لقتاله، كما أرسل المعتصم الجيوش من بغداد لقتاله فأحاطوا به من كل ناحية، وفى النهاية نجحت قوات ابن طاهر فى القبض على مازيار وحرق قصره ونهب أمواله، فلما مثل بين يديه طلب منه كتب الأفشين إليه فأحضرها، وأمر بإرسالها معه إلى الخليفة المعتصم، فلما وصل إلى المعتصم بسامرا شهر بالثائر الطبرستانى الذى أدخل العاصمة على بغل بعد أن امتنع عن ركوب الفيل مثل بابك، وأمام المعتصم ضرب بالسياط (٤٥٠ سوطا) حتى مات، ثم صلب إلى جانب شبيهه الثائر الأذربيجانى (بابك)، وكان ذلك فى عام ٢٢٤هـ/ ٨٣٩ م[٢].

ولقد لعب عبد الله بن طاهر دورا هاما فى تغير المعتصم على قائده التركى الأفشين، مما تسبب فى نكبته ومقتله فى نهاية الأمر، وكان عبد الله بن طاهر عينا للخليفة على تحركات الأفشين، ولقد بلغ العداء مبلغه بين الرجلين لدرجة أن عبد الله بن طاهر عثر على بعض أموال الأفشين التى كان يرسلها إلى أشروسنه مسقط رأسه، وصرفها فى العطاء ومرتبات الجند ليوجههم إلى قتال الترك عصبية الأفشين،فاستشاط

---

(١) آمل قاعدة طبرستان كما سنذكر، ولكن الطاهريون أقاموا فى مدينة سارية واتخذوها قاعدة لطبرستان، وهى فى شرق آمل، ويقال لها اليوم (سارى)، وكانت عامرة بالأسواق، ومشهورة بالثياب الفاخرة، وهى حصينة حولها خندق، وبها الحرير لكثرة ما يربى فيها من دود القز (ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣١٨، ٣٢١، ٣٧٦، المقدسى، أحسن التقاسيم، صـ٣٥٤، ٣٥٩، لسترنج، نفسه، صـ٤١٠ - ٤١١).

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، صـ٤٩٦ - ٤٩٨، ابن خلدون، العبر، ج٣، صـ٣٣١ - ٣٣٤، ٣٣٦، نبيلة حسن محمد، محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية، صـ١٣١ - ١٣٢.

الأفشين غضبا من تصرفه هذا ولكنه كظ غيظه منه، واستحكمت الوحشة بينهما، حتى ما كان من نكبته ومقتله فى شعبان من سنة ٢٢٦هـ/ ٨٤٠ م[١].

وكان عبد الله بن طاهر شاعرا وأديبا وفاضلا وعادلا، آثر نيسابور عاصمة له، وقام فيها بتعمير كبير، واهتم اهتماما خاصا بالزراعة وحفر القنوات وإصلاح الرى وتقسيم المياه. ورغم توطد العلاقة بين عبد الله بن طاهر والخليفة المعتصم، إلا أنه على ما يبدو قد حدث ما عكر صفو هذه العلاقة وجعلها متوترة بين الطرفين، فإن (بارتولد) استنادا على رواية (للكرديزى) يذكر أن الخليفة المعتصم كان يبغض صاحب خراسان، ولكنه لم يستطع أن يعزله عن منصبه ولم يتخذ ضده إجراءات سافرة، غير أنه حرض على اغتياله سرا، بأن أهدى إليه جارية وأعطاها فوطة مسمومة، ولكن الجارية وقعت فى غرام سيدها الجديد عند وصولها إلى نيسابور وكشفت له سر المؤامرة[٢].

ولقد تمكنت الدولة الطاهرية فى فترة قوتها (٢٠٥- ٢٣٠هـ/ ٨٢٠ _ ٨٤٤ م) أن تقوم بواجباتها فى المشرف الإسلامى، فاستطاع حكامها وأبرزهم طاهر بن الحسين وأولاده طلحة وعبد الله بمساعدة الخلافة العباسية على تحقيق الاستقرار السياسى، بالقضاء على الحركات العصيانية التى دعت للخروج على طاعة العباسيين وخاصة فى إقليمى أذربيجان وطبرستان كما رأينا كما، استطاعت حراسة الثغور الإسلامية المشرقية سواء على الحدود الهندية أو فى صد الغارات التى كانت تقوم

---

(١) ابن ظافر الأزدى، أخبار الدول المنقطعة، صـ١٧٢ - ١٧٣، ابن خلدون، العبر، ح٣، صـ٣٣٤ - ٣٣٧.

(٢) بارتولد، تركستان، صـ٣٣١ - ٣٣٢.

بها القبائل الصينية أو قبائل الترك ببلاد ما وراء النهر[١]، وقامت الدولة الطاهرية بهذه المسئوليات الإدارية والحربية اعتمادا على الموارد الطبيعية والبشرية لإقليم خراسان من ناحية، وعلى مساعدات الخلافة العباسية وتأييدها لها من ناحية أخرى.

ضعف الدولة الطاهرية فى عهد حكامها الأواخر

(٢٣٠ ـ ٢٥٩هـ/ ٨٤٥ـ٨٧٤م) :

وسرعان ما انتاب الدولة الطاهرية الضعف لثقل مسئولياتها الإدارية والحربية فى المشرق خاصة بعد وفاة آخر حكامها الأقوياء عبد الله بن طاهر وولاية كل من طاهر بن عبد الله (٢٣٠ ـ ٢٤٨هـ)، ومحمد بن طاهر (٢٤٨ ـ ٢٥٩هـ). فالأول كان يحكم طبرستان فى حياة أبيه عبد الله بن طاهر، ولما مات قلده الخليفة الواثق ولاية خراسان خلفا لأبيه، فحكمها ثمانية عشر عاما بعدالة وتقوى، أما محمد بن طاهر آخر الأمراء الطاهريين، فكان رجلا غافلا ضعيف النفس ماجنا، ولذلك فقد كان عماله يعاملون الرعية فى ولاياتهم معاملة قياسية واستبدوا بهم كما سنذكر عند حديثنا عن الدولتين الزيدية فى طبرستان والزيارية فى إقليم الديلم، وكذلك عند الحديث عن الدولة الصفارية فى سجستان. تلك الدولة التى أزالت الدولة الطاهرية من الوجود بعد حكم دام ثلاث وخمسين سنة.

وفى الواقع أن سقوط الدولة الطاهرية لم يكن مفاجئا، بل كان متوقعا لعدة أسباب أبرزها : اعتماد الطاهريين على مساعدات الخلافة

---

(١) النرشخى، تاريخ بخارى، عربه عن الفارسية وحققه أمين عبد المجيد ونصر الله الطرازى. دار المعارف، مصر ١٩٦٥، صـ١٠٦، فتحى أبو سيف، خراسان، صـ٦.

العباسية السياسية والعسكرية كإحدى الأسس الهامة للإبقاء على فعالية دورهم والحفاظ على قوتهم فى المشرق، وقد اتضح هذا فعلا فى التنسيق السياسي والعسكرى بين العباسيين ونوابهم الطاهريين مع بداية حكمهم لخراسان، فتحقق لهم بفضل هذه المساعدات التأييد السياسى والمعنوى فى آن واحد. فلما تغيرت ظروف الخلافة العباسية وأصابها الضعف وأصبح حكامها ألعوبة فى يد الأتراك، وطحنتها الفتن واعتورتها الثورات من كل جانب، لم تستطع الوفاء بالتزاماتها تجاه الطاهريين، وقد أدى ذلك إلى اعتماد الدولة الطاهرية على إمكانياتها الذاتية - وهى غير كافية وحدها - فى إدارة الشئون السياسية والعسكرية لولايات المشرق، مما أدى إلى ضعفها ثم سقوطها فى النهاية.

كذلك كان فساد النظام الإدارى فى الولايات التابعة للطاهريين سببا فى ضعف هذه الدولة، فقد أصيب الاستقرار الإدارى بخلل كبير عندما ترك عمال الطاهريين من أبناء البيت الطاهرى ولاياتهم، وفضلوا البقاء فى نيسابور العاصمة تاركين إدارة الولايات لأتباعهم وأعوانهم الذين وصفوا بعدم الخبرة الإدارية وعدم الإخلاص، كما اتسم بعضهم بالتعسف مع الأهالى فى جباية الضرائب، بل إمعانهم فى فرض ضرائب باهظة على الرعية، فأدى ذلك إلى تذمرهم وسخطهم على حكم الطاهريين، وسعيهم لإسقاطه عن طريق الزعامات المحلية والرموز الدينية[١].

---

(١) ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان، تصحيح عباس إقبال، طهران ١٣٢٠ ش، صـ٢٢٣ - ٢٢٤، مجهول، تاريخ سيستان، تصحيح ملك الشعراء بهار، جاب دوم إيران ١٣٥٢، صـ١٨٠، فتحى أبو سيف، خراسان، صـ٧ - ٨.

ومن عوامل ضعف الدولة الطاهرية أيضا انقسام البيت الطاهرى على نفسه، فقد دبرت المؤامرات والدسائس للأمير الطاهرى فى نيسابور من قبل أهل بيته أو عماله على الولايات التابعة له، مما ساعد على ضعف الدولة وانهيارها(١). وأخيرا فقد طمح القادة المحليون فى الولايات التابعة للدولة الطاهرية، فى أن يصيبهم ما أصاب الطاهريين من حكم ذاتى شبه مستقل تحت السيادة العباسية، فسعوا إلى عصيان الطاهريين لإجبارهم على ترك هذه الولايات ليحكمها أبناؤها بأنفسهم، مما أدى إلى ضعف الدولة الطاهرية وزوالها على أيدى الصفاريين الذين لم يكتفوا بطرد الطاهريين من سجستان فحسب، بل أسقطوا دولتهم فى خراسان نفسها واستولوا عليها على ما نذكر فيما بعد.

وأدت هذه العوامل التى أحاطت بالدولة الطاهرية إلى خلق تيار المعارضة فى الولايات الشرقية، وأصبح لكل ولاية طابعها الخاص فى التعبير عن مطالبها السياسية أو المذهبية، أو غيرها من مطالب إقتصادية واجتماعية، وتحمل الطاهريون فى خراسان مسئولية التصدى لحركات المعارضة فى هذه الولايات، حتى ذهبت ضحية ضعفها(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن خراسان قد تمتعت فى عهد الدولة الطاهرية بالأمن والرخاء والازدهار، [illegible] تعهد الطاهريون أهل العلم والمعرفة بعنايتهم، وأصبحت نيسابور فى عهدهم مركزا من مراكز الثقافة الإسلامية. وقد كان من بين الطاهريين أنفسهم جملة من أهل الفضل والأدب والشعر والحكمة، وأشهرهم الأمير أبو أحمد عبيد الله بن عبد الله

---

(١) البيهقى، المصدر السابق، صـ٢٧٠، بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكى، بيروت ١٩٦١، ج٢، صـ٥٩.

(٢) فتحى أبو سيف، خراسان، صـ٨.

بن عبد الله بن طاهر الذى كان يسمى بسبب أدبه وفضله (حكيم آل طاهر). وإن كانت الدولة الطاهرية قد سقطت على أيدى الصغاريين فى عام ٢٥٩هـ، فإن أفرادها ظلوا يشغلون منصب صاحب الشرطة فى بغداد حتى عام ٣٠٠هـ، وكان الأمير أبو أحمد عبيد الله الطاهرى (حكيم آل طاهر) آخر من تولى هذا المنصب من البيت الطاهرى[١].

---

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، صـ١٧ ـ ١٨.

أسماء الأمراء الطاهريين وزمن إمارة كل منهم

١- طاهر بن الحسين بن مصعب (٢٠٥ - ٢٠٧هـ)

٢- طلحة بن طاهر (٢٠٧ - ٢١٣هـ)

٣- عبد الله بن طاهر (٢١٣ - ٢٣٠هـ)

٤- طاهر بن عبد الله (٢٣٠ - ٢٤٨هـ)

٥- محمد بن طاهر (٢٤٨ - ٢٥٩هـ)

الفصل الثانى

الدولة الزيدية فى طبرستان

(٢٥٠-٣١٦هـ/٨٦٤-٩٢٨م)

- تقديم (عرض جغرافى لإقليم طبرستان).
- نشأة الفرقة الزيدية.
- فرق الزيدية.
- شروط الإمامة عند الزيدية.
- ظهور الزيدية فى إقليم الديلم.
- ثورة يحيى بن عبدالله على الخلافةالعباسية فى بلاد الديلم.
- قيام الدولة الزيدية فى طبرستان.
- الحسن بن زيد الداعى الكبير مؤسس الدولة الزيدية.
  (٢٥٠-٢٧٠هـ).
- توسع الدولة الزيدية وموقف العباسيين من ذلك.
- ولاية محمد بن زيد الداعى (٢٧٠-٢٨٧هـ).
- ولاية الحسن بن على الناصر الكبير " الأطروش".
  (٣٠١-٣٠٤هـ)
- ولاية الحسن بن قاسم الداعى الصغير (٣٠٤-٣١٦هـ).

الفصل الثانى

الدولة الزيدية فى طبرستان [1]

(٢٥٠ – ٣١٦ هـ / ٨٦٤ – ٩٢٨م)

تقديم (عرض جغرافى لاقليم طبرستان):

طبرستان احدى مناطق إيران الجغرافية وتقع جنوب بحر قزوين، واعتبرها ''المقدسى'' إحدى كور إقليم الديلم الخمس[٢]. وقد وصفها الجغرافيون بأنها كورة سهلية بحرية ولها أيضا جبال، وهى ذات مدن وقرى كثيرة، ومن أشهر بلدانها دهستان، وجرجان، واستراباذ، وآمُل وهى قاعدة الإقليم، وسارية، وشالوس. ومن قلاعها، كوزا وهى من عجائب الدنيا حيث تناطح النجوم إرتفاعا وتحكيها إمتناعا حتى لا تعلوها الطير فى تحليقها، ولا السحب فى ارتفاعها كما يذكر القزوينى، وحصن الطاق وكان فى قديم الزمان خزانة ملوك الفرس، ولما ملك العرب طبرستان، حاولوا الصعود عليه فتعذر عليهم ذلك إلى أن ولىَ المازيار طبرستان، فقصد هذا الموضع وتملكه، واستولى على ما فيه من الأموال والسلاح والكنوز. وطبرستان مجاورة لجيلان وديلمان، وهى بين الرى وقومس وبحر الخرز وبلاد الديلم. والعجم يسمونها مازندران وأرضها كثيرة الأشجار والمياه، إلا أن هوائها وخم جدا، وسخة مبرغثة، وعامة خبزهم الأرز، وهى كثيرة الأسماك والثوم وطير الماء، وبها مزارع الكتان

---

(١) يسميها ابن خلدون (العبر، ح٣، ص ٣٥٧)، الدولة العلوية بطبرستان، بينما يطلق الإمام السيوطى (تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٨) عليها اسم الدولة الطبرستانية.

(٢) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٥٢.

والقنب[١]. ومدينة آمُلَ قصبة طبرستان، وهى بلدة لها ذكر وشأن، بها ثياب عجيبة حسان، ومرافق وخصائص وبيمارستان (مستشفى) وبها جامعان، أحاط بكل جامع راوق، ونهر يدير أرحية لطحن الغلال. وأهلها ذو وجوه حسان، رشاق القوام، وهم تجار عظام وحاكة حذاق. وبها علوم كثيرة، ولا تخلو من إمام فقية. ويوجد بمدينة سالوس قلعة من حجارة الجامع، ومدينة سارية عامرة السكان، مليئة بالأسواق والتجارات، حصينة بخندق وجسور، والعلوم بها مزدهرة، وأخلاق أهلها طاهرة[٢]. وجُرجان مدينة عظيمة مشهورة بقرب طبرستان، بناها يزيد بن المهلب بن أبى صفرة، وقاعدتها مدينة شهرستان، وهى كثيرة الفواكة والزيتون والرمان، وقصب السكر وأسواقها ضخمة ومساجدها كثيرة. وهى أقل مطرا من طبرستان، يجرى بينهما نهر تجرى فيه السفن، وجرجان تقع بين السهل والجبل والبر والبحر، وبها علوم كثيرة. ويصدر منها الخشب الخلنج الذى يصنع منه النشاب والظروف والأطباق ويحمل إلى سائر البلاد[٣].

وإستِراباذ أطيب هواء وأصح ماء من جرجان، وعامة استراباذ من أمهر حاكة القز، وبها جامع فى سوقها، وكان يحميها حصنا قويا. أما مدينة دهستان فتقع على يمين الطريق إلى الرباط الموجود بجرحان، وبها منارة تشاهد من بعيد فى وسط القرى. وبدهستان قرى كثيرة بلغ عددها كما يذكر المقدسى أربع وعشرون قرية، وهى من أجَل أعمال جرجان.

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٥٤، ياقوت الحموى، معجم البلدان، م ٣، ص٥٠٢، القزوينى، آثار البلاد، ص ٢١٧، ٢٥٠، ٢٨٦، ٣٤٨، ٣٥٦، لسترنج، نفسه، ص ٤٠٩-٤١٠.

(٢) المقدسى، نفس المصدر، ص ٣٥٩.

(٣) المقدسى، نفسه، ص ٣٥٨، القزوينى، آثار البلاد، ص ٣٤٨ – ٣٤٩، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٤١٧-٤١٩.

ورياطها عامر بالمساجد مُحصن بثلاثة أبواب، وبالرباط أسواق مزدهرة، ومنازل عظيمة، وسائر المساجد بدهستان لأصحاب أبى حنيفة النعمان[١].

وعن سبب تسمية هذه البلاد باسم طبرستان يذكر القزوينى أن أحد أكاسرة فارس (إيران) اجتمع فى حبسه عدد كبير من الجناة، فأشار عليه وزيره بأن ينفيهم عن عاصمة ملكه إلى بعض البلاد ليعمّروها، وذكر له السبب وراء ذلك، بأنهم إن عمروا هذه البلاد فسوف ينسب ذلك إليه (كسرى)، وإن ماتوا إرتاح منهم. فاختار كسرى أرض طبرستان، وهى يومئذ جبال وأشجار فأراد هؤلاء المساجين أن يقطعوا الأشجار، فطلبوا فؤوسا، والفأس بالعجمية يقال لها تبر، فكثرت بها الفؤوس، فقالوا طبرستان، وطبر تعريب تبر.

وقد بدأ اتصال المسلمين ببلاد طبرستان منذ خلافة عثمان بن عفان وذلك فى سنة ٢٩ هـ، ودخل أهلها فى الإسلام منذ عام ١٧٠ هـ تقريبا على مذهب الزيدية على يد يحيى بن عبد الله الحسنى، عند فراره بعد موقعة فخ، ثم صارت ملجأ للفارين من الشيعة من بعده، ولكنها فتحها لم يتم إلا فى عهد الخليفة المأمون العباسى فى عام ٢٠١ هـ ، وكان أول ولاتها من قبل الخليفة المأمون هو المازيار بن قارون، ثم آلت إلى بنى طاهر حكام خراسان. ويجدر بنا قبل أن نتحدث عن قيام الدولة الزيدية فى بلاد طبرستان أن نلقى الضوء على فرقة الزيدية التى قامت الدولة على مبادئها وعقائدها.

---

(١) المقدسى، نفسه، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

نشأة الفرقة الزيدية:

كان السلف الصالح من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل استقرار المذاهب الدينية، مجتهدين مستقلين، ويرجع بعضهم إلى بعض، وإلى غيرهم من الصحابة والتابعين فى زمانهم، وظلوا كذلك فترة طويلة وهم فى الأصول الدينية على قول واحد، كما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم.

وأما فى الفروع الفقهية فاختلفوا بحسب اجتهاد أئمتهم المجتهدين كزيد بن على وجعفر الصادق ومحمد الباقر. ومع قيام الإمام زيد بن على بثورته ضد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، طلبا للخلافة فى سنة ١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م[١]، ظهرت الفرقة الزيدية من الشيعة، وهى الفرقة السياسية الوحيدة بينهم، وعرفوا "زيدية" نسبة إلى الإمام أبو الحسن زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب (٨٠ ــ ١٢٢هـ / ٦٩٨ ــ ٧٤١م)، لقولهم بإمامته وخروجهم معه بعد امتناع الرافضة[٢]، وإن لم يكونوا على مذهبه فى مسائل الفروع، أى أنهم أتباعه من الناحية السياسية لا من الناحية المذهبية، وهم مخالفون فى ذلك للحنفية والشافعية لأنهم نسبوا إلى أبى حنيفة و الشافعى لمتابعتهم إياهم فى الفروع.

---

(١) عن ثورة زيد بن على ضد الأمويين راجع: الطبرى، تاريخ الأمم، ج٧، ص ١٦٠ ــ ١٨٦، أبو الفرج الأصفهانى، مقاتل الطالبيين، ص ١٣٣- ١٤١.

(٢) عن ترجمة زيد بن على أنظر: ابن سعد، الطبقات ج٥، ص ٣٢٥ ــ ٣٢٦، إبن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٥٦ المسعودى، مروج الذهب، ج٤ ص ٤١ ــ ٤٥ وغيرهم.وعن تسمية الزيدية راجع: ابن النديم، الفهرست ص ٢٥٣، الشهرستانى، الملل والنحل،طبعة القاهرة، ص ١١٥، البغدادى، الفرق بين الفرق، طبعة محمد عثمان، الخشت، ص ٣٦، ٤٤ ــ ٤٥، المسعودى، مروج الذهب، ج٤، ص ٤٥، أيمن فؤاد سيد، تاريخ المذاهب الدينية فى اليمن، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٨٨، ص ٢١٧ ــ ٢١٨.

ويرى الزيدية أن تكون الإمامة فى أولاد فاطمة بعد أن تتوفر لهم شروط الإمامة، وقد سار بعض علماء الحديث على هذا المذهب. وكذلك قوم من الفقهاء المحدثين مثل سفيان بن عُيينة وسفيان الثورى[١]. لذلك اعتبر المذهب الزيدى مذهبا خامسا إلى جانب المذاهب الفقهية الأربعة، والزيدية لا يتبرأون من إمامة الشيخين أبى بكر، وعمر بن الخطاب، مع قولهم بأن عليا بن أبى طالب أفضل منهما. أى أنهم يجيزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل، على عكس الفرق الشيعية الأخرى كالإسماعيلية، والإثنى عشرية، فهم رافضة يرفضون إمامة الشيخين كما سنرى. وعلى هذا الأساس تعتبر الزيدية أقرب الفرق الشيعية إلى السنة. والفرقة الزيدية من الفرق الشيعية التى تمتاز بطابع خاص هو طابع الجهاد الذى أوجبته على نفسها وألزمت به أفرادها[٢]. وقد شاركت الزيدية فى فتن وثورات كثيرة إلى جانب العلويين، كما بايعوا مع المعتزلة فى الإمام محمد بن عبدالله النفس الذكية وقاموا معه فى ثورته ضد العباسيين فى عام ١٤٥ هـ / ٧٦٤م، ولكنهم لم يؤلفوا جماعة متحدة إلا بعد أن تولى زعامتهم رجال من العلويين ممن كانوا يّدعون الإمامة[٣].

وتكاد معظم الثورات التى قامت، عدا الفاطميين وحركة الحسن الصباح الذى أسس جماعة الحشاشية، ترجع إلى فرقة الزيدية، فالزيدية هم الذين تحملوا عبء الاضطهاد فى مركز الخلافة، فهاجروا إلى أطرافها، وكانت إحدى هجراتهم إلى بلاد الديلم، وكان من نتيجة هذه الهجرة غرس بذور الإسلام فى تلك البلاد، وظلت هذه البذرة تنمو حتى استكملت نموها، وحتى دخل الديلم جميعا فى الإسلام واعتنقوه على مبدأ

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٣، الشهرستانى، الملل والنحل ص١١٥ .
(٢) الشهرستانى، الملل والنحل، ص ١٥٦.
(٣) أيمن فؤاد سيد، تاريخ المذاهب الدينية، ص ٢١٨.

الزيدية، وصاروا شيعة يدافعون عن المبادئ الشيعية بعامة وعن الزيدية بخاصة[١].

فرق الزيدية:

يجمع مذهب الزيدية تفضيلهم الإمام عليًا على سائر الصحابة وأولويته بالإمامة، وأن الإمامة بعد الإمام الحسين فى ذرية السبطين، وأن استحقاقها إنما يثبت بالفضل والطلب لا بالوراثة، وأن الخروج على الجائرين من أهل الأمر واجب، كذلك يرون القول بالتوحيد والعدل مثل المعتزلة. فهم لا يختلفون فى هذه الأمور. أما خلافهم ففى فروع المسائل.

واختلفت الزيدية بعد ذلك، فافترقوا إلى فرق اختلف المؤرخون وأصحاب كتب الملل والنحل فى عددها. فمنهم من جعلهم أربع فرق [٢]، ومنهم من جعلهم ثمانى[٣]، ومنهم من جعلهم ست فرق. ويذكر النوبختى أن فرق الزيدية مختلفة فيما بينها فى القرآن، والسنن والفرائض والشرائع والأحكام[٤].

ولقد إفترقت الزيدية الأولى فرقاً ثلاثاً: الجَارُودِيَّة والبُتْرِيَّة (الصالحية) والجريرية (السليمانية)، وافترق متأخرو زيدية اليمن إلى حُسَيْنية ومُخْتَرِعَة ومُطَرَّفية[٥]. بينما صار زيدية بلاد الجبل والديلم فى القرن الرابع الهجرى فرقتان الأولى قاسمية، نسبة إلى الإمام القاسم بن

---

(١) حسن أحمد محمود وأحمد ابراهيم الشريف، العالم الإسلامى، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

(٢) الشهر ستانى، الملل والنحل ١١٨، البغدادى، الفرق بين الفرق ص ٣٦، وجعلهم ابن شاكر الكتبى (فوات الوفيات ٢ ص ٣٨) ثلاث فرق.

(٣) المسعودى، مروج الذهب، ج٤، ص٤٥.

(٤) النوبختى، فرق الشيعة،طبعة محمد صادق الأبجر، النجف ١٩٣٦، ص ٥٨.

(٥) ووَهم ابن المجاور(صفة بلاد اليمن ١٨٨) حين ظَنَّ أن المخترعة والمطرفية هم الصالحية والجارودية، وأنظر أيضا: أيمن فؤاد سيد، نفسه، ص ٢١٩.

إبراهيم الرسّي المتوفى سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠م)، وهو ينحو فيما يتعلق بالقول فى ذات الله منحى الاعتزال. وهو المذهب الزيدى الذى وسّعة وفصّله من جاؤا بعده، والذى استمر إلى يومنا هذا[١]. والفرقة الثانية هى الناصرية نسبة إلى الإمام الناصر الأطروش (الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب) المتوفى سنة ٣٤٠هـ/٩١٦م. وكان بعض هذه الفرق بعد القرن الثانى وبعضها الآخر قبل ذلك. فالذى كان من قبل هم البترية والجريرية، وهو الذى كان عليه مذهب زيد بن على ويقرب منه، فأما سائر الفرق فإنما حدثت بعد ذلك وخالفت زيد بن على فى أصوله وفروعه، ولم يوافقوه إلا فى النذر اليسير. وصار زيدية الجبل والديلم فى القرن الرابع الهجرى قاسميه وناصرية نسبة إلى الإمامين القاسم الرسى، والناصر الأطروش.

وغلب على زيدية اليمن بعد ظهور الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠م مذهبه الذى اصطنعه لنفسه فى الأصول والفروع ثم فرع الزيدية بعد ذلك على مذهبه ونصوصه التى فى كتابيه "الأحكام فى الحلال والحرام" و "المنتخب فى الفقه" واستقر عليه مذهب الزيدية المتأخرين، ولم يبق لمذهب زيد الأول فى الأصول والفروع متابع أصلاً.

أ - الجارودية:

نسبة إلى أبى الجَارُود زياد بن المنذر العَبْدِى [٢]. زعم أن النبى ﷺ نصَّ على إمامة على بالإشارة والوصف دون التسمية والتعيين، وأنه

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٧٤.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٣، البغدادى، نفس المصدر، ص ٤١.

أشار إليه ووَصَفه بالصفات التى لم توجد إلاَّ فيه. وأن الأمة ضلَت وكَفَرت بصرفها الأمر إلى غيره، فهو الإمام بعد رسول الله ﷺ ، والإمام بعده الحسن ثم الحسين بنص رسول الله ﷺ ، ثم الإمام بعد هؤلاء الثلاثة ليس بمنصوص عليه، ولكن فيمن يخرج من هذين البطنين شاهرًا سيفه داعيا إلى سبيل ربّه، وكان عالمًا فاضلاً.

وافترقت الجارودية فرقتين: فرقة زعمت أن النبى ﷺ ، نصّ على الحسن والحسين بعد على ليقوم واحد بعد الآخر. وفرقة زعمت أن النبى ﷺ ، نصَّ على علىّ، وأن عليًّا نص على الحسن وأن الحسن نصّ على الحسين(١).

ب- البُتـرية (الصَّالِحية)

أصحاب الحسن بن صالح بن حىّ، وأصحاب كُثير النوَّاء. سمُّوا بذلك لأن كُثيرًا كان يُلقّب بالأبتر. وذكر أبو الحسين الخياط أنهم سمُّوا بذلك لأنهم لم يجهروا ببسم الله بين السور وجهروا بها فى الفاتحة، فقيل بتروا الجهر، فسموا البُتْرية. وفى قول آخر أنهم تسمُّوا بذلك لأنهم تبرأوا من عثمان فى الست سنين الأولى من خلافته وبتروا.

يقول البُتْرية إن عليًّا كان أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وأولاهم بالإمامة، وإن بيعة أبى بكر وعمر ليست بخطأ لأن عليًا سلّم لهما ذلك، وهذا بمنزلة رجل كان له حق على رجل فتركه له. ويتوقفون فى أمر عثمان، ويرون تكفير من حارب عليًا(٢).

---

(١) المسعودى، مروج الذهب ح ٤، ص ٤٥ ، الشهرستانى: الملل والنحل ص ١١٨ ، البغدادى، الفرق بين الفرق ص ٤١ ـ ٤٢، .

(٢) ابن النديم، الفهرست، ٢٥٣، النوبختى: فرق الشيعة ص ١٨ ، الشهرستانى، الملل والنحل ص ١٢٠ ، البغدادى، الفرق بين الفرق، ص ٤٤.

ويعرفون أيضا بالصالحية نسبة إلى الحسن بن صالح بن حي[١]، ويتفقون مع الجريرية السليمانية في القول في الإمامة. واعتبرهم الحاكم الجشمي فرقة واحدة.

ويُكَفِّرُ البترية الجارودية لقولهم بتكفير أبي بكر وعمر. [٢]

جـ- **الجريرية (السليمانية):**

أصحاب سليمان بن جرير الرقي، أحد شيوخ الزيدية ومتكلميها وممن عاصر الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن الداعي في بلاد المغرب. ويرى الجريرية أن الله تعالى ورسوله لم ينصا على رجل بعينه واسمه فيجعلوه إمامًا للناس، وأن الإمامة شورى بين خيار الأمة وفضلائها يعقدونها لأصلحهم لهم، وأنها قد تصحُّ بعقد رجلين من خيار المسلمين وأنها قد تصح في المفضول مع وجود الأفضل[٣]. ويُثبت سليمان بن جرير إمامة الشيخين ويحكُم على عثمان بالتكفير.

هذه أشهر فرق الزيدية الأوائل. واعتبر بعض المورخين "معتزلة بغداد" من الزيدية لأنهم كانوا مع أئمة الزيدية، وبايعوهم، ولقولهم بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، مثلما ولَّى رسول الله ﷺ، عمرو بن العاص على فضلاء المهاجرين والأنصار في غزوة ذات السلاسل. ولقولهم إن أفضل الأمة بعد نبيها الإمام علي بتقدمه لنظرائه في خصال الفضل والدين. فقد قال القاضي عبد الجبار إن هذا القول يقول به أكثر شيوخنا البغداديين، وبعض البصريين[٤].

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل،ص ١٢٠ – ١٢١.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل ١١٩ – ١٢٠، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٤٢ – ٤٣.

(٤) أيمن فؤاد سيد، نفسه ، ص ٢٢٣.

شرُوط الإمامة عند الزيدية:

كان الإمام زيد يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل[١]. وذهب إلى ذلك أيضاً طائفة من الخوارج والمعتزلة والمرجئة وجميع أهل السنة[٢]، كذلك اشترط الإمام زيد الخروج شرطاً فى كون الإمام إمامًا، ويرى الخوارج أيضًا هذا الشرط. وجوَّز الزيدية خروج إمامين فى قطرين يستجمعان هذه الخِصَال، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة[٣]

وذكر الإمام زيد فى "مجموعه" أن الإمامة فى جميع قريش، ويتفَّق معه فى هذا الرأى الفرقة "الصالحية" من الزيدية. وذهب إلى ذلك أيضاً المعتزلة بأسْرها، وجميع الخوارج من الإباضية إلاّ النجدات، وذهب أبو حنيفة وأكثر المُرْجِئة والزيدية من الجارودية إلى أن الإمامة لا تجوز إلاّ فى قريش فقط[٤]. أما سائر الزيدية فقالوا إنها تختص بولد الحسنين. واشترطت الزيدية توفُّر مجموعة خِصَال فى الإمام تنحصر فى:

١- أن يكون من أهل البيت دون التمييز بين أبناء الحسن وأبناء الحسين، وبالتالى فلا يخلف إمام إماماً بالوارثة.

٢- أن يكون قادراً على الخروج للقتال بنفسه، بحيث لا يلى الإمامة صبى ولا مهدى غائب.

٣- أن يكون زاهدًا، وزاد بعضهم أن يكون صبوح الوجه وليس به آفه.

---

(١) الشهرستانى، الملل والنحل، ص ١١٦ .
(٢) ابن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل (مصر ١٣١٢) ٤: ١٦٣ .
(٣) الشهرستانى،الملل والنحل، ص ١١٥ .
(٤) المسعودى، مروج الذهب، ح٤، ص ٦٠-٦١، يحيى بن الحسين، الطبقات،ص ٦٨.

٤- أن يكون على مايقتضيه مذهب الإمامة من العلم. وقد أخذ الزيدية ذلك مأخذ الجد بدليل الكثرة الهائلة من الكتب التى ألفها أئمة الزيدية فيجميع الفروع.

ويرى الزيدية أنه لا يمكن أن يكون "زمان بلا إمام" وإلى جواز وجود أئمة كثيرين فى زمان واحد يعارض بعضهم الآخر. وعدم توفر كل شروط الإمامة يمنع من الاعتراف للإمام بالإمامة الكاملة. وفى هذه الحالة استحدثت الزيدية اصطلاح "إمام فى الحرب" أو "إمام فى العلم" أما الرؤساء الذين لا تتعدَّى مقدرتهم المحافظة على حياة الدعوة الزيدية فقد سمي الواحد منهم: داعيًا أو مُحْتَسِبًا أو مُقْتَصِدًا.

ويتَّصل المذهب الزيدى اتصالاً وثيقًا بمذهبين شهيرين، ففى الأصول (العقائد) يُعد مذهب المعتزلة أكثر المذاهب اتصالاً بمذهب الزيدية، وفى الفروع (الفقه) كان الزيدية على مذهب أبى حنيفة إلاَّ فى مسائل قليلة وافقوا فيها الشافعي. فقد كان زيد بن على تلميذاً لواصل بن عطاء رأس المعتزلة، وأخذ عنه مذهبه وصار جميع أصحابه معتزلة فى الأصول. ولم يخالف زيد المعتزلة إلاَّ فى مسألة المنزلة بين المنزلتين[١] وكان كثير من معتزلة بغداد ينتسبون إلى زيد فى كتبهم ويقولون: نحن زيدية. ويمكن أن نلاحظ أن كتب العقائد الزيدية كأنها من مؤلفات المعتزلة، لأنها تنقسم إلى قسمين كبيرين يندرج تحت أحدهما أبواب الوحدانية، ويندرج تحت القسم الآخر أبواب العدل. كذلك فقد شرح القاضى عبد الجبار بن أحمد المتوفى سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٥م وأحد شيوخ

---

(١) الشهرستانى، المصدر السابق، ص ١١٦.

المعتزلة البغداديين، كتاب "الأصول الخمسة" للإمام القاسم الرسى المتوفى سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م – وهو أقدم كتاب فى عقائد الزيدية.

وأقرب المذاهب الفقهية إلى مذهب زيد، هو مذهب الإمام أبى حنيفة، فكان الزيدية فى مسائل الفروع على مذهب أبى حنيفة، إلاّ فى مسائل قليلة وافقوا فيها الشافعى[١]. فقد كان الإمام أبو حنيفة من الفقهاء الذين اختلفوا إلى زيد بن على وأخذوا عنه، كما أعانه بمال كثير. وعدّ مؤرخو الزيدية الإمام أبا حنيفة من رجالهم، كما صرّح أئمتهم أن نصوص أبى حنيفة من نصوصهم. وكان جماعة من فقهاء أصحاب أبى حنيفة وغيرهم يقولون إن محمد بن الحسن الشَّيْبانى نقل أكثر مسائل "السِّير" عن كتاب "السِّيَر" للإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية.

وتستَّر كثيرٌ من رجال الزيدية المنتشرين فى أمصار السنة بمذهب أبى حنيفة، فكان عمر بن إبراهيم الزيدى، مفتى الكوفة، يقول: "أفتى بمذهب أبى حنيفة ظاهرًا، وبمذهب زيد تدينًا". وقد ذكر أصحاب كتب التراجم الزيدية بعض رجال الحنفية فى كتبهم لأنهم رووا عن زيد بن على. وفى الوقت نفسه كان كثير من رجال المعتزلة حنفية فى الفروع، فكان المُحَسِّن بن كرّامة المعروف بالحاكم الجُشَمِى حنفى المذهب عدلى الاعتقاد ثم رجع إلى مذهب الزيدية[٢].

ظهور الزيدية فى إقليم الديلم:

عمد الخليفة العباسى محمد المهدى (١٥٨ – ١٦٩هـ / ٧٧٥ – ٧٨٥م) إلى التقرب من العلويين ، ومحاولة استرضائهم[٣] فأطلق سراح

---

(١) الشهرستانى، الملل والنحل، ص ١٢١ .
(٢) أيمن فؤاد سيد، نفس المرجع ، ص ٢٢٧.
(٣) أبو الفرج الأصفهانى، نفس المصدر، ص ١٦٩، ابن الأثير، الكامل ، ج٥، ص ٥٢٧.

المسجونين منهم، ورد إليهم الأموال التى صودرت منهم، ولكنه فى الوقت نفسه إهتم بتتبع أخبارهم، فاستوزر يعقوب بن داوود لأنه كان من أنصار الشيعة الزيدية[١]. وترتب على ذلك عدم قيام العلويين بالثورة فى عهده. غير أنه خليفته وولده موسى الهادى (١٦٩ – ١٧٠ هـ) اتبع معهم سياسة شديدة قاسية، وألح فى طلبهم وأخافهم خوفا شديداً وقطع ما كان المهدى يجريه لهم من الأرزاق والأعطية، وكتب إلى الآفاق فى طلبهم وحملهم"[٢] فلما اشتد خوفهم، وكثر من يطلبهم ويضيق عليهم، لاذوا بالحسين بن على بن الحسن بن الحسن وبايعوه بالإمامة فخرج على الخليفة الهادى، التى كانت أخلاقه التى تتسم بالقوة والشراسة[٣]، من العوامل الهامة وراء قيام العلويين بثورتهم ضده فى عام ١٦٩ هـ، أما السبب المباشر للثورة، فهو أن والى المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله حفيد عمر بن الخطاب أمر بضرب الحسن بن محمد النفس الذكية مع بعض أصحابه لأنهم شربوا نبيذا، ثم جرسهم، فأثار هذا الحارث غضب رئيس العلويين الحسين بن على، فقام بثورته واستولى على المدينة ثم اتجه إلى مكة فى موسم الحج، فانضم إليه بعض الحجاج والعبيد، وفى موضع يسمى فخ بين مكة والمدينة، تقابل العلويون مع الجيوش العباسية فى معركة دامية سنة ١٦٩ هـ، فقتل الحسين بن على الذى سمى (بقتيل فخ) ومعظم من كان معه، وكان عدد القتلى يزيد على مائة قطعت رؤوسهم من بينهم الحسن بن محمد بن عبد الله، وتركت جثث القتلى

---

(١) ابن طباطبا، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة، ١٣١٧هـ، ص ١٦٦، ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٣٨.

(٢) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، طبعة النجف، ١٣٥٨هـ، ج٣، ص٤٠٤، السيد عبد العزيز سالم، العصر العباسى الأول، ص ١١٩.

(٣) وصفه السيوطى نقلا عن الذهبى بقوله "تعلوه هيبة، وله سطوة وشهامة. وقال غيره: كان جبارا" (تاريخ الخلفاء، ص ٢٦٠).

ثلاثة أيام في العراء لم توار، حتى أكلتها السباع والطير، وأسر العباسيون نفرا من بنى الحسن، ثم ضربت رقابهم في مكة[١].

هذه الثورة لم تخرج عن كونها ثورة علوية ككل الثورات العلوية التى قامت من قبل ومن بعد، غير أن المصادر قد أفاضت فى الحديث عنها بسبب النتائج الهامة التى ترتبت عليها[٢]. حيث أفلت من المنهزمين اثنان من كبار العلويين أحدهما إدريس بن عبد الله الذى فر إلى المغرب الأقصى، ونزل بوليلى حيث تمكن بفضل قبيلة أوربه من تأسيس دولة علوية مستقلة عرفت بدولة الأدارسة، كما أسس فيها عاصمته مدينة فاس سنة ١٧٢ هـ. أما العلوى الثانى فهو أخوه يحيى بن عبد الله الذى فر إلى بلاد الديلم بالمشرق وظل مختفيا هناك[٣]

وبلاد الديلم التى فر إليها يحيى بن عبد الله تقع بأرض الجبال بقرب بحر قزوين وهى فى جنوب وغرب إقليم كيلان، وهى بلاد كلها جبال ووهاد، وفيها خلق كثير من الديلم، وهم أشد الناس حمقا وجهلاً، بينهم قتال فإذا قتل واحد منهم قتلوا من تلك القبيلة أىَ واحد كان. وكان هؤلاء الديلم ملوك بلاد الجبال قديما، وذكر أن أصلهم من عرب بنى تميم، ولذلك ترى أكثرهم يميلون إلى الأدب والعربية. منهم ملوك آل بويه المتغلبين على العباسيين، وكانوا كلهم فضلاء أدباء، وبين مدينة قزوين وبين بلاد الديلم جبل، كان ملوك الفرس يجعلون عليه رابطة إذا لم يكن بينهم

---

(١) عن هذه الأحداث راجع: الطبرى، تاريخ ، ج٨ ص ١٩٨ ،المسعودى، مروج الذهب، ج٣، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧، ابن طباطبا، نفسه، ص ١٧٢، الأصفهانى ، مقاتل الطالبيين ، ص ٣٢٠، ابن ظافر الأزدى، أخبار الدول المنقطعة، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ابن الأثير، الكامل ج٦، ص٩٠. سالم، العصر العباسي الأول ، ص ٧٥ ـ ٢٦. .

(٢) أحمد مختار العبادى، فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٧٦ .

(٣) ابن ظافر الأزدى، أخبار الدول المنقطعة، ص ١٢٤ .

هدنة[١]. ولقد وصف المقدسى هذا الإقليم بقوله "هذا إقليم القز والصوف به صناع حذاق، وفواكه تحمل إلى الآفاق، وبزه معروف بمصر والعراق، كثير الأمطار، مستقيم الأسعار، مصر ظريف، ولهم عمل لطيف، يجلون الشريف، ويرحمون الضعيف، كبراء فى الفقه وأجلة فى الحديث، رجال فى القتال، وكلٌ عفيف"[٢]. وسبق أن ذكرنا أن هذا الإقليم يضم خمس كور هى قومس، وجرجان، وطبرستان، والديلمان، ثم الخزر والبحيرة.

ثورة يحيى بن عبد الله على الخلافة العباسية فى بلاد الديلم:

ذكرنا أن الديالمة اعتنقوا الإسلام على مبدأ الزيدية، ولقد أدى مبدأ التسوية الذى نادت به الثورة العباسية، إلى تهيئة الظروف أمام الشعوب البربرية النازلة وراء الثغور الإسلامية، أن تندمج فى عداد الأمة الإسلامية وأن تقوم بالدور الذى تؤهلها لها ملكاتها، ومعنى هذا أن الدخول فى الإسلام فى ذلك الوقت أصبح كالتجنس تماما، فإذا دخل فرد أو اعتنقت أمة الإسلام، صار ذلك الفرد أو هذه الأمة من عداد الرعية الإسلامية. وتحت ظل هذا المبدأ دخل الديلم فى عداد الأمة الإسلامية، وتهيأ لهم بذلك أن يقوموا بدور هام فى التاريخ الإسلامى، بعد أن انفتح خط الثغور لكى تدخل فى قلب الخلافة أمم حديثة عهد بالإسلام وحديثة عهد كذلك بالحضارة. لكننا من ناحية أخرى يجب أن نعرف أن الشعب الديلمى كان شعب فارسيا، وأن الفرس المتحضرين لم يعتبروه أجنبيا إلى

---

(١) القزوينى، آثار البلاد، ص ٣٣٠، ٤٣٥؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٥٣.

حد كبير، ولهذا وجد تعاون بين الفرس المتحضرين وبين الديلم المتبربرين[1].

وفي سنة ١٧٥ هـ، ثار يحيى بن عبد الله بالديلم على الخليفة هارون الرشيد، (١٧٠ – ١٩٣هـ / ٧٨٦ – ٨٠٩ م) حيث كثرت جموعة، وقويت شوكته، وتوافد عليه الناس من الأمصار وصاروا أنصاره فسير الرشيد إليه القائد الفضل بن بن يحيى على رأس جيش جرار من خمسين ألف مقاتل، وولاه جرجان وطبرستان والرى، وما إليها، ووصل معه الأموال، فسار ونزل بالطالقان، فكاتب الفضل يحيى بن عبد الله، ولطف به وحذره، كما اتصل بصاحب الديلم وبذل له الأموال، وأخيرا استجاب يحيى بن عبد الله للصلح، ولكنه إشترط أن يكتب إليه الرشيد أمانا بخطه، وأن يشهد على هذا الأمان الفقهاء والقضاة وأجلة بنى هاشم ومشايخهم، فأجابه الرشيد إلى ذلك وأرسل الأمان مع تحف وهدايا، وقدم الفضل ومعه يحيى بن عبد الله إلى بغداد، فأحسن الرشيد استقباله ورحب به ومنحه مائتى ألف دينار. ولم يلبث الرشيد أن انقلب عليه فسجنه بعد أن استفتى الفقهاء في نقض الأمان، فمنهم من أفتى بصحته فحاجه، ومنه من أفتى ببطلانه ومنهم عبدالله بن مصعب، فأبطل الرشيد الأمان وأخرقه، ثم سجن يحيى بن عبدالله حتى وافاه الأجل حتف أنفه في رأى، ومقتولا فى رأى آخر[2]

---

(١) حسن محمود، وأحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص ٤٨٢. .

(٢) الأصفهانى، مقاتل الطالبيين، ص ٣٤٤، ٣٤٩، ابن طباطبا، المصدر السابق، ص ١٥٦، ابن الأثير، الكامل ج٦، ص١٢٥، ابن ظافر الأزدى، أخبار الدول المنقطعة، ص ١٢٤، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٢٧٤، سالم، نفس المرجع، ص ١٢١ – ١٢٢، نبيلة حسن محمد، محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية، ص٩٢.

ولقد كان سبب قيام الرشيد بالقضاء على تمرد يحيى بن عبد الله فى إقليم الديلم هو حرص الخلافة العباسية منذ قيامها على مقاومة أى تطلع علوى فى الحكم، كذلك اعتبار الخلفاء العباسيين ظهور أى نفوذ شيعى فى المشرق الإسلامى بمثابة خطر يهدد وجود الخلافة العباسية نفسها، لما تقدمه أقاليم المشرق من موارد اقتصادية وبشرية فى خدمة الخلافة، ومن ناحية أخرى كان الخلفاء يخشون إنتشار المذهب الشيعى فى الولايات الشرقية، بما يعنيه ذلك من ضعف نفوذ الخلافة العباسية السياسى والروحى.

قيام الدولة الزيدية فى طبرستان:

كان العالم الإسلامى فى أوائل القرن الثالث الهجرى وحتى منتصفه محتفظا بكثير من تماسكه القديم، وكان من الصعب على جماعة كالديلم – النازلين وراء ثغور قزوين – أن ينفذوا إلى داخل العالم الإسلامى، وكان هذا النفوذ إلى الداخل أمراً صعباً، إذ كانت حدود الثغور الإسلامية محروسة حراسة قوية، وكان لابد أن يسلم أهل هذه الناحية على يد أهل طبرستان الذين كانوا قد دخلوه، من قبل على يد الدعاة من الشيعة الزيدية، فطبرستان بذلك هى البيئة الأم بالنسبة لمن أسلم وراءهم، وقد ظلت طبرستان منذ فتحها إلا ما خاضعا للخلافة العباسية، يحكمه آل طاهر الذين مدوا نفوذهم على المشرق كله باسم العباسيين كما رأينا.

وكانت ظروف طبرستان الداخلية مسئولة عن ظهور أحد العلويين وهو الحسن بن زيد، الذى تمكن من إرساء قواعد أول دولة شيعية فى المشرق هي الدولة الزيدية فى عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤م فى طبرستان، ولعل

ضعف عمال الطاهريين على هذه الولاية كان من أهم العوامل التى مهدت الطريق أمام أعداء الخلافة العباسية من العلويين للوصول إلى الحكم فى هذه المناطق الشرقية[١] ويبدو أن عمال الطاهريين على طبرستان تأثروا بما كان يدور من صراعات داخلية بين أبناء البيت الطاهرى فى نيسابور عاصمة دولتهم، وخاصة مع بداية حكم محمد بن طاهر (٢٤٨ هـ / ٨٦٢م)[٢]، الذى قسم حكم طبرستان عند قدومه إلى بغداد فى صفر من عام ٢٣٧هـ إلى قسمين يتولى أحدهما أخوه سليمان وقسما آخر لأحد المسيحيين ويدعى جابر بن هارون، فاستولى جابر على بعض أراضى الرعية ظلما، وأضافها على أراضى سيده.

ولما كان سليمان بن عبد الله بن طاهر، مشغولا بأموره الخاصة كغيره من عمال الولايات الطاهرية، فضلا عن تطلعه إلى حكم إمارة خراسان نفسها، لذلك فوض أمور ولاية طبرستان لأحد نوابه ويدعى محمد بن أوس البلخى، فأساء السيرة فى الرعية، وحصّل من أهالى رويان وجالوس الخراج ثلاث مرات كل سنة، مرة له، وثانية لأحمد إبنه، وثالثة لمساعديه المجوس. مما أثار أهالى طبرستان ضدهم.

ولم يقف محمد بن أوس فى تصرفاته عند هذا الحد، بل أنه أساء للعلاقة التى كانت تربط طبرستان بالديلم، فرغم ما كانت تعانيه الدولة الطاهرية من ضعف، أقدم محمد بن أوس على غزو أرض الديلم

---

(١) فتحى أبو سيف، خراسان تاريخها السياسى والحضارى ، ص١٠.

(٢) تجدر الإشارة إلى أن ولاة طبرستان قبل ذلك كانوا يتحلون بالعدل وحسن السيرة فلم يتظلم أهالى طبرستان منهم. مثال ذلك الحسن بن الحسين من آل طاهر والى طبرستان من قبل المعتصم العباسى (٢٢٨هـ)، وطاهر بن عبد الله بن طاهر (عباس إقبال، تاريخ ايران بعد الإسلام، ص ١٨).

واستباحها لجنوده، مما أثارهم على سلطة الطاهريين فى طبرستان، وجعلهم ينضمون إلى صفوف الحسن بن زيد بعد ذلك(١).

ولقد كان القضاء على ثورة يحيى بن عمر الزيدى فى الكوفة على أيام الخليفة العباسى المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦م) فى عام ٢٥٠ هـ، أحد الأسباب المباشرة لقيام الدولة الزيدية فى طبرستان، وتفصيل ذلك؛ أن يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد الشهيد كان قد تعرض لضائقة مالية فاستدان بسببها، ولما قدم عمر بن فرج المسئول عن شئون العلويين من قبل الخلافة العباسيين من خراسان، ذهب إليه يحيى بن عمر يطلب منه صلة مالية لسداد ديونه، فنهره عمر بن فراج وأساء إليه، ثم أمر بحبسه، ولكن أهل يحيى كفلوه، وسار إلى بغداد، ثم جاء سامراء فأساء عاملها إليه، فعاد إلى الكوفة وأعلن الثورة بها والتف حوله جمع من الأعراب وأهل الكوفة، ودعا للرضى من آل محمد، وفتق السجون، وطرد عمال العباسيين، وأخذ من بيت المال ألفى دينار وسبعين ألف درهم، فلما نمى خبره إلى الخليفة المستعين عهد إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بقمع هذه الثورة ، فأرسل القوات من السواد لقتاله، فنجح يحيى بن عمر فى الإيقاع بها، واتبعه خلق من الزيدية، وساروا إلى واسط وكثرت جموعه، ونجح فى هزيمة قوات أخرى سيرها إليه محمد إبن الله بن طاهر بقيادة عبد الرحمن بن الخطاب، وترتب على ذلك زيادة أنصار يحيى بن عمر والتف حوله أهل الكوفة وأمداد الزيدية من بغداد، فشعر ابن طاهر بخطورته، فأرسل إليه قواتا كثيرة نجحت فى الإيقاع بالثائر العلوى فأسروا الكثير من أتباعه، وقتلوا معظم أصحابه، وانجلت

---

(١) المرعشى، تاريخ طبرستان ورويان، ص ٩٥، ابن خلدون العبر، ح ٣، ص ٣٥٧،عبد الفتاح السرنجاوى، الدولة العباسية، ص ٢٥ .

الحرب بقتل يحيى بن عمر، فبعث قادة الطاهريين برأسه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، فبعث به إلى المستعين في صندوق في بيت السلاح. وسجن الأسرى الزيدية، وكان ذلك في منتصف رجب من سنة ٢٥٠ هـ[١].

أراد الخليفة المستعين بالله أن يكافأ محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب الشرطة في بغداد على نجاحه في القضاء على ثورة يحيى بن عمرو قتله، فمنحه بعض القطائع من صوافي السلطان بطبرستان، تقع إحداهما على الحدود بين طبرستان السهل وطبرستان الجبل بالقرب من ثغرى كلارو شالوس[٢]، اللتين كانت تتجمع فيهما الحاميات والفرق العسكرية الإسلامية للهجوم على القسم الجبلي عند حدوث أى عصيان، وكانت هذه الأراضي تجاور أراضي أخرى يستخدمها الأهالي كمرافق ومراعي لماشيتهم، وقبض ابن طاهر اقطاعه ووضع يده عليه إلا أن عامله تجاوز الحدود المرسومة للإقطاع، أو وقع خطأ أصلي في تحديد الاقطاع، حتى أدخلت فيه أرض كانت تستخدم مرفقا للأهالي. فاشتد النزاع بين كبار ملاك هذه الناحية وبين نواب الطاهري، وغضب أهل ثغر طبرستان الزيديين لعاملين:

أولهما: لأن بعض أرضهم أعطى لمحمد بن عبد الله بن طاهر الذى غلب إخوانهم في المذهب (زيدية الكوفة) وقتل زعيمهم يحيى بن عمر.

---

(١) عن هذه الأحداث راجع: ابن الأثير، الكامل، ح٧، ص ١٢٨ – ١٢٩، ابن خلدون، العبر، ح٣، ص٣٥٦ - ٣٥٧.

(٢) كلار وشالوس مدينتان على الحد الغربي لطبرستان، وتقعان في الجنوب الشرقي من بلاد الديلم (أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٤٣١، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٤١٤.

وثانيهما: لأن هذا الأمير جار على المنافع العامة، فحرمهم من أرض كانوا يرتفقون منها، لذلك نهضوا يرفضون أن ينفذ هذا الاقطاع وعصوا واليهم، وأصبح الأمر ثورة وخلع للسلطان(١).

لم يجد أهالى طبرستان الذين ضجوا من مظالم هؤلاء العمال خاصة محمد بن أوس وأولاده، بدا من أن يتحالفوا مع الديلم، فأرسل محمد وجعفر إبنا رستم الناظران على أراضى المرافق المنهوبة إلى جيرانهم الديلم يذكرونهم العهد الذى بينهم، فاتفقوا على حرب سليمان الطاهرى ونائبه محمد بن أوس، وكان هذا التحالف ممكنا لأن الثغر كان هادئا فلم يكن بين الديلم وأهل طبرستان عداء ولا حرب، ثم كان الظرف مواتيا لهذا التحالف بسبب إغارة محمد بن أوس على الديلم كما ذكرنا، فوقع التحالف، وأصبح أهل طبرستان أقوياء يستطيعون الاعتماد على معين لا ينضب من الجند الديلمى المعروف بالخشونة والطبع المتبربر، وبالقدرة الفائقة على الحرب.

ولم يبق أمامهم إلا أن يختاروا أحد العلويين الزيدية ليكون إماما لهم ورئيسا لحركتهم، ولهذا طلبوا مبايعة أحد السادة المقيمين برويان من ولد زيد بن الحسن واسمه محمد بن إبراهيم حفيد على بن أبى طالب، وحثوه على الدعوة له، لكنه رفض ذلك لنفسه، لأنه لم يأنس فى نفسه الكفاءة لهذا الأمر الخطير، ودلهم على رجل من الزيدية يتوسم فيه كفاءة ومقدرة عالية لتحمل هذه المسئولية هو الحسن بن زيد العلوى، وكان مقيما فى ذلك الحين فى الرى، ولعل محمد بن إبراهيم قد تخوف من اجابتهم بالدعوى لنفسه، تحرزا من اكتشاف أمره على يد نواب

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٧، ص١٣٠، ابن خلدون، العبر، ح٣، ص٣٥٧، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص٤٨٤ .

الطاهريين، ولذلك دلهم على الحسن بن زيد، ووصلت الرسائل إلى الحسن بن زيد بالقدوم إلى طبرستان لمبايعته [١].

ويبدو أن الحسن بن زيد كان قد بدأ دعوته لصالح البيت العلوى وحقه فى الإمامة قبل مراسلة أهل طبرستان له، ولكن هذه الدعوة اتسمت بالسرية الكاملة، ويبدو أيضا أن دعاة الزيدية من أتباعه كانوا قد كسبوا بعض الأنصار فى طبرستان قبل مراسلات أهلها له. يدل على ذلك التأييد الكبير الذى لقيه الحسن من أهالى طبرستان عند ظهوره بها. فسارع كبار أهالى طبرستان وزعماء الديلم بمراسلته وحثه على سرعة القدوم إلى طبرستان، فى الوقت الذى كانوا يخططون فيه لاشعال الثورة، وتسربت بعض الأخبار إلى محمد بن أوس عامل الطاهريين، فسعى لاخماد هذا التمرد، وتتبع زعماء الخلايا السرية للدعاة العلويين، إلا أن الظروف لم تعد مواتية لفعل شىء، حيث وصلت رسالة من الإمام الحسن بن زيد إلى زعماء الديلم ودعاة الزيدية، أبلغهم بموعد قدومه، وطالبهم باشعال الثورة جهراً [٢].

وامتثل دعاة الزيدية لأوامر إمامهم الحسن بن زيد، وعمت مدن طبرستان الدعوة له. فلما اطمأن الحسن بن زيد من مناصرة أهالى طبرستان له، ظهر لأول مرة يوم عيد الفطر من عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤م، فى مدينة كاجو بطبرستان، وألقى خطبة فصيحة أعلن فيها خروجه على سلطان الطاهريين والعباسيين، وطلب من أهالى طبرستان الإنضمام له. ثم

---

(١) الطبرى، تاريخ الأمم، ج١١، ص٩٠، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٥٧، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص١٩.

(٢) فتحى أبو سيف، خراسان، ص١٢ - ١٣.

بدأ يرسل دعاته بنفسه إلى بقية مدن طبرستان، فسارع أغلبها في الانضمام إليه واعلان التبعية له[١].

الحسن بن زيد الداعي الكبير مؤسس الدولة الزيدية

(٢٥٠ - ٢٧٠هـ) :

أنفذ الثوار برئاسة (عبد الله بن وندا أميد) رسالة إلى الحسن بن زيد العلوي الذي كان يعرف (بحالب الحجارة) من ولد الحسن بن علي ابن أبي طالب وكان يقيم بالري ودعوه إلى رويان.

فأتى الحسن بن زيد في ٢٥ رمضان من عام (٢٥٠ هـ) إلى قصبته (كلار) من البلاد التي تقع على الحدود بين جيلان وطبرستان، وبايعه الناس ولقب نفسه (داعي الخلق إلى الحق) أو (الداعي الكبير) رمزا لانتصار دعوته، وتقديرا له، ومدحه الشعراء من الفرس والعرب بأشعارهم وأشادوا بانتصاراته. وصار بذلك مؤسس أسرة العلويين بطبرستان.

وبعد أن سيطر الحسن بن زيد علي رويان وجالوس والري، أرسل في طلب جماعة من الدعاة العلويين يدعوهم للإقامة في أطراف طبرستان والديلم، وانضم إليه الناس زرافات ووحدانا ومن بينهم عدد من كبار الديلم التحقوا بخدمته، وارتفع أمر الحسن وأرسل محمد بن أوس أحد قواد جيشه لدفع الحسن، لكن الداعي هزمه بسهولة ودخل (آمل) في ٢٣ شوال من عام (٢٥٠ هـ) ثم أرسل من هناك حكاما من قبه لـ(كلاز) و (رويان) و (جالوس)[٢].

---

(١) ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان، ص ٢٢٨، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٣.
(٢) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٣٥٧.

وكان الغريم الكبير لحكم الحسن بن زيد أميراً فى مازندزان من (آل قارن) من أسرة (السبهبدات) وكان اسمه (قارن بن شهريار) وقد اعتنق الإسلام حوالى عام (٢٤٠ هـ) وكان يحكم فى الجزء الشرقى لمازندران الحالية من طرف الطاهريين ويؤدى لهم الخراج. أراد قارن فى البداية أن يقبض على الحسن بالحيلة ودعاه لمقابلته لكى يبايعه، لكن الحسن وقف على خطته فلم يهتم بدعوته. فاجتمع قارن على سليمان بن عبد الله الطاهرى وجمع من كبار خراسان وقدموا جميعا لحرب الداعى فى آمل. وكان النصر هذه المرة أيضا من نصيب الداعى خاصة وأن رجلا من أسره السبهبدات اسمه (فادوسبان) انحاز إلى الداعى فقتلا كثيرا من جند سليمان وقارن. وهرب قارن إلى رويان وسليمان إلى جرجان وأجبر أمير خراسان محمد بن طاهر أن يمد عمه بجيش آخر، وكانت الغلبة أيضا للداعى فتقهقر الطاهريون إلى خراسان منهزمين وأتى قارن إلى الداعى ملتجئا[١].

ويرى كل من ابن الأثير وابن خلدون، أن قوات الطاهريين قد إنهزمت أمام الحسن بن زيد بمحض اختيارها، وذكرا أن السبب وراء ذلك هو أن الطاهريين كانوا يتشيعون[٢]. غير أن الأدلة التاريخية تذهب عكس هذا الرأى الذى تبناه المؤرخان الكبيران، فالطاهريين وإن كانوا متشيعين، إلا أنهم لم يتعصبوا للمذهب الشيعى. فمحمد بن عبد الله بن طاهر هو الذى قام بتصفية ثورة يحيى بن عمر الزيدى بالكوفة، وأمر قواده بقتله، وعندما وصلته رأسه بعد المعركة جلس يتقبل التهانى فى مقتله، فلما دخل عليه داود بن الهيثم قال له "أيها الأمير إنك لتهنأ بقتل

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٧، ص١٣٢.
(٢) إبن الأثير، الكامل، ح٧، ص ١٣٢، ابن خلدون، العبر، ح٣، ص٣٥٧-٣٥٨.

رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا لعزى به"[١]، كما أن محمدا بن طاهر نفسه قد أرسل إلى الخليفة المستعين بالله العباسى فى عام (٢٥١ هـ / ٨٦٦م)، يخبره بانتصاره على قوات العلويين بقيادة الحسن بن زيد، وقتله لقرابة ثلاثمائة وأربعين رجلا علويا كانوا بين المقاتلين[٢].

والخلاصة أن الحسنَ بن زيد استخلص في مدة ثلاثة أعوام (من رمضان ٢٥٠ حتى ذى الحجة ٢٥٣ هـ) جميع طبرستان وقسما هاما من الديلم والرى وطرد عمال بنى العباس وأتباعهم، وأخذ العلويون يتقاطرون عليه من الحجاز والشام والعراق بعد أن علا صيت شوكته وقدرته، وأقاموا فى ولايته. وبدأت بذلك الدولة الزيدية الشيعية تاريخها السياسى، وإظهارا لسيادته على طبرستان وأرض الديلم أمر الحسن بن زيد بسك عملة باسمه تعبيرا عن الاستقلال والسيادة، وذلك فى عام ٢٥١ هـ / ٨٦٥م[٣].

توسع الدولة الزيدية وموقف العباسيين من ذلك:

كانت الدولة الزيدية تهدف إلى التوسع على حساب الدولة الطاهرية ممثلة خلافة العباسيين السنة فى شرق العالم الإسلامى، ورجلها المريض الذى تتقاسم القوى السياسية فى المشرق أملاكه فى هذه الأونة، وتذكر الروايات التاريخية أن الزيديين أعدوا برنامجا دعائيا لتهيئة النفوس فى مدن المشرق الإسلامى لدعوتهم، فقد كانوا على اتصال وثيق

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٢٩.
(٢) الطبرى، تاريخ الأمم، ج١١، ص ١١٤، ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٦٤.
(٣) لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، تحقيق على البصرى، ١٩٨٦، ص ١٢٤، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ١٥.

بدعاة العلويين فى مدن المشرق الإسلامى خاصة مدينة (قم)، وطالبوهم بجمع الكلمة والتآلف فيما بينهم، وناقشهم الحسن بن زيد فى رسائله إليهم فى بعض القضايا العقائدية، وبعض المشاكل التى يواجهها فى طبرستان، مما يؤكد تطلعه لمد أملاكه وسلطانه السياسى والمذهبى إلى أقاليم أخرى(١). ولذلك فبعد أن طرد أصحاب الحسن بن زيد عُمال الطاهريين من الرى، وتوجهوا إلى همذان، نجد أن الخليفة المستعين بالله يرسل جماعة من رجاله ويأمرهم بالمقام بهمذان، وضبطها لكى لا تصلها قوات الحسن بن زيد العلوى(٢).

وأظهر قارن العصيان مرة أخرى وقام الحسن ليدفعه وأصر فى عام (٢٥٤ هـ) أن يستولى على جرجان وخراسان أيضا، لكن المعتز الخليفة العباسى أرسل (موسى بن بغا الكبير) و (مفلح) بن كبار قواده الأتراك بجيش إلى طبرستان. فاستوليا على الرى وقزوين وسارى وآمل، وانهزم الداعى إلى جالوس لقلة عدد جيشه. ولما عاد جند الخليفة، عاد الحسن فى ٢٢ رمضان من عام (٢٥٥ هـ) أى بعد ثورته الأولى بخمسة أعوام إلى آمل وجمع أتباعه مرة أخرى بعد أن انفرط عقدهم، ثم سار بهم إلى جرجان واستولى عليها وضمها إلى ولاياته الأخرى. (٣)

وكان تدخل الخلافة العباسية لمواجهة طموح الزيديين بسبب عدم اعطاء هذه الدولة الناشئة فرصة التوسع والتوغل فى أقاليم الخلافة، ومد نفوذها، مما يترتب عليه انتشار الفكر الشيعى وقيام دولة شيعية مستقلة عن الخلافة فى هذه المناطق، كما أن عدم وقوف العباسيين فى وجه تزايد

---

(١) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ١٥.
(٢) الطبرى، تاريخ الأمم، ص ١١، ص ٩٣.
(٣) الطبرى، نفسه، ح ١١، ص ٩٣، ١٥٥، ٢١٤، إبن الأثير، الكامل، ح٧، ص ٢٦٣.

المد الزيدى، سيدفعهم إلى غزو باقى مدن طبرستان، بل وغيرها من البلاد الواقعة تحت سيطرة الطاهريين، مما سيؤدى إلى اسقاط الدولة الطاهرية، أكبر حليف للعباسيين فى المشرق.

ومع ذلك ورغم تدخل العباسيين لكبح طموح الزيديين فى الاستيلاء على أملاك الطاهريين فى منطقتى طبرستان، فإن الخلافة العباسية لم يكن فى امكانها أن ترسل قواتا قوية لمساعدة الطاهريين أو للقضاء على الحركة الزيدية. وذلك بسبب انشغال العباسيين أنفسهم بمقاومة ثورة الزنج فى إقليم العراق والأهواز(١).

وفى عام (٢٥٩ هـ) بعد أن أزال يعقوب الصفارى الطاهريين واستولى على خراسان، تجاورت ممتلكاته وولايات الحسن بن زيد العلوى، وكان معلوما أن هذين الرجلين القويين، وكلاهما قام بثورته فى تاريخ واحد تقريبا، ومؤسسا لأسرة على رغم الخلفاء العباسيين وولاتهم أو آل طاهر، سوف يصطدمان إن عاجلا أو آجلا خاصة وأن كلا منهما كان يرنو ببصره إلى بلاد الآخر، فكان يعقوب يدّعى خلافة الطاهريين ويريد جرجان وطبرستان، وكان الداعى هو أيضا يتوق إلى السيطرة على خراسان لذلك كان الخلاف المذهبى بين يعقوب والحسن بن زيد من العوامل التى ساعدت على خلق العداء بينهما، فأراد يعقوب استرضاء الخلافة العباسية التى لم تكن متحمسة لحكمه فى خراسان بعد الطاهريين لعلاقتها الوثيقة بهم.

واتفق أن هرب فى نفس عام (٢٥٩هـ) أحد معارضى يعقوب إلى جرجان طالبا حماية الحسن بن زيد فأمنه الحسن. فقدم يعقوب إلى جرجان

---

(١) ابن الأثير، الكامل ج٧، ص ٢٦٤ ، حسن محمود وأحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص٤٨٦.

فى ربيع (٢٦٠ هـ) وفر أمامه الداعى إذ لم يستطع مقاومته وسار إلى بلاد الديلم. أما يعقوب فقد يمم شطر خراسان بعد أن أناب عنه عمالا فى طبرستان، لكن قبل عودته إليها ثار أهل جالوس على عامله، فاضطر يعقوب إلى أن يتحول لتأديبهم. ولكن هذه المرة بفعل رطوبة الجو وأوحال الطرق وهجمات أشداء طبرستان أصيب جيشه بإصابات بالغة، فلم يجد بدا من العودة من (سارى) إلى (الدامغان) ، وأمر بأن يطلق سراح جميع العلويين الذين اقتادهم معه أسرى. وتمكن الداعى بعون الديالمة أن يعود إلى طبرستان، ثم أخضع فى (٢٦٣ هـ) جرجان مرة ثانية. واشتدت هيبته هذه المرة فى القلوب عن ذى قبل وازدت دولته استحكاما وقوة[١].

وفى عام (٢٦٦ هـ) اجتمع ابن وخليفة الاسبهبد قارن، وكان اسمه (رستم) وحاكم نيسابور (أحمد بن عبد الله الخجستانى) الذى استولى عليها بعد موت يعقوب بن الليث، على أن يطردا الداعى من جرجان وطبرستان. وتمكن الداعى بعون من أخيه الأرشد (محمد بن زيد) من أن يهزم (رستم)، ومنحه أمانة بعد أن فرض عليه الخراج. أما الخجستانى فقد انتهى به الأمر بعد إغارته على بعض بلاد جرجان إلى العودة إلى نيسابور.

ولاية محمد بن زيد الداعى (٢٧٠ - ٢٨٧ هـ):

مرض الحسن بن زيد فى عام (٢٦٩ هـ)، ومكث مريضا عام بعده حتى وافته منيته فى الثالث من رجب عام (٢٧٠ هـ)، بعد أن حكم تسعة عشر عاما وثمانية شهور، وخلفه أخوه محمد بن زيد.

---

(١) الطبرى، نفسه ، ج١١، ص٢٢٣، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٨٧، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام ص٢٢، فتحى أبو سيف، خراسان، ص٩١ .

كان أحمد بن عبد الله الخجستانى الذى سبق ذكره فى بداية أمره من قواد جيش على أخى يعقوب وعمرو الصفاريين، لكنه بعد موت يعقوب عام (٢٦٥ هـ)، تمرد على أخيه عمرو وسيطر على نيسابور وأخذ يدعى ملكيتها حتى ارتفع أمره بها وضرب عملتها باسمه. وفى السنة التالية تمكن من جرجان وتغلب على عمرو فى نفس السنة ، وأخذ يستعد لضم هراة وسجستان لكن غلامين من غلمانه أقدما فى عام (٢٦٨ هـ) على قتله لسوء سيرته وطمعه في نيسابور. والتف أتباع الخجستانى بعد قتله حول (رافع ابن هرثمة)، وكان رافع هذا يعيش فى خدمة محمد الطاهرى، ثم اتجه إلى يعقوب. لكن يعقود طرده عنه لقبح هيئته وشكله، فالتحق بالخجستانى وظل فى خدمته حتى مقتله.

ادعى رافع حكم عمرو بن الليث فى خراسان عام (٢٧١ هـ)، لكنه هزم أمام عمرو فى نفس العام وظل يعيش متواريا حتى سمع فى العام التالى أن محمدا بن زيد لحقته هزيمة من حاكم (الرى) وكان تركيا من أتباع بنى العباس، فانتهز هذه الفرصة وهاجم جرجان بتحريض من الأسبهبد رستم بن قارن الذى كان هاربا من الداعى. ولم يثبت الداعى طويلا فركن إلى الفرار أمامهم بعد فترة من المقاومة (٢٧٤ هـ) والتجأ إلى الديالمة وظل فى بلادهم حتى (٢٧٧ هـ) إذا استمد الديالمة وطرد بمددهم رافعا من طبرستان. لكنه لم يستطع أيضا مجابهته بسبب كثرة أعدائه الذين انضموا إلى رافع[١].

واستمر حاله على هذا النحو أن أصابت رافعا هزائم متكررة من جند الخليفة المعتضد فى الرى وجيش عمرو بن الليث، فلم يجد مندوحة

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٣٤، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤١٥.

من أن يلتجئ – على رغم الخليفة – بمحمد بن زيد ويخطب له. وقبل الداعى بيعته فى الظاهر ولكنه لم يكن سعيدا بقدرته فى الباطل، وظل يحاذره حتى ألحق عمرو بن الليث به هزيمة فادحة (٢٨٣ هـ)، وهرب رافع إلى خوارزم حيث قتله عامل عمرو. وهكذا تخلص الداعى من هذا الخصم القوى المثير للفتنة، ومن ثم خضعت له ثانية ما بين جيلان وجرجان.

وفى عام (٢٨٧ هـ) حينما هزم الأمير إسماعيل السامانى عمرو بن الليث واستأسره إسماعيل، بدت المتاعب للداعى مرة أخرى. فقد استخلص السامانيون خراسان كلها، وكان الداعى يعلم أن السامانيين ولاة مخلصون للخلفاء العباسيين، ولابد أن يفكروا إن عاجلا أو آجلا فى السيطرة – بأمر الخليفة- على جرجان وطبرستان، فسبق الداعى وبادر بجمع جيشه فى جرجان للحيلولة دون مقاصد الأمير إسماعيل. فجرد إسماعيل جيشه بدوره بقيادة (محمد بن هارون السرخسى) وأرسلها لمواجهة الداعى. وأصيب الداعى من أول القتال بسهم فخر صريعا. وأرسل هارون فى شوال (٢٨٧ هـ) رأسه وابنه إلى بخارى. ودخلت جرجان وطبرستان فى طاعة إسماعيل السامانى. ولكن محمدا بن هارون بعد فترة سلك سبيل العصيان فقد إسماعيل بنفسه فى (٢٨٨ هـ) إلى طبرستان وطرده منها[(١)].

وبهذا تكون الخلافة العباسية قد استراحت بعض الوقت من شرور أعدائها خلال سنوات متقاربة، لا سيما وأن السامانيين قد ضموا إلى أنفسهم بموافقة الخليفة العباسى حكم المشرق كله. وتلقوا بذلك تراث

---

(١) ابن الأثير الكامل، ح٧، ص ٤٤٤، ابن خلدون، العبر، ح٣، ص٤٣٩، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص ٤٨٦.

الطاهريين، ولكى تضمن الدولة السامانية جند الديلم وبقاء حلفهم، اتفقت مع رؤسائهم أن تصرف لهم مرتبات سنوية، ورضي الديلم بهذا ولزموا أرضهم، وبذلك حرم العلويون من هذا السند والنصير القوى الذى كان عماد جيوشهم ، فلم يستطيعوا القيام فى وجه السامانيين طوال هذه الفترة[١].

ولاية الحسن بن على الناصر الكبير للهالأطروش لله :

(٣٠١ – ٣٠٤ هـ)

بعد قتل محمد بن زيد واستيلاء الأمير إسماعيل الساماني على طبرستان، ظلت هذه الولاية تحت الإدارة المباشرة للعمال السامانيين، ولجأ السادات العلويون إلى الديالمة وإلى جيلان، ومكثت طبرستان من عام (٢٨٧ هـ) إلى (٣٠١ هـ) – ثلاثة عشر عاما تقريبا – تحت طاعة السامانيين إذ كانوا يرسلون لإدراتها من بخارى حاكما خاصا.

وعند رحيل الأمير إسماعيل عن طبرستان أناب عمه (أبا العباس عبد الله بن محمد بن نوح) وقصد الرى ليجلى محمدا بن هارون عنها – وكان قد استولى عليها- بدعوة من الخليفة. وهرب محمد بن هارون أمام إسماعيل والتجأ إلى الديالمة (٢٨٨ هـ) لكنه بعد فترة قصد الرى باستدعاء أهلها هذه المرة، ثم استخلصها من أيدى عمال الخليفة العباسى بعد أن قتل واليها التركي. فأرسل الخليفة إلى إسماعيل بولاية الرى أيضا وأنها أصبحت جزءا من حوزة حكمه وأمره أن يستصفيها من ابن هارون. فعجل إليها إسماعيل، ولكن قبل وصوله إليها تركها محمد بن هارون إلى قزوين ومنها إلى زنجان وجيلان، فاستولى اسماعيل عليها بلا منازع،

---

(١) حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٤٨٦.

وترك عما آخر له هو (أبو صالح منصور بن إسحاق). وابن منصور هذا ، الذى حكم الرى بين عامى (٢٩٠-٢٩٦م) وهو الذى ألف باسمه الحكيم والطبيب المعروف (أبو بكر محمد بن زكريا الرازى) كتابه المعروف (المنصورى).

توجه محمد بن هارون – بعد لجوئه إلى جيلان- إلى الدعاة العلويين للانتقام من الأمير السامانى. وكان كبير علويى جيلان فى هذه الآونة رجلا فصيحا دينا من أبناء الإمام زين العابدين اسمه الحسن بن على ولقبه الناصر الكبير، ولقب أيضا بالأطروش لثقل سمعه، ولقد أصابه الصمم من ضربة فى رأسه بالسيف فى الحرب، وقد مكث ثلاث عشر سنة يدعو الناس فى جيلان وبلاد الديلم للإسلام فاعتنقه أكثر أهلها. وكان يفكر فى الانتقام لدم محمد بن زيد ولذلك أقدم على مهاجمة (آمل) فى عام (٢٨٩هـ) لكنه لقى هزيمة من الجيش السامانى فالتجأ إلى الديالمة. فلما قدم إليه محمد بن هارون بسط له يد المبايعة وحثه على استرداد طبرستان وطرد العمال السامانيين من هذه النواحى.

وهاجم الناصر الكبير ومحمد بن هارون وبضعة رجال من كبار جيلان – ممن بايعوا الناصر- طبرستان. وفى شتاء (٢٩٠ هـ) وعلى مقربة من (آمل) وبعد قتال ضروس دام أربعين ليلة أنزل جندهم بأبى العباس السامانى حاكم طبرستان وخلفائه وهم (اسبهبد شهريار) (بن فادوسبان) و (اسبهبد شروين إبن رستم بن قارن) هزيمة قتل فيها ما يقرب من سبعة آلاف جندى سامانى، ونجا أبو العباس بهروبه إلى الرى والسبب الأساسى لهزيمة أبى العباس هو أنه لما طلب المدد من الأمير إسماعيل أرسل اسماعيل إليه ابنه أحمد، لكن أحمد هذا بسبب خصومته لأبى العباس عطل نفسه فى الطريق ولم يصل إلا بعد أن انهزم

أبو العباس. وأرسل أبو العباس أحد قواده إلى الرى فاحتال هذا حتى قبض على محمد بن هارون وأرسله إلى بخارى وزالت فتنته، وعاد الناصر الكبير إلى الديالمة ودخلت طبرستان مرة أخرى تحت حكم أبى العباس السامانى(١).

ولما مات الأمير إسماعيل وخلفه ابنه أحمد أخذ حكم طبرستان من أبى العباس بسبب الخصومة التى كانت بينهما وأناب فيه أحد غلمانه الأتراك، لكن هذا الغلام سلك مسلك الظلم وسوء السيرة فلم يدم حكمه لثورة الناس عليه. وأجبر أحمد على أن يسير أبا العباس إلى طبرستان عام (٢٩٧ هـ) وظل أبو العباس يحكمها حتى يوم موته (فى صفر ٢٩٨ هـ). وبعد موت أبى العباس أناب الأمير أحمد والى الرى (محمد بن صعلوك) فى حكم طبرستان، وأرسل وزيره المشهور (أبا الفضل محمدا بن عبيد الله البلعمى) ممدوح الرودكى، من بخارى إلى طبرستان حتى يمكن محمدا بن صعلوك من الاستقرار فى منصبه.

ولما عاد البلعمى إلى بخارى قدم الناصر الكبير -الذى كان ينتظر الفرصة المناسبة للثورة- من جيلان إلى كلارستاق وأنفذ ابنه (أبا الحسن أحمد) للاستيلاء على (رويان). فخفف محمد بن صعلوك لمنعهما لكنه أصيب بالهزيمة فى (جالوس) فى جمادى الثانية (٣٠١ هـ) واستصفى الناصر جميع طبرستان له. وبعد أن وصل خبر غلبة الناصر الكبير إلى بخارى أرسل الأمير أحمد وزيره (محمدا بن عبد الله بن عزيز) بجيش إلى طبرستان لكنه هزم هو الآخر، وقتل الأمير أحمد نفسه فى بخارى قبل أن يتحرك للعصف بطبرستان.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٩٢، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٥٧ - ٤٥٨، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص٢٥، حسن محمود، أحمد الشريف، نفسه، ص ٤٨٧.

وبعد مدة حرض الخليفة المقتدر نصرا بن أحمد الساماني للاستيلاء على طبرستان، فأمر نصرا قواده للاتجاه إليها، لكنه لم يفعل شيئا أمام شجاعة ابن الناصر (أبى القاسم جعفر)، فتصالح السامانيون مع الناصر الكبير وبقيت طبرستان تحت إدارة الداعى تماما. واستقر الناصر مع ابنيه أبى الحسن أحمد وأبى القاسم جعفر فى طبرستان، وترك جيلان لأحد السادات الحسنيين واسمه (الحسن بن قاسم).

وأعلن الحسن بن قاسم العصيان للناصر الذى كان يحبه ويؤثره على أولاده والتف حوله بعض الناس، فوفق إلى القبض على الناصر وارساله إلى قلعة (لاريجان). لكن هذا الحال لم يدم لأن أهل (آمل) وجماعة من كبار الديلم أشهرهم (ليلى بن النعمان) [١]. قبضوا على الحسن وأنزلوا الناصر من القلعة المذكورة وأعادوه معززا مكرما إلى مقامه. وعفا الناصر عن الحسن بن قاسم وزوجه بحفيدته بنت أبى الحسين وولاه جرجان.

ولاية الحسن بن قاسم الداعى الصغير (٣٠٤ - ٣١٦ هـ):

اعتزل الناصر الكبير فى أواخر عمره وتفرغ للتدريس والعبادة ونصب الحسن بن قاسم زوج حفيدته فى خلافته، ثم وافته منيته بعد ذلك في شعبان (٣٠٤ هـ)، ويذكر ابن خلدون أن عساكر السعيد نصر بن سامان صاحب خراسان زحفت إلى الأطروش فى عام ٣٠٤ هـ، وقتلوه [٢]. ويشتهر الحسن بن قاسم بلقب الداعى الصغير، وهو مثل

---

(١) اختلف الدارسون حول اسم هذا القائد الديلمى المعروف ويبدو أن اسم (ليلى) تحريف لأحد الأسماء الجيلية، وقد أتى بصورته هذه بسبب جهل الناسخين، ولكن ابن خلدون يسميه هكذا "ليلى بن النعمان" (العبر، ج٣، ص٤٧٥).

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٥٨.

الحسن بن زيد وأخيه محمد من السادات الحسنيين خلافا للناصر الكبير الذى كان من السادات الخسينيين.

ولم تمض فترة طويلة حتى ثار أبو القاسم جعفر بن الناصر الكبير على الداعي الصغير - خلافا لأخيه، وتحالف مع محمد بن صعلوك بالرى ضده. وفى (٣٠٦هـ) هاجم آمل لكن أهلها طردوه عنها لظلمه ولحسن سيرة الداعى الصغير فيها وكفاءته وسياسته الطيبة. ودخل الداعى آمل (٣٠٧ هـ) وأرسل قائده (ليلى بن نعمان) فى السنة التالية إلى خراسان، فاستولى ليلى على نيسابور وهاجم طوس لكنه هزم من السامانيين بها فى عام (٣٠٩ هـ) وقتله قائد جيش نصر السامانى[١].

كان نصر بن أحمد السامانى فى قلق دائم لسيطرة الداعى وأصحابه على جرجان وخراسان، فجرد جيشا قوامه ثلاثون ألفا يقودهم أحد قائديه الترك، (قراتكين) فى عام (٣١٠ هـ) وأنفذه إلى جرجان. وقد تحالف فى هذه الحرب أبو القاسم جعفر مع أعداء الداعى مرة أخرى، ثم ما لبث أن انضم إليه أبو الحسين أحمد زوج إبنة الداعى. ومع أن الداعى هزم أبا الحسين وضمه إليه، لكنه لم يستطع مقاومة جيش قراتكين وأبى القاسم جعفر، فالتجأ إلى الاسبهبد محمد بن شهريار بن فادوسبان. لكن الاسبهبد قبض عليه بنذالة وأرسل به إلى عامل الخليفة العباسى بالرى. وبعد فترة من الزمن تمكن الداعى بعون أحد الأمراء الجيليين من الهرب من السجن وأتى جيلان، وبعد أن لم شعث جنده المتفرقين ضبط

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٧٥، محمد السعيد، دولة الإسماعيلية فى إيران، القاهرة ١٩٧٥. ص٥١.

آمل وسارى وهزم ابنى الناصر الكبير فى جرجان، ثم تصالح مع أبى الحسين أحمد أبى زوجته[١].

وسير نصر بن أحمد السامانى لدفع الداعى هذه المرة (سيمجور) قائده المعروف إلى جرجان التى كانت محل النزاع الدائم بين السامانيين والسادات العلويين. وكان الأمير سيمجور لا يميل إلى مقاتلة الشيعة العلويين بسبب ميله إلى الشيعة الاسماعيليين، لهذا دعى الداعى إلى الصلح وطلب منه أن يترك له جرجان، لكن الداعى لم يقبل فاشتعلت الحرب بينهما فى عام (٣١٠ هـ). وهزم الداعى وأبو الحسن صهره الجيش السامانى. لكن المنهزمين انقلبوا بغتة وهاجموا جيش الداعى وألحقوا به هزيمة ثقيلة فر على أثرها الداعى إلى آمل وأبو الحسين إلى جرجان، وقد رافق الداعى فى فراره هذا قائدان من قواده كانا من رؤساء الديلم أولهما (ما كان بن كاكى)، والثانى (على بن بويه)، وعلى هذا هو من تلقب بعد بعماد الدولة وأسس مع أخين آخرين له أسرة ديالمة آل بويه التى ذاع صيتها فيما بعد.

وسرعان ما جهز الداعى وأبو الحسين وما كان وعلى بن بويه جيشا أخرجوا به سيمجور من جرجان فى آخر ذى الحجة من سنة (٣١٠هـ) وعادت هذه البلدة مرة أخرى إلى سيطرته وأناب الداعى أبا الحسين فى حكم جرجان. وفى السنة التالية تآمر أبو الحسين مع أخيه أبى القاسم وما كان بن كاكى ورئيس آخر من رؤساء الديلم ومن أصحاب ماكان اسمه (أسفار بن شيرويه) على أن يستأسروا الداعى، ففر الداعى خفية وأطبق المتحالفون على طبرستان. ولم تمر فترة طويلة حتى مات

---

(١) ابن خلدون، نفس المصدر ، ج٣، ص٤٧٥.

أبو الحسين في رجب من سنة (٣١١ هـ) ، واستقل أبو القاسم بطبرستان لكن حكمه لم يدم أيضا إذا رحل بعد أخيه بعام عن الدار الدنيا[١].

وبعد موت أبى القاسم بايع ابنه (ما كان) وابن عم له اسمه (حسن ابن فيروزان) أحد رؤساء الديلم، لكن سرعان ما اشتعل النزاع بين ابنه هذا وما كان، وانهزم ما كان وتوراى. ولكن فكرة استيلائه على جرجان وطبرستان لم تبرح مخيلته، فكتب رسائل عدة إلى الداعى الصغير المختص بأحد الجبال ليخرج ويستوليا على طبرستان من (السيد أبى جعفر) وهو ابن آخر لأبي الحسين كان قد خلف أخاه. فلم يقبل الداعى هذه الدعوة. فقدم ما كان لحرب السيد أبى جعفر منفردا، لكنه لقى منه ومن أسفار بن شيرويه الذى تحول عنه وانضم إلى أبى جعفر الهزيمة. وبعد مدة جمع مرة أخرى جيشا وانضم إليه هذه المرة الداعى الصغير وهرب أمامهما السيد أبو جعفر وأسفار.

وفى عام (٣١٤ هـ) قدم نصر بن أحمد السامانى بنفسه إلى طبرستان ليزيل شر الداعى الصغير كلية، لكن عمال الداعى قطعوا عليه الطرق وخربوا كل جادة وجسر، فانحصر الأمير نصر ولم يستطيع الخلاص إلا بعد أداء ثلاثين ألف دينار إلى الداعى. وسلك بهذا طريقه إلى الرى. وفى عام (٣١٥ هـ) هزم ما كان أسفارا مرة أخرى، فاستوحش منه الداعى الصغير ولجأ إلى جيلان، فأعاد ما كان الداعى باصرار تام، ثم حمل الاثنان على الرى واستوليا عليها من محمد بن صعلوك.

وفى أثناء غيبة الداعى وما كان، قدم أسفار من خراسان إلى جرجان مع جيش سامانى واستولى على جرجان باسم الأمير نصر

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٧٦.

السامانى وذلك فى عام (٣١٥ هـ). وبعد ذلك استدعي قائدا من الديلم سمى (مرداويج بن زيار) وجعله قائد جيشه، وتمكن القائدان من استخلاص طبرستان. وعجل الداعى مخالفا لرأى ما كان إلى آمل من الرى لكى يهزم أسفارا، لكنه هزم وقتله أتباع أسفارا بالقرب من سارى فى سنة (٣١٦هـ)[١].

وبعد مقتل الداعى زحف أسفار بجيشه إلى الرى، وفى سنة (٣١٦هـ) أو (٣١٧هـ) استصفاها من ماكان الذى فر إلى الديلم. وبدأ من هذا الوقت صراع بين أسفار ومرداويج وأخيه (وشمكير) وما كان وحسن فيروزان ـ كما سيلى فى تاريخ الديالمة- حتى قتل أسفار بيد مرداويج فى سنة (٣١٦ هـ) وماكان بيد (أبى على الجغانى) فى عام (٣٢٩ هـ)، وخلا الميدان لوشمكير وأولاد بويه الصياد وسلمت لهم جيلان وطبرستان.

ومنذ عام (٣١٦ هـ) سنة قتل الداعى الصغير حتى عهد تسلط الديالمة الكامل على طبرستان، كان عدد من العلويين بطبرستان وجيلان مجرد آلات بيد الأعداء السابقين لكن لم يك لأحدهم السيادة الفعلية، ولهذا السبب تعتبر سنة (٣١٦ هـ) ـ التى قتل فيها الداعى الصغير- نهاية إمارة العلويين بطبرستان. وإن كان الإمام السيوطي يرى أن الدولة الزيدية الطبرستانية قد تداولها ستة رجال: ثلاثة من بنى الحسن، ثم ثلاثة من بنى الحسين: هشام الداعي إلى الحق الحسن بن زيد بالرى والديلم، ثم قام أخوه القائم بالحق محمد، وقتل سنة ٢٨٨ هـ، فقام حفيده المهدى الحسن بن زيد بن القائم بالحق، وقام بعده الناصر الأطروش، ثم قام بعده بالأمر ابنه الإمام محمد الهادى، ثم اعتزل الأمر، فقام به أخوه الناصر أحمد، ثم قام من بعده الثائر لدين الله جعفر بن محمد بن الحسن بن عمر الأشرف،

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٧٦.

وهو الذى ملك طبرستان بأسرها، ومات بها سنة ٣٤٥ هـ، وانقرضت دولته[١].

وخلاصة القول، أن الدولة الزيدية كانت فى مجرد أمرها حركة تمرد ورفض لأوضاع سياسية واقتصادية جائرة، لم يعتد أصحابها عليها فى هذه المناطق، ثم تطورت إلى حركة استقلالية ذات صبغة سياسية وعقائدية تهدف إلى التوسع ونشر المذهب الشيعى بين سكان المشرق[٢].

أسماء السادات العلويين بطبرستان وزمن إمارة كل منهم[٣].

١ - الحسن بن زيد الداعى الصغير (٢٥٠ - ٢٧٠ هـ)

٢ - محمد بن زيد أخوه، الداعى (٢٧٠ - ٢٨٧هـ)

(الحكام السامانيون)

٣ - الحسن بن على الحسينى، الناصر الكبير (الأطروش) (٣٠١-٣٠٤هـ)

٤ - الحسن بن قاسم الحسنى، الداعى أو الصغير (٣٠٤ - ٣١٦هـ).

---

(١) السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٨.

(٢) ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان، ص ٢٢٤، فتحى أبو سيف، المشرق الاسلامى بين التبعية والاستقلال، ص ١٧٨.

(٣) عباس إقبال، تاريخ إيران بعدالإسلام، ص ٣١.

الفصل الثالث

الدولة الصفارية

(٢٥٤--٢٩٠هـ/٨٦٧-٩٠٣م)

- تمهيد (التعريف بسجستان).
- أحوال سجستان قبل ظهور الصفاريين.
- ظهور الصفاريين:
- الدولة الصفارية:

- ولاية يعقوب بن الليث الصفار (٢٤٧-٢٦٥هـ).
  - (أ) سياسة يعقوب بن الليث الداخلية.
  - (ب) سياسة يعقوب بن الليث الخارجية (امتداد دولته وتوسعها).
  - (ج) الاستيلاء على خراسان والقضاء على دولة الطاهريين (٢٥٩هـ).
  - (د) الاستيلاء على طبرستان وفارس.
  - (هـ) تأزم العلاقات بين يعقوب الصفار والخلافةالعباسية.

  وفاة يعقوب مؤسس الدولة الصفارية (٢٦٥هـ/٨٧٨م).
- ولاية عمرو بن الليث الصفار (٢٦٥-٢٨٧هـ).
  - (أ) غزو عمرو بن الليث الصفار فارس فيعام (٢٦٨هـ).
  - (ب) صراع عمرو بن الليث مع رافع بن هرثمة.
  - (ج) قتال عمرو الصفار لاسماعيل الساماني وأسره (٢٨٧هـ).
  - (د) نهاية عمرو بن الليث فيبغداد (٢٨٩هـ).
- ولاية أبى الحسن طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث (٢٧٨-٢٩٦هـ).
- ولاية أبى على محمد بن على بن الليث.

  (المحرم من ٢٩٨ حتى ذى الحجة من نفس السنة).
- بقية الأمراء الصفاريون.

الفصل الثالث

الدولة الصفارية

(٢٥٤ – ٢٩٠ هـ / ٨٦٧ – ٩٠٣)

تمهيد(التعريف بسجستان):

تمثل هذه الدولة امتداد الحركة الاستقلالية إلى أحد أقسام خراسان الجغرافية، وهو القسم الجنوبى الشرقى، حيث توجد ولاية سجستان. وسجستان، أو(سيستان) ناحية كبيرة واسعة تنسب إلى سجستان بن فارس. وهى من الإقليم الثالث من أقاليم الأرض الذى يبتدئ من المشرق، فيمر على شمال بلاد الصين ثم الهند ثم السند، ثم كابل، وكرمان، وسجستان، وفارس والأهواز. والعراقين والشام ومصر والإسكندرية وبرقة وإفريقية، وينتهى إلى حد البحر المتوسط[1]. وسجستان يقال لها بالفارسية نيمروز، ومعناها نصف يوم أو الأرض الجنوبية. ويقال إن هذا الإقليم إنما سمى بذلك، لوقوعه فى جنوب خراسان. وسجستان كورة متصلة العمارة، قليلة المدن، كثيرة القصور، وقاعدتها مدينة زرنج، وكانت مدينة (زرنج) محكمة الحصن، عجيبة البنيان، وأهلها يتحلون بالشهامة، وهم أصحاب همة وعقل وفطنة، وفقه وحفظ، ودهاء وبهاء وأدب، وخطب، وهم كذلك حذاق في صناعتهم، ومتاجرهم عامرة، وزنج رخيصة المعايش والفواكه، ويسميها (المقدسى) بصرة خراسان، [2] وأهلها مهرة في البناء وتزينه. غير أن حيّاتها كثيرة، ولا يصاد في أرضها قنفذ ولا سلحفاة، لأنها تقتل الأفاعى، ولذلك قال (ابن الفقيه) ''لا

---

(١) إبن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٤٧، القزوينى، آثار البلاد، ص ١٣٨، ٢٠١، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٣٧٢ ومابعدها.

(٢) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٩٧، ص ٣٠٥.

يرى بسجستان بيت إلا وتحته قنفذ[1]". ومن مدن سجستان، بلدة قشفة، وهى مدينة حسنة، عليها حصن وخندق، وبها جامع، يقابله الحبس الذى بنى بناءا عجيبا، وله منارتان احداها من صفر (نحاس) بناها يعقوب بن الليث الصفار. وهناك أيضا كوين، وهى مدينة عظيمة ذات حصن كبير، وليس بها منبر، لأن أهلها من الخوارج. ومن مدن سجستان أيضا، زنبوك وهى مدينة ذات قسمين، جانب منهما للخوارج، والجانب الآخر يسكنه أهل الجماعة. ودرهند مدينة كبيرة، قريبة من الجبل. ومن أشهر مدن سجستان (بلدة قرنين)، وهى بلدة صغيرة وتعود شهرتها كما سنعرف أنها كانت مسقط رأس بنى الليث الصفار التى تنسب إليهم الدولة الصفارية، ويوجد بهذه المدينة جامع، ولها ربض، ونهر، أما بلدة بارنواذ، فليس بها خوارج، ولذلك يوجد بها جامع بمنبر، وعليها حصن عظيم، وتشتهر بذراعة الحبوب. ومن نواحى سجستان بلدة (باب الطعام)، وهى ناحية واسعة ذات قرى جليلة. (وكروادكن) وهى أقرب مدن سجستان إلى فارس، وبها منبر، ومنازلها من طين، وهى غير محصنة، وجامعها وسط البلد، ولكورة سجستان رباط في وجه الغور، يسمى (وررنك) يرابط به كثير من المرابطين والحراس المجاهدين بخيلهم المسبلة، وبها عدد وآلات كثيرة، ويقصدها أهل سجستان من كل جانب[2]. والرياح لا تهدأ أبدا بسجستان، ولذلك شيدوا عليها الأرحاء لطحن الغلال، وكانت شدة الرياح تنقل الرمل من مكان إلى آخر، ولولا أن أهلها كانوا يحتالون لنقل هذه الرمال لطمست على المدن والقرى. وأهلها من خيار الناس، ووصفهم (محمد بن بحر الذهبى) بقوله"لم تزل سجستان مفردة بمحاسن

---

(١) القزوينى، نفس المصدر، ص ٢٠٢.

(٢) إبن حوقل ، نفسه ، ص ٣٥٣، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص٢٩، ٣٠٥.

لم تعرف لغيرها من البلدان، وما فى الدنيا سوقة أصح معاملة ولا أكثر مجاملة منهم، ثم مسارعتهم إلى إغاثة اللهيف ومؤاساة الضعيف، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ولو كان فيه جدع الأنوف، وأجلّ من هذا كله أنهم امتنعوا على بنى أمية أن يلعنوا على بن أبى طالب على منبرهم"[١]. ومعظم أهل سجستان من الخوارج، ويذكر الإمام عبد القادر البغدادى أن رجلان من الخوارج الذين خرجوا على الخليفة على بن أبى طالب فرأ بعد هزيمتهم أمامه فى معركة النهروان (٣٧هـ)، وساروا إلى سجستان، فنشرا بها مذهبهم. ولذلك فهم يثلبون الإمام على بن أبى طالب[٢]، مما يدلل على رسوخ المذهب الخارجى هناك منذ بداية ظهوره كحزب معارض للحكومة الإسلامية، ورغم تعدد فرق الخوارج التى وصلت إلى عشرين فرقة كما يذكر البغدادى، إلا أن ما عرف منها فى سجستان قليل، مثل فرقة النجدات أتباع نجدة بن عامر الحنفى (٣٦ – ٦٩هـ) وخاصة فرع (العطوية) الذين صاروا مع عطية بن الأسود الحنفى وهو من علماء الخوراج[٣]، إلى سجستان، وتبعهم خوارج سجستان، ولهذا عرف خوارج سجستان فى ذلك الوقت (بالعطوية)، وفرقة الصُفرية أتباع زياد بن الأصفر، وفرقة العجاردة أتباع عبد الكريم بن عجرد أحد أصحاب عطية بن الأسود الحنفى، وعرف من العجاردة بسجستان فرقة الحازمية، أتباع حازم بن على، وهم أكثر عجاردة سجستان؛ وفرقة الحمزية أتباع (حمزة بن أكرك) الذى عاش فى سجستان، وكان فى الأصل من العجاردة الحازمية، ثم خالفهم فى باب القدر والاستطاعة، فأكفرته

---

(١) القزوينى، نفس المصدر، ص ٢٠٢.
(٢) عبد القادر البغدادى، الفرق بين الفرق، ص ٧٧.
(٣) الشهر ستانى، الملل والنحل، حـ١، ص ١٧٩ – ١٩٤.

الحازمية فى ذلك. وكان ظهوره فى أيام هارون الرشيد فى سنة (١٧٩هـ)[١].

وتجدر الإشارة إلى أن أفكار الصفرية قد غلبت على خوارج سجستان، وأصبحت هذه الولاية كما يقول المؤرخ المجهول (صاحب تاريخ سيستان) من أهم معاقل الخوارج الذين كانوا يفرون إليها هربا من عقاب الحكومة العباسية. ولقد ظل هؤلاء الخوارج فى سجستان خطراً يهدد سلطة الدولة العباسية ونوابها الطاهريين أصحاب خراسان[٢].

أحوال سجستان قبل ظهور الصفاريين:

كانت سجستان كما ذكرنا احدى مقاطعات إقليم خراسان، وكانت تتبعه سياسيا، ومن أهم أحداثها في عهد العباسيين، فتنة حمزة بن أكرك الخارجى الذى عاش في سجستان، وخراسان، ومكران، وقهستان، وكرمان. وكان هذا الثائر قد خرج على الخليفة هارون الرشيد في سنة ١٧٩هـ، واستمرت فتنته فترة طويلة من حكم الخليفة المأمون. ويذكر ابن خلدون أن الثائر حمزة بن أكرك انتهز فرصة خروج طاهر بن الحسين والى خراسان لقتال رافع بن الليث الثائر على خلافة الرشيد في سمرقند من بلاد ما وراء النهر، وأعلن عصيانه، وعاث في نواحى خراسان لخلائها، الجند، وامتدت طاعته إلى هراة، وسجستان، فحمل عمالها إليه الأموال[٣].

ولما استولى حمزة بن أكرك على بعض البلدان، اتخذ له حاشية، وكوّن فرقة من الجند لحراسته، جعل على قيادتها عمرو بن صاعد،

---

(١) البغدادى، الفرق بين الفرق، ص ٨١ ـ ٩٣.
(٢) مجهول، تاريخ سيستان، ص ١١١، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٣٠.
(٣) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٢٨٧.

واتخذ ابا يحيى يوسف بن بشار قاضيا، ومدحته شعراء الخوارج مثل طلحة بن فهد، بعد انتصاره على بعض فرق الخوارج كالبيهسية، والحازمية، وقتله الكثير منهم، فسمّوه أمير المؤمنين[١].

ولما خشى العباسيون من تزايد قوة هذا الثائر الخارجي، زحف إليه أحد قوادهم ويدعى عبد الرحمن النيسابوري فى عشرين ألفا، وذلك فى عام ١٩٤هـ، فهزمه الثائر الخارجي وقتل من أصحابه خلقا كثيراً، وأتبعه إلى هراة، حتى كتب المأمون – وكان يتولى القسم الشرقى من الخلافة العباسية إليه وردّه عن ذلك[٢]. ولكن الثائر الخارجي قصد بعد ذلك هراة ليستولى حينئذ عليها، فمنعه أهلها من دخولها، واستمرت الحرب بين قوات الثائر وجيش عمرو بن يزيد الأزدى والى هراة عدة شهور، ولكنها أسفرت في النهاية عن مقتل ابن يزيد والى هراة. فتجرد على بن عيس بن ماديان والى خراسان لحرب حمزة الخارجي، ففر الثائر الخارجي بعد هزيمته إلى أرض سجستان، بعدما قتل من قادة العباسيين ستين رجلا، غير الجند، فلما وصل إلى سجستان منعه أهل زرنج العاصمة عن دخولها، ورغم استعراض قواته بالسيف فى صحراء زرنج، لإرهاب أهلها، إلا أنهم دافعوا ببسالة عن بلدهم ومنعوه من دخولها رغم تحايله على ذلك، فقطع نخلهم الذي يوجد بخارج أرضهم، وقتل بعض أهلها الذين كانوا على أبوابها. ثم عاد إلى كرمان[٣].

ويذكر صاحب تاريخ سيستان أن الثائر الخارجي، فى محاولة منه لجذب كثير من الأتباع والأنصار، ادعى نسبا فارسيا، فألحق نسبة (بزو

---

(١) البغدادى، الفرق بين الفرق، ص ٩١.
(٢) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٢٨٧ - ٢٨٨.
(٣) البغدادى، الفرق بين الفرق، ص ٩١ – ٩٢.

بن طمهاسب) البطل الأسطورى الفارسى، فزادت شعبيته وقوى جانبه حتى أنه استطاع الحاق بعض الهزائم بجيش ولاة سجستان[١]. فلما تمكن المأمون من الخلافة بعد التخلص من أخيه الأمين، كتب إلى الثائر حمزة الخارجى كتابا يدعوه فيه إلى طاعته، فما زاده ذلك إلا عتوا فى أمره وزيادة فى خارجيته، وعندما فوض الخليفة المأمون طاهر بن الحسين حكم خراسان، وسمح له بتأسيس الدولة الطاهرية، عهد إليه بالقضاء على فتنة الثائر الخارجى، فزحف طاهر بن الحسين لقتاله، ودارت بينهما معارك حامية الوطيس، قتل فيها من الفريقين حوالى ثلاثين ألفا أكثرهم من أتباع الخوارج، وفر حمزة إلى كرمان. غير أن هذه الهزيمة لم تفت فى عضد الثائر الخارجى، فعاود الثورة وطمع فى الاستيلاء على خراسان نفسها، لاسيما بعد أن استدعى الخليفة المأمون قائده طاهر بن عبد الله إبن الحسين، وأرسله إلى الإسكندرية. فأقبل الخوارج من كرمان نحو نيسابور، فخرج إليهم عبد الرحمن النيسابورى فى عشرين ألف رجل، ونجح فى الحاق هزيمة قاسية بحمزة وقتل الألوف من أنصاره، وفر حمزة من المعركة جريحا، ثم لقى حتفه متأثرا بجراحة هذه[٢]. ويعلق (عباس برويز) صاحب كتاب "تاريخ دو هزار وبانصد سالة إيران"، على ذلك بقوله أنه رغم أن معارضة فرقة الخوارج. بسلطة الطاهريين وعمالهم فى سجستان تأثرت بموت حمزة الخارجى فى عام ١٣ هـ / ٨٢٨م، إلا أن قوة الدولة الطاهرية حينئذ قد ساعدت على اضعاف نشاطهم كقوة معارضة، فمالط إلى التقوقع حتى تتاح لهم فرصة أخرى[٣].

---

(١) مجهول، تاريخ سجستان، ص١٥٩، فتحى أبو سيف، خراسان، ص٣١.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح٣، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٣) فتحى أبو سيف، خراسان. ص ٣١.

كما كانت سجستان ولاية خاضعة للطاهريين الذين كانوا يحكمون خراسان بتفويض من الخلافة العباسية، وكان أهلها شديدى الشكيمة يتطلعون إلى الاستغلال، ولقد توافرت عدة عوامل لظهور حركات المعارضة فى سجستان ضد نواب الطاهريين، فقد كانت ظروف سجستان الاقتصادية تدفع بأهلها إلى إعلان تمردهم ضد السلطة الحاكمة، وخاصة فى سنوات القحط الاقتصادى الذى كثيرا ما تعرضت له مدن وقرى سجستان، نتيجة جفاف التربة من شدة الحرارة فى أغلب أنحاء الإقليم، وشدة الرياح التى كانت تقتلع أمامها كل شىء، بالإضافة إلى قلة المياه الصالحة للزراعة وضعف مواردها الاقتصادية، فقد عانت مدن هذا الإقليم ونواحيه من القحط الاقتصادى الذى بدت مظاهره فى عام ٢٢٠ هـ/ ٨٣٥م، عندما جف ماء (هيرمند) أعظم أنهار سجستان، فلم تصل المياه إلى الأقليم، فاحترقت النباتات وتسبب ذلك فى ظهور المجاعات وللتدليل على أهمية نهر هيرمند للحياة فى إقليم سجستان قيل إن "سجستان هبة هيرمند" (١).

ورغم اهتمام الطاهريين بالقضاء على الاضطرابات فى إقليم سجستان، إلا أن الإجراءات التى اتخذوها لم تكلل بالنجاح، فقد فشل إبراهيم القوسى الذى قلده الأمير عبد الله بن طاهر أمير خراسان ولاية سجستان فى عام ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ م، فى القضاء على الفتن والقلاقل بها، بل زادت حدة هذه الاضطرابات بعدما تعرضت سجستان لمجاعة شديدة فى عام ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م. وظلت أحوال سجستان مضطربة واشتدت بها حركات المعارضة ضد حكم الطاهريين وخاصة فى مدينة (بست) القريبة

---

(١) مجهول ، تاريخ سيستان، ص ١٨٦، وهيرمند أو هيلمند، أو هندمند، كلها أسماء لهذا النهر، ومنبعه فى الجبال بين غزنة وباميان. راجع: لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٣٣٧، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٢٩.

كابل، فقد تزعم لواء المعارضة فى هذه المدينة أحد أعيانه ويدعى (صالح بن النضر الكنانى)، الذى أعلن تمرده على الطاهريين بسبب مقتل أخيه على يد عاملهم على سجستان، وزادت حركته اشتعالا بانضمام أهل بست له، ثم انتقل صالح بن النضر إلى مدينة زرنج عاصمة وقاعدة تمركز قوى المعارضة الشعبية حيث العيارين، وانضم بقوته إلى قوتهم لإسقاط الحكم الطاهرى بها. فترتب على ذلك ازدياد قوة العيارين الذين شملت سطوتهم ولاية سجستان بأثرها، بعد انسحاب عمال الطاهريين منها وتركهم هذه الولاية[1].

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المؤرخين الإيرانيين المعاصرين، يربطون بين ظهور جماعة (العيارين) فى سجستان، وبين ظهور الحركات الوطنية المناهضة لسلطان الخلافة أو نوابها من الطاهريين، على أساس أن جماعة العيارين ضمت الشباب الفارسى المرتبط بموطنه فى سجستان وغيرها من الولايات الفارسية. ويرى الدكتور فتحى أبو سيف أن هذه النظرة مبالغ فيها، حيث ارتبط ظهور العيارين بالقحط الاقتصادى الذى عانت منه سجستان، بسبب نقص مواردها الاقتصادية. لذلك فإن أغلب العيارين، فى سجستان كانوا من العاطلين الذين اضطرتهم الحاجة إلى الانضواء فى كنف رؤساء العياريين لكسب قوتهم اليومى، ومن خلال نظرة متأنية لتطورات الأحداث بسجستان، نرى أن ظهور العيارين قد ارتبط بالفعل بتدهور الأوضاع الاقتصادية، ولكنهم مثل غيرهم من عوام المدن الكبرى كانوا ينخرطون ضمن جماعات المطوعة للدفاع عن بلدهم عند تعرضها لخطر داهم، يؤكد ذلك ما اشتهر بها علمة سجستان من النجدة والاسراع إلى إغاثة الملهوف، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤١٨.

المنكر كما رأينا، ولذلك فقد انضموا إلي صفوف المجاهدين والمطوعين (الفتيان) لمجاهدة الخوارج، وحماية سكان سجستان من عبثهم.

واستنادا إلى رأى (بارتولد) الذى يقول بأنه لم يبق أمام الساخطين على الأوضاع الاقتصادية فى خراسان وما وراء النهر فى ظل حكم الطاهريين، إلا أن ينخرطوا فى سلك المجاهدين والمطوعين، ويرتحلوا إلى الثغور لقتال الكفار والملاحدة (الخوارج)، لاسيما وأن هذا الأمر كان لا يخلوا من الحصول على الغنائم والأسلاب، التى تعوضهم الآثار السيئة المترتبة على القحط الاقتصادى فى بلادهم. نستطيع تفسير الرأى القائل بتزامن ظهور جماعات العيارين، وظهور الحركات الوطنية المناهضة لسلطان بنى طاهر.

وتجدر الإشارة إلى أن (كرديزى) قد أطلق لفظ (العيارين) على هؤلاء المطوعة والمجاهدين، نظرا لما شاب بعض تصرفاتهم من سقطات أظهرتهم وكأنهم مرتزقة يعرضون خدماتهم حيثما يكون الجهاد وتوقع الغنائم، وتعريض حياة الحكام الذين استعانوا بهم وبخدماتهم للخطر على أيديهم. ولم تلبث جماعة المجاهدين هذه، أن أصبح لها تنظيم نقابى كغيرها من أهل الحرف فى المشرق[١].

كذلك فإن موقع سجستان الجغرافى المتطرف ناحية الشرق، وابتعادها عن مركز الخلافة العباسية، أغرى زعماء المعارضة السياسية والمذهبية الذين اعتنقوا فكر الخوارج (الذين تمسكوا بمبدأ الخلافة الجمهورية، بخلاف فكر السنة وحصرهم الخلافة فى قريش) بإعلان العصيان ضد حكم الطاهريين بحكم تبعيتهم للخلافة. كذلك ساعد على

---

(١) بارتولد، تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ص ٣٣٩، ٤٤٠.

ظهور المعارضة السجستانية، لحكم الطاهريين سوء معاملة عمال الطاهريين للأهالي، وتعسفهم معهم في جمع الخراج بشكل لا يتناسب مع امكانيات وموارد هذه الولاية، كما يذكر الكرديزى (ت ٤٤٠ هـ) صاحب (زين الأخبار) [١].

ظهور الصفاريين:

كانت أسرة الصفاريين خير دليل على ما ذكرناه بخصوص تطور نمط المعارضة في إقليم سجستان تلك المعارضة التي بدأت مع قيام المطوعة بجهاد الخوارج وعصيان الطاهريين، ثم انضمام العيارين للمطوعة وانخراطهم في صفوفهم لقتال الخوارج، وفي نفس الوقت للخروج من أزمتهم الاقتصادية الطاحنة، فقد انبعثت بين صفوف هؤلاء المطوعة (دولة الصفاريين) القوية التي وضعت حدا لحكم الطاهريين، وآل إليها زمام الأمور بفارس. ولم يقف الصفاريون عند هذا الحد بل حاولوا – كما سنرى – أن يمدوا سلطانهم على بلاد ما وراء النهر.

وينتمي مؤسس هذه الدولة يعقوب بن الليث بن معدل هو وإخوته الثلاثة عمرو وطاهر وعلي إلى مدينة قرنين بسجستان، وهي تقع على مرحلة من عاصمة الولاية زرنج، وذلك على يسار الذاهب إلى (بست). وكان يعقوب وإخوته يتعيشون جميعا على شغل أبيهم، وكان والدهم يعمل صفارا، وهي مهنة طلاء النحاس، مما جعله يعيش في ظل الحياة البائسة التي كان يحياها أهالي القرى السجستانية. وبعد مدة انتقل يعقوب إلى زرنج، وعمل أجيرا عند رجل صفار، وكان يتقاضى خمسة عشر درهما في اليوم لقاء عمله، (وفي رواية أخرى خمسون درهما)، [٢] أما أخوه

---

(١) فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٣٤.

(٢) بارتولد نقلا عن الكرديزى، تركستان، ص ٣٦٨.

عمرو فقد عمل (مكاريا) يعمل باكراء الحمير، بينما تجعله رواية أخرى نجارا[١] لكن يعقوب كان ذا فتوة، ولم تسمح له همته العالية أن يظل صفارا ويقضى عمره فى هذه الحرفة الحقيرة، فدخل فى زمرة العيارين، وانضم هو وإخوته إلى خالهم (كثير بن رقاق) وكونوا عصابة لقطع الطريق، ولقد تدرج يعقوب بن الليث فى سلك العيارية حتى وصل إلى رئيس جماعة، وعرف بشجاعته وحكمته بينهم، ومن ناحية أخرى فقد اشتهر يعقوب بكرمه فى بذل الأموال على أصحابه من هذه الجماعة وهى صفة لاشك تجعلهم يميلون إليه، ويستجيبون لأوامره، ومع ذلك لم يتجاوز جادة الانصاف، ولم يتخل عن رعاية جانب الفتوة وبعد النظر فى سرقه وقطعه الطرق. ويحدثنا (الكرديزى) أن يعقوب كان يقوم بتوزيع الأموال التى كان يتم جمعها من حراسة القوافل التجارية، أو التى كان يحصلها من كبار الأثرياء، على أصحابه من العيارين دون الاستئثار بها، كما كان يفعل غيره من قادة العيارين. فترتب على ذلك زيادة أعداد المنضمين إليه رغبة فى الحصول على المكاسب المادية[٢].

وفى تلك الأثناء، وفى خلافة الواثق العباسى (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ)، وإمارة طاهر بن عبد الله على خراسان وسجستان (٢٣٠ ـ ٢٤٨ هـ)، ثار فى مدينة (بست) رجل يدعى غسان بن النضر من كبار رجال سجستان، على حاكمها وهو ابن والى سجستان إبراهيم القوسى، فقبض عليه حاكم (بست) وقطع رأسه وصلب جسده. فأثار هذا العمل أكثر الناس

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم،ص ٣٠٦، مجهول تاريخ سيستان، ص ٢٠٠، القزوينى، آثار البلاد، ص٤٢٨، ابن الأثير، الكامل، ح٧، ص ١٨٤، بارتولد، تركستان، ص ٣٤٠.

(٢) مجهول، تاريخ سيستان، ص ١٩٨، بارتولد، تركستان، ص ٣٤٠، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٣٥.

الذين كانوا يذكرون غسان بالخير، وبعد ذلك بقليل التفوا حول أخي غسان صالح بن النضر الذى تابع الثورة، ولقيت ثورته وثورة أصحابه اهتماما كبيرا، ولما جرد إليهم حاكم بست جيشا لقتاله، انتقل صالح بن النضر بقواته إلى زرنج، وأخذ فى قتال الخوارج بها، وسمى أصحابه المتطوعة، وقيل له صالح المطوعي، وانضم إليه فى زرنج جماعة العيارين ومنهم يعقوب بن الليث الصفار، على الرغم من أنه كان فى بداية أمره خارجيا، ودرهم بن الحسن، وبفضل مساعدتهم استطاع الثائر الاستيلاء على مدينة بست، وعهد صالح إلى يعقوب فى هذا الوقت بقيادة جيشه، فكان هذا أول طريق المجد لهذا العيار السجستانى. ومن عام (٢٣٢ هـ - ٢٣٨هـ) تسلط صالح بن النضر بعون يعقوب وعصبته على بست تسلطا كاملا، وفى العام الأخير (٢٣٨هـ) بايع أهالى بست صالحا بن النضر أميرا عليهم وتركوا إليه خراجهم[١].

وكان يتولى رئاسة خوارج سجستان فى هذا الوقت شخص يدعى (عمار)، فأنفذ صالح بن النضر قائده يعقوب بن الليث يعاونه ودرهم بن الحسن لقتاله، فانهزم عمار برجاله الخوارج، غير أنه لم يستسلم وعقد تحالفا مع إبراهيم بن الحسين حاكم سجستان لقتال المتطوعة فى عام ٢٣٩هـ، ورغم أن الهزيمة قد لحقت بصالح بن النضر فى بداية المعركة، إلا أن كفته رجحت بعون يعقوب الصفار وأخيه عمرو، فوقعت الهزيمة بعمار الخارجى وحليفه إبراهيم بن الحسين، الذى اضطر إلى مغادرة ولايته وتركها فى أيدى المتطوعة، فاعتلى صالح بن النضر كرسيها.

---

(١) مجهول، تاريخ سيستان، ص ١٩٨، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٣٩٧، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٠٠ - ١٠٢.

غير أن الخلافات ما لبثت أن دبت بين الحلفاء، عندما رفض يعقوب الصفار ورفاقه أن يمتثلوا أوامر قائدهم صالح بن النضر بالإغارة على قصر والي سجستان، واعتذروا عن ذلك بحجة أن صالحا قد أغار على أموال باهظة من مال أهل سجستان، وأن التفكير في إغارة جديدة أمر يخالف أخلاق الفتوة، والعسكرية الرفيعة التى كان يتحلى بها يعقوب الصفار. فلما اطلع صالح على ذلك عمد إلى الفرار، فتعقبه يعقوب وأخواه وجماعته، ووقعت بين الطرفين حرب شديدة انهزم فيها صالح، وقتل طاهر أخو يعقوب، وكان ذلك في عام ٢٤٤ هـ. ويذكر ابن خلدون أن طاهر بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان (٢٣٠ – ٢٤٨ هـ) استطاع أن يتصدي لهؤلاء المتطوعة والعيارين وأخرجهم عن سجستان، وبايع الجند (درهما بن الحسين) على ولاية سجستان وذلك بعد فرار صالح بن النضر وظل يعقوب قائدا لجيشه، وحاكما لمدينة (بست)، وأظهر فى خدمته في حروبه مع الخوارج والمخالفين لحكمه شجاعة وكفاءة عظيمتين، حتى استلب ألباب الجند وأرواحهم[١]. وتذكر الروايات أن درهما بن الحسين اضطر أمام ارتفاع أسهم يعقوب بن الليث إلى الاعتراف بقدره، فمنحه بعض الألقاب التى تؤكد دوره القيادى داخل جماعة العيارين مثل لقب (سالار) أى قائد، فاستطاع يعقوب بحكمته ومهادنته لخصومه الحفاظ على تماسك جماعة العيارين، فازداد تقديرهم له[٢].

---

(١) ابن خلدون، العبر، ح٣، ص ٣٦٧، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص١٠٣.

(٢) مجهول، تاريخ سيستان، ص ١٩٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح٥، ص ٤٤٤، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٣٧.

فلما أتيحت له الفرصة بعد ذلك، تخلص من منافسة درهم أثناء غياب الأخير لقضاء فريضة الحج، والتى قبض عليه أثناء أدائها بتدبير من صاحب خراسان، وسجن فى بغداد فاجتمعت المتطوعة على يعقوب بن الليث، فقام بقتال السراة فظفر بهم، وأثخن فيهم وخرب قراهم، واشتدت شوكته فغلب على سجستان، وأظهر التمسك بطاعة الخليفة العباسى وكاتبه وأظهر أنه يعمل بأمره. ولذلك قاتل الشراة وملك سجستان "فأحسن الغناء فيه، وتجاوزه إلى سائر أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر"[1].

ولما أطلق درهم بن الحسين من حبسه ببغداد، وعاد إلى سجستان، وجد أن يعقوب قد أصبح سيد الموقف هناك، وقد علا شأنه بعد غياب درهم. ويذكر (بارتولد) أن يعقوب بن الليث قد كشف بأعماله العسكرية الجريئة التى قام بها ضعف شخصية الزعيم السابق للمتطوعة، فازداد تمسكهم به واجتمعوا على زعامته، والتفوا حوله لما رأوه من حسن تدبيره وسياسته وقيامه بأمورهم، بعد عودة درهم بن الحسين، الذى اضطر مرغما أمام هذا الموقف أن يساير اتجاه الجماعة، وأن يتنازل عن الزعامة ليعقوب وينخرط فى زمرة أصحابه، وذلك فى يوم الأحد السادس من المحرم من عام ٢٤٧هـ / ٢٢ من مارس ٨٦١ م.

ومن هذا يتبين أن يعقوب بن الليث على غير ما يرويه اليعقوبى فى (تاريخه) قد بذغ نجمه منذ عهد الأمير طاهر بن عبد الله[2]. وبهذه الطريقة استطاع هؤلاء المتطوعة أن يقيموا نوعا من الديمقراطية فى

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٧، ص ١٨٤، ابن خلدون، العبر، ح٣، ص٣٦٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح٥، ص ٤٤٥، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص٤٥٨.

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٣٤١.

اختيارهم رئيسا من بينهم، هو أكثرهم كفاءة، وهذا النظام أتاح الفرصة لذوى المواهب لتولى المناصب القيادية[١]. غير أن درهما بن الحسين لم يركن إلى هذا الوضع الجديد، وعز عليه أن يفقد ملكه وجاهه ومقامه بين صفوف جماعته، فتآمر على قتله، ولكن يعقوب بن الليث علم بهذه المؤامرة، فسارع بكشفها أمام قادة العيارين، وصرع أعداءه، وألقى بدرهم فى السجن ثم قتله بعد ذلك، ليصبح قائدا وأميرا لشعب سجستان[٢].

---

(١) محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية، ص٥٨.

(٢) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٠٣، فتحى أبو سيف، نقلا عن الجوزجانى، خراسان، ص ٣٧.

الـــدولـــة الصــفــاريــة

ولاية يعقوب بن الليث الصفار (٢٤٧ – ٢٦٥هـ):

لم تكن مبايعة المتطوعة لزعيمهم يعقوب بن الليث الصفار أميرا على سجستان، أنه أصبح بذلك سيد الولاية بلا منازع، فقد كانت هناك قوى محلية تناصبه العداء والخلاف. kإأن ذ ١

ولذلك شغل نفسه منذ البداية بتصفيـة جيـوب المعارضـة لحكمـه، وتقويـة سلطته بسجستان، وكسب مودة وثقة أهلها حتى إذ نجح فى توطيد أركـان دولته، يسعى بعد ذلك فى مد نفوذه والتوسع على حساب الأقاليم المجاورة له.

(أ) سياسة يعقوب بن الليث الداخلية:

بعد أن فرغ يعقوب من مشاكله الداخلية الخاصة بجماعته العيارية فى زرنـج، بدا ينظر إلى ولاية سجستان والقوى السياسية والعسكرية بها، لعله يستعين بها لصالح أهدافه التوسعية، ففى عام ٢٤٨ هــ ، أنـاب أخـاه عمرا على سجستان ليتفرغ لقتال صالح بن النضر فى مدينة (بست). فلمـا علم صالحا بذلك أخلى بسـت، وخـرج منـها وهـاجم مدينـة زرنـج عاصمـة سجسـتان مـن طريـق آخـر، وأوقـع عمرو بـن الليـث فى أسـره ، فتحـرك يعقوب بسرعة عائدا إلى سجستان لإنقاذها واستخلاص أخـاه مـن قبضـة صالح بن النضر، فاشتبك معه فى معركة وهزمـه، فاتجـه صـالح بعد هذه الهزيمة إلى حدود (كابل)، ولجأ إلى ملـك القسـم الشـرقى مـن أفغانسـتان، وكان مشركا وكان يلقب بلقب (رتبيل) أو (زنبيل) وتعنـى (راكب الأفيـال)، دلالة على السلطان، وتحالف معه علـى حرب يعقـوب بـن الليـث، وجـرت

الحرب بين يعقوب وصالح وحليفه رتبيل فى عام ٢٤٩ هـ، على مقربة من بست. وفى البداية انهزم يعقوب وساء موقفه، لكنه أعاد ترتيب قواته من جديد، وحمل حملة صادقة على قوات منافسيه، فدارت الدائرة على قوات ملك شرق أفغانستان وقتل من رجاله مقتلة عظيمة، فولى أعداؤه فارين، وقد أسر يعقوب فى هذه المعركة حوالى ثلاثين ألفا من الجنود، وغنم غنائم كثيرة، منها أربعة آلاف فرس. وترتب على ذلك أن انضم إليه كثير من أصحاب صالح وزنبيل، فاستغل يعقوب هذا التخبط فى صفوف صالح بن النضر وفراره، فأرسل من يتعقبه، فأسره وصفده، وظل بحبس يعقوب إلى أن مات فى عام ٢٥١هـ[١].

أما بخصوص الخوارج، فقد أجرى يعقوب اتصالات ودية مع زعماء الخوارج كافة فى أنحاء سجستان، فاستجاب له أغلبهم واعترفوا بزعامته[٢]. حتى أن أحد ثوارهم أصبح من كبار معاونيه، فقلده الصفار أمر جماعته نيابة عنه. ويذكر المؤلف المجهول صاحب (تاريخ سجستان) أن يعقوب أرسل رسالة ودية إلى عمار الخارجى زعيم خوارج سجستان لكسب وده، طالبا منه أن يتحالف معه ضد الطاهريين والخلافة العباسية. ويرى "دكتور فتحى أبو سيف أن الصفار أراد أن يضم قوة الخوارج إلى قوته على أساس إقليمى، هو التعصب سجستان كولاية يعيش على أرضها الخوارج مع العيارين، وتمثل كل منهما قوة عسكرية لا يستهان بها[٣].

---

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٠٣ - ١٠٤.
(٢) بارتولد نقلا عن نظام الملك، تركستان، ص ٣٤١ (هامش ٢٥٤).
(٣) مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢٠٣، فتحى أبو سيف، خراسان، ص

ورغم ما تدل عليه هذه الرسالة من تفاهم بين قوتي العيارين بقيادة يعقوب، والخوارج بقيادة عمار الخارجي، إلا أنه فيما يبدو أن كلا الطرفين قد علم بنوايا الآخر السيئة، التي سرعان ما عبرت عن نفسها بهجوم العيارين المباغت على قوى الخوارج المتحصنة في بلدة (نيشك) احدى مدن سجستان[١]. فأرغم يعقوب الخوارج على التقهقر وألحق بهم هزيمة قاسية، حتى أن عماراً قد أقدم على الانتحار كما يذكر ابن خلكان[٢]. غير أن الرويات الفارسية تذكر أنه قتل في حربه مع يعقوب الصفار، في عام ٢٥١هـ، فنصب يعقوب رأسه على احدى بوابات مدينة سجستان، أما الجسد فعلق على بوابة أخرى[٣]. وزالت بموته شوكة الخوارج، ودخل أكثريتهم في طاعة يعقوب وخمدت فتنتهم، فخلت بذلك سجستان من قوة الخوارج كقوة مؤثرة، وتمكن يعقوب من بسط سيطرته على ولاية سجستان، فعين من قبله عمالا على مدنها ونواحيها.

وهكذا حسم يعقوب بن الليث الصفار الصراع بين القوى المحلية المتصارعة في سجستان لصالح أهدافه، حيث إعتمد على جماعة العيارين، بعد ما استكمل لها تنظيماتها وقياداتها، مما مكنه من السيطرة على ولاية سجستان بأكملها[٤].

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٤٤٥، ونيشك ناحية عامرة وتقع شرق زرنج، وبها سمي الباب الشرقي لزرنج، حيث أطلق عليه "باب نيشك" (لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٣٨١).

(٢) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص١٠٤.

(٣) مجهول، تاريخ سيستان، ص٢٠٣.

(٤) فتحي أبو سيف، خراسان، ص٤٠.

(ب) سياسة يعقوب بن الليث الخارجية (امتداد دولته وتوسعها):

لم تقتصر أهداف يعقوب الصفار التوسعية على ولاية سجستان فحسب، وإنما دفعته أطماعه إلى توسيع رقعة بلاده وتأمينها من الأعداء المتربصين بها. ففي عام ٢٥١هـ، وبعدما قضى على قوة صالح بن النضر، نراه يوجه قواته شرقا نحو كابل التي كان حكامها يرتبطون بمعاهدات مع الخلافة العباسية، يدفعون بمقتضاها مبالغ مالية مقابل اقرار العباسيين لولاتهم الذين كانوا يتلقبون بلقب (زنبيل) على ولايتهم. والسبب وراء اقدام يعقوب على غزو كابل هو مساعدة حاكمها زنبيل لمنافسة صالح بن النضر الكناني كما رأينا. ولقد ألحقت قوات يعقوب بزنبيل هزيمة قاسية في نفس العام (٢٥١ هـ / ٨٦٥ م) ودخلت كابل، لتعلن تبعيتها منذ ذلك الحين لأملاك الصفاريين في سجستان، كما يذكر (عبد الحي حبيبي) صاحب "تاريخ مختصر أفغانستان".

غير أن انشغال يعقوب بن الليث بحروبه في الجبهة الغربية (كرمان، فارس)، كما سنرى، قد أتاح الفرصة لإثارة القلاقل والاضطرابات في كابل من جديد، فقد استغل أحد كبار رجال الدولة السابقين بكابل والذى كان سجينا بالقرب منها، هذه الظروف وفر من حبسه في عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩م، وقاد بعض أنصاره من معارضي الحكم الصفاري لتحرير بلاده منه. فلما علم يعقوب بامر هذه الثورة، زحف بقواته نحو (الرخج) (الرخد) شرق مدينة بست على طريق كابل حيث تمركزت فيها قوات (ابن رتبيل)، فاستطاع وأد هذه الحركة في مهدها، واستعاد سيطرته من جديد على كابل. وكانت هذه المدينة إلى هذا الوقت في يد البوذيين، خارجة عن طاعة المسلمين، وخرب كثيرا من معابد أصنامها بصفته مجاهدا غازيا، وحمل منها غنائم ضخمة من بينها عدد

من الأصنام الذهبية والفضية البوذية، وأرسل خمسين منها هدية للخليفة المعتمد ليظهر له خدمته للإسلام. ثم زحف منها إلى بعض المدن المجاورة لها التى تقع على حدود سجستان الشرقية مثل غزنه وكرديز فى بلاد الهند للسيطرة عليها، فتم له ذلك فى عام ٢٥٦هـ/ ٨٦٩ م، فأكد بذلك أمن وسلامة جبهته الشرقية(١).

وعلى هذا فإن يعقوب بن الليث الصفار كان أول مجاهد مسلم يعمل على نشر الإسلام فى شرق أفغانستان، ومد من اتساع انتشار هذا الدين حتى حدود القسم الأعلى لوادى السند قبل الغزنويين والغوريين(٢).

ولقد كان يعقوب بن الليث يهدف إلى السيطرة على خراسان أهم الولايات الشرقية سياسا واقتصاديا ومركز حكم الطاهريين، ذلك لأنه لم يكن آمنا على حكمه فى سجستان لعدم اعتراف الخلافة العباسية بشرعية حكمه حتى ذلك الحين (٢٥١هـ / ٨٦٥ م)، كما كان متخوفا من محاولة الطاهريين استعادة سلطاتهم على ولاية سجستان من جديد. ولذلك توجه إلى فتح (هراة) فى عام ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م، بعد أن سلمت له شرق أفغانستان، وتتمثل أهمية هراة فى أنها كانت بوابة خراسان الشرقية(٣).
وكان يحكم هذه المدينة للطاهريين أمير يدعى (محمد بن أوس الأنبارى)، فلما أغار يعقوب على هراة، أغلق واليها المدينة أمام المهاجمين، فاضطر يعقوب إلى حصارها، وبعد فترة من القتال استولى العيارون على هراة

(١) بارتولد، تركستان، ص٣٤٢، فتحى أبو سيف، خراسان، ص٤٦.
(٢) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٠٧.
(٣) هراة من أعظم مدن خراسان، ولم يكن بخراسان مدينة أجل ولا أعمر منها، ولا أحصن، ولا أكثر خيرا منها. وهى من بناء الإسكندر الأكبر، وتشتهر بصناعة الأوانى الصفرية المطعمة بالفضة، وتصدر منه إلى سائر البلاد (القزوينى، آثار البلاد، ص ٤٨١، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٢٣-٣٢٤، ٤٥٠-٤٥١).

بعد هزيمة محمد بن أوس، فأرسل الأمير محمد بن طاهر حاكم خراسان (٢٤٨ - ٢٥٩ هـ / ٨٦٢ - ٨٧٢ م) قائده إبراهيم بن إلياس بن أسد الساماني بجيش إلى (بوشنج) لدفع يعقوب وقواته، فترك الأخير أخاه عليا على هراة، وأسرع لمقابلة إبراهيم بن إلياس فهزمه واستخلص بوشنج منه أيضا. فعظم قدره وخافه أمير خراسان وغيره من أمراء الأطراف. وكان استيلاء يعقوب على هراة أول احتكاك مباشر بينه وبين الخلافة في عهد المعتز[١].

وكانت سيطرة يعقوب على هذه المدن الخراسانية من أهم العوامل التي شجعته على الدخول في مغامرات سياسية أخرى ، لكي يمد رقعة بلاده ويوسع مساحة نفوذه، وهذا ما أعلنه بالفعل وجعله منهاج حياته، فقد كان يردد دائما أنه عليه هو وجماعته أن يحفظ سجستان من شر الأجانب (يقصد الطاهريين)، وفوق ذلك يزيد على اتساعها بضم الولايات التي تقع على أطرافها. ولهذا فقد اتجه فكره إلى الإستيلاء على كرمان وفارس. وكانت (كرمان) جزءا من أملاك الطاهريين [٢] ، ولكن بسبب ضعف الأمير محمد بن طاهر، فلم يك لهذه الأسرة فيها أدنى نفوذ. وطمع والي فارس (علي بن الحسين) من قبل المعتز العباسي في ولاية كرمان

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٨٥ ، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٦٧، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص١٠٥. وتقع بوشنج أو فوشنج على مسيرة يوم من غرب هراة، وكانت تشتهر بأخشاب العرعر الذي يصدر إلى سائر النواحي، ولبوشنج أو بوشنك كما يذكر ياقوت الحموي سور وخندق وثلاثة أبواب (لسترنج، نفسه، ص٤٥٣).

(٢) كرمان ، ناحية مشهورة، يحدها شرقا مكران، وغربا فارس، وشمالا خراسان، وجنوبا بحر فارس، وهي تنسب إلى كرمان بن فارس، وهي بلاد واسعة الخيرات ، وافرة الغلات، وجعل المقدسي إقليم كرمان خمس كور، وكان لاقليم كرمان في العصور الوسطى قصبتان ، هما السيرجان وبردسير، والأخيرة هي التي توافق مدينة كرمان الحالية (القزويني، نفس المصدر ، ص ٢٤٧،لسترنج ، نفسه ، ص ٣٣٧-٣٤١).

وكتب إلى الخليفة يطلبها لنفسه، وحجته فى ذلك ضعف آل طاهر وقلة ضبطهم لما آل إليهم من البلاد، وأن يعقوب بن الليث قد غلبهم على سجستان. ولما كان الخليفة المعتز يخشى من سطوة على بن الحسين هذا بسبب عصيانه واستيلائه على خوزستان والعراق، فقد فوض إليه حكم كرمان. وفى الوقت نفسه تطلع يعقوب بن الليث إلى كرمان، فطلب من الخليفة العباسى أن يوليه عليها. ولما كانت سياسة الخلافة ترمى إلى اضعاف كل من يعقوب بن الليث الذى يتحداها فى أملاكها الشرقية، وعلى بن الحسين الذى تباطأ فى حمل خراج فارس إلى حكومة بغداد، فكلاهما إذن كان يشكل خطرا على الدولة العباسية، لذلك كتب المعتز إلى كل منهما بولاية كرمان، هادفا من وراء ذلك أن يتولد العداء والقتال بينهما، فإذا هزم أحدهما الآخر سقطت مؤنة الهالك منهما، وانفرد بالآخر، فيستريح من شرهما[١].

أسرع على بن الحسين بإرسال خمسة الآف مقاتل بقيادة طوق بن المغلس إلى كرمان، فاستولوا عليها قبل وصول يعقوب إليها. فلما علم يعقوب بهذا الخبر وهو فى طريقه إلى كرمان، اضطر إلى النزول قبلها، ومكث بمنزله قرابة شهرين لم يبادر بالهجوم ولا تحرك لدفع قائد صاحب فارس، وفى النهاية لجأ يعقوب إلى الحيلة للاستيلاء على كرمان، فأظهر الاستعداد للعودة إلى سجستان، وابتعد عن كرمان بمرحلتين، فاعتقد طوق بن المغلس انصراف منافسه عن كرمان، فترك أمور الحرب وانشغل باللهو واللعب، فكر يعقوب عائدا وبلغ كرمان، وقامت الحرب بين الفريقين، وانتهت بانتصار يعقوب، وأسر طوق بن المغلس والإستيلاء

---

(١) الطبرى، تاريخ الأمم، ج١١، ص١٥٧،ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٨٥، إبن خلدون ، العبر، ج ٣، ص ٣٦٨، حيدر، الدويلات، الإسلامية، ص ٥٩.

على كرمان. وقد احتفظ المؤرخ المجهول صاحب تاريخ سيستان بطرف من حيل العيارين وخدعهم فى الحروب الخاطفة، أفادت فى أسر طوق بن المغلس، فقد لجأ أحد قادة يعقوب إلى حبل كان يستخدم فى الإلقاء به على بعض الأشخاص ثم جرهم من على صهوة الخيول ففعل قائد يعقوب هذا بطوق بن المغلس فوقع من على فرسه، وتمكن من أسره[١]. فلم علم على بن الحسين صاحب فارس بهزيمة قائده وأسره، تيقن أن خطوة يعقوب التالية هى الزحف نحو فارس للاستيلاء عليها، فحشد قواته أو كمن بها فى مضيق فى طريق يعقوب إلى (شيراز) عاصمة فارس، لكنه لم يستطع إلحاق الهزيمة بالصفاريين، بل هزم هو وأسر فى المواجهة معهم. وتقدم يعقوب بقواته ودخل شيراز فى ١٤ جمادى الأولى من سنة ٢٥٥هـ، فصلى بها داعيا للخليفة المعتز العباسى، وقد غنم يعقوب فى فتحه هذا غنائم كثيرة، وفى طريق عودته مظفرا إلى سجستان،أرسل يعقوب الهدايا من شيراز إلى الخليفة العباسى فى بغداد[٢].

وترجع الإنتصارات التى حققها يعقوب كما يذكر (القرمانى) صاحب (أخبار الدول) إلى التنظيم الدقيق الذى كون به يعقوب جيشه، فقد كان جنده يطيعونه طاعة تامة، كما كان لحصولهم على مكاسب مادية كبيرة من وراء هذه الإنتصارات، السبب فى ارتفاع روحهم المعنوية.

وبعد رحيل يعقوب بن الليث عن فارس عائدا إلى سجستان، عادت فارس إلى حظيرة الدولة العباسية، وأرسل الخليفة المعتز عماله

---

(١) مجهول ، تاريخ سيستان، ص ٢١٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص١٥، ووصف ابن خلدون (العبر، ج٣، ص٣٦٨)، هذه الهدايا بقوله " واهدى هدية جليلة يقال منها عشر بازات بيض، وباز الق صيني، ومائة نافجة من المسك، وغير ذلك من الطرف"، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٠٦، وقارن مع: فتحى أبو سيف ، خراسان، ص ٤١-٤٥، والمصادر المذكورة هناك.

إليها، فوليها الحرث بن سيما، وكان بها من رجال العراق محمد بن واصل، فاتفق مع أحمد بن الليث من الأكراد، للوثوب على واليها الحرث بن سميا، فنجحا فى ذلك وقتلوه، وتقدم (ابن واصل) واستولى على فارس فى عام ٢٥٦هـ(١). فلما انتهى يعقوب بن الليث من فتح كابل، عاد إلى بست كرمان عن طريق هراة، وتحرك قاصدا استعادة فارس ناحية شيراز فى عام ٢٥٧ هـ، وبلغ ذلك الخليفة المعتمد، فكتب إليه ينكر عليه ذلك، وأرسل أخاه وولى عهده طلحة الملقب (بالموفق) إليه، وأظهر سخطه عليه لتحركه إلى شيراز خلاف رغبته، وأعطاه عوضا عنها إمارة (بلخ وطخارستان) التى تمثل القسم الشمالى من أفغانستان الحالية فملكهما ثم عاد إلى سجستان وتغلب مرة أخرى فى عام ٢٥٨هـ على ابن رتبيل فى كابل وبعث إلى الخليفة المعتمد برسله وهداياه تأكيدا على طاعته له، وفتح بلخ، ثم هاجم هراة وبوشنج وكان أهلها قد أعلنوا طاعتهم للطاهريين مرة أخرى، وقبض على الحسين بن طاهر عم الأمير محمد الطاهرى وحمله معه إلى سجستان فبعث الأمير محمد بن طاهر إلى يعقوب يسأله إطلاق سراحه فلم يجب طلبه، لأنه كان يفكر فى دفع الطاهريين تماما عن خراسان، وكان يتصيد ذريعة لطردهم جميعا من هذا الإقليم(٢).

(ج) **الإستيلاء على خراسان والقضاء على دولة الطاهريين** (٢٥٩هـ):

هكذا تمكن الصفاريون بانتصاراتهم من مد أملاكهم فى المشرق، ومع ذلك حافظوا إلى حد كبير على إرضاء الخلافة العباسية التى لم تتردد

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٨٥.

(٢) الطبرى، تاريخ الأمم، ج١١، ص٢١٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٢٨، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٨٥ – ٢٨٦، محمد على حيدر، المرجع السابق، ص٦٠.

فى منح يعقوب ولاية كل المدن الواقعة تحت سيطرته. لذلك شعر الصفار بقوته ومرونة الخلافة معه، فأراد استغلال ذلك بضم المشرق كله تحت نفوذه، وهو يدرك تماما حالة الضعف التى تمر بها الدولة الطاهرية لكنه غاب عن باله أن الخلافة العباسية لن تسمح له بإزالة حكم الصفاريين من خراسان، وأنها سوف تعارض ذلك، إما لتخوفها من طموحه المطرد أو بتحريض من الطاهريين فى بغداد. ومما أغرى الصفار على الإقدام على فتح خراسان أنه ثبت سلطانه على الجبهات الشرقية فى كابل شرقا وكرمان وفارس غربا، ولعله أراد أن يستغل إمكانيات وموارد هذه الولايات الجديدة لتزويد جيشه بالمؤن فى الهجوم على خراسان.

ولقد تم فتح خراسان على مرحلتين، إتسمت الأولى منهما بطابع التهديد واستعراض القوة منذ عام ٢٥١هـ ، عن طريق بعض الغارات الخاطفة داخل حدود خراسان والإستيلاء على بعض مدنها منذ عام ٢٥١هـ مثل هراة وبوشنج، ثم انسحابه منها بعد حصوله على تنازل الأمير الطاهرى محمد بن طاهر على حقوقه فى حكم سجستان وكرمان وفارس، كما رأينا(١). أما المرحلة الثانية، فهى التى نجح فيها يعقوب بن الليث الصفار فيها من غزو خراسان والإستيلاء عليها وإسقاط حكم الطاهريين بها. فقد تقدم يعقوب بقواته نحو بلخ، وهى مدينة عظيمة من أمهات بلاد خراسان وتقع فى الجهة الشمالية الشرقية منها، وكانت تعرف بأم البلاد أو ببلخ البهية(٢). فى عام ٢٥٨هـ / ٨٧١ م، وذلك بعد حصوله على تقليد الخلافة بولايته عليها هى ومدينة طخارستان (طخبرستان) التى

---

(١) راجع: مجهول،تاريخ سيستان، ص٢١٦، فتحى أبو سيف، خراسان، ص٤٧ ـ ٤٩.

(٢) الإصطخرى، المسالك ، ص ٢٧٥-٢٧٨، إبن حوقل، نفسه، ص ٣٧٣-٣٧٤، القزوينى، آثار البلاد، ص ٣٣١-٣٣٣، لسترنج، نفسه، ص ٤٦٢-٤٦٥.

تقع إلى الشرق منها[١]. وقد استطاع يعقوب الإستيلاء على بلخ بعد هجوم شديد عليها، فاضطر عاملها من قبل الطاهريين ويدعى داود بن عباس إلى الفرار منها، مما يدل على مدى ما وصلت إليه الدولة الطاهرية من ضعف وتدهور. ثم سار يعقوب نحو (هراة)، فاستولى عليها بعد فرار واليها الطاهرى عبد الله بن محمد، فعين يعقوب عمالا من قبله على هذه المدن الخراسانية[٢].

وقد تهيأت الظروف لمهاجمة نيسابور عاصمة الطاهريين فى خراسان، فحينما كان يعقوب منشغلا بفتح طخارستان، ثار رجل من سجستان يدعى (عبد الله بن محمد بن صالح السجزى) مدعيا الإمارة، وقام هو وإخوته بقتال الصفاريين لكن يعقوب هزمهم، ففر عبد الله وأخواه بقواتهم من سجستان نحو خراسان، وحاصروا أميرها محمد بن طاهر فى نيسابور، فتدخل الفقهاء للاصلاح بينهم، فولاه الأمير الطاهرى ولايتى الطبسين وقهستان، وصار بذلك حليفا له ولاجئا إلى سلطانه بنيسابور. ولعل الطاهرى أراد بهذا التحالف أن يدعم قواته لمواجهة الصفاريين. فلما علم يعقوب بذلك، أرسل إلى الأمير الطاهرى يطلب منه تسليم هذا الثائر، فاستنكف الأمير الطاهرى عن طاعة أمره، وهيأ له بذلك ذريعة قوية ليهاجم نيسابور. وكان يعقوب يعلم جيدا أن آل طاهر هم نواب الخلافة العباسية فى هذه البلاد، فلم يرد أن يعلن حربه عليهم حتى لا يظهر الخليفة حركته أمام الناس بصورة العصيان والتمرد، فتحرك لهذا

---

(١) من نواحي خراسان بحذاء الضفة الجنوبية لنهر جيحون، ومن نواحيها سمنجان، وخلم، وطلقان، وبدخشان. وكانت طخارستان العظيمة تنقسم إلى قسمين، طخارستان العليا وهى فى شرق بلخ، وطخارستان السفلى وتقع فى جنوبها الشرقى على حدود بدخشان، (ياقوت الحموى، معجم البلدان، م٦، ص٣١، القزوينى، نفسه، ص٣٠٦، لسترنج، نفسه، ص٤٦٩).

(٢) تاريخ سيستان، ص٢١٦ - ٢١٧، فتحى أبو سيف، خراسان، ص٤٩ - ٥٠.

السبب إلى نيسابور، بحجة حرب علوى طبرستان الذين قاموا ضد العباسيين واستولوا على طبرستان من يد الطاهريين والعمال العباسيين، وكذلك لاستدعاء أهل خراسان أنفسهم له لتفريط ابن طاهر فى أمره[١].

زحف يعقوب بجيشه نحو نيسابور، وكانت لهذه المدينة أهميتها السياسية حتى أنه أطلق عليها (ايرانشهر)، أى مدينة إيران لكثرة عمرانها، وما أصبحت عليه من مكانة سامية فى عهد الطاهريين (كما يذكر ياقوت الحموى) فطلب عبد الله السجزى من الأمير محمد بن طاهر أن يمنع يعقوب، لكن محمدا رفض طلبه لشدة ضعف نفسه قائلا" لا طاقة لنا اليوم بيعقوب وجنوده" فاضطر عبد الله السجزى وأخواه إلى الهروب إلى الدامغان وجرجان، واعتصموا (بالحسن بن زيد الداعى الكبير) صاحب طبرستان، ومع اقتراب يعقوب إلى نيسابور مال جمع كبير من أتباع الأمير محمد الطاهرى وحاشيته إلى يعقوب، وأطلعوه سرا على سوء وضع الطاهريين وسهولة الإستيلاء على نيسابور، فكتب يعقوب إلى محمد بن طاهر أن سبب مجيئه إليه أنه يقصد طبرستان، وأن الخليفة المعتمد هو الذى أمره بذلك، وطمأنه أنه لن يتعرض لأعمال خراسان. وينقل بارتولد عن كرديزى رواية طريفة عن المحادثة التى جرت بين سفراء محمد بن طاهر ويعقوب الصفار، فقد أمرهم محمد بأن يقولوا لغريمه "إن كنت أتيت بأمر أمير المؤمنين، فأرنى عهدك ومنشورك حتى أسلمك المدينة، وإلا عد من حيث أتيت"، فكان رد يعقوب أن سحب السيف، وقال: "هذا عهدى ولوائى"، وفى الوقت نفسه بعث بعض قواده عينا عليه ليمنعه من مغادرة نيسابور، وقدم أخاه عمرا بن الليث إلى محمد بن طاهر فقبض عليه هو وأسرته وحبسهم، فلما وصل يعقوب إلى

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٢، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٨٦.

نيسابور فى الرابع من شوال من عام ٢٥٩ هـ ، مثل الأمير الطاهرى بين يديه، فتعرض إلى شماتة وتوبيخ الأمير المنتصر الذى كبله بالأغلال وأرسله ومعه نحو مائة وستين من حاشيته إلى سجستان وحبس الجميع بها، ووثب عماله على سائر أعمالها وسقطت بذلك الدولة الطاهرية على يد الصفاريين(١).

وقبل أن نطوى الحديث عن سقوط الدولة الطاهرية على أيدى الصفاريين، نقف أمام طبيعة استسلام مدينة نيسابور لهم، ونتساءل هل تم ذلك دون أدنى مقاومة، أم أن ثمة مقاومة قد واجهت الصفاريين عند دخولها؟! فيذهب بعض المؤرخين أن نيسابور استسلمت لجيوش الصفاريين دون مقاومة، بينما يذكر (بروكلمان) أن أشراف المدينة وأعيانها هم الذين سلموا المدينة إلى يعقوب بخيانة منهم للطاهريين(٢). ويرى الدكتور فتحى أبو سيف أن هناك من الدلائل التاريخية ما يؤكد على وجود مقاومة عنيفة من جانب أهالى نيسابور لقوات الصفاريين؛ فالمؤرخ (الحاكم النيسابورى) يذكر أن بعض أجزاء المدينة قد خربت بأيدى جند يعقوب نتيجة لمقاومة أهل المدينة للغزو الصفارى لها، كما يذكر المسعودى نقلا عن (البيهقى) نوعا آخر من المقاومة السلبية التى احتجت على اجتياح يعقوب لنيسابور، فقد رفض الأهالى الرضوح لسلطانه بحجة أنه لم يحصل على منشور الخلافة بولاية خراسان(٣).

---

(١) الطبرى، تاريخ الأمم، ج١١ص٢٣٢، ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٢، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٨٦، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص١٠٨ ـ ١٠٩ بارتولد، تركستان، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج٢، ص٥٦.

(٣) فتحى أبو سيف، خراسان، ص٥١ ـ ٥٢.

(د) **الإستيلاء علي طبرستان وفارس:**

وبعد أن دخل يعقوب الصفار نيسابور وقضى على إمارة الطاهريين بها فى عام ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م، ووطد أركان دولته، اتجه شمالا إلى طبرستان يحدوه الأمل فى الإستيلاء عليها هى وجرجان اللتين كانتا فى السابق من أملاك بنى طاهر، وأخفى يعقوب أطماعه التوسعية وتظاهر بأنه يريد عبد الله السجْزى الذى كان ينازعه على الرياسة فى سجستان، ثم هرب من نيسابور لاجئا إلى الحسن بن زيد صاحب طبرستان، لاسيما وأن هذا الثائر كان مشغولا فى تلك المناطق بجمع القوات لمعاونة الداعى الكبير، وعندما أشرف يعقوب على طبرستان أرسل إلى الداعى الكبير يطلب منه أن يسلمه عبد الله السجزى فرفض، فاتخذ من ذلك ذريعة لتحقيق هدفه، وعبر الطريق إلى طبرستان فى سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م، والتقى الجيشان فوقعت الهزيمة بصاحب طبرستان، فانهزم إلى أرض الديلم وعسكر فى (سارية)، فسار يعقوب من جرجان إلى (طحيس) فافتتحها ثم سار إلى سارية، فقام الحسن بن زيد بعرقلة زحفه إليها، عندما خرب القناطر ورفع المعابر وعور الطريق، وعسكر – أى الحسن- على باب سارية متحصنا بأودية عظام، وقد مالأه صاحب الديلم، فزحف فيمن جمع إليه من الطبرية والديالمة والقمية والجبلية، فقويت شوكة الحسن بن زيد، غير أن الهزيمة قد رحلت به عند مواجهته لجيوش يعقوب كما هلك من جنده الكثير، ووقع فى الأسر سبعين من الزيدية، وذلك فى رجب من عام ٢٦٠ هـ ، ففر إلى (الشرر) ومعه الديلم. فتقدم يعقوب إلى (سارية وآمل) منتصرا وجبى من أهلها الخراج.

ثم تعقب الصفار عدوه الحسن بن زيد في أربعين ألف مقاتل وجَد في طلبه حتى وصل إلى جبال الديلم بطبرستان، وتتابعت عليه الأمطار الغزيرة ونزل الثلج والبرد عليه، فشل ذلك من حركته ولم يتخلص إلا بمشقة شديدة، فأيقن صعوبة الوصول إلى الحسن بن زيد، فرجع إلى سجستان وقد هلك من جنده وخيله عدد كبير، ثم كتب إلى الخليفة المعتمد بأنباء النصر على الحسن بن زيد(١).

أما عبد الله السجزى فقد هرب بعد هزيمة الحسن بن زيد في طبرستان إلى (الرى)، وهى بلدة واسطة بين خراسان وجرجان والعراق وطبرستان، فسار يعقوب في طلبه وكتب إلى عامل الرى يهدده بالحرب إن لم يسلمه إليه، فخشي عامل الرى من سطوة يعقوب، وقبض على عبد الله السجزى وقتله وأسر أخويه وأرسلهما إلى يعقوب، فأرسلهما بدوره إلى نيسابور فدق أطرافهما أحياء بمسامير من الحديد في حائط، وبذلك فرغ باله من هؤلاء الأخوة الثلاثة(٢).

وبعد الإستيلاء على طبرستان، تجددت آمال يعقوب بن الليث الصفار في الإستيلاء على (فارس)، وأخذها من يد محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي. وكان ابن واصل قد وثب على الحارث بن سيما عامل فارس من قبل العباسيين وتغلب عليها في سنة ٢٥٦ هـ ، كما هزم جيشا عباسيا كان قد أرسله الخليفة المعتمد لقتاله، وقتل قائده عبد الرحمن بن مفلح بعد أسره في عام ٢٦١هـ، وغنم عسكره. فلم يجد الخليفة بدا سوى

---

(١) الطبرى، تاريخ الأمم، ج١١، ص٢٦٠ ، ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٣، الذهبى، دول الإسلام ج١، ص١٥٧، محمد الخضرى، تاريخ الأمم الإسلامية، ج٣، ص٣٠٧، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص٦٦.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٨٦ ـ ٣٨٧، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص١٠٩.

تكليف إبراهيم بن سيما صاحب الأهواز لقتال ابن واصل الذى استفحل أمره، فطمع الصفار حينئذ فى الإستيلاء على فارس، ووجد فى انشغال ابن واصل فى قتال صاحب الأهواز الفرصة المناسبة لتحقيق آماله. فسار مجداً لا يلوى على شىء قاصدا بلاد فارس، فلم علم ابن واصل بزحفه، رجع من الأهواز وترك محاربة ابن سيما واستعد لقتال الصفار، ولما اقترب الصفار من فارس أرسل إلى ابن واصل رسلاً يطلبون منه تسليم فارس، فاعتقل إبن واصل الرسل، وجد فى طلب يعقوب والرسل عنده، كما أرسل خاله أبا بلال مرداس إلى الصفار فى طلب الصلح، وكان يريد بذلك خداع الصفار واخفاء خبر مسيره، وأن يصل إليه بغتة فينال غرضه ويوقع به، غير أن الصفار قد شعر بغدر ابن واصل وبما يخططه له فقال لخاله مرداس: "إن صاحبك قد غدر بنا"، وسار إليهم وقد أعيوا وتعبوا من شدة السير ومات أكثرهم عطشا. فلما تراءى الجمعان ضعفت نفس ابن واصل عن مقاومته ومقاتلته، ولم يتقدم وانهزم بغير قتال، وغنم الصفار ما فى عسكره وما كان لابن مفلح قائد جيش المعتمد، ووقع فى أسره الكثير من أصحابه، واستولى على بلاد فارس وأصلح أحوالها ورتب بها عماله. ثم مضى يعقوب إلى بلدة (زم) لتأديب أهلها لمعاونتهم ابن واصل ضده، فأوقع بهم، وطمع فى الإستيلاء على (الأهواز) وغيرها[(١)].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٧، ص٢٧٥ ـ ٢٧٦، ابن خلدون، العبر، ح٣، ص٣٨٨، عباس إقبال، نفسه، ص١١٠، محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية، ص٦٣ ـ ٦٤. وتقع مدينة زم على نحو من مائة ميل من شرق مدينة آمل عند معبر نهر جيحون، وهى مدينة كرخى الحديثة، وكان بها جامع وسط سوقها وكان لها شأن فى القرن الرابع الهجرى(ابن حوقل ، نفسه، ص ٣٧٦،المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢٩١-٢٩٢، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٤٦).

(هـ) تأزم العلاقات بين يعقوب الصفار والخلافة العباسية:

باستيلاء يعقوب بن الليث على فارس أصبحت حدود دولته تتاخم المناطق التى تخضع خضوعا مباشراً لسلطان الخلافة العباسية وقد تطورت علاقة يعقوب بالخلافة العباسية من الود القائم على احترامه لمكانة بنى العباس، إلى العداء السافر بين الطرفين، ففى الفترة الممتدة بين عامى (٢٤٠ ـ ٢٥١ هـ / ٨٥٤ ـ ٨٦٥ م) نظر العباسيون لقوة الصفاريين باعتبارها قوة محلية فى سجستان محدودة الأطماع، ولذلك اتسمت العلاقة بين الطرفين بالهدوء وعدم الإكتراث من جانب الخلافة، ثم تغير الوضع بعد عام ٢٥١ هـ / ٨٥٤ م، الذى ظهرت فيه أطماع الصفاريين فى خراسان والولايات التابعة للدولة الطاهرية، فاضطربت العلاقات وتحولت إلى عداء سافر بين الخلافة والصفاريين، ورغم أن الخلافة العباسية استنكرت سياسة يعقوب التوسعية فى المشرق، إلا أنها لم تتخذ خطوات جادة للتصدى له، حتى تمكن من السيطرة على بعض الولايات المجاورة لسجستان مثل كرمان وفارس مستغلا عجز الدولة الطاهرية.

ولكن مع بداية حكم الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٩٢ م) وولى عهده الموفق، أعلنت الخلافة رسميا عدم اعترافها بشرعية حكم يعقوب على ولايتى فارس وكرمان، وأسندت إدارتها إلى محمد بن واصل التميمى. ووصل موقف الخلافة فى تشدده إلى إعلان عدم شرعية حكم يعقوب لسجستان نفسها مقر حكمه، وإعادتها إلى سلطان الطاهريين، وذلك فى عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م. ويرى الدكتور بعض الباحثين أن هذا التشدد فى موقف الخلافة ضد حكم الصفاريين يرجع إلى رغبة الخليفة المعتمد بتأثير من أخيه الموفق ـ الحاكم الفعلى للدولة ـ فى

إثبات وجود الخلافة كسلطة سياسية عليا، ولم يقتصر هذا فى سياستهم مع الصفاريين فحسب، وإنما مع القوى السياسية الأخرى كالطولونيين فى مصر والشام، مما يؤكد أنها سياسة عامة انتهجتها الخلافة منذ بداية عهد المعتمد، وربما لعب الطاهريون وقادة الترك فى بغداد، دورا فعالا فى تحريض الخلافة على اتخاذ موقف معارض للحكم الصفارى، خوفا من سلطتهم وتوسعهم التى وصلت إلى حدود الأملاك العباسية(١).

ومن دلائل تأزم العلاقات بين الصفاريين والخلافة العباسية، موقف الخليفة المعتمد وحاشيته المستنكر والمستهجن لإستيلاء يعقوب الصفار على خراسان وإسقاط الطاهريين، فعندما بعث يعقوب رسله إلى بغداد ليوضح للخليفة أسباب زحفه إلى خراسان والإستيلاء عليها، قائلا له أن أهل خراسان هم الذين سألوه المسير إليهم، لتفريط ابن طاهر فى أمره، وغلبة العلويين على طبرستان، استنكر المعتمد ذلك وطالبه بترك هذه الولاية والعودة إلى مقر حكمه فى سجستان، وهدده إن لم يمتثل لأمره اعتبرته الخلافة خارجا على الشرعية وعاملته معاملة المتمردين(٢).

ثم ازدادت حدة الخلافات بين الخلافة وبين الصفار، عندما ادعى الأخير أحقيته فى حكم (الرى)، وأرسر "ى عاملها العباسى فى عام ٢٦٠هـ / ٨٧٣م، يخبره بأن صار سيدا لهذه الولاية بعدما وافق المعتمد على ذلك. فاعتبر الخليفة المعتمد هذا التصرف خروجا على طاعة الخلافة وسلبا لحقوقها وسيادتها على أراضيها، فأمر بالقبض على مبعوثى يعقوب فى بغداد، وهم الذين قد أرسلهم يعقوب إلى حاضرة الخلافة

---

(١) فتحى أبو سيف، خراسان، ص٥٣.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٢، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٨٦.

لإجراء التفاهم مع بلاد بغداد بشأن ولايته لخراسان بعد أن سيطر عليها(١).

كذلك لم تستطع حكومة بغداد إلتزام الصمت حيال تصرفات يعقوب، خاصة وأن نفوذ الطاهريين أصحاب الشرطة ببغداد كان من شأنه تحريض الخليفة على أخذ جانب محمد بن طاهر، ففى عام ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م جمع الخليفة المعتمد الحجاج القادمين من الأقطار الشرقية (خراسان، طبرستان، جرجان، والرى) بمنزل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وقرئ عليهم كتاب الخلافة الذى يدين فيه يعقوب، ويعزله عن حكم سجستان، ومما جاء فى المنشور "لقد كنا منحنا يعقوب بن الليث ولاية سجستان، والآن قد ظهرت على وجناته علامات الطغيان، فإننا نحكم بلعنة"(٢). وسارع عبيد الله الطاهرى بإرسال نسخ من هذا البيان إلى كافة الولايات الشرقية وخاصة خراسان، ويتضح من هذا البيان عدم قبول الخلافة رسميا لإستيلاء يعقوب على خراسان، كما أنها أرادت أن تثير القلاقل أمام يعقوب ، ليس فقط باسقاط شرعية ولايته، وإنما بتحريض أهالى الولايات التابعة له بالخروج عليه، كما يتضح من هذا المنشور أيضا مدى حرص الخلافة على ولايته خراسان. مما دفع يعقوب إلى السير فى تحدى الخلافة العباسية إلى أبعد مدى(٣).

ولم تكتف الخلافة بهذه الإجراءات فقط، لأنها كانت تعلم مدى رسوخ واستقرار حكم الصفاريين فى سجستان، ولذلك رأت الخلافة اتخاذ

---

(١) ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص٤٥٤.

(٢) الطبرى، تاريخ الأمم، ج١١، ص٢٣٤، ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٨٨، إبن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٩٠، بارتولد، تركستان، ص٣٤٣، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج٣، ص٦٦.

(٣) فتحى أبو سيف، خراسان، ص٥٦.

خراسان ميدانا صالحا لحربهم وإثارة القلاقل ضدهم. فسوغ الخليفة المعتمد لعمال المدن الخراسانية وأهلها شق عصا الطاعة ومعارضة يعقوب وعدم الخضوع لسطانه، فأعطى لعمال المدن الخراسانية الحق في الاحتفاظ بحكمهم على مدنهم كعمال للخليفة العباسى، كذلك سعى الخليفة لإثارة النعرات المذهبية كأحد الأسلحة الفتاكة لمواجهة الصفار، فأعلن في أهل خراسان السنة تشككه في تحول يعقوب إلى المذهب الشيعى على مبادئ فرقة الإسماعيلية وذلك لإثارتهم ضده. وقد أتت هذه الشائعات أكلها، فاضطربت أحوال خراسان التى استنكر أهلها تحدى يعقوب للخلافة والخروج على مذهبها، كذلك أثيرت القلاقل ضده في سجستان نفسها، فقد أعلن عمالها خروجهم على طاعته لنبذه المذهبى السنى، وتمسكوا بطاعة الخلافة العباسية، فحاول يعقوب إرضاء الخليفة المعتمد والوصول معه إلى حل سلمى، فأرسل وفداً محملا بالهدايا، وأرفق مع هذا الوفد رأس أحد زعماء الخوارج ويدعى (عبد الرحيم الخارجى) الذى كان قد استغل غياب الصفار عن سجستان، وجمع من حوله بقايا الخوارج وأعلن تحديه للخلافة العباسية، وادعى الخلافة واتخذ لقب الخليفة (المتوكل على الله)، فأثار ذلك غضب الخلافة، لاسيما وأن هذا الخارجى كان يؤوى المعارضين للخليفه المعتمد. ولقد قابل الخليفة المعتمد صنيع يعقوب بروح ودية، خاصة بعد أن ترك خراسان محور النزاع وعاد إلى سجستان، فلم يجد الخليفة مانعا لديه من الإتصال به ومراسلته وقبول هداياه، بل أشاد بأعماله فى خدمة الخلافة وأعاد رسله عوداً حسنا، وعمل على استمالة الأمير الصفارى، وأمر أن يطاف برأس الخارجى فى بغداد قبل أن يعلق على أسوارها[١].

---

(١) نظام الملك، سياست نامه، ص٤١، مجهول، تاريخ سيستان، ص٢١٣، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص١٠٩، فتحى أبو سيف، ص٥٩ - ٦١.

وعلى ما يبدو أن الصفار قد استعاد نفوذه على أملاكه، وقضى على الشائعات التى روجها رجال الخلافة ضده، بعدما تبادلت الرسل والهدايا بينه وبين الخليفة المعتمد. غير أن يعقوب قد أدرك بثاقب نظره الصلة بين ما يحدث من اضطرابات فى خراسان، وبين ما يحاك فى بغداد من مؤامرت ضد الحكم الصفارى بتأثير من بقايا الطاهريين والقادة الترك أصحاب النفوذ فى حاضرة الخلافة. لذلك قرر الصفار أن يزحف نحو بغداد نفسها لإرغام الخلافة على الإعتراف بحكمه لخراسان، وتصفية قوى المعارضة للحكم الصفارى من طاهريين أو ترك. ولذك عزم بعدما استولى على فارس من يد ابن واصل على الزحف نحو العراق، فوصل إلى الأهواز واستولى عليها، وكان قد أرسل إلى الخليفة العباسى يخبره بأنه سيسير بنفسه إلى باب السلطان، فلما بلغ المعتمد ذلك لجأ إلى السياسة أولا وبعث إليه (إسماعيل بن إسحاق)، وأطلق من كان فى حبسه من أصحاب الصفار، وعاد إسماعيل ومعه درهم مبعوث الصفار برسالة من يعقوب إلى المعتمد يطلب فيها تقليده ولاية الشرق.

أدرك الموفق ولى العهد أن الظروف التى تمر بها الخلافة لا تسمح بالحرب، خاصة وأن معظم جيوشها تتصدى لثورة الزنج فى الجنوب، لذلك جمع الأعيان والتجار وحجاج خراسان استجابة لطلب يعقوب، وأخبرهم بتولية يعقوب على خراسان وطبرستان وجرجان والرى، وفارس وشرطة بغداد التى كانت تمثل آخر معاقل الطاهريين، فضلا عما كان تحت يده من سلطان فى سجستان وكرمان، وكان ذلك بحضور (درهم) حاجب يعقوب. ولعل الخلافة فكرت فى الإستعانة بحكم الصفاريين وقوتهم الناهضة باعتبارهم من الفرس كالطاهريين فى مقابل سيطرة الترك ولا مانع أن تكون الخلافة منحتهم ولاية شرطة بغداد،

لتصبح هذه المدينة، كما كانت على عهد الطاهريين حصنا فارسيا قويا مقابل (سامراء) التى سيطر عليها قادة الترك منذ عصر الخليفة المعتصم(١).

ويبدو أن يعقوب الصفار لم يطمئن إلى نوايا العباسيين، وأعاد الرسل إلى الخليفة بكتاب ذكر فيه أنه لا يرضيه ذلك دون أن يسير إلى باب المعتمد، وارتحل يعقوب إلى واسط بعد أن سار إليه أبو الساج من الأهواز ودخل تحت ولايته فأكرمه، وسار إلى بغداد ففزع الخليفة وولى عهده وأهل بغداد لاقتراب يعقوب، وأرسل الموفق رسولا إليه يستفسر منه عن سبب قدومه بعد أن عهد إليه المعتمد بإدارة خراسان وبلخ وطخارستان وجرجان وطبرستان والرى وفارس وشرطة بغداد وأمره بجهاد الكفار، فلا يحق له بعد هذا أن يأتى العراق، فرد يعقوب (أحب أن أؤدى بنفسى واجبات الطاعة للخليفة).

ويتضح من هذه الرسالة حرص الخلافة على منع يعقوب من الوصول إلى بغداد، وموافقتها على منحه ولاية خراسان من جديد، كما يتضح أنها بدأت تغير من حدة لهجتها مع الصفار بعدما شعرت بقوته وخطورته. وصادف وصول رسالة الخليفة إلى الصفار، الوقت الذى كان يستقبل فيها رسل البلاد المجاورة كالهند والصين لتهنئته على انتصاراته فى الولايات الشرقية، وما أصبح عليه سلطانه من قوة. ووصلت للخلافة أنباء هذه الاستقبالات حيث ظهر الصفار أمام الوفود المهنئة بترفع الأمراء وشموخهم، وأطلق عليه قادته لقب "ملك الدنيا"، فأثار ذلك

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٧، ص ٢٨٩، ابن خلدون، العبر، ح٣، ص ٣٩٠، مجهول، تاريخ سيستان، ص٢٢٨، بارتولد، تركستان، ص٣٤٣، فتحى أبو سيف، خراسان، ص٦٤.

غضب الخلافة وحنقها عليه[١]. وكان يعقوب يزداد اصرارا فى تقدمه إلى بغداد كلما زاد المعتمد والموفق فى طلبهما عودته بهذه الوعود، إلى أن أمر المعتمد بجمع الجيش وقصد دفعه. فلعل يعقوب تشكك فى نوايا الخليفة، أو ربما أراد القضاء على بقايا الطاهريين فى بغداد، فتابع سيره إلى العراق، بينما خرج المعتمد من سامراء فى عسكره وسار إلى بغداد ثم إلى الزعفرانية، فأقام بها وأحضر أخاه الموفق لمحاربة يعقوب[٢].

فلما وصل يعقوب بجيشه إلى مدينة عسكر مكرم بالأهواز واقترب من حدود العراق، أرسل إلى الخليفة برسالة استفزازية، حيث طلب منه اصدار منشور جديد لنفى ما جاء فى المراسيم السابقة بما تضمنت من اساءة ليعقوب، خاصة شائعة اعتناقه المذهب الشيعى، وطالبه أيضا بالاعتراف بشرعية حكمه على خراسان وكرمان وفارس، فلم تستجب الخلافة لهذه المطالب، بل عادت من جديد إلى إثارة المشاعر ضده عندما أعلن الخليفة على حجاج خراسان عصيان يعقوب وعزله عما يتولاه من ولايات[٣].

ثم وقعت الحرب بين جيش الصفار وجيش الخلافة فى موضع يعرف (بدير العاقول) بالقرب من حلوان شرق نهر دجلة بين بغداد والمدائن [٤]، وذلك فى منتصف رجب سنة ٢٦٢هـ / ابريل ٨٧٦ م، وأظهر يعقوب تحديه للخليفة عندما طالبه بترك بغداد ولخلائها ليدخلها بجيشه. كما يذكر (نظام الملك). وكان الموفق ولى العهد يقود جيوش

---

(١) مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢٣١، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٦٧.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٣٩٠ – ٣٩١، الذهبى، دول الإسلام، ص ٢٦٨.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص ٤٥٥.

(٤) دير العاقول أى عقلة النهر وعوجته، يقع على عشرة فراسخ أسفل المدائن، وكان ديرا للنصارى، وحوله مدينة كبيرة كانت من أجل مدن طسوج النهروان الأوسط وكان بها مسجدا جامعا، وهى ذات هواء رطب لتوسطها بساتين النخيل (لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٤-٥٥ والمصادر المذكورة هناك).

الخلافة بنفسه من القلب، وجعل على ميمنته موسى بن بغا وعلى ميسرته مسرور البلخى، وقد أحرز يعقوب نصرا ميدنيا فى المعركة، إذ حملت ميسرة يعقوب على ميمنة الموفق فألحقت بها الهزيمة، وقتل كثيرا من قواد جيش الخلافة، ولكن لم يلبث هذا النصر أن تحول إلى هزيمة ساحقة عندما ظهر الخليفة بنفسه بين الجند واستقطابه جمعا من جند الصفار إليه، عندما نادى لهم مناد وأعلن عصيان يعقوب، ومن ناحية أخرى عندما أجرى جند الخليفة أنهارا من الماء بين جيش يعقوب، تبع ذلك هجوم الموفق ومعه سائر جيشه بعد وصول الامدادات من بغداد، هجوما شرسا علي جيش يعقوب الذى ثبت فى أول الأمر، ولم تزل الحرب قائمة إلى أن انهزم جيش الصفار الذى ثبت فى أول الأمر، ولم تزل الحرب قائمة إلى أن انهزم جيشه، وثبت هو فى خاصة أصحابه رغم اصابته بثلاثة جروح فى عنقه ويديه، إلى أن فارقوا موضع الحرب، وتبعهم أصحاب الموفق، وغنموا ما فى عسكره، وخلصوا (محمد بن طاهر) من الأسر، فخلع عليه الموفق وولاه الشرطة فى بغداد نكاية فى يعقوب، وراح الشعراء يمدحون الخليفة المعتمد وولى عهده الموفق بما حققه جيشه من انتصارات على جيش الصفار، أنقذت الخلافة من مصير مظلم[1].

وبعد الهزيمة فى يوم دير العاقول أو (يوم الشعانين)، انسحب يعقوب إلى خوزستان ونزل جند نيسابور، دون أن يفتر عزمه ليجمع جيشا آخر للإنتقام لهزيمته التى كانت أول هزيمة له فى مجالداته وفتوحاته. وهنا أراد صاحب الزنج أن يعقد محالفة مع يعقوب ضد الخلافة ووجد الفرصة سانحة لذلك، وحثه على الرجوع إلى بغداد ووعده

---

(١) الطبرى، تاريخ الأمم، ج١١، ص٢٤٦، نظام الملك، سياست نامه، ص ٤٢، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٩١، محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية، ص٦٥.

بالمساعدة. ولكن يعقوب رفض هذا التحالف تماما وكتب إليه "قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون" وأراد الخليفة المعتمد أن يكيد ليعقوب الصفار فكتب إلى (إبن واصل) بولاية فارس التى كان قد ملكها أثناء انشغال الصفار بحروبه، وعاد المعتمد إلى سامراء وعهد إلى ولى عهده الموفق بتعقب الصفار فى خوزستان، فتقدم الموفق حتى واسط لكنه مرض بها وعاد إلى بغداد، فأمن يعقوب جانبه وتفرغ لأمر فارس، فجرد إليها جيشا بقيادة (عمر بن السرى) فقاتل به ابن واصل فهزمه وأسره، وقام بالسيطرة على فارس من جديد وكان ذلك فى عام ٢٦٣ هـ، ووقعت فى يد يعقوب بهذا الإنتصار خزائن محمد بن واصل التى كانت محفوظة فى احدى قلاع اصطخر، وحصل منها على أموال قدرت بأربعين ألف ألف درهم[١].

ويذكر (الكرديزى) فى زين الأخبار، أن أحوال يعقوب قد ساءت بعد هزيمته فى دير العاقول، لاسيما بعد أن ظهرت بعض الاضطرابات فى الولايات الشرقية ضد الصفاريين، وفى خراسان على وجه الخصوص. مما جعل يعقوب يفكر فى ضرورة مصالحة الخلافة وترضيتها، فاتصل بالخليفة المعتمد وأعلن خضوعه وطاعته لأوامر الخلافة، إلا أن هذه الإتصالات الودية لم تلق قبول الخليفة وأخيه الموفق بعد ما حققاه من نصر، وأرادا تعقبه واستئصال شأفته كما رأينا[٢]. غير أن الخلافة عادة وغيرت موقعها منه بعدما شعرت بقوته الناهضة من جديد، لاسيما بعد الإستيلاء على فارس، فبعثت إليه تستميله وتجدد ولايته على فارس، ولكنه لم يقنع بذلك، ونزل نيسابور وأجلى من كان بها من جند الخليفة فى

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٣٠٨، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٩١، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص١١٠ -١١١.

(٢) فتحى أبو سيف، خراسان، ص٧٣.

عام ٢٦٣ هـ، ثم وجه جيشا بقيادة (الخضر بن العنبر) إلى الأهـواز، فلما قاربها خرج منها (على بن أبان) ومن معه من الزنج، ودخل الخضر بن العنبر الأهواز، وقامت اعتداءات متكررة بين جيش الصفار وصاحب الزنج، انتهت فى البداية بانتصار الزنج، فأنفذ يعقوب إمدادات إلى قائده وأمره بالكف عن قتال الزنج، فكف بعضهم عن بعض، كما يذكر (النويرى فى نهاية الأب)، لأنه كان يستعد لقتال الموفق فلم يرد أن يوزع جهود جيشه ويدخر كل قواه لملاقاة جيش الخلافة[١].

وفاة يعقوب بن الليث مؤسس الدولة الصفارية (٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م):

وفي عام (٢٦٤ هـ) كان يعقوب منصرفا إلى جمع جيش للهجوم على بغداد أثناء مكثه بجنديسابور فى خوزستان حين أصيب بمرض القولنج. وأرسل المعتمد إليه فى هذا الوقت رسولا يزجى إليه رسالة يتملقه فيها بقوله "إنه علم أن يعقوب كان رجلا ساذجا ينخدع بقول كل قائل فقصد الخلافة بالسوء، ولما أن الله قد نصره عليه فإنه قد عفا عنه، ولكى يجدد عفوه له فقد أوكل إليه إمارة خراسان وفارس كما كان الحال فى الماضى". فأمر يعقوب ببعض الخبز الجاف والسمك والفجل والبصل على طبق خشبى وقال لرسول الخليفة: " قل لسيدك أننى ابن صفار تعلمت الصفر من والدى وطعامى كان خبز الشعير والسمك والفجل، وهذه الدولة والشوكة التى تراها حزت عليها بشجاعتى وجرأتى لا عن ميراث من أبى أو أنعام منك، فلن أستسلم إلا حين أستأصل أسرتك، فإن مت فسوف تستريح من جانبى، وإن عشت فهذا السيف لك وإن غلبت أرجع إلى سجستان وأقضى بقية عمرى بهذا الخبز الجاف والبصل"، وعاد

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٠٨، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٢، ص١٩٩، محمد على حيدر، نفس المرجع، ص٦٦ - ٦٧.

رسول الخليفة إلى بغداد ليزجي رسالة يعقوب، لكن خبر موت الأمير السجستانى الشجاع وصل قبل وصوله، إليها وأستراح خاطر الخليفة من ناحية هذا الند الداهية[١]. ويذكر (نظام الملك) رواية بعيدة عن الحقيقة التاريخية، فيقول إن يعقوب هدد المعتمد بارسال رأسه إلى المهدية حاضرة الفاطميين[٢]. وهذا خطأ ظاهر، فقد جانب نظام الملك الصواب، لأن يعقوب مات فى عام ٢٦٥ هـ ، أى قبل قيام الدولة الفاطمية باحدى وثلاثين سنة، وكان تأسيس المهدية التى اتخذها عبيد الله المهدى الفاطمى حاضرة لدولته بعد ذلك التاريخ بمدة[٣].

وقد وافت يعقوب منيته متأثرا بعلة القولنج فى يوم الإثنين العشرين من شوال سنة ٢٦٥ هـ/ يونيو ٨٧٨ م، فى جندنيسابور بخوزستان ودفن فى نفس المدينة، وطويت صفحة هذا المغامر الجرئ، وقد بلغت مدة إمارته من المحرم من (٢٤٧ هـ) حتى العشرين من شوال (٢٦٥ هـ) نحو سبعة عشر عاما وعشرة شهور[٤]. وكان يعقوب رجلا عالى الهمة بعيد النظر حسن الخلق ذا فتوة واحسان ورأفة، روى عنه حكايات كثيرة فى شأن هذه الخصال والفضائل، وقل أن يوجد بين معاصريه من يصل إليه فى تحمله للمصائب ومتاعب الأسفار وقوة الإرادة. وكان يبدى فى قيادة جيشه وتدبيره الحربى الدرجة القصوى من الفهم والذكاء. كما كان يعقوب رجلا عاقلا بعيد الفكر قلما رؤى وهو يضحك، وكان جنده تابعين مخلصين لسياسته لم يجرؤ أحدهم على الإقدام على أمر بدون اجازة منه، ولم يكن لأحدهم أدنى اجتراء على أن يهاجم

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٧، ص٣٢٦.
(٢) نظام الملك، سياست نامه، ص٤٢-٤٣.
(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح٣، ص٦٧.
(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح٥، ص٤٥٥، ابن العماد، شذرات الذهب، ح٣، ص١٥٠.

بغير أمره أو يتصرف فى مغنم دون اشارته. وكان يدقق فى اصلاح أمر جيشه قبل أى شىء، وكان يؤثر جيشه على كل شخص. وحين كان يأتيه أحدهم فكان أول سؤاله يوجهه إليه هل تعرف القتال والرمى والنزال وتتقن هذه الفنون؟ فإذا سمع منه إجابة مقنعة سأله: "الدى من خدمت قبل مجيئك إلينا وفى أى ميدان حاربت وأية فنون أظهرت؟"، ثم يأمر له براتب سنوى ويقبله فى خدمته، وإذا سأل جندى مالا أو راتبا قبل انقضاء العام كان يأمر بأن يؤخذ منه ما معه من مال.

وكان يعقوب أثناء تحرك الجيش يجلس على عرش خشبى يشرف على كل جنده، حتى ينظر جيدا فى أحوال الجند، فإذا ما رأى نقصا فى أمر من أمورهم قام باصلاحه على الفور. وكان له غلمان يلازمون منزله أو خيمته وعرشه، ليأمرهم بتنفيذ أوامره، ولم يحاول يعقوب أن يشغل نفسه بتبرير شرعية أعماله بل اعتمد على سيفه وحده. ولذا فقد اهتم بخلق جيش يحمل له الولاء التام، وبالحصول على الأموال اللازمة لمتابعة حروبه، مما دفعه إلى مصادرة أملاك الأغنياء. وبالرغم من الفشل الذى منيت به أعماله العسكرية فى أواخر سنى حياته، إلا أن خزائنه قد امتلأت بالأموال، حتى قيل إنه ترك خمسين ألف ألف درهم وثمانين ألف ألف دينار. وينقل بارتولد عن صاحب كتاب "تاريخ خيرات" أن يعقوب كان يمتلك خمسة آلاف جمل وعشرة آلاف حمار، وكان جنده باستثناء الكبار والقادة يتسلمون الخيل والعلف من خزائنه. هذا وقد ظل يعقوب فى حياته الخاصة جنديا بسيطا، فكان يلبس القطن ويجلس على الأرض ويتوسط ذارعه عند النوم، ولكنه فى المناسبات الرسمية، خاصة عند استقباله للسفراء كان يحيط به حرسه الذى انتقاه من خيرة جنده ، وكان يتكون من كتيبتين تضم كل واحدة منهما ألف رجل، وكان جنود الكتيبة الأولى

يحملون أعمدة من الذهب، وجنود الأخرى يحملون أعمدة من الفضة. وكان يعقوب يقضى بنفسه فى جميع أمور دولته ولا يشرك معه أحدا فى شئون الحكم[١].

وكانت عاصمة يعقوب مدينة (زرنج) من بلاد سجستان القديمة. وكانت حوزة ملكه خراسان وسجستان وطخارستان وكرمان وفارس وكابل وجزءا من وادى السند ثم خوزستان أيضا لفترة من الزمان. وخطب ليعقوب فى مكة والمدينة بأمر من الخليفة لسبع سنوات، وبلغت شهرته فى أيامه فى البلاد المحيطة به إلى حد أنه كان يطلق عليه (ملك الدينا) وكنيته هى أبو سيف.

وقد اختلفت الآراء حول تقييم حركة يعقوب الصفار، فالمسعودى يذكر أن يعقوب قام بحركته العنيفة لأنه كان يرغب فى اعزار دين الله والقضاء على مساوئ الخلافة وما أصابها من عبث، وأورد لنا أبيانا شعرية على لسان يعقوب زعم فيها أنه إنما خرج منكرا على المعتمد والقواد الأتراك اضاعتهم للدين واهمالهم أمر صاحب الزنج[٢]. فى حين يذكر (الأستاذ السرنجاوى) أنه ليس بين أيدينا من القرائن ما يثبت أن يعقوب كان يطمع فى إقامة امبراطورية موحدة من البلاد التى فتحها، أو على الأقل كان ينوى إقامة نظام إدارى ثابت، ويدلل على رأيه هذا بأن يعقوب على العكس كان يجبى جباية باهظة من رعاياه[٣].

وخلاصة القول: أن حركة الصفار كانت حركة تمرد ضد الخلافة العباسية من ناحية، وحركة متعصبة ضد السيادة العربية من ناحية

---

(١) بارتولد، تركستان، ص ٣٤٤.
(٢) المسعودى، مروج الذهب، ج٢، ص ١٥٠.
(٣) عبد الفتاح السرنجاوى، النزعات الإستقلالية فى الخلافة العباسية، ص ٦١.

أخرى. وفي هذا الصدد يذكر (بزاون) إن استقلال بلاد الفرس يمكن أن يقال إنه بعث عن طريق هذه الأعمال الباهرة التى قام بها يعقوب الصفار، فإنه على الرغم من أنه لم يكن من سلالة بيت عريق، إلا أنه نجح فى تأسيس دولة إستطاعت مع قصر عهدها أن تنشر نفوذها، ليس فى سجستان وحدها حيث قامت دولتها في أول الأمر، بل فى معظم أرجاء فارس والى أسوار بغداد تقريبا[١].

ولاية عمرو بن الليث الصفار (٢٦٥ – ٢٨٧ هـ):

حينما كان يعقوب بن الليث مريضا فى جند يسابور قدم إليه عمرو معتذرا، إذ كان مغاضبا لأخيه في ذاك السفر ورحل إلى سجستان مستاء، وسر يعقوب لعودة أخيه لأنه كان كسيف البال محزونا لغضبه، فأبدى له صنوف الإكرام. أما عمرو فقد بقى على اخلاصه التام فى خدمته ليعقوب إلى أن وافاه أجله. وقد انتخبه يعقوب لخلافته وأوصى أتباعه باطاعة أمر عمرو. ومع أن يعقوب اختار عمرا خلفا له، إلا أن أخاهم الأصغر عليا لم يرض بخلافته، وقد أخذ أكثر الجند جانب على لأن عمرا كان حديث الوصول من سجستان وفارق الجيش مرارا، إلا أن عمرا سرعان ما استخلص قلوب الجند له بتدبيره وكفايته فبايعوه جميعا.

وعلم عمرو وقد كان رجلا بصيرا موزون الفكر أن صلاحه ليس عداء الخليفة العباسى في بداية حاله، لاسيما وأن الخليفة قد هزم أخاه من قبل، ولذلك اضطر إلى الإلتجاء إلى أسلوب آخر لنضاله مع خصومه، فاتبع سياسة اللين والمهادنة واضعا كل اعتبار لتغير الظروف، لهذا فقد

---

(١) حسن إبراهيم حسن، نفس المرجع، ج٣، ص٦٧، محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية، ص٦٩ ـ ٧٠.

أرسل إلى الخليفة المعتمد رسالة أظهر فيها طاعته وانقياده، فسر لذلك الخليفة وأصدر أمرا له بحكم فارس وكرمان وأصفهان وطبرستان وسجستان وعراق العجم وشرطة بغداد مكافأة له، وتعهد عمرو بإرسال عشرين ألف درهم إلى دار الخلافة خراجا سنويا، وأن يذكر اسم الخليفة في الخطبة، مما سهل على رجال الدين قبوله حاكما شرعيا على تلك المناطق.

وقفل الأمير الصفاري راجعا من خوزستان إلى فارس بعد أن ترك شرطة بغداد إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الطاهري وأزجى هداياه إلى بغداد مثل عمودى الذهب اللذان أهداهما إلى الموفق ولى العهد[1]. وسمع هناك أن أخاه عليا قد أطلق لسانه بتقبيح أخيه مخالفة له والتقليل من شأنه في أنظار الناس فأمر بقيده، لكنه خلى سبيله بوصوله إلى سجستان في رجب (٢٦٦ هـ)، ثم وهبه مالا عظيما كما اعتذر له عما فعل. ولم يكن على حريا بهذا الاكرام على وجه النصفة لأنه لم يتخل عن عداء عمرو مع كل احترامه له وعفوه عنه وكان دائم إثارة أعدائه عليه ويمدهم عليه، ويعلق (ابن خلكان) على حسن تدبيره للأمور بقوله: "إن عمرو بن الليث لما تولى ولايته أحسن التدبير والسياسة، حتى قيل: ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث".

وفي أثناء إقامة يعقوب بفارس وخوزستان، وخلال المدة بين موته ورجوع عمرو إلى سجستان، أبدى قوم كانوا طائعين قبل ذلك خوفا من يعقوب، العصيان لعمرو وجاوزوا إلى جادة الطغيان وطلب المجد

---

(١) الطبرى، تاريخ الأمم، ج١١، ص٢٥٥، ابن كثير البداية والنهاية، ج١١، ص٣٩، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤١٦.

ظانين أن عمرا عاجز عن تأديبهم وأن الغلبة عليه أمر يسير. وأول من رفع راية العصيان كان أحمد بن عبد الله الخجستانى من أهل خجستان من أعمال باذغيس بهراة(١). وقد ارتفع شأن هذا الرجل بقوة عزمه وعلو إرادته من رتبته الوضيعة فى بداية الأمر وهى (المكارية) تدريجيا إذ دخل فى خدمة الأمير محمد الطاهرى وطمع أن يكون له شأن كما حدث ليعقوب الصفار، ولما تمكن يعقوب من نيسابور دخل أحمد الخجستانى كأغلب أصحاب الأمير الطاهرى فى خدمة الصفارين وصار من ملازمى على بن الليث أخى يعقوب وعمرو، فعينه على قاندا لشرطة اقطاعياته فى خراسان، حيث حصل على هذه الإقطاعيات بعد استيلاء الصفاريين عليها، فراح الخجستانى يجمع من حوله الأنصار والأتباع المعارضين لحكم الصفاريين.

وفى عام (٢٦١هـ) وقبل أن يتحرك يعقوب إلى فارس أمر أحمد الخجستانى أن يتفحص أعمال على بن الليث فى خراسان. ولكن أحمد هذا أعلن عصيانه ليعقوب بمجرد حركته إلى فارس، فقام أولا بإخراج عماله من نيسابور وقومس وبسطام، ثم دعا الناس فى نيسابور إلى مبايعة آل طاهر فى عام(٢٦٢هـ)، وأثار بمدد من بعض المتمردين الخراسانيين فتنة عظيمة فى كل خراسان فى الفترة التى كان يعقوب رهن نزاعه مع الخليفة العباسى، كما تفاقمت الأوضاع فى فارس وخوزستان كذلك، وكانت مدينة بلخ هى الأخرى قد أعلنت المعارضة لحكم الصفاريين

---

(١) كورة باذغيس من إقليم خراسان، وكانت تقع على مقربة من هراة، وذكر ياقوت الحموى أن أصلها بالفارسية باذخيز، معناه قيام الريح أو هبوب الريح لكثرة الرياح فيها، وكانت باذغيس مشهورة بغابات الفستق، وكان يحمل منها إلى سائر البلدان المجاورة، وبكورة باذغيس عدة مدن كبيرة، منها: ببن، وكيف، وبغشور، ودهستان قصبة القسم ا لجنوبى من الكورة (لسترنج، نفسه ص ٤٥٥ ـ ٤٥٧ والمصادر المذكورة هناك).

بزعامة أحد أخوة الخجستانى ويدعى أبا حفص يعمر، مما أدى إلى تفش حركات المعارضة فى المدن الخراسانية، وخاصة عندما أصدرت الخلافة منشورها بعزل يعقوب عن خراسان، وتثبيت حكام المدن الخراسانية على مدنهم.

واعتبر الخجستانى نفسه نائبا عن حكم الطاهريين فى بغداد، فزادت شعبيته فى نظر الخراسانيين، الذين أصبحوا يتذكرون ما كان لولاية خراسان من أهمية سياسية على عهد الطاهريين[1]. وقد تصارع يعقوب عدة مرات أيضا مع الحسن بن زيد الداعى الكبير للسيطرة على جرجان، وظل على حاله هذا إلى أن عاد عمرو إلى سجستان وأخذ ما بين هراة إلى بلخ واشتغل بالسلب والنهب والإغارة، وتحالف فى حركاته هذه مع أحد أتباع الأمير محمد الطاهرى القدامى والذى لحق بيعقوب أولا ثم طرده يعقوب عنه وهو (رافع بن هرثمة).

ولما قدم عمرو فى سنة (٢٦٦هـ/ ٨٧٦م)، من خورستان إلى سجستان وأطلق أخاه عليا من قيوده، أرسل إلى الخجستانى رسولا خفية وطلب عونه وقيامه على عمرو، فتحرك الخجستانى من جرجان إلى نيسابور وحاصرها وهى مركز خراسان، فخف عمرو بن الليث ومعه أخوه على وإبنه محمد بن عمرو من سجستان إلى نيسابور عن طريق هراة، ودخل فى قتال مع الخجستانى يعاونه أخوه وابنه وقد قاد كل منهما طرفا من الجيش الصفارى. وفى تلك الأثناء خان على أخاه وأبدى الوهن فى قتاله مما ألحق بأخيه الهزيمة من الخجستانى، ففر إلى هراة وقيد عليا مرة أخرى وتوطدت قوة الخجستانى فى نيسابور بعد هزيمته لعمرو، وحصل على تأييد الخلافة، فأقدم على سك عملة باسمه، مما يؤيد سيطرته

---

(١) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٨٤.

على نيسابور عاصمة خراسان[١]. وتقدم الخجستانى، متعقبا عمرا إلى هراة وسجستان، ولكنه لم يستطع أن يستولى على واحدة منها مما جعله يأخذ فى القتل والغارة، فسخط الناس لظلمه وظلم جنده ومالوا إلى عمرو بن الليث وأخذوا يقتلون جند الخجستانى حيث وجدوهم. وفى النهاية عاد الخجستانى فى عام (٢٦٧هـ) من سجستان إلى نيسابور. وفى هذه الأثناء قدم إلى عمرو فى هراة اثنان من معارضى حكم الصفارين سابقا وكانا لفترات طويلة باعث تعبهم، هما محمد بن زيدويه حاكم قهستان السابق الذى مر ذكره فى ثورات فارس فى عهد يعقوب، والآخر هو (أبو طلحة منصور) من متمردى نيسابور وممن عصى فى أواخر عهد يعقوب وصارعوا الصفارية والخجستانى. وقد قبل هذان طاعة عمرو، وفرح لهذا الأمر وخلع عليهما وأعطى أبا طلحة منصب القيادة العامة لجيش خراسان، ثم قدم عمرو من هراة إلى سجستان.

وظل الخجستانى عاما آخر ينهب ويسلب فى طخارستان وخراسان وينازع مدعين آخرين ويقتلهم وتغلب على أبى طلحة قائد عمرو، لكنه فى النهاية قتل فى شوال من سنة (٢٦٨هـ) وهو مخمور بيد غلامين من غلمانه فأراحا العالم من شروره. واجتمع أصحاب الخجستانى بعد مقتله حول (رافع بن هرثمة) وهكذا ارتهن عمرو بفتنة رافع وتمرده بعد أن استراح من الخجستانى، وصرف أوقاته فترة فى تعقب هذا المدعى.

(أ) غزو عمرو بن الليث الصفار لفارس فى عام (٢٦٨هـ):

قصد عمرو بن الليث فى المحرم من سنة (٢٦٨هـ) فارس قبل أن تنتهى فتنة الخجستانى، وكان سبب ذلك أنه سمع أن (محمدا بن الليث)

---

(١) الطبرى، نفس المصدر، ح١١، ص ، ابن الأثير، الكامل، ح٧، ص٤٢٥-٤٢٦.

والى فارس لم يرسل خلافا لأمره الخراج الذى يتوجب ارساله سنويا إلى بغداد، مما تسبب فى غضب الخليفة على عمرو، خاصة أن عمرا قد كان خائفا من اتحاد محمد بن الليث مع الخجستانى. وسرعان ما أمن عمرو بن الليث فارس، وتغلب على اثنين أو أكثر من أصحاب يعقوب القدامى الذين سلكوا سبيل العصيان وأرسل الخراج المتأخرإلى دار الخلافة.

ويبدو أن الخلافة العباسية لم تطمئن إلى نوايا عمرو الصفار، أو أن الموفق ولى العهد أراد أن يستعيد أملاك الطاهريين السابقة إلى حوزة الخلافة من جديد، خوفا أن يسلك عمرو طريق أخيه يعقوب ويفكر فى غزو بغداد. ومما دفع الخلافة إلى هذا المسلك مع عمرو هو تخلصها من ثورة صاحب الزنج وأنها أصبحت حرة اليد تستطيع أن توجه اهتماما للصفاريين، فأصدر الخليفة المعتمد قراراً بعزل عمرو بن الليث عن البلاد التى ولاه إياها، وأعلن هذا الخلع على ملأ من حجاج خراسان فى بغداد، ولعنه بحضرتهم وأخبرهم أنه قلد خراسان محمدا بن طاهرى. كما أمر بلعن عمرو على المنابر فلعن. ثم سير جيشا إلى قتاله بفارس، فانتصر هذا الجيش على جيوش الصفار. أما محمد بن طاهر فقد بقى فى بغداد، واستخلف على خراسان رافع بن هرثمة. أما الموفق فقد خرج بنفسه لقتال عمرو الذى هرب إلى كرمان ومنها إلى سجستان، تاركا فارس لأحد أتباعه وهو نصر بن أحمد(١).

(ب) صراع عمرو بن الليث مع رافع بن هرثمة:

استفاد رافع بن هرثمة خليفة الخجستانى من فرصة غياب عمرو، فهاجم أبا طلحة قائد خراسان، ثم هاجم بعد أن تغلب عليه عاد إلى هراة

---

(١) الطبرى، نفسه، ج١١، ص٣٢٩، ابن الأثير، الكامل، ج٧، ٤٢٦، بارتولد، تركستان، ص٣٤٥،حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص٤٦٤.

لما أدرك أنه لن يستطيع أن يتمكن فيها، وظل بها إلى أن عاد عمرو من فارس إلى سجستان. وحاصر عمرو هراة فى عام (٢٧٠هـ) وانهزم رافع إلى (مرو) وطلب عفور عمرو، لكنه صادف فى الطريق (أبا طلحة) الذى كان فارا إلى طخارستان، فقرر هذان الأميران أن يتعاونا فى قتال عمرو. ولكن قبل أن يضعا تفكيرهما موضع التنفيذ داهم أبو طلحة رافعا فى جنح الظلام وأهلك أغلب جيشه واستقر فى مرو وخطب لمحمد بن طاهر الطاهرى، وبحملة واحدة طرد عمرو أبا طلحة من مرو، وبحملة أخرى فى سنة (٢٧١هـ) أخذ نيسابور من رافع، وعاد إلى سجستان بعد تأمين خراسان وتهدئة ثائرتها.

وبلغ عمرو الصفار فى البداية كرمان، ووصله رسول من نصر بن أحمد عامله على فارس (وهو غير نصر بن أحمد السامانى الذى ولاه محمد بن طاهر بلاد ما وراء النهر) وأوقفه على مجريات أمورها، فقد كتب الخليفة المعتمد إلى (أحمد بن عبد العزيز بن أبى دلف) يأمره بقتال نائب عمرو فى فارس، فتقدم فى خمسة عشر ألف مقاتل فانهزم نائب عمرو، وقتل مائة من أعيان جيشه، وأسر ثلاثة آلاف، فاستأمن نائب عمرو منهم وغنموا من عسكره ما لا يحصى وكان عمرو بصدد ارسال مدد إلى عامله حين جاءه الخبر بأن أحمد بن عبد العزيز طرد نصرا إبن أحمد من فارس وأخرجها من سلطة الصفاريين[١].

وابتلى عمرو بن الليث فى هذا الوقت ببلاء عجيب، فمن ناحية حنق عليه الموفق فقصره عن كل ناحية، ومن ناحية أخرى انحسر عنه الحلفاء والمساعدون، لكنه لم ييأس ولم يسمح للوهن أن يتسرب إلى عزيمته فى تفكيره للخلاص مما هو فيه. وقد ساعده الحظ قضاء إذا أن

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤١٧، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١١٩.

أبا طلحة منصورا الذى كان فى نزاع مع عمرو حتى ذاك الوقت، أتاه طائعا بعد أن نصب محمد الطاهرى رافعا بن هرثمة فى حكومة خراسان، فاحتفى به عمرو كثيرا وقلده مركزا مهما فى جيشه حيث سيسمع عنه فى الحرب التى دارت بين عمرو والمعتمد فى عام ٢٧٤ هـ على أنه مقدم جيش عمرو[١]. ثم سيره إلى خراسان وعجل هو وابنه محمد من كرمان إلى فارس.

وتقدم جند عمال الخليفة إلى عمرو وكانوا نحو ألفى جندى يترأسهم (خلف بن الليث) حفيد عم عمرو بن الليث الذى سبق أن غضب من ابن عمه ولحق بالموفق. ولم يكن خلف يود أن يلحق هزيمة فى هذه الحرب لبنى قرابته الساسانيين فلحق بجيشه بعمرو بن الليث، فحمد عمرو ربه تعالى وحمل على قائد جيش الخليفة حملة صادقة وترتب عليها هزيمته لهم، وعودة فارس إلى طاعته مرة أخرى.

وعمد الموفق إلى المواربة من جديد فكتب إلى عمرو فى عام ٢٧٤هـ / ٨٨٧ م أنه إذا سير الخراج المتأخر إلى بغداد وأرسل محمدا ابنه كرهينة إلى دار الخلافة فليجددن منشور امارته، فسير عمرو ابنه محمدا ومعه أبو طلحة قائد جيش خراسان وجيش كبير متظاهرا بطاعة الخليفة ومبطنا هدفه إلى القضاء عليه فى الوقت زحف فيه الموفق إلى فارس لحرب عمرو، ولما سمع محمد أثناء طريقه أن الموفق على أهبة لدفعه بجند كثيف، آثر العودة وأقبل على أبيه بكرمان فى الوقت الذى استأمن فيه أبوطلحة قائد جيش عمرو الصفار إلى الموفق، ففت ذلك فى عضد عمرو، غير أن الموفق استراب بأبى طلحة، فقبض عليه قريبا من شيراز وجعل ماله لابنه أبى العباس المعتضد، وسار فى طلب عمرو

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٥٦.

واستولى على فارس. ومات محمد في هذا السفر على بعد من سجستان بستة منازل فى جمادى الأولى (٢٧٤ هـ) وتألم عمرو تألما شديدا لموته المباغت، وانسحب إلى سجستان[١].

وبعد وصول عمرو إلى سجستان، وصل رسول الموفق إليه برسالة منه يطرق فيها باب الصلح، فقد تشعث أمر حدود الشام ومصر بسبب خروج أحمد بن طولون، وكانت فتنة صاحب الزنج ما تزال على حالها، فأمر عمرو بمال كثير لرسول الخليفة، وجعل للخليفة من فارس وكرمان وخراسان عشرة آلاف درهم سنويا، وأرسل أحد غلمان أخيه وهو (السبكرى) مبعوثا له إلى بغداد. وأمر الموفق أن يكتب اسم عمرو بن الليث في دار الخلافة على المنابر والدكاكين والمنازل والألوية، وأن يقترن اسمه باسم الخليفة في الخطبة، ولم ينل هذا الشرف أحدا قبل عمرو.

وبقي الأمير الصفارى مدة عامين من (٢٧٤) حتى (٢٧٦هـ) فى سجستان، وانشغل فى ترتيب أمورها حتى تركها فى ربيع الأول من العام الأخير إلى فارس. ولما بلغها وصلت إلى مسامعه أنباء هروب أخيه على من محبسه فى قلعة (بم) بكرمان [٢] ، حيث كان يعيش سجينا من بعد هزيمة عمرو من الخجستاني نتيجة خيانه· ولحق برافع بن هرثمة الذى كان على عصيانه لأخيه فى خراسان. ولم يهتم عمرو بهذا الأمير كبيرا اهتمام، لأنه سمع أن الموفق أسقط اسمه من المنابر والألوية والخطبة

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٤١٧، ٤٣٠.

(٢) وتقع كورة بم عند الحد الشرقى لكرمان. وقد وصفها إبن حوقل بأنها كورة كبيرة، ولها قلعة منيعة مشهورة ، واشتهرت بطيب الهواء، والثياب القطنية الفاخرة والعمائم والمناديل والطيالس، التى تحمل إلى الجهات البعيدة، وماتزال القلعة موجودة إلى اليوم (إبن حوقل ، نفسه ، ص ٢٧١، لسترنج، نفسه، ص ٣٥٠).

وقصد بنفسه أصفهان ليحرض أحمد بن عبد العزيز السابق الذكر على قتال عمرو، وفي ذلك يقول (الطبري) أنه عزل مرة أخرى وطرحت "المطارد والأعلام والترسة التي كانت في مجالس الشرطة التي عليها اسم عمرو بن الليث"، فجعله هذا أن يعود إلى كرمان من فارس ثم عاد إليها بعد أن أخذ أهبته، وعلى مقربة من أصطخر أنزل بقائد الموفق هزيمة نكراء، ودخل شيراز في المحرم من (٢٧٧هـ) مظفرا منصورا، وأمر باسقاط اسم الخليفة من الخطبة وأن يخطب باسمه وحده. ثم تغلب على أحمد بن عبد العزيز وأعلن ثورته على الخليفة وسلك طريق الأهواز وبغداد. إلا أن وزير الخليفة أعاده بشتى صنوف المداهنة والوعود من الأهواز. ولما أن المعتمد قد وافته المنية في هذا الوقت وصار (المعتضد) خليفة في عام (٢٧٩هـ/ ٨٩٢ م)، خمد النزاع بين دار الخلافة وعمرو بن الليث مؤقتا، خاصة أن المعتضد صالح عمرا، وعهد إليه بإمارة فارس وكرمان وخراسان وسجستان وكابل وشرطة بغداد، وأمر بأن يعاد اسمه إلى الخطب والألوية وأن يخطب له أيضا في الحرمين، وكان عمرو بن الليث قد أرسل إليه الرسل تحمل الهدايا الكثيرة معلنا الولاء له، وسائلا إياه أن يوليه إمارة خراسان التي كانت تحت إمرة رافع بن هرثمة في ذلك الوقت. ورجع عمرو إلى سجستان تحفه الغبطة والمنة وأصر هذه المرة أن يستأصل شأفة فتنة رافع تماما الذي تحالف مع أخيه علي بن الليث. ويذكر (الطبري) أن اللواء الذي أرسله الخليفة المعتضد من بغداد بتقليد عمرا بن الليث الولايات، قد نصب في نيسابور لمدة ثلاثة أيام كبرهان ملموس على رضاء الخليفة عليه(١).

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج١١، ص ٢٦٥، بارتولد، تركستان، ص ٣٤٥.

كان رافع بن هرثمة مشتغلا بمهاجمة طبرستان وخراسان والرى وجرجان منذ أن نصبّه الموفق ومحمد الطاهرى على حكومة خراسان حتى سنة (٢٧٩ هـ)، حين عاد عمرو من فارس إلى سجستان. ومن بين ذلك هزيمته لمحمد بن زيد الداعى فى (٢٧٤ هـ)، واستيلاؤه على جرجان وطبرستان، وفى نفس الأيام لحق على بن الليث وابناه الاثنان برافع، وأخرج محمد بن زيد عامل رافع من طبرستان فى وقت عودة عمرو بن الليث من كرمان، لكن محمدا بن زيد لم يكن الند القوى لرافع.

ولما أدرك رافع فى النهاية أن أعداء أقوياء يقصدونه من هنا وهناك، وأنه لا يحتمل قتال عمرو بن الليث ومحمد بن زيد العلوى وأحمد بن عبد العزيز والى أصفهان والرى من قبل الخليفة وهو بمفرده، رأى أنه من الأصوب أن يصالح أحمد بن عبد العزيز ومحمدا بن زيد ثم يتجه مجتمع الجأش إلى أقوى أنداده عمرو بن الليث. ولهذا فقد صالح أحمد ابن عبد العزيز فى (٢٨٠هـ)، وانعطف أيضا إلى محمد بن زيد وترك له طبرستان وجرجان وخطب له فى هذه المناطق، ووعده الداعى أن يمده بأربعة آلاف من شجعان الديلم. فأرسل عمرو بن الليث إلى الداعى لما علمه من هذا الصلح وحذره من خيانة رافع وغدره فتحاشى الداعى من معاضدة رافع.

وأتى رافع بعد أن اطمأن خاطره من جانب محمد بن زيد وأحمد إبن عبد العزيز إلى نيسابور فى عام (٢٨٣هـ)، لكى يطرد عنها عمرا بن الليث الذى وصلها بعد فتح هراة لكنه لقى هزيمة فادحة منه، ووقع كثير من أتباعه أسرى للأمير الصفارى، كان من بينهم ابنا على بن الليث اللذان كان يعيشان بعد موت أبيهما فى سنة (٢٨٠هـ) عند رافع. فتلطف عمرو بهما وخف يتعقب رافعا الهارب إلى (أبيورد). وفر منها إلى

(سرخس) ثم عاد إلى نيسابور فى غياب عمرو. إلا أن عمرا هزمه مرة أخرى فأرسل رافع أخاه يستمد محمدا بن زيد فلم يلتفت الداعى إلى دعوته. وفى آخر الأمر نالته هزيمة ثالثة من عمرو فى سبزوار [١] وقتل نحو خمسة آلاف من جنده ولحق بقيتهم إلى عمرو وركنوا إلى الفرار فاضطر إلى أن ينهزم إلى خوارزم. وكان أن قبض عليه واليها وقتله فى شوال من سنة (٢٨٣هـ) وأرسل برأسه إلى عمرو. وسير عمرو هذا الراس بهدايا إلى بغداد. وأمر المعتضد بأن يعلق من الصباح حتى الظهر فى جانب بغداد الشرقى، ومن الظهر إلى المساء فى جانبها الغربى ليعتبر الناظرون، وأرسل إلى عمرو بن الليث الخلع واللواء دليلا على رضاه عنه. وبهذا زالت فتنة هذا الرجل العاصى وخلص الخليفة والداعى وعمرو بن الليث من شر هذا الند المنتهز [٢].

(ج) قتال عمرو الصفار لإسماعيل السامانى وأسره (٢٨٧هـ):

بعد مقتل رافع أرسل عمرو بن الليث بقاتله وقائد آخر إلى خوارزم ليستوليا عليها له، وقبل أن يبلغاها وصلتهما أنباء أن الأمير اسماعيل بن أحمد السامانى والى بخارى قد أنفذ عامله إلى خوارزم فاستولى عليها له، فأرسل عمرو رسالة للخليفة المعتضد وهو شديد الغضب وطلب منه أمرا بحكومة ما وراء النهر، وهدده أنه إذا لم يقبل هذا الأمر فلسوف يهاجم بلاد ماوراء النهر ويطرد إسماعيل منها. ومع أن

---

(١) هذا وتقع سبزوار غرب نيسابور، وكانت تسمى بيهق، ويذكر ياقوت أن سابزوار أصح تسمية للمدينة، وإن قالت العامة سبزوار. وكان معظم أهلها من الشيعة، واشتهرت أسواقها بأسقفها الخشبية التى كانت تقوم على طبقان متينة البناء (لسترنج، نفسه، ص ٤٣٢-٤٣٣ والمصادر المذكورة هناك). وتجدر الإشارة إلى وجود مدينة أخرى تسمى سبزوار بالقرب من هراة.

(٢) الذهبى، دول الإسلام، ح١، ص١٧٠، ابن العماد، شذرات الذهب، ح٢، ص١٨٢، عباس إقبال، نفس المرجع، ص١٢٢.

الخليفة لم يكن يميل إلى إصدار أمر له وكان كامل الرضاء عن إسماعيل، إلا أنه أجبر على أن يرسل إليه أمراً بولاية إمارة ما وراء النهر وهدايا أيضا بعد مدة.

ويذكر كل من الطبرى وابن خلكان أن الخليفة العباسى المعتضد نزولا على رغبة عمرو بن الليث استدعى حجاج خراسان، وقرئ عليهم قراره بعزل إسماعيل السامانى وتولية عمرو الصفارى على بلاد ماوراء النهر، وتلا ذلك أن وجه إلى عمرو بنيسابور بالخلع وبعهد ولايته على ماوراء النهر. ولم يسع عمراً إلا أن يُعرب عن تهكمه وهو يتقبل خلع الخليفة، فعندما وضع رسول الخليفة الخلع بين يديه، أخذ عمرو يرتديها الواحد تلو الآخر وهو يعبر عن امتنانه حتى وضع الرسول أمامه عهد الخليفة بولاية ما وراء النهر، فقال له عمرو: "ما أصنع به؟ فإن إسماعيل بن أحمد لا يسلم إلىَ إلا بمائة ألف سيف"، فكان رد الرسول"أنت سألته، فشمَر الآن لتتولى العمل فى ناحيته" فأخذ عمرو عهد الخليفة وقبله، ثم وضعه بين يديه ثم أمر للرسول ومن معه بسبعمائة ألف درهم. ومع ذلك كان الخليفة العباسى يقوى إسماعيل خفية ويفهمه أنه لم يعزله من إمارته وأنه مشمول بتأييد وعنايته.

ويذكر (فامبرى) أن عمرا بعد أن هزم رافع بن هرثمة، فقد رأى فى السامانيين وقوتهم الصاعدة، مع محبة الناس لهم، منافسا له لابد من القضاء عليه بأى ثمن. كما أدرك أن قيام صلات المودة بين رافع وإسماعيل ما يدل على فتور إسماعيل نحوه، فأخذ يتحين الفرصة للاشتباك معه. حتى إذا ما بلغه ترحيب إسماعيل بأحد أتباعه حين فر من عنده إلى بخارى، وعمد أول الأمر إلى حرب الرسائل معه، وحين رد إسماعيل عليه رداً عنيفاً اصطنع المسالمة وناشده أن يعدل عن قيام

النزاع بينهما وطلب منه قيام صداقة بينهما على أسس من المحبة والإخلاص، كما اعتذر إليه بأن لا يجعل للوشاة سبيلا إلى افساد ما بينهما من ألفة، كذلك سأله أن يتناسى ذلك كله، وتعهد له بعدم التعرض له مستقبلا، فله أن يمارس سلطانه هادئ البال[1].

وبعد أن بلغ عمرا بن الليث أمر الخليفة، ورأى أن أمر إسماعيل قد بلغ قوة بسبب تعاطف الخليفة معه وأنه على أهبة تامة للحرب، تردد قليلا في أقدامه على مهاجمة ما وراء النهر، لكنه في النهاية أراد أم أبى تحرك إليها. وفى أثناء مسيره إليها وصلت إلى مسامعه أنباء هزيمة مشركي شرق أفغانستان الحالية لجيشه في غزنة واستيلائهم على أملاكه هناك. وقد فتت هذه الحادثة في عضده كثيرا.

وكان إسماعيل قد سبق فأرسل جنده إلى فراسان من بخارى لأنه كان يعرف عزم عمرو من قبل، ونادى في أهل ما وراء النهر أن عمرا وجنده آتون لنهب البلاد وقتل نسائهم وأطفالهم فعليهم مواجهته ودفعه. ولبى أهالى ما وراء النهر نداء إسماعيل لما لمسوه فيه من دين وحسن خلق، وتجمع حوله جمع غفير وأقسموا أنهم ماضون في ركابه مقاتلين ولو أدى بهم الأمر إلى أن يقتلوا أو يؤسروا، وكان عمرو بن الليث قد أرسل قواته بقيادة على بن شروان ومحمد بن بشر القائد إلى بخارى،

---

(١)أرمينيوس فامبرى، تاريخ بخارى، ترجمة أحمد محمود الساداتى، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٠٠، وجدير بالذكر أن بعض المصادر الأخرى تذكر أن اسماعيل السامانى هو الذى سعى أول الأمر للصلح، وكتب إلى عمرو "إنك قد وليت دنيا عريضة، وأنا في يدى ما وراء النهر، وأنا في ثغر فاقنع بما في يدك واتركنى مقيما بهذا الثغر، فأبى اجابته إلى ذلك، وذكر له من أمر نهر بلخ وشدة عبوره، فقال عمرو: "لو شئت أن أسكره ببدد الأموال وأعبره لفعلت". راجع الطبرى، تاريخ الأمم، ج١١،ص ٢٧٥، فامبرى، المرجع نفسه، ص ١٠٠، هـ١، حسن إبراهيم حسن،المرجع السابق، ص٦٨.

وأمره ألا يتعرض لأهلها بسوء ما وسعه ذلك، وأن يجتهد فى كسبهم إلى صفه بالمودة دون قتال. وما أن سمع إسماعيل بذلك حتى عبر نهر جيحون لساعته، وبدأ على إبن شروان الهجوم بمجانيقه القوية، واستمات الفريقان فى قتال عنيف انتهى بانتصار إسماعيل السامانى انتصارا حاسما، ووقع فى الأسر قائدا الجيش الصفارى (بشر وعلى بن محمد بن شروان) وهناك تبدو شهامة إسماعيل بإزاء أعدائه على ما هو مألوف عنده، فلم يواصل السير لأسر جيش عدوه كله، وإنما حمل هؤلاء الرجال بالهدايا وأطلق سراحهم ليعودوا بعد ذلك إلى ديارهم، وحين أعرب رجاله عن دهشتهم بازاء صنيعه هذا، كان جوابه: "ما نصنع بهؤلاء المساكين، فلندعهم يعودون إلى بلادهم، وهم بعد ذلك لن يخرجوا لحربنا أبدا"(١).

وحين وصلت عمرو بن الليث أخبار هذه الهزيمة وكان بنيسابور، بلغ به الحنق والغيظ مداه، وملأ عليه الإنتقام من عدوه كل تفكير. وحين طلب إلى إسماعيل أن يفك أسار قائديه فرفض، سار فى جيش جديد إلى بخارى. ولما تواجه الجيشان نادى إسماعيل فى جيش عمرو أنه وجنده مجاهدون لا يطلبون غير وجه الله، وأن عمرا رجل لا يطلب غير الدنيا وزينتها ولم يتحرك بهم إلا لهذا الغرض. وأثمر هذا الخطاب فيهم فانضم إليه فريق من أتباع عمرو. ومع هذا كله فقد حارب عمرو بشجاعة طوال يومه جند إسماعيل، ولكن لسوء حظه ثارت فى وجوه جنده ريح عاصفة، فضلا على كثرة جند إسماعيل، وصار نور النهار ظلاما حالكا، فانفرط عقد جيش عمرو فلم ير بدا من الهروب إلى (دغل)، لكن أقدام جواده غاصت فى وحله وطينه، فاستأسره بعض جند إسماعيل فى يوم الثلاثاء

---

(١) فامبرى، تاريخ بخارى، ص ١٠٠ - ١٠١.

آخر ربيع الآخر سنة سبع وثمانين ومائتين، وفي رأى آخر في جمادى الآخر عام ٢٨٨هـ / ٩٠٠م[١]. وينقل (فامبرى) عن كتاب (زينة التواريخ) ما أصاب عمرا بن الليث في مساء اليوم الأول من أسره قبل أن يمثل بين يدى إسماعيل الساماني، فيذكر أنه جلس على الأرض يراقب أحد حراسه وهو يعد له وجبة بسيطة في صفحة ما يستخدم لسقى الخيل، ولم يكن عنده غيرها، وما أن وضعها على النار، حتى أتى كلب فأدخل رأسه فيه فانحشر، فلم يستطع فكاكا فانطلق هاربا. ولم يملك عمرو مع هذا المنظر إلا أن يمعن في الضحك. وحين أنكر عليه حارسه ذلك، أوضح له أن تابعه كان قد شكا له في الصباح بأن ثلاثمائة بعير لا تكفي لحمل أدوات مطبخه، وها هو كلب واحد ينطلق بصفحته وبطعامه. ولقد بلغ بإسماعيل التأثر حين رأى خصمه الأسير على هذا الحال، فأكرمه غاية الاكرام، وأنزله قصرا له وقام بزيارته بعد عدة أيام، وبذل ما في وسعه ليخفف عنه ما نزل به. فلما علم الخليفة العباسي بأخبار هزيمة الصفار، سر سرورا بالغا وخلع على إسماعيل، وفوض إليه جميع الولايات التي كانت بيد عمرو، وطلب منه أن يرسله إلى بغداد، محتجا بأنه بوصفه أميرا للمؤمنين هو وحده الذي له الحق أن يعاقب هذا المذنب[٢].

(د) نهاية عمرو بن الليث في بغداد (٢٨٩ هـ):

وبعث الأمير إسماعيل الساماني بعمرو مغلولا للمعتضد ببغداد، وأمر عددا من جنده أن يبقوا وسيوفهم مسلولة حارسين له حتى يأتوا به إلى بغداد وهو في هذه الحالة من الهوان. وسمح له في دار الخلافة أن

---

(١) الطبرى، تاريخ الأمم، ح١١، ص ٢٦٧، بارتولد، تركستان، ص٣٥١، فامبرى، تاريخ بخارى، ص١٠٠ - ١٠١.

(٢) إبن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٣٨، فامبرى، تاريخ بخارى، ص١٠١ - ١٠٢.

يلبس ثيابه الخاصة به وهو مطلق السراح. وأركب أتباع المعتضد عمرا جملا أعرج أحدب مرتفع القامة وطافوا به مدة من الوقت في شوارع بغداد وهو في حالة من الذلة الشديدة ثم ألقي به المعتضد في الحبس.

وظل عمرو بن الليث في سجن المعتضد طوال حياته، وطلب هذا الخليفة الحاقد وهو في حال الاحتضار أحد خدمه وأفهمه بالإشارة، إذا لم يكن يستطيع الحديث في حالته تلك، بوضع يده على حلقه وإحدى عينيه، أن يقتل الأعور، فقد كان عمرو محروما من احدى عينيه. ولم يرض الخادم أن يأثم بقتل عمرو خاصة أن المعتضد كان في حال النزع الأخير، فامتنع عن تنفيذ أمره. ولما خلف المكتفي المعتضد في الخلافة سأل وزيره عن حال عمرو، فقال الوزير أنه مايزال حيا، ففرح المكتفي لهذا كثيرا لأنه لقي من عمرو الصفار أيام اقامته بالري خيرا كثيرا، لكن الوزير القاسي القلب أرسل خفية من يقتل عمرا في السجن وأفهم المكتفي أن عمرا قتل قبل وصوله خليفة إلى بغداد(١). وإن كان إبن خلكان يذكر أنه مات أو قتل عقب وصوله إلى بغداد في عهد المعتضد(٢).

كان عمرو بن الليث مثل أخيه في علو همته وبذله ويقظة عقله وسياسته وعمق فهمه وتدبيره. لكنه كما يبدو لم يكن في مثل هيبته وشجاعته وجرأته، لذلك فقد كان الجند يحبون يعقوب كثيرا ويحبون عمرا أكثر. وكان في تحمله المصائب وفي صبره كأخيه شديد الصبر صلب العود، ويبذل كيعقوب السعي الكامل والاهتمام البليغ في أمر جيشه، وكان يأمر لجنده كل ثلاثة شهور بالمؤن والرواتب، وكان ترتيبه في هذا الشأن أن يجمع الجنود في الميعاد بقرع الطبل، ثم يتلو مأمور دفع الأجور أسماء

---

(١) ابن خلدون، العبر، ح٣، ص٤٣٨ عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٢٥.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح٢، ص١١٦.

الجند من دفتره بالترتيب. وكان عمرو بن الليث هو نفسه الجندى الأول الذى يظهر أولا فيعاين (عارض الجيش) أو زير الحربية باصطلاح اليوم جواده وسلاحه وعدته ولوازمه. (١)

ولا علم لنا بما كانت عليه (الإدارة) فى عهد عمرو، وكل ما يذكره كرديزى هو أنه كان لعمرو جواسيس فى كل مكان وأنه كان على علم بكل ما يجرى فى أراضيه. أما صاحب "تاريخ خيرات". فيروى أن عمرا اشترى غلمانا أحداثا ورباهم فى خدمته ثم أهداهم إلى كبار رجال دولته وأن هؤلاء الغلمة كانوا ينهون إليه كل أعمال أسيادهم. ولم يكونوا يخشون أسيادهم لأن أحدا لم يكن ليجرؤ فى عهد عمرو على معاقبة غلامه إلا بإذن منه. (٢)

وقد قام سلطان عمرو فى واقع الأمر على السيف كسلطان أخيه، ولذا فقد كان ضروريا له أيضا أن يحصل على الأموال اللازمة لمتابعة حروبه، وقد تمكن من تحقيق ما أراد معتمدا على نظام اقتصادى محكم، هذا إلى جانب ما جمعه عن طريق النهب ومصادرة أموال الغير. ولا علم لنا بمقدار ما كان يعود على عمرو من مملكته، إلا أننا نستطيع أن نكون فكرة تقديرية عن ذلك اعتمادا على ما وصلنا من حقائق عن مقدار الخراج الذى كان يجبى فى عهد الطاهريين والسامانيين. ووفقا لقول الطبرى(٣) فإن مجموع خراج الولايات التابعة لعبد الله بن طاهر بلغ عام

---

(١) راجع تفاصيل ذلك، ص ١٤٧ من هذا الفصل.

(٢) إبن خلدون ، العبر ، ح ٣، ص ٤٣٩.

(٣) الطبرى، تاريخ الأمم ، ح ١١ ، ص ١٦٨، راجع أيضا رواية المسعودى (مروج الذهب، ح ٢، ص١٢٥ وما يليها بصدد الهدايا التى أرسل بها عمرو إلى الخليفة عام ٢٨٣ هـ/٨٩٦م، وكان من بينها "صنم من صفر.. كان عمرو بن الليث قد حمل هذا الصنم من مدن افتتحها من بلاد الهند ومن جبالها"، وكان الخليفة المعتمد قد أقطع بلاد السند للصفاريين قبل ذلك ليخفف منشدة ضغطهم على العراق.

وفاته ثمانية وأربعين مليونا من الدراهم. أما ابن خرداذبه[١]. فيذكر أن مقدار الخراج الذى كان يدفعه عبد الله للخليفة قد بلغ أربعة وأربعين مليونا وثمانمائة وستة وأربعين ألفا من الدراهم، هذا زيادة على ثلاثة عشر من جياد الخيل وألفى رأس من الغنم وألفى رقيق من الغز قيمتها ستمائة ألف درهم وألف ومائة وسبعة وثمانين ثوب وألف وثلاثمائة قطعة من الحديد. هذه المعطيات تتصل بعام ٢١١ وعام ٢١٢ للهجرة (٨٢٦ و ٨٢٨)، أما فى عام ٢٢١هـ /٨٣٦ م، إذا ما أخذنا بقول قدامة[٢]. فإن عبد الله قد التزم بدفع ثمانية وثلاثين مليونا تشمل ثمن ما أرسل من الرقيق والغنم والثياب القطنية؛ ومن الجلى أن ما تبقى من العائد كان يتصرف فيه الطاهريون. ويجعل اليعقوبى خراج خراسان أربعين ألفا يضم إليها خمس الغنائم (أى المأخوذة فى الحرب ضد الكفار) وهذا كله كان يتمتع به الطاهريون وحدهم، وإلى جانب هذا كان الطاهريون يتسلمون ثلاثة عشر مليونا من العراق عدا ما كان يصل إلى أيديهم من الهدايا والتحف. أما ابن حوقل[٣] والمقدسى[٤]. فيجعلان خراج خراسان قريبا من هذا المقدار على عهد السامانيين. وأما ما كان يجبيه عمرو من ضرائب من أملاكه، فيما عدا بلاد ما وراء النهر التى لم تخضع له، كان أقل من ذلك بكثير، غير أنه بأجمعه كان تحت تصرف عمرو على النقيض مما كان عليه الحال من الطاهريين. وليس لدينا ما يفيد بأنه أرسل أية أموال إلى بغداد سوى الهدايا التى كان يبعث بها من وقت لآخر. ويذكر ابن معين. أن عمرا هو أول سلطان مسلم يأمر بذكر اسمه فى خطبة الجمعة التى كانت

---

(١) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، طبعة خير الدين محمود قبلاوى، ص٦٩.
(٢) قدامة بن جعفر،نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ص١٨٥.
(٣) ابن حوقل، صورة الأرض ، ص ٣٦١.
(٤) المقدسى، أحسن التقاسيم ، ص ٣٤٠.

حتى ذلك العهد مقصورة على إيراد اسم الخليفة وحده؛ ويعلق على ذلك قائلا " ولم يكن الدعاء قبل ذلك فى الخطبة غلا للخليفة، وكان هو أول من أدخل إسم السلطان فى الخطبة"، وحتى إذا لم تثبت صحة هذا الزعم(١). فإن عمرا كان يتمتع على أية حال بدرجة من الاستقلال فاقت كثيرا ما كان يتمتع به الطاهريون. ويقول ابن خلكان إن خراسان لم تر منذ زمن طويل حاكما فى كفاءة عمرو وحسن سياسته. أما فيما يتصل بسياسته المالية فإن كرديزى يقدم المعلومات الآتية التى استقاها فيما يغلب على الظن من (السلامى) كان لعمر ثلاث خزائن الأولى تضم الأموال المجموعة من خراج الأرض وغيرها من الضرائب، وكان يستعمل هذا المال فى القيام بأمر جيشه، أما الخزانة الثانية فكانت تضم الأموال المجموعة من الأملاك الخاصة بالأمير وكانت تصرف على متطلبات بلاطه، وأما الخزانة الثالثة فكانت تضم الأحداث (أى ربع الأرض المزروعة حديثا)، وما صودر من أملاك أتباعه الذين انضموا إلى صفوف عدوه، ومن هذه الخزانة الأخيرة كان يوزع الصلات على خدمه المخلصين وعلى الكبراء والسفراء(٢). وفيما يتصل بمصادرة أملاك الغير فإن عمرا كان لا يلجأ كما يقول (كرديزى) إلى هذه الوسيلة إلا إذا وجد مبررا كافيا، ويروى لنا كرديزى عقب هذا كيف أن عمرا أتهم واحدا من كبار رجال دولته وهو محم بن بشر بأقسى التهم، ولكن لم يلبث أن أغضى عن اتهاماته هذه عندما فهم ذاك مقصود قوله فسلم جميع ممتلكاته للخزينة.

---

(١) راجع رواية نرشخى فيما يتعلق بالخطبة باسم يعقوب ثم من بعده باسم نصر إبن أحمد ببخارى. ولعل هذه الروايات ليست أهلا للثقة التامة. ويبدو جليا أن عمرا هو أول حاكم من حكام الشرق يسك النقود باسمه واسم أبيه.وكما هو معلوم فإن العلاقة وثيقة بين السكة والخطبة فى الدول الإسلامية (بارتولد، تركستان، ص ٣٤٦، هـ ٢٨٣).

(٢) بارتولد ، تركستان، ص ٣٤٦ـ ٣٤٧.

وكان (الجيش) موضع عناية خاصة من عمرو، ويتسلم أرزاقه فى كل ثلاثة أشهر وسط عرض مهيب، ويحفظ ابن خلكان وكرديزى. راوية لعرض كهذا استعاراها من السلامى أيضا. وكان دفع أرزاق الجند يقع تحت إدارة موظف خاص هو (العارض) الذى كان يأخذ مجلسه فى المكان المعين للعرض، وعندما يسمع صوت طبلين هائلين يتجمع الجيش بأكمله فى ذلك الموضع، وتوضع أكياس الدراهم أمام العارض بينما يمسك معاونه بيده قائمة بأسماء الجند يناديهم منها. وينادى المنادى أولا اسم عمرو بن الليث فيتفقد العارض دابته وآلتها بدقة، ثم يعرب عن رضاه ويدفع له ثلاثمائة درهم. فيضع النقود فى خفه ويقول: "الحمد لله الذى وفقنى لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق" ثم يرجع عمرو فيأخذ مجلسه على صعيد من الأرض ليرقب فرسانه ورجاله يتقدمون بدورهم أمام العارض ليفحص دوابهم وآلاتهم ويسلمهم أرزاقهم. ولم يتنكب ابن خلكان الصواب عندما لاحظ شدة الشبه بين هذه العادة التى سار عليها عمرو بين وصف عرض الجيوش عند الساسانيين فى عهد كسرى أنوشروان[١]؛ ومن المستبعد أن يكون هذا التشابه من قبيل الإتفاق فحسب.

ولاية أبى الحسن طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث(٢٧٨-٢٩٦هـ):

وبعد أن أسر عمرو بن الليث وهزم جيشه رفع كبار قادة الجيش والدولة حفيده أبا الحسن طاهر بن محمد للإمارة، إلا أن فريقا من الجند انحاز إلى الليث بن على بن الليث ابن أخ عمرو ويعقوب ولم يكن الأمر قد ثبت بعد للأمير الجديد، وظهر الاختلاف فى الجيش نتيجة لذلك، وأمسك السبكرى غلام يعقوب الذى مر ذكره قبل بأزمة الأمور بسبب عدم تقدم

(١) الطبرى، نفسه، ج١١، ص٢٧١، بارتولد، نفسه، ص ٣٤٨.

طاهر وانكبابه على ملذات الشباب واستبد بالأمر. وفى عام (٢٨٩هـ) تقدم طاهر بن محمد برفقة الليث بن على وعدد من القادة الآخرين من سجستان إلى فارس وترك أخاه يعقوب في نيابته بسجستان، وكان غرضه أن يستعيد فارس إلى الأسرة الصفارية وكانت قد آلت إلى الخليفة المعتضد بعد هزيمته عمرو.

وفى النهاية رضى الخليفة المكتفى فى عام(٢٩٠هـ) أن يفوض إمارة فارس لطاهر نظير خراج سنوى. وبعد أن عين طاهر عمالا من قبله على نواحى إقليم فارس ترك جميع أمورها تحت تصرف السبكرى وانشغل بالصيد واللهو واللعب. ورجع إلى سجستان فى سنة (٢٩١هـ) وجعل من محمد بن خلف بن الليث الذى كان من بنى أعمام أبى يعقوب وعمرو الصفار، رئيسا لكل كبار سجستان ، وزوجه من أخته (بانو). وكان هذا الفعل مقدمة لظهور النزاع بين طاهر والسبكرى، لأن الثانى كان ينفس على محمد بن خلف ولم يكن يحب أن يتدخل فى أعمال الملك أحد غيره[١].

وأتى طاهر بن محمد على رصيد الخزانة التى ظلت عامرة بعد عمرو بن الليث، بعد مدة قصيرة بسبب لهوه واسرافه وامتنع عماله من إرسال الخراج إلى سجستان خاصة السبكرى الذى تحرك وضبط كرمان وفارس، فاختلت أمور سجستان كلية، ولم يمنع من زوال الدولة التى أقامها يعقوب وعمرو فى هذا الظرف غير كفاءة محمد بن خلف وحنكته.

وفى النهاية قدم طاهر فى عام (٢٩٢هـ) للاستيلاء على خراج فارس وكرمان، فأرسل السبكرى الذى كان غير راض عن قدومه من يعيده بمعسول الكلام، فعاد طاهر إلى سجستان وشغل نفسه مرة أخرى

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٤٠، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص١٢٦.

باللهو والصيد واللعب بالحمام، فانقض عنه كثير من كبار رجال الدولة فى عهد كل من يعقوب وعمرو وخلت منهم سجستان.

وفى سنة (٢٩٦ هـ) حينما اتجه طاهر إلى بست تقدم الليث بن على بن الليث والى كرمان ومكران إلى سجستان، وفشل يعقوب أخو طاهر فى أن يجليه عنها برغم جهوده العديدة، ولما علم طاهر بعد عودته من بست أن أغلب كبار سجستان قد أخذوا جانب الليث وأن التغلب عليه ليس يسيرا، اصطحب أخاه وسلكا طريقهما إلى فارس على أمل استمداد السبكرى لهما فجلس الليث بن على أميرا فى مكانه[1].

ولاية الليث بن على بن الليث (٢٩٦ – ٢٩٨ هـ):

سار طاهر ويعقوب إلى فارس معتقدين أن السبكرى حافظا لحق نعمتهما ونعمة عمرو ويعقوب قبلهما عليه، ولكن السبكرى كافر النعمة الذى تحالف قبل مع الخليفة المقتدر واستقطع منه فارس لنفسه، قبض على ابنى سيده وأرسلهما مقيدين إلى بغداد واستقل بفارس تماما. وفى عام (٢٩٧هـ) هاجم الليث بن على السبكرى بفارس وأخرجها عنه، لكن الخليفة المقتدر سير مؤنسا الخادم من ناحية والحسين بن حمدان والى قم من ناحية أخرى لمساعدة السبكرى، وبعد مدة من القتال والجدال تغلب الاثنان على الليث بن على فى غرة المحرم من سنة (٢٩٨هـ) وإستأثراه وأرسل به مؤنس إلى الخليفة المقتدر ببغداد.

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٥٥.

ولاية أبى على محمد بن على بن الليث
(المحرم من ٢٩٨ حتى ذى الحجة من نفس السنة)

بعد أسر الليث بن على بايع أهل سجستان أخاه أبا على محمدا، وتأمر هذا الأمير فى هذا الوقت وحسب على سجستان والجزء الشرقى للبلاد الصفارية أى بست وكابل وغزنين (غزنة)، لأن خراسان كانت مع الأمير إسماعيل الساماني منذ أن هزم عمرا بن الليث، وكانت فارس وكرمان يديرهما السبكرى أيضا باسم الخليفة المقتدر.

ولما بلغ المقتدر خبر جلوس أبى على محمد، كتب إلى أحمد بن إسماعيل السامانى يأمره بمهاجمة سجستان وفتحها وضمها إلى ممتلكاته، فسير أحمد السامانى الحسين بن على المروروذى قائدا على جيش إليها، وفتح الحسين بن على بعد حرب شديدة مدينة زرنج فهرب أبو على محمد منها إلى بست. وبعد فترة قدم الأمير السامانى مع (سيمجور) أحد غلمانه إلى سجستان وقبض على (معدل بن على) أخى أبى على محمد الذى كان لا يزال يقاوم فى احدى قلاع سجستان وأسر أحد قواد الأمير أحمد أبا على أيضا فى (بست). وهكذا خرجت سجستان عن أيدى الصفاريين واستقر فى حكمها من سيمجور طرف الأمير أحمد السامانى فى الثانى من ذى الحجة من (٢٩٨ هـ). ولما لم يستطع أو يرد السبكرى أن يبعث بالجزية المقرر ارسالها سنويا إلى بغداد، سير المقتدر جيشا له فهزم السبكرى وفر من شيراز إلى كرمان فى عام (٢٩٩هـ) ولما لم يكن يستطيع الظهور بسجستان عرج إلى هراة عن طريق صحراء لوط وسلم نفسه إلى الأمير أحمد. فسير هذا الأمير الذى لم يكن له هدف فى

حياته إلا أن يكون خادما للخلفاء العباسين بالسبكرى وأبى على محمد بن الليث إلى دار الخلافة للمقتدر وألقى الخليفة بهما فى حبسه[1].

بقية الأمراء الصفاريون

بعد شهرين أسقط الأمير أحمد سيمجور عن ولاية سجستان وفوض ابن عمه أبا صالح منصور بن إسحاق لها. فأوقع أبو صالح وجنده بأهل سجستان ايذاء كثيرا خاصة بالخوارج منهم وكانوا أحرارا محبين للاستقلال، فأعلنوا عصيانهم لهذا الاستخفاف وثاروا فى عام (٣٠٠ هـ) على أبى صالح والسامانيين وقبضوا عليه وحبسوه فى قلعة (أرج) بسجستان وبايعوا إبن يعقوب بن محمد بن عمر بن الليث وكان عمره عشرة أعوام واسمه أبا حفص عمرو، فأمر أحمد السامانى الحسين بن على المرورودى مرة أخرى بفتح سجستان، فسيطر عليها بعد حصار استمر تسعة شهور وقبض على أبى حفص عمرو، فأمر أحمد السامانى الحسين بن على المرورودى مرة أخرى بفتح سجستان فسيطر عليها بعد حصار استمر تسعة شهور وقبض على أبى حفص عمر وأرسل به إلى بخارى.

ثم عين أحمد سيمجور ثانية أميرا على سجستان، وأمر أبا صالح على نيسابور. ومع أن سجستان من عام (٣٠٠هـ) قد سيطر عليها السامانيون مرة أخرى، وكان ينصب لحكمها من طرفهم أو الخليفة فى بغداد حاكم بين الفينة والأخرى، إلا أن أهل سجستان الذين لم ينسوا ذكرى عهد يعقوب وعمرو أبدا وكانوا يتميزون من الغيظ لاستيلاء الأجانب على بلدهم، كانوا يقومون بالثورات على الولاة الأجانب كلما

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٥٦، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص١٢٩.

سنحت لهم الفرصة، كما حدث فى المحرم من (٣١١ هـ) حين طردوا الوالى السامانى لسجستان وأمروا الأمير أبا جعفر أحمد بن محمد بن خلف بن الليث الذى سبق ذكره الذى كان أمه (بانو) ابنة محمد بن عمر بن الليث.

وقد كان الأمير أبو جعفر أحمد بن محمد هذا الذى حكم سجستان بين عامى ٣١١ هـ ، ٣٥٢ هـ، وكانت علاقاته بالأمراء السامانيين خاصة نصر بن أحمد ممدوح الرودكى حسنة، وكان رجلا ذو كفاءة محنكا حكيما فاضلا، أمنت في عهده سجستان وهدأت أمورها وتقاطر إليه الفضلاء والحكماء من الأطراف وألفوا باسمه الكتب.

وفى عام (٣٥٢ هـ) قتل الأمير أبا جعفر فى مجلس شرابه جماعة من غلمانه، فخلفه ابنه الأمير أبو أحمد خلف وأشرك هذا الأمير معه فى الحكم طاهرا بن على التميمى الذى ينتسب من ناحية أمه إلى على بن الليث أخى عمرو ويعقوب. وكان طاهر رجلا شجاعا كافيا عالما. قاتل أعداء خلف والأمراء السامانيين خاصة (ماكان بن كاكى) وانتصر فى غالب معاركه.

وعزم خلف فى عام (٣٥٣هـ) المسير إلى بيت الله حاجا، وأناب طاهرا بن على فى حكمه لسجستان ولما عاد من الحج لم يدعه طاهر يدخل سجستان فلجأ خلف إلى منصور بن نوح السامانى ودخلها بعونه. وأخلى طاهر المدينة فلم يكن يطيق المقاومة واتجه إلى حدود هراة، لكنه هاجم سجستان بعد أن علم بتفرق جند خلف، فاستمد الأمير منصور ثانية وعاد إلى مدينته. وفى هذا الوقت مات طاهر وترأس ابنه الحسين أتباع والده. وفى عاقبة الأمر استأمن الحسين منصورا السامانى واتجه إلى بخارى واستقر خلف على سجستان فى عام (٣٥٩ هـ).

وبعد مدة سلك خلف سبيل العصيان على منصور الساماني واستنكف أن يرسل المال والهدايا التي كان ملزما بإرسالها، فأرسل منصور جيشا إلى سجستان بقيادة الحسين بن طاهر لتأديب خلف. وحاصر الحسين قلعة (أرج) بسجستان نحو سبعة أعوام ولكنه لم ينجح في الظفر بخلف. وفي النهاية توسل منصور بأبي الحسن بن إبراهيم بن سيمجور القائد السابق لجيش خراسان وأمره بدفع خلف بسجستان، فطلب أبو الحسن السيمجوري وكان حانقا على منصور لعزله عن قيادة جيش خراسان ولصداقته لخلف سلميا من خلف أن يترك قلعة أرج للحسين ويذهب لقلعة أخرى، حتى يستطيع أن يبين للأمير الساماني أنه استولى على قلعة أرج هذا بعد تعب وشدة. ففعل كذلك وقام أبو الحسن السيمجوري بالصلح بينه وبين الحسين طاهرا وأخذ من كبار سجستان ومن الحسين بن طاهر رسائل فيها أنه سيطر على القلعة وتركها للحسين وأرسل بتلك الرسائل إلى بخارى. لكن خلفا بعد مدة قليلة أي في المحرم من عام (٣٧٣ هـ) هاجم الحسين، وبعد ستة شهور من الصراع تصالحا في رجب (٣٧٣ هـ) ولم يطل الوقت حتى توفي الحسين واستقل خلف بإمارة سجستان.

ظل خلف بن أحمد أميرا على سجستان حتى شهر صفر من عام (٣٩٣هـ) وإن كان سلم في السنوات الثلاث الأخيرة إمارته للسلطان محمود الغزنوي بعد حرب بينهما كما سيلي في تاريخ الغزنويين. وأرسل محمود به إلى جوزجانان لكنه فهم بعد أنه تواضع سرا مع أيلك خان الآفراسيابي فأمر بحبسه ومات خلف في حبسه في عام (٣٩٩ هـ) وهو آخر أمير معروف من أمراء الصفاريين، لأن بعده ظهر بضعة نفر في سجستان بدعوى نسبتهم لهذه الأسرة ووصلوا إلى حكم سجستان

بمساعدة الملوك الآخرين، لكن لم يظهر من بينهم واحد له فى التاريخ اسم وعنوان معتبران ويجدر بالذكر.

كان الأمير خلف بن أحمد رجلا دنيويا محبا للأدب والشعر فاضلا، وقد ألف جماعة من علماء عصره باللغة العربية تفسيرا كبيرا للقرآن الكريم باسمه ومدحه شعراء مشهورون من مثل أبى الفتح على بن البستى [١] وأبى منصور محمد بن عبد الملك الثعالبى النيسابورى صاحب كتابى يتيمة الدهر، وتتمة اليتيمة فى سير الشعراء الكبار المعاصرين له (ت٤٢٩هـ) وأبى الفضل أحمد بن الحسن بديع الزمان الهمدانى صاحب المقامات المشهورة، خاصة بديع الزمان الذى خلد خلفا بذكره خيره بمدائحه. [٢]

---

(١) هو نظام الدين العميد أبو الفتح على بن محمد بن شعراء العهد الغزنوى، وكان صاحبا لديوان ناصر الدين سبكتكين، فلما غضب عليه محمود الغزنوى رحل عنه، وكان بليغا فى شعره ونثره العربى والفارسى، توفى بين عامى ٤٠١، ٤٠٣.

(٢) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٣١-١٣٢.

أسماء الأمراء الصفاريين وزمن إمارة كل منهم

١ - أبو يوسف يعقوب بن الليث (٢٤٧ - ٢٦٥ هـ)	١٨	عاما
٢ - عمرو بن الليث أخوه (٢٦٥ - ٢٨٧ هـ)	٢٢	عاما
٣ - أبو الحسن طاهر بن محمد بن عمر بن الليث (٢٨٧ - ٢٩٦ هـ)	٩	أعوام
٤ - الليث بن على بن الليث (٢٩٦ - المحرم من ٢٩٨هـ)	٣	أعوام
٥ - أبو على محمد بن على بن الليث (من المحرم حتى ذى الحجة من ٢٩٨ هـ)	عاما	واحدا
(الحكام السامانيون من ذى الحجة ٢٩٨ حتى المحرم ٣١١ هـ)	١٢	عاما
٦ - أبو جعفر أحمد بن محمد بن خلف (٣١١ - ٣٥٢هـ)	٤١	عاما
٧ - أبو أحمد خلف بن أحمد (٣٥٢ - ٣٩٣ هـ)	٤١	عاما
	١٤٦	عاما

الفصل الرابع

الدولة السامانية

(٢٦١-٣٨٩هـ/٨٧٤-٩٩٩م)

- تقديم.
- بلاد ماوراء النهر (عرض جغرافى).
- بلاد ماوراء النهر قبل قيام الدولة السامانية.
- الأسرة السامانية.
- إتصال آل سامان بالدولة الإسلامية.
- قيام الدولة السامانية:
- (ولاية نصر بن أحمد السامانى لبلاد ماوراء النهر).
- تدعيم دولة نصر بن أحمد السامانى.
- الصراع على السلطة (نزاع الأخوين نصر وإسماعيل).
- إتساع الدولة السامانية:
- (ولاية إسماعيل بن أحمد السامانى (٢٧٩-٢٩٥هـ).
- جهاد إسماعيل السامانى وعلاقته بالعباسيين.
- ولاية أحمد بن إسماعيل وإبنه نصر (٢٩٥-٣٣١هـ).
- فتوح الأمير نصر وعلاقاته الخارجية.
- ولاية نوح بن نصر (٣٣١-٣٤٣هـ).
- ولاية عبد الملك ومنصور إبنا نوح (٣٤٣-٣٦٦هـ).
- ولاية أبى القاسم نوح بن منصور (٣٦٦-٣٨٧هـ).
- زوال الدولة السامانية.

الفصل الرابع

الـــدولـــة الســـامـــانيـــة

(٢٦١ – ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ – ٩٩٩ م)

تقديم:

كانت هذه الدولة من أقوى الدول الإسلامية المستقلة عن الدولة العباسية في المشرق. فقد استمر حكمها قرابة قرن وربع (١٢٨ عام) بين عامى (٢٦١ ـ ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ ـ ٩٩٩ م) ولقد قامت هذه الدولة فى منطقة تسمى (بلاد ما وراء النهر)، واتخذت من (بخارى) عاصمة لها، ولكنها ما لبثت أن امتدت إلى المنطقة الإيرانية (فارس)؛ فبسطت سلطانها على بلاد خراسان، كما ضمت إلى حوزتها طبرستان، والرى، والجبل، وبلاد سجستان، واستجابت لتيار الحركة الاستقلالية والقومية الفارسية، وربما كان تعبيرها عن الحركة الفارسية القومية أكثر ظهوراً ووضوحا مما رأيناه عند الدول المستقلة الأخرى. ويجدر بنا قبل أن نتعرض لتاريخ الدولة السامانية، أن نتحدث عند إقليم ما وراء النهر ونقف عند مدنه الكبرى كمدينة سمرقند وبخارى.

بلاد ما وراء النهر:

هى كما يذكر أبو زيد البلخى (ت ٣٢٢ هـ / ٩٣٣م) إقليما من ثلاثة أقاليم يتكون منها إقليم الشرق. ذلك الإقليم الذى جعله (المقدسى) منطقة واحدة ذات جانبين، يفصل بينهما (نهر جيحون). واستند فى ذلك إلى أن المغرب كان قطعتين، واليمن كان جهتين. ولقد عمّر هذا الإقليم (الشرق) أخوان هما (هيطل وخراسان) إبنا علام بن سام بن نوح عليه

السلام[1]. وتعريف (ما وراء النهر) يكتنفه الغموض؛ فهذا التعريف العربي يقصد به البلاد الواقعة عبر النهر، أي فيما وراء نهر جيحون (أمودَريا Amu – Darya) وعند شاطئه الأيمن[2]. ولم تكن هذه المنطقة وفقا لمفهوم الجغرافيين المسلمين تدخل ضمن تركستان، لأن هذا الاسم الأخير إنما كان يقصد به بلاد الترك عامة، وهي الأصقاع المترامية الأطراف التي تمتد بين بلاد الإسلام والصين، والتي كان يقطنها البدو الرُحل من الترك والمغول. ورغما من هذا، فإن بلاد ما وراء النهر قد خضعت في معظم الوقت لسيادة القبائل التركية، حيث لا توجد عوائق طبيعية تمنع من ذلك. ولهذا فان (عبد العزيز جنكيزخان) يعتبر بلاد ماوراء النهر جزءا هاما من بلاد تركستان [3] ولما كانت الحدود عرضة للانتهاك من طرف أو آخر، فعند التحديد كما يذكر (فامبرى) يتغير المدلول السابق، ويستند في ذلك على أن البلخي – صاحب أقدم مخطوط جغرافي عربي- يدخل عنده تحت هذا التعريف (ماوراء النهر) قسما من الشاطيء الأيسر بحوض النهر الأعلى. وهو وضع سليم لا شبهة فيه من ناحية الحدود السياسية للإقليم، ذلك أنه منذ عهد السامانيين كانت مناطق (الطالقان، وطخارستان، وزم) تعتبر أجزاء مكملة لبخارى، برغم وقوع أقسام منها، أو وقوعها كلها على الشاطيء الأيسر لنهر جيحون. ويؤكد (فامبرى) أن السامانيين وهم أصلا من أبناء هذا الجزء من خراسان - كما سترى- حينما استولوا على بلاد ما وراء النهر، جعلوا من إمارتهم ومن

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣١٠، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٧٦.
(٢) القزويني، آثار البلاد، ص٥٥٧.
(٣) عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، الجمعية الخيرية التركستانية، ١٩٤٥، ص ١٤.

البلاد التي استولوا عليها ملكا موحدا، وبقى الحال هكذا حتى سقوط دولتهم[١].

ويذكر (فامبرى) أن الحدود السياسية لبلاد ما روراء النهر، يرسمها خط يمتد في اتجاه جيحون عند خط عرض ٧١ وخط طول ٣٥°، أى من (بدخشان) حتى شاطيء مرغاب الأيسر، وهى أرض كانت تضم فى القديم عدة دولايات هى (ختلان، وأوجان، وطخارستان وقصبتها بلخ، وزم، وآمل). غير أن تحديد التخوم الشمالية لبلاد ما وراء النهر كان أمراً صعباً للغاية، مما يجعل الاعتماد على تقويم البلدان فى رسم حدود هذا الإقليم أمر يكتنفه الغموض، ويصعب تحديده بدقة. ولذلك يرى (فامبرى) أنه يمكن أن نعبر عن مفهوم إقليم ما وراء النهر بلفظ واحد هو (بخارى) ويعلل ذلك بأن شواطيء زرفشان وكافة المنطقة الممتدة جنوبا حتى جيحون، وشمالا حتى صحراء (قزل قم)، إنما تمثل الأجزاء الوحيدة من المنطقة التى كانت على الدوام قسما من إقليم ما وراء النهر الأصلى الموحد منذ فجر التاريخ[٢] وهذا مايؤكد رأى (عبد العزيز جنكيزخان) من أن هذه البلاد تمثل جزءا من بلاد تركستان، فهو يذكر أنه يوجد بتركستان صحارى واسعة شاسعة، مثل صحراء قزيل قوم، وصحراء آق قوم. ويذكر ان هذه الصحارى رغم أنها غير مأهولة بالسكان، فإنها مستودع لكنوز حافلة بالآثار والتحف القديمة. [٣]

ويعرف الجانب الأيمن من نهر جيحون (ما وراء النهر) عند المقدسى، بجانب (هَيْطل)، ويصفه بأنه من "أخصب بلاد الله، وأكثرها

---

(١) فامبرى، تاريخ بخارى، ص ٢١ ـ ٢٢، بارتولد، تركستان، ص ١٤٥.

(٢) فامبرى، تاريخ بخارى، ص ٢٢ ـ ٢٥.

(٣) عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ص ١٥.

خيراً وفقها وعمارة، ورغبة فى العلم، واستقامة فى الدين، وأشد بأسا، وأغلظ رقابا، وأدوم جهاداً، واسلم صدوراً، وأرغب فى الجماعات، مع يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم. وعلى الجملة الإسلام به طرى، والسلطان قوى، والعدل ظاهر، والفقيه ماهر، والغنى سالم، والمحترف عالم، والفقير غانم، قل ما يقحطون، منابره أكثر من أن توصف، ونواحيه أوسع من أن تنعت"[١]. ولقد قسم المقدسى هذا الجانب إلى ست كور هى من الشرق (فرغانة، ثم إسبيجاب، ثم الشاش، ثم أشروسنة، ثم الصغد، ثم بخارى). فأما فرغانة، فإنها كورة تشتمل على بلاد كثيرة بعد ما وراء النهر، وهى متاخمة لبلاد الترك، أهلها من أتم الناس أمانة وديانة، وهم على مذهب أبى حنيفة، وبها أربعين منبراً، وكانت ذات خيرات وغلات وثمرات كثيرة، وقصبتها مدينة (أخسيكت)، وتشتهر بثروتها المعدنية. وأما إسبيجاب، فهى على تخوم الإقليم المعتدلة، وقصبتها على اسمها، ومنها الترك الغزية. وأما الشاش، فهى خلفهما، وقصبتها (بنكث)، وهى وراء (نهر سيحون) سيردريا – Sir Darya ، متاخمة لبلاد الترك وهى أكبر ثغر فى وجههم، وكانت من أنزه بلاد الله وأكثرها خيراً، وكانت معظم دورهم يجرى فيها الماء، وكلها مستترة بالخضرة. وهناك كذلك أشروسنة، وكبرى مدنها وقصبتها هى (بونجكث)، وبلغ عدد سكانها فى القرن الرابع الهجرى عشرة آلاف، ومن مدن أشروسنة أيضا زامين، وديزك (جيزك)، ولقد تعرضت للثقافة العربية بدرجة أقل من باقى المدن فيما وراء النهر، ولذلك كان من

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص٣١١، وانظر أيضا: القزوينى ، نفسه، ص٥٥٧ - ٥٥٨.

الطبيعي أن تحتفظ لمدة أطول بسمات المجتمع الأرستقراطي الآري القديم وكان بها ما يقرب من أربعمائة حصن[١].

وأما إقليم الصُغد، فهو صغديانا القديمة Sogdiana وكان يشمل الأراضي الخصبة في مابين نهري جيحون وسيحون، وقصبته (سمرقند)، والصغد مدينة مشهورة بما وراء النهر، وأول من أسسها كيكاوس بن كيقباذ، وليس على وجه الأرض مدينة أطيب ولا أنزه ولا أحسن منها. وقد أطلق عليها الإمام أنس بن مالك اسم (المدينة المحفوظة) استنادا إلى قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم التي سماها (المحفوظة) التي لها أبواب، وعلى كل باب خمسة آلاف ملك يحفظونها، ومما قاله الرسول عنها أيضا "وخلف المدينة روضة من رياض الجنة، وخارج المدينة ماء حلو عزب من شرب منه شرب من ماء الجنة، ومن اغتسل به خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ومن تعبد فيها ليلة يقبل منه عبادة ستين سنة، ومن صام فيها يوما فكأنما صام الدهر، ومن أطعم فيها مسكينا لا يدخل الفقر منزله أبداً"[٢]. وكان الصغد، يحسب إحدى جنان الدنيا الأربع، وقد بلغ أوج ازدهاره في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) في أيام الأمراء السامانيين ومع ذلك ظل هذا الإقليم في المئة التالية، في خصب ويسار لانظير لهما.[٣] ولمدينة سمرقند كما يذكر (المقدسي) اثنا عشر رستاقا، ستة جنوبي النهر، وستة في شمالها. ولقد ظلت سمرقند

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣١٢ – ٣١٦، القزويني، آثار البلاد، ص٢٣٥ – ٢٣٦، ٥٣٨، ولقد وصف بارتولد هذه المناطق وأسهب في ذلك جدا: راجع: تركستان، صفحات متفرقة، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٥١٧ ومابعدها.

(٢) القزويني، آثار البلاد، ص٥٣٥، وعن فتح المسلمين لسمرقند على أيدى قتيبة ابن مسلم أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١٠-٤١١.

(٣) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٣-٥٠٤.

من حيث الرقعة وعدد السكان (١٣٤,٣٤٦ نسمة) أولى مدن ما وراء النهر قاطبة، حتى فى تلك العهود التى كانت فيها بخارى عاصمة للبلاد كما حدث فى عهد (آل سامان). ويذكر (بارتولد) أن تلك المكانة التى نالتها سمرقند، إنما ترجع قبل كل شيء إلى موقعها الجغرافى الفريد عند ملتقى الطرق التجارية الكبرى القادمة من الهند مارة ببلخ، ومن فارس مارة بمرو، ومن أراضى الترك. كما أنها امتازت عن المنطقة المحيطة بها بالخصوبة، مما جعل من الميسور لعددها من السكان أن يقطنوها. غير أن سمرقند لم تنل شهرتها ولا امتدادها الواسع إلا فى عهد السامانيين، وأقدم وصف لسمرقند الإسلامية ندين به (الابن الفقيه الهمدانى)، فهو يذكر أن سمرقند وضواحيها كان يحيط بها سور طوله اثنا عشر فرسخا وبه اثنا عشر بابا، وكان جامعها والقلعة وقصر الإمارة بقلب المدينة، وللقلعة بابان من الحديد، وهى بذلك تختلف عن مدن كثيرة كبخارى مثلا، حيث تقع القلعة بداخل المدينة وليس بخارجها، وهى فى ذلك مثل عاصمة أشروسنة.

ويذكر (الطبرى) أن أبا مسلم هو الذى شيد السور الخارجى للمدينة، مما مكن الثائر (رافع بن الليث) عندما حصره القائد (هرثمة بن عيينه)، أن يحتمى بداخل المدينة، واعتصم بها عاما كاملاً. وكان لقلب مدينة سمرقند (الشهرستان) مثل سائر الشهرستانات أربعة أبواب، ففى ناحية الشرق يقوم (باب الصين)، وباب النوبها أو باب الحديد، أما فى الشمال فيوجد (باب بخارى) أو أشروسنه، وجنوبا يقع باب كش أو الباب الكبير. ولقد نعمت المدينة بازدهار كبير فى زراعة البساتين، بفضل التطور الكبير فى الرى الصناعى، وكانت شوارعها فيما عدا القليل مرصوفة بالحجارة، أما مبانيها فكانت فى معظمها مشيدة من الطين

والخشب. وكان يوجد بالمدينة والربض أكثر من ألفى موضع يمكن أن يستقى منها الناس الماء المثلج وبالمجان مما يصرف عليه أهل الخير. وكان يوجد تماثيل للحيوان منصوبة فى الميادين العامة بسمرقند رغم من مخالفة ذلك لتعاليم الإسلام كما يذكر (ابن حوقل). ومن بين المشاهد والمزارات بالمدينة احتل مكان الصدارة قبر (قثم بن العباس) ت ٥٦ هـ / ٦٧٦ م، وقد أصبح قبره مزاراً للتبرك به، حيث أنه من أقارب الرسول صلى الله عليه وسلم[١].

ومن مدن سمرقند كما يذكر (ابن خرداذبه) الدَّبُوسية، وأربنجن، وكشانية، واشتيخن، إكس، ونسف، وخجندة[٢]. وإن كان بارتولد مستندا على المقدسى يذكر أن مقاطعتا (أشتيخن وكشانيه) اللتان كانتا فى الشمال الغربى من سمرقند، كانتا تكونان وحدة إدارية قائمة بذاتها، ولذا فلم تحسبا ضمن رساتيق سمرقند. وفى القرن العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى كانت مدينة (أشتيخن) مدينة مرموقة مكونة من شهرستان وقلعة وربض. وبعد دخول الإسلام إلى هذه المناطق، كان خراج أسواقها وقرى أخرى يذهب إلى القائد عجيف بن عنبسه الذى استصفى الخليفة المعتصم العباسى أملاكه، ثم أقطعها الخليفة المعتمد لمحمد بن طاهر حاكم خراسان. أما مقاطعة (كشانيه) فكانت أكثر مدن (الصغد) عمرانا بعد سمرقند، لذا فقد أطلق عليها (الإصطخرى) (قلب صغد). أما الطريق التى كانت تصل بين المدينتين الرئيستين لبلاد ما وراء النهر وهما سمرقند وبخارى، والتى كانت تعرف باسم (الطريق الملكى) فكانت على الدوام ذات

---

(١) ابن حوقل،نفسه،ص ٤٠٦، المقدسى، نفسه، ص٣٦٦، ٣٧٨، ياقوت، معجم البلدان،ج٣، ص ١٣٤، بارتولد، تركستان، ص ١٧٠ ـ ١٨٥، لسترنج، نفسه، ص٥٠٧.

(٢) ابن خرداذبه ، المسالك، ص٥٥، إبن حوقل، نفسه، ص ٤١١-٤١٣.

أهمية كبرى. وكان يعد من سمرقند إلى بخارى سبعة وثلاثون أو ستة وثلاثون فرسخا، وست أو سبع مراحل[١].

بخارى:

وأما بخارى فإنها كورة عظيمة مشهورة بما وراء النهر، وهى غير واسعة الرقعة، إلا أنها عامرة حسنة وهى على النقيض من سمرقند، شغلت على الدوام موقعها الحالى، بل ويمكن القول بأن خطط المدينة لم تتغير كثيراً خلال ألف عام، على الرغم مما تعرضت له مرات عديدة من نهب وتخريب على أيدى الغزاة من الرُحل. ولها من المدن: (كرَمينية، وطواويس، وبمجكث، وورذانة، وبيكند "مدينة التجار" وفربر). ويدور على خمس من مدنها حائط سعته إثنا عشر فرسخا فى مثله، ليس فيه أرض بائرة، ولا ضيعة عطلة، وهى كما يذكر (القزوينى) أحد متنزهات الدنيا، وقصبتها (نموجكث). وعلى عهد السامانيين كانت المدينة تنقسم إلى قلعة وشهرستان (القلب) وربض، وكان الشهرستان يقع على مقربة من القلعة، وكلاهما على نشز من الأرض حتى تعذر رفع الماء إليهما كما يذكر (الإصطخرى). ولقلعتها بابان، أحدهما باب الريكستان فى الغرب، والآخر باب المسجد فى الشرق. وكان بداخل القلعة وفقا لرواية (الإصطخرى) قلعة أخرى كانت مسكنا للحكام من آل سامان. والمقصود بهذه القلعة الداخلية كما يذكر (النرشخى) هو القصر (كاخ). [٢]

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص٣٦٦ ـ ٣٧٨، ٣٧٩، القزوينى، نفسه، ص ٥١٠، بارتولد، تركستان، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) إبن خرداذبة، المسالك ، ص ٥٤، إبن حوقل، صورة الأرض،ص ٣٩٨-٣٩٩، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٦٦، ٣٦٧، بارتولد، تركستان، ص ١٩٠-٢٠٠، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٥٠٤.

ولقد كانت بخارى عند فتح العرب لها تتكون من الشهرستان فحسب، وكانت حدود المدينة القديمة يمثلها سور آخر كان به أحد عشر بابا، وفيما يتعلق بأحياء المدينة وشوارعها وأبنيتها في العصور الوسطى، فان (قتيبة بن مسلم) فاتح بلاد ماوراء النهر قد وزع الشهرستان بين العرب فأقطع الناحية الممتدة من باب السوق إلى باب الحَديد لقبيلتى مضر وربيعة، أما ماتبقى فأقطعه لليمانية. [١] وقد حولت بيعة النصارى الموجودة بالمدينة إلى مسجد (بنى حنظلة). وفى القرن الثامن الميلادى/ الثانى الهجرى، موضع آخر من المدينة نال شهرة كبيرة، كان أغنياء التجار الأجانب قد التجأوا إليه، عقب إستيلاء قتيبة على المدينة، وكان يطلق عليه (كشكشان)، وقد ترك هؤلاء التجار بيوتهم للفاتحين العرب، وشيدوا لأنفسهم في موضع آخر سبعمائة قصر أحاطوها بالبساتين، حتى تجاوز عدد سكان هذه المدينة الجديدة سكان المدينة القديمة.

ومن أشهر الأبنية الإسلامية ببخارى المسجد الجامع، وكان أول مسجد هو المسجد الذى شيده قتيبه بن مسلم فى عام ٩٤هـ/٧١٣م، بالقلعة على أنقاض معبد للبوذيين، ثم شيد مسجدا بين القلعة والشهرستان بناه الفضل بين يحيى البرمكى، وتم توسيعه على يد الأمير إسماعيل السامانى، وبجوار هذا المسجد كان يقوم مصنع النسيج الرئيسى بالمدينة، وبناء آخر شيده الأمير نوح بن نصر السامانى قريبا من قصر أمير خراسان، ويقع فى الجزء الجنوبى الغربى من الشهرستان. [٢]

---

(١) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٤١٠، عبدالمنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، ج٢،ص ٢٢٤.

(٢) إبن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٩٩، بارتولد، تركستان، ص ٢٠٠ _ ٢٠٣.

ولم يمكن عدد القصور الملكية التى شيدت ببخارى قليلاً، فقد إبتنى الأمير اسماعيل السامانى لنفسه قصراً بمحلة (جوى موليان) (مجرى الموالى) القريبة من القلعة والريكستان. وقد إبتنى هذا الأمير دوراً لغلمانه – حرسه – وأوقف عليهم الشطر الأكبر من ريع هذه الأراضى. وهناك قصر آخر شيده الأمير نصر السامانى بالريكستان، وكانت تقوم إلى جوازه دواوين الحكومة. كما إبتنى الأمير المنصور السامانى قصراً قرب الباب الجديد. وقد اشتهرت بخارى بسعة شوارعها فإن بخارى كانت منذ القدم شديدة الزحام بالنسبة لكثافة سكانها، التى كانت مرصوفة بالحجارة، ورغم سعة شوارعها فإن بخارى كانت منذ القدم شديدة الزحام بالنسبة لكثافة سكانها، وكان هذا العيب كما يذكر (بارتولد) ملحوظا فى بخارى أكثر من غيرها من مدن السامانيين. لهذا فقد كثر بها الحريق كما يذكر (المقدسى). ويذكر (النرشخى) أنه قد وقع بها حريقين هائلين فى عهد الأمير نصر السامانى عامى (٣١٧،٣٢٥هـ/ ٩٢٩،٩٣٧م)، وكان الحريق الثانى عنيفا بصورة كبيرة إمتد إلى قسم كبير من المدينة وأتى على عدد من الأسواق، ولعل ضيق المساكن وازدحام السكان يفسران بعض الجوانب المذمومة لقصبة بخارى (نموجكث) التى شابهت (الفسطاط) فى العفن وسواد الطين، وسعة الأسواق، وشاكلت (دمشق) فى البنيان والسواد وضيق البيوت وكثرة الأجنحة. ومدينتها فى غاية العمارة لها سبعة أبواب، وكل مساجدها بهية وأسواقها نفيسة. ولقد أشاد الرحالة العرب بذكر بساتين بخارى الفسيحة، وماكان يزينها من أشجار الفاكهة القليلة بعددها الممتازة بثمارها مثل (البرقوق) الذى تذيع شهرته منذ ألف عام حتى اليوم، فهو افخر ثمر من نوعه بآسيا. كما كانت بخارى سوقا رئيسيا تلتقى فيها تجارة الصين

وآسيا الغربية، فضلا عما كان بها من مصانع كبيرة للحرير والديباج والمنسوجات القطنية وأجود أنواع الأبسطة والمصنوعات الفضية والذهبية. كذلك كانت (بخارى) مركزا مهما للصيرفة يستبدل فيها سكان آسيا سكتهم بواسطة أهلها، حتى لتسمع هناك المثل القديم " أشد يقظة من سمسار بخارى". [١]

ومن مدن بخارى (طواويس) (توائس) على مسافة سبعة فراسخ إلى الشمال الشرقي من بخارى في طريق سمرقند، وكانت داخل السور الذي يحيط ببخارى وضواحيها وهي أعظم المدن الخمس التي كانت في داخل السور. وكانت تعرف قبل الفتح الإسلامي باسم (كوت) (بالتركية السعيد ، أو الحظ الحسن) وسميت بطواويس في عام ٩١هـ/٧١٠م ، فبها ولأول مرة شاهد العرب الطواويس التي كان يقتنيها أغنياء البلد ويحفظونها في منازلهم، أو كانت مطلوقة في القرية على حد قول الطبري. وهي مدينة جليلة وكانت موقعا حصينا، وتشتهر بسوقها السنوي الذي كان يقام لعشرة أيام كل عام، ويتردد عليه عشرة آلاف زائر. وفي هذه السوق كان يجتمع التجار من مختلف نواحي بلاد ماوراء النهر، وكانت هذه السوق مصدر ثروة للسكان الذين لم يحفلوا كثيرا بالزراعة ووجد بطواويس هذه مسجدا جامعا، أما قلعتها فقد حل بها الخراب منذ نهاية القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري كما يذكر المقدسي. وهناك أيضا مدينة (زندنة) أو زندين، وتعرف اليوم باسم زنداني، وتقع شمال بخارى، وهي كثيرة الضياع وكان يزرع بها القطن، وكانت منسوجاتها

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٨٠-٢٨١، فامبري، تاريخ بخارى، ص ٢٥، بارتولد، تركستان، ص ٢٠٣-٢١٠.

القطنية تصدر إلى كل مناطق آسيا الغربية، وسورها يحيط بـها، وبداخلـها الجامع، وربطها عامر. [١]

وفى الجنوب تقع (بيكند) ثانى مدن بخارى التجارية، وهى على مبعدة خمسة فراسخ من بخارى، وهى أيضا أقدم من بخارى وكانت تسمى (مدينة الصفر) أو (مدينة التجار) وكان لـها تجارات مع الصين شرقا، ونواحى شاطئ بحر قزوين وكان قتيبة بن مسلم قد فتحها عنوة بعد قتال شديد دام نحو شهرين فى عام ٨٧هـ/٧٠٦م [٢] ، وكان لكل قرية من قرى بخارى رباطا (منزل للجند أو القوافل) عند باب بيكند، حتى بلغ عددها نحو ألف رباط، وكان ينزل بهذه الرباطات وحدات من العسكر لدفع غارات الترك، وكان يحيط ببيكند سور حصين، وكانت قضبتها داخل الحصن (السور) وكان للمدينة سوقان أحدهما فى القصبة والآخر فى الربض. وإشتهر مسجد بيكند الجامع بمحرابه المذهب والمرصع بالأحجار الكريمة، ففاق بزينته ونقوشه جميع محاريب ماوراء النهر. وقد إزدهرت هذه المدينة في عهد السامانيين ، غير أنها تدهورت شأنها فى هذا شأن كثير غيرها، عقب سقوط هذه الدولة. [٣] ومن النواحى المشهور ببخارى (دبوسية) و (كرمينية) التى فتحها قتيبة بن مسلم فى عام ٨٨هـ/٧٠٧م، وتقع فى الإقليم الأوسط بين بخارى وسمرقد، وبينها وبين بخارى ١٤ (أو ١٨) فرسخا وتشتهر بهذا الإسم منذ أيام الفتح الإسلامى. وهى تقع فى بقعة خصبة، وقد ذاع صيتها فى العصر الإسلامى. ووفقا لرواية (النرشخى) فإن هذه المدينة كانت تسمى فى الأصل (بادبة خردك) أى

---

(١) إبن حوقل، صورة الأرض، ص ٤٠٣، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢٨١، لسترنج، نفس المرجع، ص ٥٠٥.

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان، ص ٤٠٩-٤١٠، ماجد، نفس المرجع، ح ٢، ص ٢٢٤.

(٣) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢٨١-٢٨٢، فامبرى ، تاريخ بخارى، ص ٢٦، بارتولد، تركستان، ص ١٩١، ٢١٧-٢١٨، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٥٠٦.

(الجرة الصغيرة) ، ويذكر (السمعانى) أن المدينة أخذت إسمها من العرب الذين وجدوا المنطقة المحيطة بالمدينة (كأرمينية) أى أشبه ماتكون بأرمينيا فى خصب تربتها وكثرة مياهها، فسميت (كارمينية). وعلى مبعدة فرسخ أو فرسخين كما يذكر (السمعانى) إلى الشرق من كارمينية كانت تقوم قرية (خديمنكن) التى إختصت فى (ق ٦ هـ/ ق ١٢م) "بأهل الحديث" أى الشافعية. وكان بها مسجدا جامعا. [١]

وهناك أيضا (أفشنة) وهى من ضياع بخارى، وقد بنى بها (قتيبة بن مسلم) مسجدا جامعا، وبها ولد الطبيب الأشهر إبن سينا، وأفشنة تقع غرب بخارى وهى كثيرة الغزاة، واسعة العمل. [٢] ومن نواحيها أيضا (كش) وهى بلدة كبيرة، وكانت تعرف باسم (شهرسبز) أى المدينة الخضراء، وبها شهرستان وربض، وتتصل بها مدينة أخرى متصلة بالربض الداخلة والخارجة عامرة، ودار الامارة خارج المدينة، والجامع فى المدينة الخربة والأسواق فى الربض. وجعلها القزوينى قريبة من سمرقند، وقال عنها الإصطخرى: أنها ثلاثة فراسخ فى مثلها، وهى خصبة التربة تدرك بها الثمار أسرع من سائر بلاد ماوراء النهر، غير أنها وبينة وعمارتها حسنة وبناؤهم طين وخشب مثل بخارى، وبها نهران كبيران (نهر القصارين ونهر أسرود) يجريان على باب المدينة. وفى عامة دورها الماء الجارى والبستان. وتشتهر جبالها بالعقاقير الكثيرة. [٣]

---

(١) البلاذرى ، نفسه، ص ٤١٠، إبن حوقل، نفسه ، ص ٤٠٣، بارتولد، تركستان، ص ١٨٩-١٩٠، لسترنج، نفسه، ص ٥١١.

(٢) المقدسى، نفسه ، ص ٢٨٢، القزوينى، آثار البلاد، ص ٢٩٩.

(٣) الإصطخرى، ص ٣٢٤، إبن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٩٤، المقدسى، نفسه ، ص ٢٨٢، القزوينى، نفسه، ص ٥٥٤.

وهناك كذلك (الصغانيان) وهي شديدة العمارة كثيرة الخيرات. وقصبتها على إسمها. مشارب أهلها من أنهار فرعية من نهر جيحون، وهي تتصل بنواحي (ترمذ) وبها (ستة عشر ألف قرية)، وتخرج نحو عشرة آلاف مقاتل بنفقاتهم ودوابهم، إذا خرج على السلطان خارجي، وأسواقها مغطاة، وجامعها وسط السوق وأهلها أهل جماعة وسنة، يحبون الغريب والصالحين ، إلا أنها قليلة العلماء خالية من الفقهاء، وإشتهرت كش بأنها مسقط رأس (تيمورلنك) الذي جددها في أواخر ق ٨هـ/١٤م، ويجاور كش الجبال التي يستخرج منها الملح "وبها يسقط المن المسمى الترنجبين والعقاقير الكثيرة" وكانت تحمل إلى كثير من آفاق خراسان" [١]. وهناك غير ماتقدم من نواحي بخارى الكثير مثل (رياميثن) وهي بخارى القديمة، و(برخشي) و(زرميثن) و (وخسون) و (نسف). وهناك كما يذكر (النرشخي) عدة قرى ذات أهمية لتاريخ بخارى في عهد السامانيين مثل (نور) وهي (نورآتا) الحالية، وتقع شمال شرق بخارى على مقربة من التلال. وكان بها مسجدا جامعا وعددا كبيرا من الرباطات، واشتهرت بمزاراتها ومشاهدها التي كان يؤمها الناس. ونظرا لوقوعها على الحد الفاصل بين الأرض المزروعة والمفازة، فإن هذه القرية كانت ذات قيمة استراتيجية لاتنكر، وقد ورد ذكرها كقلعة في تاريخ نضال آخر السامانيين ضد أعدائه. و(بركد) وهي قرية قديمة ذات قلعة عتيقة إشتراها الأمير أسماعيل الساماني، وأوقف ريعها على أهل بيت علي ، ولمساكين بخارى، ولورثته هو. وأخيرا ووفقا لكلام المقدسي فقد وجد عدد من القرى الكبيرة في نواحي بخارى "لايعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا

---

(١) الإصطخري، ص ٣٢٤، إبن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩٤، المقدسي، نفسه، ص ٢٨٢، لسترنج، نفسه ، ص ٥١٢-٥١٣.

الجامع، لأن الأمير ببخارى والمقدم عند السلطان والمتمثل رأية أصحاب أبى حنيفة. وعندنا لاجمعة ولاتشريف غلا فى مصر جامع يقام فيه الحدود، وكم تعب أهل بيكند حتى وضعوا المنبر". ولقد أورد (بارتولد) نقلا عن معجم السمعانى وياقوت الحموى قرى كثيرة، لم يرد ذكرها عند باقى الجغرافيين. (١)

وصفوة القول عن بخارى وسمرقند قاعدتى بلاد ماوراء النهر ماروا ه (حذيفة بن اليمان) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ستفتح مدينة خلف نهر يقال له جيحون، يقال لها بخارى، محفوفة بالرحمة ملفوفة بالملائكة، منصور أهلها، النائم فيها على الفرش كالشاهر سيفه فى سبيل الله. وخلفها مدينة يقال لها سمرقند، فيها عين من عيون الجنة، وقبر من قبور الأنبياء، وروضة من رياض الجنة، يحشر موتاهم يوم القيامة مع الشهداء. وفى الحديث: أن جبريل عليه السلام ذكر مدينة يقال لها(فاخرة) وهى بخارى، فقال صلى الله عليه وسلم: لم سميت فاخرة؟ فقال : لأنها تفخر يوم القيامة على المدن بكثرة شهدائها. ثم دعا لها قائلا: اللهم بارك فى فاخرة، وطهر قلوبهم بالتقوى، وإجعلهم رحماء على أمتى، فلهذا يقال: ليس على وجه الأرض أرحم للغرباء منهم. (٢)

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم ، ص ٢٨٢، بارتولد، تركستان، ص ٢١٨-٢٣٧.
(٢) القزوينى، آثار البلاد، ص ٥١٠.

بلاد ما وراء النهر قبل قيام الدولة السامانية:

بعد ما استقرت دعائم الإسلام فى آسيا الغربية، اندفعت كتائب المجاهدين العرب إلى بلاد ما وراء النهر عبر الطريق الذى سلكها الإسكندر المقدونى. وكانت أولى غزوات العرب إلى هذه البلاد فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان، عندما سير زياد بن أبى سفيان قائده المقدام ربيع بن الحارث من العراق إلى خراسان فى عام ٤٦ هـ / ٦٦٦ م، فوصلت جيوشه مظفرة إلى بلخ، ثم غزا بلاد الصغد، ثم خرجت جيوش المسلمين بقيادة عبيد الله بن زياد إلى بخارى فى عام ٥٠ هـ / ٦٧٠م، وفق خطة مرسومة فهاجم الجيش بيكند وأخضعها للمسلمين ثم هاجم بخارى، غير أنه عاد عنها إلى مرو دون الإستيلاء عليها. ولكن القائد سعيد بن عثمان نجح فى اقرار الأمور فى بخارى إلى حد ما، ثم هاجم الصغد وسمرقند، غير أن أهالى بخارى نجحوا بعد مدة فى خلع الحكم العربى بها.

ولقد حاول العرب فتح هذه البلاد مرة أخرى، على يد مسلم إبن زياد فلم يتيسر لهم ذلك، فعاد العرب إلى مرو ليعدوا حملة جديدة بقيادة قائد أدى حذره وشجاعته وقوة جلده إلى اطفاء آخر بصيص لحضارة إيران القديمة، ونجح فى غرس تعاليم الإسلام فى هذه البلاد المترامية الأطراف. كان هذا القائد هو قتيبة بن مسلم الذى سيره الحجاج بن يوسف الثقفى لفتح بلاد ماوراء النهر فى عام ٨٦ هـ / ٧٠٤م، وكان هذا الفتح العظيم يهدف إلى فتح هذا الإقليم ونشر الإسلام فيه، وقصد قتيبة بن مسلم بعدما استعرض جيوشه فى خراسان. ونظم شئونها، فتسامع ملوك تلك الأقطار بهذا الغزو، فمنهم من أدرك أن لا قبل له بقتال المسلمين، فأضمن التسليم، ومنهم من إعتزم المقاومة والاستبسال،

وبذلك بدأت الحرب على أشدها، ونجح المسلمون فى هذه الحروب الطاحنة الدامية، فى البداية بلخ، ففتحها وقرأ فيها الخطبة باسم الخليفة الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين، ثم قام بجولة عند جيحون، وعاد إلى مرو بطريق جهارجوى، ومن هذا الموضع بدأ قتيبة فى عام ٨٧ هـ / ٧٠٥ م، وقائعه فى بلاد ما وراء النهر، فغزا بيكند واستولى عليها، ثم هاجم الولايات الصغيرة مثل كسن ونخشب، ليعزل بذلك بخارى عن حلفائها الترك، فتعجز بذلك عن الدفاع عن نفسها. ولقد غزا المسلمون بخارى ثلاث مرات ونشروا دينهم بها، ولكن أهلها كانوا يرتدون إلى عقيدتهم القديمة عقب رحيل العرب عنهم فى كل مرة، وهاهى تفتح أبوابها للمرة الرابعة لتستقبل الفاتحين ومعهم تعاليم نبيهم. (١)

ولقد لجأ الفاتحون إلى وسيلة لمراقبة الداخلين حديثا فى الإسلام من أهل بخارى، وتفقيههم فى أمور دينهم، بأن أمروا بأن يساكن كل واحد من أهل بخارى فى داره أحد العرب وشيد قتيبة ببخارى مسجدا فى عام ٩٤هـ/٧٤٢ م، وفى هذا المسجد وفى غيره من دور الصلاة، كان المصلون يقيمون صلاة الجماعة يؤمهم الأئمة، وكان القرآن يقرأ بالفارسية لا بالعربية تيسيراً على الناس. غير أن نضال أتباع زرادشت بإزاء تعاليم الإسلام التى دخلت عليهم كان فى الغالب عنيفا ومستمراً. (٢)

فقد كان المسلمون ولمدة سنين طويلة بعد الفتح، لا يجرؤون على الظهور بغير أسلحتهم سواء فى المسجد أو الأماكن العامة. ولما تعددت صور المقاومة البخارية للمسلمين، وشعر المسلمون أنهم لم يحققوا أهدافهم، انتزعوا بخارى من أيدى أهلها وقسموها بين العرب، فصار

---

(١) ابن خلدون ، العبر ج٣، ص ٧٥، عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ص ٣٥.

(٢) ابن خلدون، العبر ، ج ٣ ، ص ٨٠.

للبصريين جزءا منها، وصار لليمنيين قسم آخر، في حين استحوذ آخرون على قسم من ضواحيها وفيه الكنيسة المسيحية التي اتخذوا منها مسجداً لهم. وعوملت سمرقند على هذا المنوال، وألزم كل واحد من أهلها أن يسلم ما بيده من سلاح، وبعدها انطلق قتيبة صوب الشرق، فغزا فرغانة عام ٩٥هـ/٧١١م، ومنطقة تركستان الشرقية، وظل قتيبة بن مسلم من مرو، ينشر الإسلام في هذه الأصقاع حتى مات في عام ٩٦ هـ / ٧١٤ م.

وكانت بخارى وتركستان كلها تُعد طوال مدة الفتح العربي مجرد أقسام من ولاية خراسان. فكانت الحاضرة المتشامخة على زرفشان، وبيكند الغنية، وفرغانة بلد الصناعة، هذه جميعا كانت تخضع لما يصدر إليها من (مروشاهجهان) (مرو ملكة الدنيا). وكان على بخارى أمير وعلى سمرقند أمير. ولكنهما كانا لا يتمتعان بسلطان كبير ويخضعان في كل أمورهما لحكومة خراسان فتاريخ ما وراء النهر منذ ذلك الوقت هو تاريخ حكومة الأمراء العرب الذين كان يندبهم الخلفاء من دمشق أو من بغداد لحكم تلك الولاية الشرقية التي تقوم عند حدود دولتهم. ولم تسترد هذه الولاية استقلالها السياسي حتى أقام السامانيون عرشهم على الجانب الآخر من نهر جيحون، فلم يقرون بولائهم للخلفاء إلا لمجرد اعتبارات دينية. وكانت فترة الحكم العربي التي امتدت قرنا ونصف حتى قيام الدولة السامانية، سلسلة متصلة من الفتن والمنازعات الداخلية والاضطرابات، بسبب سلوك أمير خراسان نفسه، أو بما كان يثيره منها سكان تلك الولاية الذين لم يركنوا إلى الهدوء أبداً[١].

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان ، ص ٣٣١، إبن خلدون ، العبر، ج٣، ص٩٥، فامبري، تاريخ بخارى، ص٥٧ ـ ٧٣.

ولقد وجد الحكام الثائرون على طاعة الحكومة العربية فى أهل بلاد ما وراء النهر المحاربين بطبعهم، استعداداً لمناصرة كل ثائر بدورهم. ولقد انتهز أهالى فرغانة الصراع بين يزيد بن المهلب خليفة قتيبة بن مسلم والخليفة عمر بن عبد العزيز الذى أرسل قائده مسلمة لعزل يزيد بن المهلب، ونفضت عنها حكم العرب [١] ، كذلك قام الترك بثورة فى بلاد ماوراء النهر فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك فى عام ١٠٦ هـ/ ٧٢٤م، استولوا فيها على سمرقند، ولكن العرب عادوا من جديد بقيادة (نصر بن سيار) الذى نجح فى اخضاع الترك فى بلاد ما وراء النهر وفرغانة اخضاعا تاما. ليس بفضل قوة جيشه فحسب، وإنما لما كان عليه كذلك من لين العريكة وميل إلى العدالة، وهى نفس الصفات التى جعلت هذه البلاد تنضوى تحت راية أبى مسلم الخراسانى والدولة العباسية عند قيامها. [٢]

ولئن سيطر على بلاد ما وراء النهر سيطرة تامة رجال من أمثال نصر بن سيار، وأبى مسلم الخراسانى، إلا أن الإسلام كله قد تعرض لهزات عنيفة بسبب الصراع المذهبى الذى أثاره الشيعة والخوارج من جهة، وبسبب سقوط الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية على أنقاضها، ذلك الت[illegible] الذى قام على أسس دعوة دينية.

ولم يكن من الطبيعى مع هذا كله ان تبقى نفوس أهل تركستان المضطربة بمنأى عن التأثر بتلك الفتنة. ويذكر(فامبرى) إنه وإن كان الشعور القومى المكبوت فى فارس من حماس الشيعة المذهبى ستاراً يتستر به لمحاربة النفوذ العرب، فقد توسل كذلك أهل بلاد ما وراء النهر

---

(١) البلاذرى ، نفسه، ص ٣٣٣.
(٢) إبن خلدون، العبر، ج ٣، ص ١٢١-١٢٢.

بالدين للتخلص من استبداد العرب، وتجلى أول مظهر من مظاهر هذا الشعور في (بخارى)، إذا انطلق أهلها ينادون بالثورة مساندة لمذهب الشيعة، فكانت هناك ثورة (شريك بن الشيخ مهدى)، التى وأدها رجال أبى مسلم الخراسانى [١] ، كذلك تعرض الإسلام فى بلاد تركستان لخطر كان يقتلع جذوره، وتمثل ذلك فى ظهور (المقنع) النبى المزعوم الذى جهر بدعوته فى بلاد ما وراء النهر عام ١٥٩هـ/ ٧٦٧م، والتى دامت أكثر من خمسة عشر عاما، وأثار فتنة ظلت آثارها تلتمس لقرون كثيرة [٢] . وبالقضاء على المقنع انتهى أمر الشكوك الدينية فى تركستان، وانحسرت موجات الفتن بالتدريج. ومع ذلك لم تستطع الدولة أن تقضى على الاضطرابات السياسية التى كان يثيرها سكان بلاد ما وراء النهر.

وينسب إلى رافع بن الليث حفيد نصر بن سيار أخطر ثورة فى بلاد ما وراء النهر على عهد الخليفة هارون الرشيد. تلك الثورة التى استمرت حتى عهد الخليفة المأمون. فقد نجح هذا الثائر فى استغلال كراهية الناس لعلى بن عيسى والى خراسان. للثورة عليه وعلى هارون الرشيد، وقوى أمره فى سمرقند وكسب كل بلاد ما وراء النهر إلى جانبه ونزل بجنده بخارى، وحينما سار هرثمة بن أعين الذى قلده الخليفة الرشيد قتاله فى عام ١٩١هـ وعبر نهر جيحون، وجد نفسه يقف وحيدا وقد تخلى الناس جميعا عنه، إذ كانوا قد هابهم ما بلغه رافع من القوة،

---

(١) النرشخى، تاريخ بخارى، ص ٩١-٩٣، إبن الأثير، الكامل، ج٤، ص ٣٤١-٣٤٢، نبيلة محمد حسن، محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية، ص ٤٥.

(٢) إبن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٢، ٥٣، ٥٨، إبن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٢٦٠، أحمد مختار العبادى، فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٦٩.

وإن كان هرثمة نجح في أسر بشراً أخا رافع في احدى المعارك وافتتح بخارى[١].

وأدت هذه الأحوال إلى أن خطب المأمون وأسرة السامانيين في سبيل القضاء على ثورة رافع في بلاد ما وراء النهر، فقد فشل قائده (خزيمة بن حازم) في رد الثوار إلى طاعة الخليفة، ونتج عن فشله هذا أن استقر بتركستان تلك الأسرة التي يدين لها أقاليم جيحون، وتاريخ بخارى المستقل، بأزهى عصوره، وهي الأسرة السامانية[٢].

الأسرة السامانية:

ينتسب السامانيون إلى (سامان) رأس الأسرة السامانية، وهو نبيل فارسي انحدر من نسل (بهرام جوبين) الذى قاد ثورة عنيفة ضد ملوك آل ساسان الفرس. ولقد ولد جوبين هذا في (الرى)، وهو ابن مرزبان آذربيجان، وكان قائدا مشهوراً محبوبا في أوساط جنده، طموحا يتطلع إلى الصفوف الأولى كسائر ذوى الاقطاع زمن الأكاسرة. وقد سما به طموحه ليكون قائدا عسكريا للجيش الفارسي الذى خاض الحرب ضد الروم – البيزنطيين- ، فأحرز انتصارات باهرة عليهم، كما أحرز انتصارات أخرى على الترك الذين كانوا يهددون أمن الإمبراطورية الساسانية وسلامتها[٣]. ورغم أن إنقاذ ..ولة الفارسية من الأخطار المحيطة بها قد تم على يد هذا القائد، فلم يكن جزاؤه إلا الإهانة والجحود،

---

(١) الطبرى، تاريخ الأمم، (حوادث عام ١٩١ هـ)، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) فامبرى، تاريخ بخارى، ص٩٠ - ٩١.

(٣) النرشخي، تاريخ بخارى، ص٨٧، آرثر كريستنس، إيران في عهد الساسانيين، ص٤٢٧.

مما دفعه إلى القيام بحركة عصيان ضد ملك الفرس، مما أدى إلى خلع الملك وتولية ولده كسرى الثانى برويز ملكا على فارس فى عام ٥٩٠م.

غير أن بهرام جوبين لم يبايع العاهل الجديد، لأنه كان يطمع فى العرش لنفسه ولذلك ثار ضده ونجح فى عزله بفضل تأييد جنده له واستولى على العرش فى عام (٥٩٠-٥٩١م)، غير أن انقلاب بهرام جوبين لم ينل عطف كبار رجال الدولة خاصة رجال الدين، الذين صاروا على رأس المعارضين لحكمه، ونجحوا في تحزيب عدد كبير من عظماء الدولة ضده، فانفضوا من حوله، وانضموا إلى كسرى الذى حصل على التأييد والعون العسكرى من امبراطور الروم مقابل التنازل عن مدينتى (دارا وميافارقين). وبعد معارك عنيفة هزم بهرام فى آذربيجان، واضطر إلى الفرار إلى بلاد الترك حيث قتل هناك[١].

ومن نسل هذا القائد الفارسى عريق النسب، انحدر (سامان) الذى تنسب إليه الدولة السامانية. ولقد اختلف المؤرخون والنسابون حول تركيب اسمه اختلافا كبيرا، وهل هو اسما أم لقبا، فذكروا عدة تفسيرات وتخريجات لإزالة الغموض الذى اكتنف هذا الاسم، (فالنرشخى) وهو مؤرخ معاصر للدولة السامانية يروى فى كتابه (تاريخ بخارى) أن سامان سمى بهذا الاسم لأنه شيد قرية وسماها سامان. وكأن اسمه اشتق من اسم هذه القرية والتصق به. ويذهب باحث آخر إلى القول بأن هذا الاسم مركب من لفظين (سامان) وهو اسم البلد الذى كان يقيم فيه سامان، ولفظة (خداة) وتعنى أمير أو حاكم ومن ثم (فسامان خداة) تعنى أمير أو حاكم سامان، وقد استند هذا الباحث فى رأيه هذا على دائرة المعارف

---

(١) أرثر كريستنس، نفس المرجع، ص٤٢٨.

الإسلامية. ويرى الدكتور محمد على حيدر أنه على فرض أن هذه الكلمة مركبة فمعناها الأمير سامان(١).

وكما اختلف المؤرخون في تفسير اسم سامان فقد ذهبوا مذاهب شتى عند ذكرهم نسب (سامان) وهل هو ينتسب إلى بهرام جوبين، أم إلى ابن بهرام خشنش كما يذكر ابن الأثير. والأرجح أنه ينتسب إلى بهرام جوبين، فهو سامان بن جثمان بن طغاث بن نوشرد بن بهرام جوبين بن بهرام جشنش(٢).

ويبدو أن الاختلاف الذى أصاب تفسير اسم سامان وحقيقة نسبه، قد أصاب موطنه كذلك، فقد اختلف المؤرخون فيه، وهل هو من بلخ أم من سمرقند، أو بعبارة أخرى هل السامانيون ينتمون إلى الجنس الفارسى أم إلى الجنس التركى؟ فيميل أغلبهم إلى انتماء السامانيين إلى الأسرة الساسانية الفارسية، وأن والد سامان كان فارسيا قحا ابتغى المجد والعظمة، حركت مشاعره بعض أبيات الشعر الفارسية التى تدعو للنضال وطلب الاستقلال، لذلك كافح وجاهد حتى وصل للسلطة فى (بلخ). ويؤكد المستشرق (بوزورث) على نسب السامانيين الفارسي، وإن كان لا يجزم بانتمائهم إلى الأسرة الساسانية. وتوجد بعض الآراء الحديثة التى تشير إلى نسب السامانيين التركى، فتقرر انتماء السامانيين إلى قبائل الغز، وأن مقر أجدادهم كان فى ناحية بعيدة من أطراف سمرقند ويدلل بارتولد على أنهم ليسوا من الترك، بأنهم أى السامانيين قد خاضوا حروبا ضد الأتراك الذين كانوا يغيرون على حدود دولتهم، وفتحوا مدينة طراز التركية فى

---

(١) النرشخى، تاريخ بخارى، ص٨٦، محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية فى المشرق، ص٧٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٧٩، أبو الفدا، المختصر، ج٢، ص٥٠، البيرونى، الآثار الباقية، ص٣٩.

عام ٢٨٠ هـ ، ثم إنهم قد اتجهوا إلى احياء الشعر الفارسى فى عهدهم، مما يؤكد على أصلهم الفارسى واعتزازهم بقوميتهم وثقافتهم. وهذه الأدلة تقود إلى دحض الرأى القائل بأن (سامان) كان (ياوغر) من قبائل أوغور التركية ومن رهبان معبد نوبهار كما يذكر عبدالعزيز جنكيزخان[١] وصفوة القول أنهم من بلخ، وينتمون إلى الجنس الفارسى، وهذا يلقى ضوءا على اهتمامهم المتزايد بحركة بعث الشعر الفارسى فى عهدهم، وعدم محاولتهم اخمادها أو القضاء عليها[٢].

إتصال آل سامان بالدولة الإسلامية:

اختلفت الروايات التاريخية على تحديد تاريخ اتصال هذه الأسرة بالدولة الإسلامية ثم دخولهم فى دين الإسلايم. فأغلب هذه الروايات ترى أن إتصال السامانيين بالمسلمين تم فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك الأموى، عندما استنجد (سامان) أحد أعيان بلخ وهو من بقايا الزرداشتين، بأمير خراسان وكان يدعى أسد بن عبد الله القسرى فى مرور، ليعينه على عدد له كان قد أخرجه من المدينة. فأكرمه الوالى المسلم وحماه، واهتم بأمره وأعانه على عدوه حتى رده إلى بلده بلخ، فأعجب به سامان وبتصرفاته وحسن معاملته له، فاعتنق سامان الإسلام على يديه وصارت أسرته كلها على الإسلام[٣]. ويعلق (فامبرى) عن ذلك بقوله: إن وجود بقايا الزرداشتيين فى بلخ لمدة طويلة بعد الفتح الإسلامى لها، إنما يدل على أمرين أولهما: أن الإسلام كان يتقدم ببطئ بين

---

(١) عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ص ٤٦.

(٢) ابن خلدون، العبر ، ح ٣، ص ٣٨٩، فامبرى، تاريخ بخارى، ص٩٣، بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ص١٠٣، محمد على حيدر، نفس المرجع، ص٨٢.

(٣) النرشخى، تاريخ بخارى، ص٨٦ .

الزرادشتيين، والأمر الثانى: يدل على تسامح المسلمين الذى يتضح فى معونة أمير خراسان لسامان، ذلك التسامح الذى نبه إليه (بارتولد) حيث يقول أن الخليفة المستعصم قد عاقب بعض المسلمين عقاباً شديداً لتعرضهم لمعبد من معابد المجوس بالصُغد[١].

وكانت الإضطرابات وهجمات المغيرين المتكررة من الأتراك والدهاقين على خراسان وخصوصا بلخ، هى التى ألجأت سامان إلى الاحتماء بأسد بن عبد الله القسرى، الذى كان يقصده المضطهدون من العرب والفرس على حد سواء، ولذلك أطلق عليه (ناصر المظلومين). وكانت بلخ قد دمرت من جراء هذه الهجمات المتكررة عليها، فأعاد أسد بن عبد الله بناءها، ونقل معسكره من (برقان) فى عام ١٠٧ هـ / ٧٢٦م، إلى بلخ وجعلها محل إقامته فيما بعد، ولعله فعل هذا ليتمكن من محاربة هؤلاء المغيرين محاربة جدية. ومنذ أن ارتبط سامان بأسد بن عبد الله الذى قربه إليه، وهو يقدم ولاءه وجهوده فى خدمة الدولة الإسلامية، ويسهم فى الحركات السياسية التى كانت تسود إقليم خراسان، فينضم فيما بعد إلى رجال أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة للعباسيين[٢].

غير أن (الكرديزى) يذكر أن دخول آل سامان فى الإسلام تم بعد ذلك فى فترة ولاية المأمون وخلافته فى خراسان (١٩١ـ ٢٠٣هـ / ٨٠٦ ـ ٨١٨ م)، حيث اتصل به أحد السامانيين وأسلم على يديه، ثم دخلت الأسرة بعد ذلك فى الإسلام. ولكن الشواهد التاريخية تجعلنا نميل إلى الرأى الأول؛ فعندما بدأ المأمون ولايته لخراسان فى ١٩٣ م / ٨٠٨ م ،

---

(١) فامبرى، تاريخ بخارى، ص٩٣، بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٦.

(٢) محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية، ص٨٢ ـ ٨٣.

كان آل سامان يتولون حكم بعض المدن فيما وراء النهر، وكانوا بالفعل مسلمين، قد انقضى على إسلامهم فترة طويلة. ويبدو أن الكرديزى خلط بين إسلام الأسرة الذى تم فى ولاية (القسرى)، وبين استقبال المأمون لبعض أفرادها فى خراسان، حيث استقبل أبناء أسد بن سامان، وأجرى معهم مناقشات حول كيفية القضاء على فتنة رافع بين الليث ببلاد ما وراء النهر(١).

ونظرا لوفاء سامان وتقديره لنخوة مولاه السابق، فقد أطلق اسمه (أسد) على مولوده تبركا به. وكان أسد بن سامان هذا فى جملة أصحاب على بن عيسى من ماهان حين قلده الخليفة هارون الرشيد أمر خراسان. ولم يكن كثيرا على أسد بن سامان أن يكون فى خدمة الدولة العباسية بعد أن عرفنا أنه من أهل البيوت العريقة. وقد اعتاد العباسيون أن يكرموا أمثال هؤلاء، ويقلدوهم المناصب العليا فى الدولة. وقد رزق أسد بن سامان بأربعة أبناء هم: (نوح وأحمد، ويحيى، وإلياس). دخلوا جميعا فى خدمة العباسيين وأصبح لهم شأن كبير فى تاريخ الخلافة العباسية، وخصوصا فى الإقليم الشرقى منها. فعندما خرج رافع بن الليث على هارون الرشيد، كان أبناء أسد بن سامان من أشد المتحمسين للقضاء عليه، وعاونوا بصدق (هرثمة بن أعين القائد العباسى للقضاء على هذه الفتنة، بعد ما طلب منهم المأمون ذلك، واستطاعوا بجهودهم أن يحملوا رافع بن الليث على عقد الصلح مع هرثمة، وبناء على هذا زال خطر استيلاء رافع بن الليث على سمرقند بفضل جهود أبناء أسد بن سامان، فقربهم المأمون أيام ولايته على خراسان واستعملهم(٢).

---

(١) فتحي أبو سيف، خراسان، ص١٠٨ - ١٠٩.

(٢) النرشخي، تاريخ بخارى، ص١٠٦، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٨٩.

وعندما آلت الخلافة إلى المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) وجه عناية شديدة إلى أبناء أسد بن سامان وقربهم إليه، وأراد مكافأتهم على معونتهم السابقة، وبعد عودته إلى بغداد سنة ١٩٨ هـ قلد على خراسان (غسان بن عباد) من قرابة الوزير الفضل بن سهل، وأمره بأن يولى أبناء أسد بن سامان كل منهم على إقليم من أقاليم ما وراء النهر. فولى نوحا بن أسد على سمرقند فى عام ٢٠٤ هـ / ٨٢٠ م، وأحمد بن أسد على فرغانة، وأخاهم يحيى على الشاش وأشروسنة، أما إلياس بن أسد فقد تولى حكم هراة[١].

وبعد أن عزل غسان بن عباد عن ولاية خراسان، وخلفه طاهر بن الحسين فى عام ٢٠٥ هـ ، أقر بدوره هذا التعيين، وظل أبناء أسد بن سامان فى ولاياتهم. وظل السامانيون ولاة يخضعون للطاهريين. واستقرت أحوال بلاد ما وراء النهر فى عهدهم. ولم تتوتر العلاقات بين الخلافة العباسية والطاهريين من جهة وبين السامانيين من جهة أخرى، فلم يعلنوا العصيان على الدولة، كما أن العباسيين من جهتهم لم يعزلوهم عن تلك الولايات.

فعندما كان نوح بن أسد حاكما على سمرقند (١٩٨ - ٢٢٨ هـ)، استجاب لأوامر الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) وعاون عبد الله بن طاهر فى الكيد للحسن بن الأفشين ابن قائد الترك الذى فقد حظوته عند الخليفة حينئذ. وعند وفاة نوح فى عام (٢٢٨ هـ) دون أن ينجب ولدا يخلفه، أقام الخليفة فى ولايته الأخوين يحيى وأحمد. وهذا يفسر اخلاص السامانيين للطاهريين والعباسيين على حد سواء، مما جعلهم يتوارثون

---

(١) النرشخى، نفس، ص٨٦، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٨٩، فامبرى، تاريخ بخارى، ص٩٣ - ٩٤.

مناصبهم. كذلك ظل يحيى بن أسد يحكم الشاش حتى وفاته فى عام ٢٥١هـ ، وظل إلياس على حكم هراة إلى حين وفاته فى عام ٢٥٢هـ، فخلفه ابنه محمد عليها، وكان يتمتع بشخصية قوية مما جعل عبد الله بن طاهر يعامله بحزم، كما يذكر بن الأثير، بينما بلغ إبراهيم بن إلياس قيادة جيش الطاهريين فى خراسان، كذلك ارتفع شأن أحمد بن أسد وصار إليه حكم فرغانة والشاش، وقسما من الصغد، وكان أحمد بن أسد رجلا فاضلا، يروى الحديث، كما كان حسن السيرة لا يأخذ رشوة من أحد، وظل فى سمرقند حتى مات فى فرغانة فى غرة رمضان من عام ٢٥٠ هـ تاركا سبعة أبناء (نصر، يعقوب، يحيى، أسد، إسماعيل، إسحق وحميد). كما يذكر العينى فى عقد الجمان. وبعد وفاته تولى نصر بن أحمد مكانه من قبل الطاهريين، وأقره الخليفة الواثق على ذلك ببراءة منه. وظل فى منصبه يحكم ولاية ما وراء النهر نيابة عن الطاهريين إلى أن أنقرضت هذه الدولة على أيدى الصفاريين فى سنة ٢٥٩هـ ، فأصدر الخليفة المعتمد أمرا بتوليته أميرا على ما وراء النهر فى سنة ٢٦١هـ[١].

غير أن (الجوزجانى) يذكر أن الخلافة العباسية كانت قد أقرت للسامانيين حق إدارة بلاد ما وراء النهر بعد أن فصلتها إداريا عن الطاهريين فى خراسان وذلك فى عام ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م، مما ساعد على تقوية نفوذهم السياسى فى المنطقة الشرقية، فتمكنوا من الاستيلاء على بخارى التى تقع على حدود خراسان[٢].

ويبدو رأى الجوزجانى وجيها حيث كانت الدولة الطاهرية تمر بحالة ضعف وتلفظ أنفاسها الأخيرة، بعد استيلاء الصفاريون على إقليم

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٧، ص٢٧٩ – ٢٨٠، ابن خلدون ، العبر، ح٣، ص٣٨٩، محمد على حيدر، نفس المرجع، ص٨٥ - ٨٦.

(٢) فتحى أبوسيف نقلا عن الجوزجانى، خراسان، ص ١٠٩.

خراسان، فقدرت الخلافة العباسية للسامانيين اخلاصهم، فجعلت بلاد ماوراء النهر إقليما منفصلا عن خراسان وأقرتهم عليه. وأدى ما أسبغه العرب على السامانيين من التكريم إلى تقوية جانب هذه الأسرة الناهضة، كما أدى تمكين الصلات بهم إلى ازدهار أحوال بلاد ماوراء النهر. فقد أخذ النظام يسود كافة الأقاليم حول سيحون وجيحون، تلك البلاد التى كانت تعانى معاناة شديدة من الاضطرابات، وبات من الواضح أنه سوف يشرق عليها عهد جديد في ظل السامانيين.

قيام الدولة السامانية:

ولاية نصر بن أحمد الساماني:

ظلت إمارة سمرقند يتوارثها السامانيون إلى أن انقرضت الدولة الطاهرية، فأصبحت هذه المدينة عاصمة لحكم نصر بن أحمد بن سامان الذى أصبح حاكما على بلاد ما وراء النهر بتقليد من الخلافة العباسية منذ عام ٢٦١ هـ، وبهذا أصبح نصر بن أحمد مستقلا بأمر نفسه، ويخضع لسطان الخلافة الروحى، ولا يتبع إلا الحكومة المركزية فى بغداد بعد أن كان يتبع ولاة خراسان.

ومنذ ذلك التاريخ أخذت الدولة السامانية فى الظهور فى بلاد ماوراء النهر، ومع أنها كانت دولة اسمية، لأن الوالى المختص بهذه المقاطعات كان تحت سيادة الخلفاء فى بغداد، إلا أن نصرا بن أحمد نجح فى وقت قصير أن يوطد حكما شبه مستقل. وإن كان (حمزة الأصفهانى) ينكر أن يكون نصر بن أحمد أول حاكم للأسرة السامانية، ويعتبر إسماعيل بن أحمد أول حاكم للأسرة السامانية ويقول عن ذلك" فكانت ولاية من تقدم إسماعيل من قبل الطاهرية". ولما كان سقوط الطاهريين قد حدث فى عام

٢٥٩ هـ على يد الصغاريين، فإن هذا يدعو للاعتقاد بأن قيام الدولة السامانية كان على يد نصر بن أحمد فى عام ٢٦١ هـ، حينما قلده العباسيون ولاية ما وراء النهر التى استقلت عن حكام خراسان، وأخذت تؤكد استقلالها فيما اتخذته من اجراءات ضد أعدائها فى الخارج والداخل، وضمنت لنفسها الاستمرار بفضل سياستهم، وحبهم للاستقرار فى شئون الحكم[١].

تدعيم دولة نصر بن أحمد السامانى:

بعد أن قامت الدولة السامانية على يد نصر بن أحمد فى سنة ٢٦١ هـ، وبسط نفوذه على بلاد ما وراء النهر بأسرها، أخذ يوجه جهوده لدعم الدولة ورفع لواء حكمه على هذه المنطقة، رغم ما واجهه من صعوبات ومتاعب فى بداية أمره، شأنه فى ذلك شأن كل مؤسسى الحكومات. وكانت بخارى مصدر كثير من القلاقل والاضطرابات ومحور متاعبه، إذ كانت الفوضى متفشية فيها. فالنرشخى يتحدث عن غزوة للخوارزمية فى عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م، على بخارى، تلك الغزوة التى أنزلوا فيها الدمار والخراب بها بعد الإستيلاء عليها. وكان الخوارزمية يسرقون الأموال وما تقع عليه أيديهم، ويسطون على المنازل ويرتكبون جرائم كثيرة، فقام أهل بخارى بثورة عنيفة ضد هؤلاء الغزاة، وقامت حرب بين الفريقين قتل فيها عدد كبير من الجانبين، وأحرقت المدينة وأشعلت فيها النيران. وأبدى أهل بخارى من القوة والمثابرة، والعزم على القتال دفاعا عن مدينتهم ما جعل قائد جيش الخوارزمية يضطر إلى إعلان وقف القتال وإصدار بيان بالأمان، فتفرق أهل بخارى وعادوا إلى قراهم. ولكن (حسين بن طاهر) قائد الخوارزميين نكث بأمانة لأهل بخارى

---

(١) محمد على حيدر، نفس المرجع، ص ٩٠.

وقاتلهم على غرة، فثار به الناس من جديد وهزموه شر هزيمة، واستردوا الأموال التى كان قد سلبها هو وحاشيته، واضطر القائد المهزوم إلى الفرار[١].

كذلك منيت بخارى بخطر الصفاريين؛ فقد تطلع إلى بخارى يعقوب بن الليث الصفار الذى اتخذ خراسان وسجستان مركزا له يهدد به أمن الدول المجاورة، وكانت أطماعه التوسعية تجعله يغير على المناطق المجاورة طمعا في الاستيلاء عليها، وأملا فى اتساع رقعة دولته، لذلك "أنفذ نصر بن أحمد جيشا إلى شط جيحون ليأمن عبور يعقوب". ولكن جيش نصر بن أحمد انقسم على نفسه وحدثت فتنة بين رجال الجيش، وقتلوا قائدهم واتجهوا إلى بخارى عائدين حيث أخذ الجند يقيمون الولاة ويعزلونهم كما يشاءون. وإزاء هذا الموقف اضطر كبار رجال بخارى وفقهائها على ما نصح لهم به عبيد الله الفقيه إلى الكتابة إلى نصر بن أحمد رسالة يدعونه فيها إلى توجيه من يثق فى كفايته لضبط أمورها، وقمع أصحاب الفساد فيها. فعرض عليهم نصر بن أحمد أن يبعث إليهم بأخيه (إسماعيل بن أحمد) ، وسيره إلى بخارى من فوره فى عام ٢٦١ هـ[٢].

وكان إسماعيل هذا قد ولد بفرغانة في شوال من عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م، ومات أبوه وهو فى الخامسة عشرة من عمره، فتعلق بأخيه الأكبر فى حب خالص وإجلال لم يتطرق إليهما أدنى تغيير حتى حين انقلب عليه نصر يحاربه. وأول ما ذاع صيت إسماعيل كان ببخارى، وكان إذ ذاك فى الخامسة والعشرين من عمره. ويذكر النرشخى أن إسماعيل توجه

---

(١) النرشخى، تاريخ بخارى، ص١٠٧، فامبرى، تاريخ بخارى، ص٩٤.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ح٧، ص٢٨١، ابن خلدون ، العبر، ح٣، ٣٨٩.

إلى بخارى ووصل (كرمينية) ومكث بها عدة أيام [١] ، ثم أرسل رسولا إلى (حسين بن محمد) مدبر أمر بخارى فى ذلك الحين، وتكررت المساعى بينهما، وأخيرا تقرر أن يكون إسماعيل واليا على بخارى، على أن يكون حسين بن محمد نائبه وبايعه جيشها على هذا، وبعث إسماعيل بالعلم والخلعة. وأثناء مقام إسماعيل بكرمينية وفد عليه أبو عبد الله بن أبى حفص على رأس جماعة من أشراف بخارى، فاطمأن إسماعيل لذلك لأنه كان قلق وتساوره الشكوك لحضوره إلى بخارى الثائرة التى لا يعلم حقيقة شعور أهلها، وكان لهذه الزيارة أثرا طيب فى نفسه، فقد اطمأن إلى أن أهل بخارى سوف يتبعون هؤلاء القوم ولن يخالفوهم فى ولائهم الصريح للأسرة السامانية، وعندما وصل إسماعيل إلى بخارى قوبل باحترام شديد من أهلها التى زينوها تكريما له، ونثروا الذهب والعطايا الثمينة بين يديه، لاسيما وقد سبقه إليهم ما ذاع عنه من الصفات العالية، ودخلت بخارى بذلك فى عهد جديد بعد ما خطب لنصر بن أحمد بدلا من يعقوب بن الليث، وصارت بخارى فى حوزة السامانيين منذ ذلك الحين. ويعلق (فامبرى) على ذلك بقوله: "وحق لبخارى ما فعلت حين عدت هذا اليوم من أعيادها، فقد تم لبلاد ما وراء النهر بل ولتركستان كلها وحدتها، فى تلك البراءة التى رسم بها الخليفة المعتمد نصرا أميرا على بلاد ما وراء

---

(١) كرمينية إحدى ثلاث مدن كبيرة كانت تقع بين بخارى وسمرقند فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وهى مدينة كبيرة ولها قرى كثيرة، وأرضها خصبة، وأنهارها وافرة تأخذ ماءها من نهر السغد كما يذكر ياقوت الحموى، كما اشتهرت بصناعة وتجارة المناديل (لسترنج عن ابن حوقل، والمقدسى وياقوت، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥١١ ، ٥١٥).

النهر، وجعل كل البلاد الممتدة من شواطىء جيحون حتى أقصى بلاد المشرق"(١).

وبرغم الظروف الدقيقة التى ظهر فيها إسماعيل ببخارى، فإنه سرعان ما قبض على حسين بن محمد نائبه، وانتهت بذلك الفوضى التى كانت سائدة فى هذا الإقليم. كما طهر بخارى من اللصوص وقطاع الطرق الذين بلغ عددهم أربعة آلاف، والذين كانوا يقطعون الطريق بين بركد وراميثن ويهددون بخارى على الدوام، بمساندة من أهل بخارى وأعيانها الذين كانت مصالحهم الشخصية بطبيعة الحال تتطلب قبل كل شئ إستتباب النظام والأمن، ولقد ساعدت الظروف إسماعيل على توطيد مركزه فى بخارى، عندما صد هجوم جديد لحسين بن طاهر الخوارزمى الذى قدم على رأس جيشه للاستيلاء على بخارى، فقد هجم عليه إسماعيل بجيشه هجوما عنيفا بعد عبوره نهر جيحون، وأسفرت المعارك بينهما عن هزيمة الخوارزمى بعد قتل معظم جيشه وغرق وأسر البعض الآخر، كذلك أجبر إسماعيل أشراف بخارى المشاغبين على الطاعة، فعندما بلغه أن كبار الشخصيات البخارية وعلى رأسهم بخارخدات أبو محمد وواحدا من أغنى التجار هو أبو حاتم يسارى بدءوا يشقون عصا الطاعة ولا يحترمون مقامه وقدره بينهم، وشعر بضياع هيبته عليهم قرر التخلص منهم، بأن أرسلهم كوفد إلى أخيه بسمرقند بحجة الإعتذار إليه، فى حين أرسل إلى أخيه باعتقالهم حتى يضمن الاستقرار فى بخارى فتم له ذلك، وبعد أن أفاد من فترة غيابهم فى توطيد مركزه بالمدينة طلب من أخيه أن يطلق سراحهم، فلما رجعوا إلى بخارى أحاطهم بعطفه ورعايته وجهد فى

---

(١) النرشخى، تاريخ، بخارى، ص١٠٧، فامبرى، تاريخ بخارى، ص٩٥، بارتولد، تركستان، ص ٣٤٨.

إنجاز حوائجهم. ويعلق (بارتولد) على هذا الصراع بقوله " ومن الجلى أنه - إسماعيل- كما يرمى بذلك إلى تثبيت قدمه، وأن يثير فى الوقت نفسه حفيظة الأرستقراطية على أخيه نصر لا على شخصه هو". وبهذه السياسة الحازمة أخذ سلطان السامانيين يتوطد في بلاد ما وراء النهر[١].

الصراع على السطلة (**نزاع الأخوين نصر وإسماعيل**):

تعرضت الدولة السامانية فى بدء ظهورها إلى اختلاف حاد نشب بين الأخوين نصر وإسماعيل، وتطور هذا النزاع إلى حرب دموية أريقت فيها الدماء وزهقت الأرواح، وأنفقت الأموال، ولو اتجهت جهود الأخوين إلى الاصلاح لكان خيرا للدولة والمواطنين من هذه الحرب الأهلية. فبعد أن فرغ إسماعيل بن أحمد من أمر اللصوص، وبعد أن حطم هجمات حسين بن طاهر أخذ يقوى مركزه، وشك نصر فى تصرفاته أخيه لاسيما وقد نجح خصومهما فى إثارة العداوة والبغضاء بينهما ،وأدى ذلك إلى نزاع طويل بين الأخوين[٢].

فقد قام إسماعيل مدة من الزمن فى بخارى، ثم توجه إلى سمرقند بدون إذن من نصر بن أحمد بعد أن جعل يحيى بن أحمد بن أسد نائبا عنه فى بخارى. ولعل هذا التصرف كان أول مراحل النزاع، فقد غضب نصر من هذا التصرف واعتبره إهانة له فساءت العلاقات بينهما منذ الذى الحين. ولما علم نصر بقدوم إسماعيل اكتفى بأمر استقباله، ولم يخرج إليه بنفسه وأنزله بقلعة سمرقند ولم يوله أية عناية، بل كلف صاحب الشرطة بأمر حراسته[٣]. وحاول إسماعيل جاهدا أن يكسب عطف أخيه

---

(١) النرشخى، نفسه، ص١٠٩، بارتولد، تركستان، ص ٣٤٩-٣٥٠، محمد على حيدر، نفس المرجع، ص٩٥ - ٦٩.

(٢) عبد العزيز الدورى، دراسات فى العصور العباسية، ص ٨٢١.

(٣) النرشخى، تاريخ بخارى، ص، ٧٨.

نصر، فكان يذهب إليه للسلام والتحية، ولكن نصرا ظل غاضبا عليه، وكان يمكث بحضرته طويلا ويعود دون أن يكلمه نصر، مع أن هذه لم تكن عادته من قبل.

ثم أتى إسماعيل بمحمد بن نوح وهو ابن عم لهما، وعبد الجبار بن حمزة ليطلبا له الشفاعة، فرضى نصر عنه وأعاده إلى بخارى بعد أن مكث على هذه الحالة بسمرقند ثلاثة عشر شهرا، وعين نصر بن أحمد عصمت بن محمد المروزى وزيرا له والفضل بن حمد المروزى مستشارا له. ولعل تعيين هذين الرجلين كان الهدف منه الحد من سلطان إسماعيل بن أحمد، وليكونا بمثابة عيون عليه ينقلان أخباره لنصر بن أحمد[١].

ثم طلب نصر عبد الجبار بن حمزة وقال له: أننا نرسل هذا (إسماعيل) ترى ماذا يصنع بنا؟ فأجابه عبد الجبار: أنه عبد لك. وما أن وصل إسماعيل إلى بخارى حتى قام بتحسين العلاقات بينه وبين رافع بن هرثمة لدرجة أن طلب من رافع أن يتنازل له عن خوارزم فأجابه إلى ما أراد. واتخذ إسماعيل سياسة التقريب بينه وبين رافع معه، وأبرم معاهدة بينه وكانت هذه المعاهدة بمثابة التحالف على نصر بن أحمد، فأخبر الوشاة نصرا أن هدف إسماعيل من صداقته مع رافع هى أن يطرداه من بلاد ما وراء النهر.

ولكن هل كان إسماعيل يهدف حقا إلى طرد أخيه نصر بن أحمد من بلاد ما وراء النهر، وأن يجرده من النفوذ والسلطان وأن يكون هو الوريث الوحيد له، أم أن ذلك يعود إلى أسباب أخرى؟؟. فابن الأثير يعزو هذه الحرب إلى الدسائس والمؤامرات بوجه عام فيقول: "ثم سعت السعاة

---

(١) النرشخى، تاريخ بخارى، ص ٧٩.

بين نصر وإسماعيل فأفسدوا ما بينهما"[١]. أما "النرشخى" وهو معاصر للسامانيين فيرجع هذه الحرب إلى أسباب اقتصادية حينما يذكر أن ذلك يعود إلى تباطؤ إسماعيل فى دفع الخراج"فقد كان نصر بن أحمد قد فرض على إسماعيل من أموال بخارى ٥٠٠ ألف درهم سنويا، وعجز إسماعيل عن دفعها لأنه خاض حربا ضد الحسين بن طاهر، فبعث إليه نصر رسولا منه يطلب هذه الأموال دون جدوى"[٢].

وإذا عرف أن إسماعيل بعد أن انتصر فى الحرب التى دارت بينه وبين أخيه نصر، عامل أخاه بكل أدب واحترام وخاطبه كأمير لا كأسير، وكان فى إمكانه أن يدعه فى السجن ويستولى على شئون الدولة، ولكنه أعاده إلى سمرقند معززا مكرما، فإن هذا يحمل على الاعتقاد بأن الدوافع الحقيقية لهذه الحرب لم تكن الدسائس والمؤمرات - كما يرى ابن الأثير- ولكنها ترجع للأسباب المالية التى ذكرت آنفا بالإضافة إلى تخوف نصر من أخيه إسماعيل بعد معاهدته مع رافع بن هرثمة. [٣]

التأهب للحرب:

رأى نصر بن أحمد أن يجهز جيشه لحرب إسماعيل لأنه لم يؤد ما عليه من الالتزامات المالية، وأرسل إلى أخيه أبى الأشعث أسد طالبا منه أن يكون على أهبة الاستعداد بجنده فى فرغانة. كما بعث برسالة أخرى إلى أخيه أبى يوسف يعقوب بالشاش وأمره أن يحضر بجيشه، وحشد نصر جيشا عظيما توجه به إلى بخارى فى رجب سنة ٢٧٢هـ/٨٨٦م، وكان على إسماعيل بن أحمد أن يواجه هذا الموقف الصعب بشجاعة

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٧، ص٩٢، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح٣، ص٧٣، محمد على حيدر، نفسه، ص٩٨.
(٢) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٨٠.
(٣) محمد على حيدر، نفسه، ص ٩٩.

فائقة، فانسحب من بخارى وأخلاها حتى لا تكون مسرحا للحرب الأهلية، ولأنه كان يشعر بتعاطف أهلها مع الأمير نصر، ورحل إلى "فاراب" احتراما لأخيه وحرصا على بخارى ودخل نصر بن أحمد بخارى، ولم يجد إسماعيل بها فتوجه إلى "بيكند" مدينة التجار، ونزل بها حيث استقبله أهلها استقبالا دل على ولائهم له.

وأثناء ذلك اتصل إسماعيل برافع بن هرثمة المتغلب على خراسان يطلب منه العون والمساعدة، وكانت العلاقة قد توطدت بينهما فحضر رافع بنفسه مع جيشه وعبر نهر "جيحون" متوجها صوب بخارى لمساندة إسماعيل بن أحمد. وكان حمويه بن على رسول إسماعيل إلى رافع فى طلب المساعدة ضد نصر بن أحمد. (١)

وكان انسحاب إسماعيل من بخارى واخلائه لها يهدف إلى خطة حربية تستهدف الهجوم على سمرقند للاستيلاء عليها، ولا سيما وأن بخارى لم تعد مركزا صالحا لعمليات حربية، لأن عواطف أهلها كانت مع نصر بن أحمد وليست فى صالح إسماعيل، ولأن نصرا عاد إليها من "بيكند" بعد أن علم بحضور رافع ومساندته لإسماعيل. وتحقيقا لهذا الهدف سار إسماعيل بن أحمد ومعه رافع سالكا طريق الصحراء متجها إلى سمرقند ، ولم يجد إسماعيل ورفيقه الطعام والمؤن فى طريقهم لأن العام كان عام قحط وشدة، بالإضافة إلى أن أهالى هذه النواحى رفضوا أن يمدوا جيشه بالمؤن، لأنه كان فى نظرهم خارجا على الحكومة الرسمية، ولأن هواهم كان مع نصر بن أحمد، ووجدوا أنفسهم فى عناء وشدة ومات عدد كبير من جيش رافع وإسماعيل من أثر الجوع والتعب(٢).

---

(١) إبن خلدون ، العبر ، ج ٣ ، ص ٣٨٩.
(٢) النرشخى، تاريخ بخارى، ص ٨١، بارتولد، تركستان، ص ٣٥٠.

وعندما علم نصر بذلك توجه فورا إلى "طوس" ليقطع الطريق عليهم، ويمنعهم من الوصول إلى هدفهم، وكان نصر قلقا فتحرك إلى "كرمينية" وأخذ جيش إسماعيل يلاحقه، فكتب نصر إلى ابنه بسمرقند يطلب منه جمع الغزاة وتعبئة الجيش. والظاهر أن حمويه بن على أحد قواد إسماعيل قد حث رافع بن هرثمة على التقريب بين نصر وأخيه إسماعيل بدلا من أن يشنها حربا شعواء، وسرعان ما عقد الصلح بين الأخوين بفضل حيلة حموية، لقد فكر حمويه بن على فى هذا الصراع الذى تعرضت له الدولة السامانية فى بدء نشأتها، وكيف أن هذا الانقسام الداخلى يهدد جبهتها الخارجية والداخلية، وخصوصا وأنها بجانب دول تطمع فى الاستيلاء عليها كالصفارية، بالإضافة إلى أن إسماعيل بدأ يتعاون مع رافع بن هرثمة الذى استولى على خراسان حديثا ويخشى من أطماعه.

وأبدى حمويه بن على مخاوفه من رافع بن هرثمة واحتال لذلك حتى عقد الصلح بن الأخوين ويعلق إبن الأثير على موقف حمويه بن على، متصورا موقفه بقوله. " فكرت فى نفسى وقلت إن ظفر إسماعيل بأخيه فما يؤمننى أن يقبض رافع على إسماعيل ويتغلب على ما وراء النهر، وإن لم يفعل ذلك ووفى لإسماعيل فلا يزال إسماعيل معترفا بأنه فقيد رافع وجريحه ويحتاج أن يتصرف على أمره ونهيه" ، ولذلك اجتمع حمويه برافع خلوة، وتظاهر بأنه ناصح أمين، وقال له "نصيحتك واجبة على، وقد ظهر لى من نصر وإسماعيل ما كان خفيا عنى ولست آمنهما عليك، والرأى أن لا تشاهد الحرب وتحملهما على الصلح، فقبل ذلك

فتصالحا وانصرف عنهما" [١]. وعاد رافع إلى خراسان بعد أن عبر جيحون، وعاد إلى دياره.

وتم الصلح لصالح نصر بن أحمد إذ أن شروطه كانت تقضى بأن يكون أمير بخارى إسحاق بن أحمد ، ويكون إسماعيل عاملا على الخراج، ولا تكون أموال الديوان باسمه، كما لا تكون الخطبة باسمه كذلك، وأن يدفع عن كل سنة ٥٠٠ ألف درهم. وعلى هذه الصورة تم الصلح، وعاد نصر بن أحمد إلى سمرقند (العاصمة) وكان ذلك في عام ٢٧٣ هـ[٢].

وتحسنت العلاقة بين نصر وإسماعيل فترة قليلة، ثم تدخل الوشاة بينهما فأفسدوا العلاقة بينهما، وتجددت الحرب في عام (٢٧٥/ ٧٨٨ م) بعد انقضاء خمسة عشر شهرا من تاريخ الصلح. وترجع أسباب هذه الحرب إلى أن نصرا أرسل في طلب المال الذى اتفق عليه في الصلح ولكن إسماعيل لم يرسل شيئا، فبعث نصر برسالة إلى "رافع بن هرثمة" لأنه كان ضامنا لإسماعيل، فأرسل رافع إلى إسماعيل يوصيه بأن يرسل المال ويوفى بالالتزامات ولكن إسماعيل لم يلتفت إليه، ولم يعبأ به. وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن جمع نصر جيشا من أهل ما وراء النهر واستعان بالأمير أبى الأشعث وجنده بفرغانة، واتجه صوب "بخارى" مرة ثانية[٣].

وتجهز إسماعيل لملاقاة نصر بن أحمد وقامت الحرب بينهما، وانجلت المعركة بأن انهزم اسحاق بن أحمد أمير بخارى من قبل نصر بن أحمد وفراره إلى "فاراب" فأعطى ذلك الأمير اسماعيل الفرصة

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص، ٩٢، إبن خلدون، العبر، ح٣، ص ٣٨٩.
(٢) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٨١، محمد على حيدر، نفسه، ص ١٠١-١٠٢.
(٣) محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية، ص١٠٢.

ليطور هجومه، فشن هجوما عنيفا ومركزا على جيش فرغانة وألحق الهزيمة به، وفر أبو الأشعث هاربا إلى سمرقند واضطر إلى الفرار منها إذ أن أهل سمرقند أرداوا أن يقبضوا عليه. ومع أن إسماعيل كان فى عدد قليل من رجاله، إلا أنه استطاع أن يلقى القبض على أحمد بن موسى ويرسله إلى بخارى، كما أتى باسحاق بن أحمد من "فاراب" بعد أن لجأ إليها. ولم ييأس الأمير نصر بن احمد من هذه الهزائم المتوالية، وأخذ فى تدبير أموره. وجعل يستعد للمعركة مرة أخرى بعد هذه الهزائم المتكررة التى لحقت بجيشه، وقابله إسماعيل، ونشبت الحرب فى يوم الثلاثاء ١٥ من جمادى الآخرة سنة ٢٧٥ هـ/ خريف ٨٨٨م [١]، وفى هذه المعركة انتصر إسماعيل على جيش "فرغانة" ، وانهزم أبو الأشعث وانهزم الجيش كله، وقد حاول نصر بن أحمد أن يقاوم ومعه عدد قليل من المقاتلين ثم نزل عن حصانه وجلس على الأرض، ولما علم "إسماعيل" بذلك من "سيما الكبير" – وكان عبدا لوالدهما – جاء إلى نصر وترجل عن حصانه وقبل نصرا على جبينه ويده وأمر جيشه بالابتعاد عن أخيه، وبهذا انتهت الحرب فى صالح إسماعيل الذى قبض على أخيه نصر أول الأمر ولكنه اصطنع اللين والحكمة فأرجعه إلى سمرقند معززا مكرما [٢] .

ويعلق بارتولد عن ذلك بقوله " ولكن اسماعيل كشف عن ذلك الإعتدال والتسامح اللذين عرف بهما واللذين كان تمليهما عليه الحكمة والتعقل، فعندما تقابل الأخوان لم يخاطب اسماعيل أخاه كما يخاطب الظافر أسيره، بل وضع نفسه موضع أحد الرعايا من سلطانه، ولاشك أن هذا السلوك

---

(١) النرشخى: تاريخ بخارى ٨١.

(٢) إبن الأثير، الكامل ، ح ٧، ص ١٥١ ، إبن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٨٩.

الحميد قد ترك أثره فى نفس نصر، كما أنه من ناحية أخرى عمل على ذيوع شهرة إسماعيل". [١]

وقد بلغ إسماعيل فى إكرام نصر وقدم له الولاء والطاعة حتى أن نصرا ظن أن أخاه إنما يفعل ذلك من قبيل السخرية والاستهزاء، ولكن إسماعيل أرسله معززا وقال له فى لحظة الوداع "إننى أحكم بالنيابة عنك هذه الديار". وظل نصر يحكم سمرقند إلى أن وافته المنية عام (٢٧٩ هـ -٨٩٢ م) فى حين ظل إسماعيل نائبا عنه فى بخارى إلى أن خلفه فى حكم الدولة السامانية[٢].

وتوفى نصر بن أحمد فى جمادى الآخر سنة ٢٧٩ هـ، بعد أن أرسى قواعد دولة وأوجد نظاما، وأرسى حجر الأساس لبناء مجد أسرته، وصارت الدولة السامانية بعد أن اجتازت مرحلة المحنة وفترة التأسيس، التى اعترضت طريقها فى حاجة ماسة إلى شخصية قوية لتقوم بدور هام، وقد وجدت هذه الشخصية القوية ممثلة فى إسماعيل بن أحمد الذى خلف أخاه نصرا فى تولى مقاليد الأمور فى الدولة السامانية[٣].

---

(١) بارتولد، تركستان، ص ٣٥٠.
(٢) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٣٨٥، فامبرى، تاريخ بخارى، ص٩٥.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٥١، محمد على حيدر، نفسه، ص١٠٤.

اتساع الدولة السامانية

ولاية إسماعيل بن أحمد الساماني (٢٧٩-٢٩٥هـ) :

بعد أن اجتازت الدولة السامانية مرحلة التأسيس وما صاحبها من حروب أهلية وفتن داخلية خلال حكم نصر بن أحمد. تطورت هذه الدولة في عهد أخيه وخليفته إسماعيل بن أحمد أعظم حكام آل سامان بلا منازع في المجالات السياسية والحربية والإدارية، حتى اعتبره بعض المؤرخين المؤسس الحقيقي لهذه الدولة. ولقد كان عهد هذا الرجل بحق عهد اتساع الدولة السامانية وازدهارها وتأكيد استقلالها، مما دعا المؤرخون الشرقيون إلى تلقيبه بالأمير إسماعيل باعتبار استقلاله الظاهر عن حكومة بغداد.

وكان إسماعيل قد ولد بفرغانة في شوال ٢٣٤هـ/مايو ٨٤٩م، ومات أبوه وهو في الخامسة من عمره فتعلق بأخيه الأكبر في حب خالص وإجلال لم يتطرق إليهما أدنى تغيير حتى حين انقلب عليه نصر يحاربه كما رأينا، وأول ما ذاع صيت إسماعيل كان ببخارى إذ وليها من قبل أخيه نصر من عام ٢٦١-٢٧٩هـ/٨٧٤-٨٩٢م. وبعد وفاة أخيه نصر في جمادى الأولى سنة ٢٧٩هـ، خلفه إسماعيل على كل خوارزم وبلاد ما وراء النهر، ولكنه ظل مقيما في بخاري واتخذها قصبة له، وعهد بحكومة سمرقند إلى أحد أبناء نصر، وقد أيده الخليفة العباسي المعتصم بالله في إمارته وأصدر مرسوماً يقره في منصبه في المحرم سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م، وأرسل إليه ببخاري براءة التقليد والبنود والخلع المعتادة. وأصبحت بلاد ما وراء النهر كلها تابعة له بعد أن كان واليا

على بخاري فقط، وبانتزاع إسماعيل هذا الحق من الخليفة تأكد استقلال السامانيين[١].

ويعلق (فامبري) على تقليد الخليفة العباسي لإسماعيل الساماني، بأن إسماعيل كان يرى في خضوعه لأمير المؤمنين استجلابا لرضا الله عليه، وإن كان يعرف تماما ماكان لبلاط بغداد من سلطان عليه في الواقع. كما كان الخليفة يدرك بدوره تمام الإدراك أن البراءة التي أذن فيها لإسماعيل بإجراء الخطبة وضرب السكة باسمه لم تكن إلا مجرد تقليد محض. فقد كانت الخلافة إذ ذاك تنوء تحت أعباء من كل نوع، فلا تكاد تتماسك نفسها إلا اعتمادا على شبكة من المؤامرات الصغيرة التي كانت تحيكها. وقد عاش خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم فى رعب وفزع من تلك الدول الجديدة التي كانت تقوم في القسم الشرقي من دولتهم، حتى لنجد الخليفة المعتضد يفوض إلى الأمير إسماعيل شئون بلاد ما وراء النهر ويلقبه بلقب (حامي الملة) والمدافع عن الخليفة من أعدائه. ليكتب في الوقت نفسه في السر إلى عمرو بن الليث الثائر بخراسان، يأمره بحرب إسماعيل وخلعه[٢].

وقد امتازت الدولة السامانية في عهده بالنشاط الحربي وخفة الحركة، فخاضت معارك حربية في عدة جبهات وهي:

(١) الحرب مع عمرو بن الليث الصفاري واستئساره عمرا في ٢٨٧هـ.

---

(١) النرشخي، تاريخ بخاري، ص ٨٣، محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ١٠٧.

(٢) فامبري، تاريخ بخاري، ص ٩٨-٩٩.

(٢) قتاله محمد بن زيد الداعي، وغزوه جرجان وطبرستان بعون محمد بن هارون السرخسي في نفس عام ٢٨٧هـ الذي انتهى بقتل الداعي وفتح جرجان وطبرستان وضمهما إلى بلاد السامانيين.

(٣) قتاله لمحمد بن هارون الذي عصى إسماعيل بعد عام ونصف من توليته من جانبه حكم طبرستان، وترتب على هذه المعارك دخول الري وقزوين في طاعته.

(٤) الجهاد المقدس ضد الأتراك ودخولهم الإسلام على يديه.

ولما كانت تفاصيل الحرب مع عمرو بن الليث الصفار والقضاء على الدولة الصفارية، قد مرت علينا عند الحديث عن الدولة الصفارية، وكذلك الحديث عن الصراع الزيدي الساماني، وقتال الأمير إسماعيل لمحمد بن هارون صاحب طبرستان عند دراستنا لتاريخ الدولة الزيدية، فلا داعي لتكرارها هنا، ولذلك سوف نقصر الحديث عن الجهاد المقدس ضد الأتراك، وعن علاقة الدولة السامانية بالخلافة العباسية.

جهاد إسماعيل الساماني وعلاقته بالعباسيين :

وكانت الدولة السامانية تبذل جهوداً كبيرة في سبيل الدعوة إلى الإسلام ونشر رايته في ربوع البلاد التي تخضع لسيطرتهم، فكانوا يغتنمون كل فرصة تتاح لهم لتحقيق هذه الغاية . لذلك كان السامانيون يشنون حروباً كثيرة ضد الأتراك، وقد اتخذت هذه الحروب سمة دينية ولاسيما في عهد إسماعيل بن أحمد الساماني.

ففي عام ٢٨٠هـ/٨٩٢م جرد إسماعيل بن أحمد جيشاً سار به إلى "طراز" للاستيلاء عليها أملا في اتساع دولته من جهة، ورغبة في نشر الإسلام بها من جهة أخرى. وقد لاقى مشقة شديدة في هذه الحرب التي شنها على أمير "طراز" واستولى عليها إسماعيل وحول كنيستها إلى مسجد. وقرأ الخطبة باسم أمير المؤمنين المعتضد بالله ثم عاد إسماعيل إلى "بخاري" بغنائم كثيرة[١]. ويحاول ابن الأثير أن يقدم لنا وصفا لما غنمه إسماعيل بن أحمد فيقول "غزا إسماعيل بن أحمد الساماني بلاد الترك وافتتح مدينة ملكهم (طراز) وأسر أباه وامرأته خاتون ونحواً من عشرة آلاف وقتل منهم خلقا كثيرا وغنم من الدواب ما لا يعلم عددا وأصاب الفارس من الغنيمة ألف درهم"[٢].

وقد اتسعت تجارة "طراز" بعد أن فتحها "السامانيون" ويؤخذ من أقوال الجغرافيين أن سكان هذه البلاد وإن كانوا مسلمين فإنهم كانوا خاضعين للأتراك الغز الذين لم يقبلوا الإسلام، أي أن هذه المدن لم تكن من تلك التي نشأت في الأقاليم وإنما كانت مستعمرات أنشأها المهاجرون مما وراء النهر برضا الحكام الأتراك المحليين[٣].

وتأهب الأتراك لشن هجوم على الدولة السامانية وحاولوا الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م فأخذ إسماعيل بن أحمد الساماني يحرض المسلمين على الحرب ضد الأتراك، وأرسل إلى الخليفة ببغداد يبين له الخطوات التي هو في سبيل اتخاذها. وقد تمكن

---

(١) النرشخي، تاريخ بخاري ص٨٣، حيدر، نفسه، ص ١٢٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ح٧، ص ١٥٤.

(٣) طراز أو الطراز مدينة جليلة فى أقصى بلاد الشاش مما يلى تركستان، وهى حصينة كثيرة البساتين مشتبكة العمارة، طيبة التربة عذبة الماء(المقدسى، نفسه، ص ٢٧٤-٢٧٥، القزوينى، نفسه، ص ٥٤٤، لسترنج، نفسه، ص ٥٣٠).

إسماعيل من القضاء على الأتراك وصد هجومهم، ويصور "النويري" الهزيمة التي لحقت بالترك، والنصر الذي أحرزه إسماعيل بن أحمد فيقول: "وفي سنة إحدى وتسعين ومائتين خرجت الترك في خلق كثير لا يحصون كثرة، وكان عسكرهم سبعمائة قبة تركية، ولا تكون القبة التركية إلا لرؤوسهم، فوجه إليهم إسماعيل جيشاً عظيماً، وتبعهم خلق كثير من المتطوعة، فوصلوا إلى الترك وهم فارون فكبسهم المسلمون في الصباح فقتلوا منهم خلقا كثيرا وانهزم الباقون أشنع هزيمة". [١]

ولم يكن هذا الموقف الدفاعي الذي وقفته الدولة السامانية برئاسة إسماعيل كافيا لتأمين حدود الدولة من غارة الأتراك الذين كانوا ينثالون انثيالا على الدولة، فرأى إسماعيل بثاقب فكره أن ينتهج سياسة الهجوم ضد الأتراك حتى شعروا بقوته، وأنه قادر على أن يشن عليهم هجوما مفاجئا في عقر دارهم إلى أن افتتح إسماعيل بن أحمد مواضع من بلاد الترك سنة ٢٩٣[٢].

ولما كان السامانيون بحاجة إلى اعتراف الخليفة لهم بحكم الأراضي الواقعة تحت سلطانهم والتي فتحوها بمجهوداتهم الحربية، حتى تكون كل ممتلكاتهم مبنية على اساس شرعي وتكون كل أنظمتهم طبقا للقوانين الشرعية. لذلك كانت الضرورة تحتم عليهم أن يطلبوا من الخليفة أن يقرهم على البلاد المفتوحة حتى تكون ممتلكاتهم حقا ثابتا لهم، ناتجا عن أسبقية غزوهم لهذه البلاد.

---

(١) النويرى، نهاية الأرب، ج ٢٣، ص ١٧٢.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٧ ص ١٨٠.

وكان هذا الطلب من جانب السامانيين بمثابة إعلان عن رضوخهم السياسي للخليفة. وكان يرتبط بهذا نوع من الاعتراف بضرورة تجديده بموت أحد الطرفين. وبهذا أصبح الخليفة في بغداد راعي حقوق السيادة الأكبر، وصار السامانيون يملكون حكم السيادة الخاضعة. وكان طبيعيا أن يصبح إسماعيل بن أحمد - كسائر السامانيين- مطيعا للخليفة، غير مفرط في أمور الحكم، ولم يعص الخليفة في عمره ساعة، وكان يحترم أوامره إلى أبعد الحدود[١].

ولقد ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة في عهد إسماعيل بن أحمد الذي قامت الدولة في عهده بدور خطير في إزالة الدولة الصفارية كما تقدم، بعد أن عجزت جيوش الخلافة العباسية في القضاء عليها، وهو بهذا قدم خدمة كبرى للدولة العباسية.

كما تمكن إسماعيل بن أحمد الساماني من فتح بلاد طبرستان من يد محمد بن زيد الذي كان ينازع السامانيين والخلافة العباسية في خراسان. وبهذا وقف السامانيون ضد الحركات السياسية والمذهبية التي كانت تضر بمصالحهم وقت سلطتهم الشرعية في البلاد. ولم تكتف جيوش الدولة السامانية بطرد العلويين، بل جعلت طبرستان تحت السلطة الشرعية للدولة السامانية، وجعلت الخطبة باسم الخليفة العباسي.

ولما كان السامانيون يحيطون هذه الحركات التي كانت تناوئ العباسيين، لذلك كان الخلفاء العباسيون يمنحونهم الامتيازات التي حرمت على غيرهم فيجعلونهم حكاما على هذه المناطق التي كانت تنبئ بعصيان، أو على وشك الانفجار.

---

(١) النرشخي: تاريخ بخاري ص ٩٠.

ولم يقم دليل على أن السامانيين كانوا يدفعون ضريبة منتظمة للحكومة المركزية في بغداد. وفي الواقع أنه منذ هزيمة محمد بن طاهر سنة ٢٥٩ هـ، لم يدفع حكام خراسان مبالغ محددة من المال لحكومة بغداد، وإزاء تحدي الصفاريين، فقد كان من صالح الخلافة العباسية أن تعطي إقليم خراسان وما وراء النهر لحاكم يعترف لهم بالولاء بنفس الشروط التي كان يحكم بها الصفاريون الذين تحدوا سلطان الخلافة.

وقد صك السامانيون اسمهم على العملة الذهبية بجانب اسم الخليفة وبهذا تمتع السامانيون بأمور قاتل الصفاريين من أجلها وهي: حفر أسمائهم على العملة، وذكر أسمائهم على المنابر بجانب اسم الخليفة، وتخصيص كل الخراج لهم[١].

وكان السامانيون يتمتعون باستقلال كبير عن الحكومة المركزية فيما يختص بالإدارة الداخلية، فهم الذين كانوا يولون ولاة أقاليمهم، أو يعزلونهم عن مناصبهم، كما كانوا يقمعون الثورات أو الهجمات التي كانت توجه إليهم، وهكذا كانت العلاقة بين إسماعيل والخلافة العباسية تقوم على أساس المودة حتى أن الخلفاء كانوا يعتمدون على إسماعيل في إقرار سلطانهم على بلاد المشرق، كما اعتمدوا على ابنه أحمد الذي خلفه في الحكم.

ولاية أحمد بن إسماعيل وابنه نصر (٢٩٥-٣٣١هـ):

لما توفى إسماعيل بن أحمد الساماني سنة ٢٩٥هـ، أقر الخليفة المكتفي ابنه أبا نصر أحمد بن إسماعيل على ولاية أبيه وخلع عليه. وقد

(١) محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية فى المشرق، ص ١٢٥.

هاجم أحمد في أول أمره سمرقند و استخلصها من يد إسحاق بن أحمد بن سامان الذي أنابه فيها أبوه إسماعيل، وحمل إسحاق أسيرا إلى بخاري. وقد تم زوال الدولة الصفارية على يديه فأسر غلامه سيمجور، سبك السبكري غلام عمرو بن الليث الصفار، كما أسر الليث بن علي الصفاري. وفي المحرم من هذه السنة استولى السامانيون على سجستان من يد المعدل بن علي بن الليث الصفاري وأسر أخاه محمد بن الليث، وبعث بسبك ومحمد إلى بغداد، على أن هذه البلاد لم تلبث أن خلعت طاعة أحمد إبن إسماعيل، ودعا أهلها لعمرو بن يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار. فأرسل السامانيون الجيوش لإخضاعها بقيادة القائدين الشهيرين الحسين بن علي المروروذى وسيمجور الدواتي، واستمرت الحرب بين الفريقين نحوا من سنة حتى تم النصر للسامانيين، وقبض على الصفاري، وتولى سيمجور سجستان من قبل السامانيين في ذي الحجة (٣٠٠هـ)[١].

ولم تطل ولاية أحمد بن إسماعيل حيث قتل في سنة ٣٠١هـ. وقد ذكر ابن الأثير أنه كان مولعا بالصيد، فخرج متصيدا، وأنه أتاه كتاب نائبه بطبرستان يخبره بظهور الحسن بن علي العلوي الأطروش وتغلبه عليها، وأنه أخرجه عنها، فخرج أحمد لذلك وعاد إلى معسكره، وكان قد أحرقه قبل خروجه للصيد، فنزل عليه فتطير الناس من ذلك. وكان له أسد يربطه كل ليلة على بابه، فلا يجسر أحمد أن يقربه، فأغفلوا إحضار الأسد تلك الليلة، فدخل إليه جماعة من غلمانه فذبحوه على سريره وهربوا، وذلك لسبع بقين من شهر جمادى الآخرة سنة ٣٠١هـ فحمل إلى بخاري فدفن بها ولقب بالأمير الشهيد، وقتل من وجد من أولئك الغلمان، وتلا ذلك أن

(١) ابن خلدون، العبر ج ٤، ص ٤٣٩، فامبري تاريخ بخاري، ص ١١٢.

استولى حزب البلاط على السلطة، ثم اتهموا الكاتب أبا الحسن نصر ابن إسحق بالتحريض على قتله وأعدموه[١].

كان (أبو الحسن نصر بن أحمد الساماني) في الثامنة من عمره حين قتل أبوه، فاستصغر الناس سنه واستضعفوه، واعتقدوا أن أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه، وهو إسحاق بن أحمد بن أسد صاحب سمرقند الذي استمال أهالي بلاد ما وراء النهر – عدا بخاري – إليه وإلى أولاده، وأرسل هو وبعض أمراء البيت الساماني إلى الخليفة العباسي المقتدر يسأله كل منهم إمرة ناحية من نواحي خراسان. ولكن الخليفة أقر نصرا على بلاد أبيه، وأقر اللقب الذي تلقب به وهو السعيد، وضبط بلاده أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني.

وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٠١هـ أن إسحاق بن أحمد بن أسد الساماني وابنه إلياس بن إسحاق، ثارا على السعيد نصر وسارا نحو بخاري، ولكن الهزيمة حلت بهم غير ذات مرة، واستولت جيوش نصر على سمرقند، واختفى إسحاق، ثم أسر، وهرب ابنه إلياس إلى فرغانة، وخرج ابنه الثاني أبو صالح منصور على نصر في السنة التالية وانضم إليه بعض قواد نصر وعملوا على الاستيلاء على سجستان على أن يتولوها نيابة عنه، وأقاموا الخطبة له على منابر نيسابور، واستمرت الحروب بين جيوش نصر وجيوش ابن عمه منصور زهاء أربع سنين (٣٠٢-٣٠٦هـ) وانتهت بعودة نيسابور وغيرها إلى نفوذ نصر[٢].

---

(١) ابن خلدون، العبر ح٤، ص ٤٣٩-٤٤٠، بارتولد، تركستان ص ٣٧١، حيدر، نفس المرجع، ص ١٣٤-١٣٩.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٤١، ٤٤٣، فامبرى، تاريخ بخارى، ص ١١٣-١٤٤.

أخذ إلياس بن إسحاق بن أحمد بن أسد الساماني الذي كان قد ثار مع أبيه يُعد العدة لمحاربة نصر حتى إجتمع حوله ثلاثون ألف فارس، ثم قصد سمرقند مناوئاً نفوذ السعيد نصر بن أحمد الذي انتصرت جيوشه بقيادة حمويه بن علي عليه في سنة ٣١٠هـ، ولقد اختفى إسحاق بن أحمد بعد هذه الهزيمة، وجد حمويه بن علي في طلبه فضاق به مكانه، واستأمن إلى حمويه وحمله إلى بخاري وأقام بها إلى أن مات. ولحق إلياس بفرغانة بقصد الاحتفاظ بها فأقام بها إلى سنة ٣١٦هـ، وأجمع المسير إلى سمرقند واستظهر بمحمد بن الحسين بن مت من قواد السامانيين، واستمد أهل فرغانة الأتراك فأمدوه، واجتمع إليه ثلاثون ألف فارس وتوجه إلى سمرقند، فأرسل الأمير السعيد أبا عمرو ومحمد بن أسد في ألفين وخمسمائة راجل فهزموه، وقتل إبن مت وأنفذت رأسه إلى بخاري، فلم ييأس إلياس واستمد صاحب الشاش أبو الفضل بن أبي يوسف فأمده بنفسه، فعاود محاربة والي سمرقند فانهزم إلى كاشغر، وأسر أبو الفضل وحمل إلى بخاري فمات بها، وسار إلياس إلى كاشغر وصاهر صاحبها طغاتكين التركي وأقام معه[1].

وقد زالت هذه الفتن في أغلبها بفضل تدبير وحنكة رجال الأمير السعيد وعلى رأسهم الوزير الجيهاني. ولما مات الجيهاني استوزر الأمير نصر أبا الفضل محمد بن عبيد الله البلعمي الذي كان وزيرا لجده إسماعيل وأبيه أحمد فظل في الوزارة حتى عام ٣٢٦هـ.

وكانت العلاقة بين السامانيين والخلافة العباسية تقوم على أساس المودة، حتى أن الخلفاء كانوا يعتمدون على أمراء البيت الساماني في

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص ٤٤٥-٤٤٦، بارتولد، تركستان، ص ٣٧١-٣٧٣، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٤٢.

إقرار سلطانهم في بلاد الشرق، ولما دعا الخليفة المقتدر يوسف بن أبي الساج إلى واسط لإنفاذه لمحاربة القرامطة، كتب إلى السعيد نصر الثاني الساماني بولاية الرى، وأمره بقصدها والاستيلاء عليها من فاتك غلام يوسف بن أبي الساج، فاستولى عليها نصر وولي عليها سيمجور وعاد إلى بخاري.

وكانت الفتنة العظمى التي حدثت في عهد وزارة أبي الفضل البلعمي خروج أخوة نصر الثلاثة عليه في (٣١٨هـ). وكان نصر قد ألقى بإخوته هؤلاء حتى لا يدّعوا إمارته حبس قلعة بخاري. وفي هذا العام حينما ذهب الأمير نصر إلى نيسابور تمكن إخوته الثلاثة من خداع حراسهم بعون من جماعة من أهل بخاري فلاذوا بالفرار وأطلقوا أسر عدد آخر من العلويين والديالمة كانوا نزلاء السجن معهم، ثم اتجهوا إلى خزائن الأمير نصر فنهبوها واستولوا على دوره وقصوره، فرجع الأمير نصر من نيسابور إلى بخاري وتمكن بعون البلعمي وأبي بكر محمد بن مظفر بن محتاج الجغاني قائد جيش السامانيين في خراسان من إخماد فتنة بخاري، وتفرق أخوة نصر الثلاثة في أطراف البلاد.

وكان من بين أصحاب أخوة نصر جماعة من الشيعة الإسماعيلية والفاطمية وكانت رئاسة بعضهم لابن الحسين بن علي المرورودي. وكان للشيعة الإسماعيلية كما سبقت الإشارة في هذا الوقت نفوذ في البلاد السامانية وقد بلغ نفوذهم بلاط السامانيين نفسه، إذ أنهم أدخلوا جمعا من رجال بلاط الأمير نصر في مذهبهم. ووفق داعي خليفة الحسين بن علي المرورودي أخيرا في أن يدخل الأمير نصر الساماني أيضا في هذا المذهب. وقد دفع نصر مبلغ تسعة عشر ومائة ألف دينار دية موت

المروروذي إلى خليفة الحسين لكي يرسلها إلى القائم الخليفة الفاطمي بمصر إمام الإسماعيلية.

وكان دخول الأمير نصر في المذهب الإسماعيلي باعث تعب لغلمانه الأتراك الذين كانوا حفظة الأمير وبلاطه وذوي نفوذ عليهم، فصمموا أن يزيلوا نصرا من الإمارة وأن يقتلوا الإسماعيلين، وأعلن نصر في هذا الوقت أي حدود (٣٢٠هـ)، وكان عليلا، تبرأه من الإسماعيلين واعتزل الإمارة واستخلافه ابنه نوحا للغلمان الأتراك ومخالفيه الآخرين. ولما مات في (٣٣١هـ)، قام نوح بقتل خليفة المروروذي وجميع رجال البلاط ورؤساء الجيش والكبار الذين اعتنقوا هذا المذهب، فتحولت الإسماعيلية مضطرة من هذا الوقت من الدعوة العلنية إلى الدعوة الخفية.

وانتهت وزارة الأمير نصر بعد عزل أبي الفضل البلعمي في (٣٢٦هـ) إلى أبي عبد الله الجيهاني وزيره الأول وهو أبو علي أحمد بن الجيهاني، لكن أبا الطيب محمدا بن حاتم المصعبي من الكتاب المنشئين ذوي النفوذ ومن فضلاء الإسماعيلية في البلاط الساماني ومن ممدوحي الرودكي عارض هذا التعيين، وحدث خلاف بين أتباع المصعبي والجيهاني فصارت أمور إمارة نصر نهب الاختلال، ودام هذا الحال إلى أن هلك أبو علي الجيهاني في (٣٣٠هـ) تحت بيت منهار، فاستوزر نصر وكان قد اعتنق المذهب الإسماعيلي المصعبي. لكن وزارته لم تطل لأنه بعد اعتزال نصر وتولي نوح كان مصير المصعبي القتل ضمن كبار الإسماعيليين.

فتوح الأمير نصر وعلاقاته الخارجية:

كان ذروة انبساط حدود الدولة السامانية في أيام إمارة الأمير نصر التي بلغت الثلاثين عاما، والفضل الأكبر لهذا الاتساع يعود إلى كفاءة وتدبير الوزيرين المشهورين أبي عبد الله الجيهاني، وأبي الفضل البلعمي ورؤساء الجيش مثل حمويه بن علي كوسة وأبي بكر محمد بن مظفر الجغاني وابنه أبي علي أحمد وقراتكين التركي وأبي عمران سيمجور الدواتي، وإلا ما استطاع الأمير نصر لصغر سنه ولشبابه (كان بلغ نحو الثمانية والثلاثين عاما عند وفاته) أن ينهض باحتواء المشاكل التي أشرنا إليها آنفا وبالسيطرة على البلاد الواسعة التي تم الاستيلاء عليها، لاسيما وأن الأمير نوحا توافر له فوق أعدائه في الداخل الذين ذكرنا أسماء أظهرهم، أعداء وخصوم خارج حدود بلاده التي ورثها عن آبائه من قبيل الدعاة العلويين بطبرستان وما كان بن كاكي وليلى بن النعمان ومرد آويج وغيرهم.

فكما رأينا في تاريخ الزيديين، فقد حاول قادة الأمير نصر في ايام إمارة الناصر الكبير أن يستخلصوا طبرستان وجرجان منه بعد أن استصفاهما من قبضة العمال السامانيين، لكنهم فشلوا في إعادة هاتين الولايتين إلى السامانيين برغم محاولاتهم العديدة ولم يروا غير مصالحته علاجاً. أما خليفة الناصر الكبير وهو الحسن بن القاسم الداعي الصغير فقد سير في (٣٠٨هـ) قائده ليلى بن النعمان صوب خراسان للاستيلاء عليها، واستولى ليلى على نيسابور ثم هاجم منها طوس لكن حموية وأبا الفضل البلعمي وسيمجور الدواتي أطبقوا عليه بطوس وأوردوه مورد الهلكة في (٣٠٩هـ). وأمر نصر في السنة التالية قراتكين

بالاستيلاء على جرجان بجيش يبلغ الثلاثين الفا، فاستولى عليها، لكن العلويين استردوها بعد عودته. فبعث نصر هذه المرة سيمجور إليها وسير معه البلعمي في عونه، لكنهما لم يحققا شيئا أمام ما كان بن كاكى القائد الآخر للداعي، وهكذا احتفظ العلويان بجرجان، حتى قدم الأمير نصر بشخصه في (٣١٤هـ) إلى طبرستان فلم يلق غير الهزيمة والعار وغرم ثلاثين ألف دينار دفعها إلى الداعي الصغير لكي ينجو من مضايق طبرستان. ومع أن نصرا في هذا السفر أخذ الرى من عمال الداعي وأناب فيها عامله، لكنها عادت إلى العلويين بعد عامين أيضا وتولاها ما كان من قبل الداعي. ولم يستطع نصر إلا أن يقضي على الداعي الصغير بيد أسفار ومرد آويج خصمه الكبير ويأمن بذلك شره.

وبعد قتل اسفار وإمارة مردآويج قائده للرى وطبرستان وجرجان، رأى الأمير الزياري صلاحه في مماشاة السامانيين فترك جرجان بنصيحة البلعمي للأمير نصر، فأناب نصر فيها وفي قيادة الجيش وحكم خراسان أبا بكر محمدا بن مظفر الجغاني ولم يتعرض مرد آويج قط إلى ولايات السامانيين ما دام حيا.

وفي خلال هذا الوقت أي في عام (٣٢٢هـ)، ذلك العام الذي استولى فيه على بن بويه البويهي على شيراز، فتح الأمير أبو بكر الجغاني والي خراسان كرمان بيد ما كان بن كاكى قائد مردآويج الذي كان قد لقى الهزيمة منه ولاذ بالسامانيين، وطرد أبو بكر أبا علي محمد بن إلياس صاحب هذه الولاية منها، وظلت كرمان لفترة تبع حوزة السامانيين. وبعد قتل مردآويج أمر نصر أبا بكر الجغاني وماكان بالسيطرة على جرجان وطبرستان والري كما مر في تاريخ الزياريين، لكنهما لقيا هزيمة مرة من عامل وشمكير أخي مردآويج وخلفه.

وفي (٣٢٧هـ) عزل الأمير نصر أبا بكر الجغاني الذي كان مريضاً في ذلك الوقت عن حكومة خراسان وولاها ابنه أبا علي أحمد، وهاجم أبو علي في (٣٢٨هـ) جرجان في تعقبه لماكان الذي لحق مرة أخرى بآل زيار وانصرف عن السامانيين. وبعد أن استولى عليها عهد بها إلى إبراهيم بن سيمجور، وبعد قليل أي في ربيع الأول (٣٢٩هـ) أصاب بعون آل بويه من ماكان مقتلا على مقربة من الرى وهزم وشمكير واستصفى للأمير نصر بلاد أبهر وزنجان وقزوين وقم والكرج وهمدان ودينور وأوصل حدود الدولة السامانية وإن لم يدم هذا الاتساع طويلا حتى حدود عراق العرب. (١)

كان السعيد نصر بن أحمد على جانب عظيم من حسن الخلق. وقد وصفه ابن الأثير فقال إنه كان حليما كريما عاقلا ذو فتوة. حكى عنه أنه خرج عليه أخوه أبو زكريا ونهب خزانته وأمواله، فلما عاد السعيد إلى حاضرة ملكه، قيل له إن جماعة انتهبوا ماله، فلم يعرض لهم وأخبروه أن بعض السوقة اشترى منه سكينا نفيسا بمائتي درهم، فأرسل إليه وأعطاه مائتي درهم وطلب السكين، فأبي أن يبيعه إلا بألف درهم، فقال: ألا تعجبون من هذا؟ أرى عنده مالي فلم أعاقبه وأعطيته حقه فاشتط في الطلب؟ ثم أمر باسترضائه. وطال مرضه فبقى به ثلاثة عشر شهرا، فأقبل على الصلاة والعبادة، وبنى له في قصره بيتا سماه بيت العبادة. فكان يلبس ثيابا نظافا ويمشي إليه حافيا ويصلي فيه ويدعو ويتضرع،

---

(١) ابن خلدون، العبر ، ج٤، ص ٤٤٨ ومابعدها، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٤٣-١٤٦.

وكان ذلك في سنة ٣٣١هـ/٩٤٣م، بعدما تولى إمارة السامانيين ثلاثين سنة وشهرا وثلاثة أيام، ومات وله من العمر ثمان وثلاثون سنة[١].

وتزعم بعض الروايات أن نصرا قد اغتاله غلمانه مثل أبيه أحمد، ويأتي على رأس أصحاب هذه الرواية، حمد الله قزويني والنرشخي والجوزجاني، وهذه المصادر تورد لوفاته تاريخا مغايرا لما سبق ذكره وهو عام (٣٣٠هـ/٩٤٢م). والأرجح كما يذكر (بارتولد) أن هذا ليس تاريخ وفاته وإنما هو تاريخ تنازله عن العرش وانتقال السلطة الفعلية إلى يد ابنه نوح[٢].

وقد خالف نظام الملك ما ذكره ابن الأثير عن نهاية السعيد نصر بن أحمد الساماني فقال إنه دان بعقائد الإسماعيلية، وإن القواد دبروا مؤامرة لاغتياله. فلما أدرك نصر الخطر المحدق به، نزل عن الإمارة لابنه نوح الذي عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلي وأنصاره في بلاده. وذكر المقريزي أن نصراً بن أحمد الساماني أمير خراسان بعث إلى عبيد الله المهدي بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال. والخلاصة أن الوقائع الهامة التي حدثت في مدة إمارة نصر بن أحمد، ومعاصرته الوزراء والرجال والقادة المشهورين الأكفاء والشعراء مثل الرودكي والشهيد البلخي (ت ٣٢٥هـ) قد جعلت من نصر أشهر الأمراء السامانيين. [٣]

---

(١) إبن خلدون، العبر، ج٤، ص ٤٥٢، حيدر، نفسه، ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٣٧٦.

(٣) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٧٧.

ولاية نوح بن نصر (٣٣١-٣٤٣هـ):

تعتبر بداية إمارة نوح بن نصر هي بداية عهد ضعف الدولة السامانية، لأن هذا الأمير وكان في خوف من ثورة السنة والأتراك المتعصبين كما فعلوا مع أبيه ويود دائما الاستحواذ على رضاهم. ألقى زمام أمور الدولة بعد بلوغه الإمارة إلى أحد فقهاء زمانه وقضاته بدلا من أن يعهد بها إلى رجل جدير بها محنك بأمورها. ورغم أن هذا الوزير كان عالما ورعا، لكنه لم يكن على حظ بأمور السياسة وتدبير شئون الدولة وهو أبو الفضل محمد بن أحمد السلمي الملقب بالحاكم الجليل أو الحاكم الشهيد، الذي كان يصرف أكثر وقته في العبادة والصلاة وتصنيف الكتب في الفقه، وقل أن اهتم بإدارة البلاد السامانية. هذا بالإضافة إلى تضجر الجنود لعدم قبضهم رواتبهم بسبب فقر الخزانة وسلبها أثناء ثورة إخوة الأمير نصر وعند وفاته، فتقاعصوا ـ الجند ـ عن دفع الثورات التي شبت في خوارزم وفرغانة وخراسان مما أدى إلى اختلال الدولة وضعفها.

وتجدر الإشارة إلى أن الأمير نصر بن أحمد كان قد جعل ولاية العهد من بعده لابنه الأصغر. لكن الملك صار بالفعل إلى أخيه الأكبر نوح. ولقد تولى نوح بن نصر الساماني بلاد خراسان وما وراء النهر في شهر شعبان سنة ٣٣١هـ، واستهل إمارته بما يدل على شهامته حين عفا عن بعض الأمراء الذين كان يحقد عليهم في حياة أبيه ليتألف القلوب حوله ويأمن خروجهم عليه، وولاهم بعض الولايات مثل أبي الفضل محمد إبن أحمد أكبر أنصار خصمه السابق وندبه لحكومة سمرقند[١]. وقد بدأ الصراع بين السامانيين وبني بويه في أيام نوح بن نصر الذي عمل على

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص ٤٥٢-٤٥٣.

استرداد الرى من يد ركن الدولة ابن بويه وتفاقم النزاع بينهما، وانتهى بهزيمة جيوش نوح بسبب انضمام جنده إلى البويهيين. بيد أن نوحا أعد العدة من جديد لمحاربة ركن الدولة والاستيلاء على الرى، وتمكنت جيوشه من الاستيلاء عليها وعلى بلاد الجبل في شهر رمضان سنة ٣٣٣هـ(١).

وقد تعرضت بلاد نوح بن نصر لخطر جسيم بسبب خروج قائده أبي علي بن محتاج الذي أخلص له ولأبيه من قبل، وكان ابن محتاج عاملا للأمير نوح الساماني على خراسان، فلما حدث النزاع مع بني بويه أمره الأمير نوح أن يسير بعساكر خراسان إلى الرى لينتزعها من يد ركن الدين بن بويه فسار لذلك، ولقى في طريقه وشمكير وافدأ على الأمير نوح فبعثه إليه، وسار أبو علي إلى بسطام فاضطرب جنده، ثم استولى أبو علي بن محتاج على الرى وعلى سائر أعمال الجبل، وأنفذ نوابه إلى الأعمال. ثم سار الأمير نوح من مرو إلى نيسابور وأقام بها. ووضع جماعة من الغوغاء والعامة يستغيثون من أبي علي ويشكون سوء السيرة منه ومن نوابه، فعزله نوح واستعمل بدلا منه زعيم الحزب التركي إبراهيم بن سيمجور الذي كان "يجمع إلى هيبة الملك سياسة الدين". ويذكر ابن خلدون أن نوحا ذ- د من ذلك "أن يقيم أبو علي بالري لحسن دفاعه عنها وينقطع طمعه عن خراسان"(٢).

غير أن أبا علي لم يكن على استعداد ليخلي الجو لخلفه طواعية، كما أن الدولة لم تكن في وضع يسمح لها باستعمال القوة معه، لأن العسكر لم يكونوا قد تسلموا أرزاقهم بعد، وأخذوا يعلنون تذمرهم من

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٥٣-٤٥٤.
(٢) ابن خلدون، العبر، جج، ص ٤٥٣-٤٥٤.

الأمير ووزيره الجديد إبراهيم بن سيمجور. وقد نتج عن المشاكل المالية زيادة الخراج والضرائب، ويذكر (المقدسي) أنه حدث ذات مرة فى إمارة نوح أن استقرضت الحكومة خراج سنة من الناس ولم تستطع دفعه بتاتا، وقد كثر تضرر الشعراء من عمال ديوان الخراج الذين عمدوا إلى جمع بقايا الخراج، في حين لم يكن بوسع الناس أن يدفعوا الخراج المقرر.

وفي خريف عام ٩٤٦ ضحى نوح بزعيم الحزب العسكري أحمد إبن حمويه (والأرجح أنه كان إبنا لحمويه بن علي المشهور) من أجل الوزير، ولكن في خلال الشهرين التاليين لم يستطع أن يحول بين العسكر وبين الفتك بالوزير الذي أخذوا عليه تأخير أرزاقهم بالاتفاق سرا مع أبي علي. ويرى المؤرخون أن الوزير قد قتل بأمر من نوح، وفقا لرواية البيغ التي حفظها السمعاني فإن السلطان أرسل جماعة لحمايته ولكن الجند الثائرين أزالوها ووصلوا إلى الوزير فقتلوه.

وفي خلال ذلك كان أبو علي قد أرسل في طلب عم لنوح من أرض الجزيرة هو إبراهيم بن أحمد. ولم يلبث أن انضم إلى الثوار جيش نوح، الذي لم يتسلم أرزاقه فيما يبدو حتى بعد مصرع الوزير. ولم يكد يمضي شهر على مصرع "الحاكم الشهيد" حتى دخل ابو على وإبراهيم بخارى وذلك في يناير عام ٩٤٧ وقرنت الخطبة باسم إبراهيم، بينما انسحب نوح إلى سمرقند . ولم يدم حكم أبي علي ببخارى أكثر من شهرين، فقد أضطره موقف العداء الذي اتخذه الأهالي إلى الانسحاب فجعل أنصاره على وظائف الديوان الكبرى وغادر بخارى تاركاً إلى جنب إبراهيم عضوا آخر من اسرة السامانيين هو أبو جعفر محمد أخو نوح. وقد غادر أبو علي بخارى بحجة الزحف على سمرقند ولكنه حين بلغ نسف اتجه نحو وطنه صغانيان، عندئذٍ سارع الأميران بالدخول في مفاوضات مع

نوح الذي وعدهما بالعفو واستطاع الرجوع إلى عاصمته في أبريل. ولم يبد نوح في خصومته مع الثوار ذلك التسامح والاعتدال اللذين عرف بهما ابوه، فرغما من وعوده التي قطعها فقد أمر بسمل أعين عمه وأخويه (أبي جعفر محمد وأبي محمد أحمد) وأعدم أحد كبار النبلاء وهو الحاجب طغان، ثم تم تعيين منصور بن قراتكين كبير بيت أمراء اسفيجاب واليا على خراسان، أما إبراهيم بن سيمجور فقد توفي في ربيع عام ٩٤٧. [١]

غير أن كبير الثوار، أعني أبا على فإنه لم يكن قد هزم بعد، ولما علم أن نوحا بسبيل جمع جيش للزحف عليه تراجع إلى بلخ (مما يحملنا على الافتراض أن حاكمها كان في جانبه) ومن هنالك زحف مرة أخرى على بخارى ولكنه هزم قرب خرجنك، هذا على الرغم من أن نوحا انسحب بقواته الرئيسية من ميدان المعركة، وكان ذلك في آخر عام ٩٤٧. وكان انتصار قوات الحكومة حافزا لعقوبات صارمة وقتل جديد، وكان من بين الضحايا أحد أفراد أسرة العتبي. وتصرفات أبي علي التالي (من انسحابه إلى بلخ وجوزجان، وتحالفه مع أمير الختل، واجتماعه بعسكره قرب سمنجان، وحلفه مع الكيمجي وأمير راشت) تقف دليلا على أنه قد نجح في أن يثير ضد الحكومة المركزية أمراء جميع الأقاليم الخاضعة لآل سامان والواقعة على المجرى الأعلى لنهر أموريا. ونتيجة لهذا فإن جيش بخارى رغما من انتهابه لصغانيان عاصمة أبي على، لم يلبث أن وجد نفسه في موقف عسير وقطع عليه طريق الاتصال ببخارى. وفي آخر عام ٩٤٨ على وجه التحديد اتفق الطرفان على الصلح وبعث أبو علي بابنه إلى بخارى كرهينة. ولا علم لنا بالشروط التي قبلتها حكومة بخارى من ابي على وحلفائه،غير أنه مما يقف دليلا على أن

---

(١) بارتولد، تركستان، ص ٣٨٠.

النصر كان في جانب الثوار ما قوبل به ابن ابي علي من حفاوة وتكريم لدى وصوله إلى بخارى، فقد زينت المدينة من أجله وخلع عليه وأجلس على مائدة الأمير، أما ابو علي فقد ظل بالصغانيان بل أنه استجاب لطلب للحكومة فأخمد ثورة دينية محلية قامت ضد تعاليم الإسلام. وأما في خراسان فقد جهد منصور بن قراتكين عبثا في استعادة النظام بين العسكر، ولم يتوقف في رجائه للأمير ان يعفيه من هذه المهمة الثقيلة، ومن الجلي أن أرزاق الجند لم تكن تدفع بشكل منتظم وذلك على نحو ما كان عليه الحال من قبل. وتوفي منصور عام ٩٥١ وعين خلفا له أبو علي الذي وصل إلى خراسان في عام ٩٥٢ تاركا صغانيان وترمذ في يد ابنه أبي منصور نصر بن أحمد. وقد استطاع أبو علي أن يعيد النظام إلى خراسان وخوارزم وبدأ الحرب ضد البويهيين، وانتهت الحرب بعقد صلح مما اثار سخط نوح فعزل أبا علي وعين مكانه أبا سعيد بكرا بن ملك الفرغاني. ولكن قبل أن يسافر بكر إلى مقر عمله توفي نوح في يوم الإثنين الثامن من أغسطس عام ٩٥٤. (١)

وقد كاتب الجند إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل عم نوح بن نصر الساماني – وكان قد انضم إلى ناصر الدولة بن حمدان – يطلبون إليه الحضور لمبايعته، فلبى دعوتهم، وقامت الحرب بينه بمساعدة أبي علي وبين نوح بن نصر، واستولى على نيسابور ومرو وبخارى في سنة ٣٣٥هـ، وخطب فيها لإبراهيم بن أحمد بن إسماعيل. على أن أبا علي لم يلبث أن خرج على إبراهيم الذي مال إلى خلع نفسه والاتفاق مع نوح على أن يتقلد إمرة جيوشه، وعمل على تولية أبي جعفر محمد بن نصر بن أحمد أخي الأمير نوح بن نصر، وبايع له وأقام الخطبة باسمه في كثير من

(١) إبن خلدون ، العبر، ج ٤، ص ٤٥٤-٤٥٥، بارتولد، تركستان، ص ٣٨١.

نواحي خراسان وبلاد ما وراء النهر. واستمرت الحروب بين أبي علي ونوح بن نصر من سنة ٣٣٤ إلى ٣٣٧هـ، وانتهت بعقد لصلح بينهما[١]. واستطاع نوح بن نصر أن يسترد الرى وبلاد الجبل من ركن الدولة ابن بويه الذي كان له أثر كبير في إثارة أبي علي (٣٣٩هـ).

ويذكر (النرشخي) أن نوحا أنجب خمسة أبناء هم عبد الملك ومنصور ونصر وأحمد وعبد العزيز. ولقد حمل الأمير نوح – جريا على عادة بعض الخلفاء – الرعية أثناء حياته على مبايعة أولاده الخمسة لولاية الحكم الواحد تلو الآخر كما يذكر (الكرديزي). ويذكر (بارتولد) أن الارستقراطية العسكرية قد بلغت مكانة عالية في عهد الأمير نوح. ويدلل على ذلك مستندا على رواية المقدسي أنه عين لكل واحد من الأمراء الثلاثة الكبار من أولاده حاجبا خاصا من بين قادة الحرس؛ عبد الملك إلى نجاح، ومنصورا إلى فائق ونصرا إلى ظريف، فأجلسوا أبو الفوارس عبد الملك العرش بعد وفاة أبيه[٢]. الذي تقلد العرش الساماني لمدة اثني عشر عاما وثلاثة شهور في ربيع الأول من عام ٣٤٣هـ، وكان قد لقب بالأمير الحميد، لقبه بذلك معاصروه، لطيب سيرته وحسن أخلاقه[٣].

ولاية عبد الملك ومنصور ابنا نوح (٣٤٣-٣٦٦هـ) :

لما تولى عبد الملك بن نوح إمرة السامانيين سنة ٣٤٣هـ، عين أبا منصور محمدا بن عزير وزيرا له، وقلد بكرا بن مالك قيادة الجيوش في خراسان، وسيره من بخاري لإخراج أبي على بن محتاج، الذي انضم

---

(١) ابن خلدون ، العبر، ح ٤، ص ٤٥٥، حسن إبراهيم حسن ، نفسه، ح ٣، ص ٧٧.
(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٣٧، بارتولد، تركستان، ص ٣٨١ – ٢٨٢.
(٣) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص ٤٥٩.

جنده إلى عبد الملك وبقى هو في مائتي رجل من أصحابه، واضطر إلى الهرب ولجأ إلى ركن الدولة في الرى فأحسن وفادته[١].

ولم تبق الحكومة الجديدة على دست الحكم لوقت طويل فبكر إبن ملك "عامل الحرس باحتقار وأهمل مطالبهم وأثار حفيظتهم عليه" مما أدى إلى مصرعه في ديسمبر عام ٩٥٦م ، على يد قائد الحرس البتكين عند باب قصر الأمير، ويغلب على الظن أن ذلك قد تم بموافقة الأمير. وأعقب ذلك عزل الوزير من منصبه وتعيين أبي جعفر العتبي مكانه، وخلف بكرا على خراسان أحد أتباعه هناك وهو القائد أبو الحسن محمد بن إبراهيم سيمجوري. وقد حمل إليه عهد الولاية ولواءها إبن البتكين الحاجب في عام ٩٥٧. هذا ولم يلبث كل من العتبي وأبي الحسن سيمجوري أن أثارا السخط العام على إدارتهما مما أدى إلى عزلهما، وتم تعيين أبي منصور يوسف بن إسحاق وزيرا في عام ٩٥٩، كما تم تعيين أبي منصور محمد بن عبد الرزاق والياً على خراسان (ابتداء من عام ٩٦٠)، ويقول عنه (كرديزي) إنه كان حاكما عادلا . وتشير قرائن الأحوال إلى أن ألبتكين نفسه قد عزل بعضا من الوقت لأن عهد تعيين الاسفهسالار الجديد ولواءه حملها إليه أبو نصر منصور بن بايقرا الذي يجعله المقدسي حاجبا للمنصور بن نوح، وقيام عبد الملك ووزيره بمحاولة للتخلص من سيطرة العسكريين تؤكده أيضا رواية ابن الأثير فى أحداث عام ٩٦٠، كذلك بشأن إعدام قائد عسكري احتل منصبا عاليا، وقد أدى هذا بدوره إلى إثارة الاضطرابات بالبلاد. وعلى أية حال فقد باءت محاولتهما بالفشل لأن عبد الملك وجد أن وسيلته الوحيدة للخلاص من البتكين هي أن يعينه واليا على خراسان التي بلغها في فبراير عام ٩٦١.

---

(١) مسكويه، تجارب الأمم ، مصر ١٩١٥، ج٢ ص ١٠٠-١٠١، ١٠٣-١٠٤.

وتولى منصب الحجابة مملوك سابق لألبتكين، وقبل ذلـك كـان البتكيـن قـد نجح في إقناع الأمير بخلـع وزيـره وأن يعيـن مكانـه أبـا علـي محمـدا بـن محمد البلعمي الـذي لـم يـرث مقـدرة أبيـه وكـان آلـة فـي يـد قـائد الجيـش القوي.[١]

ويذكر المقدسي عن عبد الملك أنـه "لم يكن في آل سـامان مثلـه" ويـرى بـارتولد أن هذه العبـارة لـم تكـن ملائمـة للواقـع الفعلـي لعصـر عبـد الملـك، وعاريـة تمامـا مـن الصحـة، فقـد كـانت السلطة فـي يـد قـائد الحرس. ولما سقط عبد الملك عن الدابة ومات (٣٥٠هـ/٩٦١م) أطلقـوا عليه الرشيد"[٢].

هذا ما كان عليه الوضع عندما قذف موت عبد الملك الفجـائي فـي نوفمبر عام ٩٦١هـ/ شوال ٣٥٠هـ، بـالبلاد فـي اضطرابـات جديـدة، فقـد تعرضت دار الإمارة نفسها في غمرة تلـك الأحـداث للنـهب والحريـق علـى أيدي الثوار. وتنفيذاً لرغبة ألبتكين فقـد أجلـس علـى العـرش ابـن صغـير للأمير المتوفي اسمه نصر ولكن سلطانه لـم يـدم إلا يومـاً واحـدا، ذلـك أن أعضاء أسرة السامانيين يؤازرهم قادة الحرس وأخذوا جـانب أبـي صـالح منصور بن نوح الذي استطاع أن يرتقي العرش بمعاونـة فايق حاجبه منـذ أيام حداثته. ويبـدو أن ألبتكيـن وجـد نفسـه منعزلا عـن الجميـع، وتشـير قرائن الأحوال إلى أن البلعمي نفسه قد أخـذ جـانب الحكومـة الجديـدة لأنـه احتفظ بمنصب الوزارة حتى وفاته[٣].

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم ، ص ٣٣٨.
(٢) المقدسي، نفسه، ص ٣٣٨، بارتولد، تركستان، ص ٣٨٢.
(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٣٨، بارتولد، تركستان، ص ٣٨٣.

وبخراسان خرج أبو منصور محمد بن عبد الرزاق الذي تركه البتكين حاكما على طوس على عدوه القديم، خاصة وأن الحكومة قد عرضت عليه مركز البتكين الذي اضطر إلى الانسحاب إلى غزنه حيث عزل في عام ٩٦٢ حاكمها المحلي وأسس مملكة مستقلة. ووفقا لألفاظ (كرديزي) فإن أبا منصور أدرك أن نصيبه هو أيضا سيكون العزل لدى أول سانحة، ولذا فقد أطلق العنان لجنوده لانتهاب البلاد وعقد علاقات مع البويهيين. وفي عام ٩٦٢ أرسل ضده أبو الحسن محمد سيمجوري الذي تم تعيينه مرة أخرى واليا على خراسان (وكان من بين رجال جيشه أحمد بن منصور بن قراتكين). وقتل أبو منصور وبقي أبو الحسن واليا على خراسان حتى آخر حكم منصور، وكان مُوفقا في حروبه ضد البويهيين والزياريين. ويتضح سبب هذه الحروب من رد منصور على طلب من أبي الحسن بأن يرسل إليه أرزاق العسكر، بقوله "عليك بانتزاع أرزاق الجند من بيستون" (أمير آل زيار). هذا وقد تغير ساعتئذ سلوك كل من ابي الحسن وأبي جعفر العتبي، الذي اقتسم منصب الوزارة مع البلعمي، عما كان عليه في عهد عبد الملك وتمتع كل منهما بسمعة طيبة كحاكم عاقل عادل. وبغزنة أيضا استطاع السامانيون استرداد سيادتهم ولو اسميا على أقل تقدير، فإسحق بن ألبتكين الذي كان قد خلف والده عند وفاته عام ٩٦٣ هُزم على يد أمير غزنة السابق فى عام ٩٦٤ وهرب إلى بخارى، ولم يستطع التغلب على خصمه إلا بمعاونة الحكومة السامانية في عام ٩٦٥، وتلا هذا ظهور اسم السامانيين إلى جانب اسم الحكام المحليين على السكة المضروبة بغزنة. وعقب وفاة البلعمي في ربيع ٩٧٤ أصبحت الوزارة من جديد من نصيب يوسف بن إسحق الذي لم يعش بعد سلفه لأكثر من خمسة اشهر . وفي العام الأخير لحكم منصور تولى

منصب الوزارة أبو عبد الله أحمد بن محمد الجيهاني وهو ابن أبي علي محمد وحفيد عبد الله محمد بن أحمد المشهور. هذا وقد انتقل منصور إلى جوار ربه في يونيو عام ٩٧٦. (١)

وفي عهد منصور شق أهل سجستان عصا الطاعة على أميرهم خلف بن أحمد، وولوا مكانه رجلا من أصحابه يدعى طاهر بن الحسين. ولكن منصور بن نوح أمد خلف بجيش استرد به هذه البلاد، لكنه لم يلبث أن طرد منها، ثم استردها بمعونة السامانيين. بيد أن علاقته بالسامانيين لم تلبث أن ساءت "فقطع ما كان يحمله إلى بخارى من الخلع والخدم والأموال التي استقرت القاعدة عليها"، فبعث منصور بن نوح الجيوش لمحاربته بسجستان، واستمرت هذه الحروب سبع سنين انتهت بعقد الصلح بينهما وإعادة الخطبة لمنصور بن نوح، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مبلغ الضعف الذي دب إلى البيت الساماني. وقد أحسن إبن الأثير بقوله :"وكان هذا أول وهن دخل على الدولة السامانية، فطمع أصحاب الأطراف فيهم لسوء طاعة أصحابهم لهم".

وفي سنة ٣٥٦هـ قامت الحرب في جهات الرى بين منصور بن نوح وركن الدولة بن بويه، ولم ينته العداء بين السامانيين والبويهيين إلا في سنة ٣٦١هـ، حيث تم الصلح بين الامير منصور بن نوح الساماني وبين عضد الدولة، على أن يحمل كل من ركن الدولة في كل سنة مائة ألف دينار، وحمل إليه ابنه عضد الدولة خمسين ألف دينار. وتزوج نوح

(١) بارتولد، تركستان، ص ٣٨٤-٣٨٥.

بابنة عضد الدولة، وحمل إليه الهدايا والتحف، وكتب بينهم كتاب الصلح وشهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق[١].

ولاية أبي القاسم نوح بن منصور (٣٦٦-٣٨٧هـ):

ولما مات منصور بن نوح سنة ٣٦٦هـ، تولى بعده ابنه نوح الثاني وتلقب المنصور وكان في الثالثة عشرة من عمره. وقام بأمر الدولة السامانية في مستهل إمارته وزيره أبو الحسن العتبي، وجعل على حجابته مولاه أبا العباس قاسما، ولكن محمد بن إبراهيم بن سيمجور قائد الجيش في خراسان من قبل السامانيين استبد بالأمر في هذه البلاد، واتخذ من صغر سن الأمير الجديد فرصة لتحقيق مطامعه، فعزل الوزير العتبي، وولى أبا العباس تاش إمرة الجيش في عام ٣٧١هـ، كما قامت الحرب في هذه السنة بين الأمير نوح بن منصور الساماني وبين عضد الدولة بن بويه الذي استولى على جرجان، ولاسيما بعد أن اتصل بهم نبأ قتل الوزير أبي الحسن العتبي الذي يرجع إليه الفضل في متابعة هذه الحروب. أضف إلى ذلك ثورة أحد أمراء البيت الساماني على نوح بعد أن حلت الهزيمة بجيوشه.

على أن الوزير الجديد عبد الله بن عزير الذي كان يضمر العداوة والبغضاء للوزير العتبي، عمل على عزل أبي العباس تاش عن خراسان وإعادة أبي الحسن بن سيمجور إليه، فامتنع أبو العباس عن تنفيذ أوامر الوزير الجديد وطلب العون من فخر الدولة بن بويه الذي أمده بجيش به ابن سيمجور، واستولى على نيسابور، ثم كتب إلى الأمير نوح يستميله

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٦٢، حسن إبراهيم حسن ، نفس المرجع، ج ٣، ص ٧٩.

ويستعطفه . ولكن ابن عزير تشدد في عزله ووافقته علـى ذلك أم الأمـير نوح التي كان لها الأمر والنهي في دولة ولدها، حتى كانوا يصدرون عن رأيها، فقال بعض أهل ذلك العصر كله:

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما — رأي النساء وإمـرة الصِّبيـان
أما النساء فميلهن إلى الهوى — وأخو الصبا يجري بغير عنان[1]

وفي عهد نوح بن منصور تعرضت الدولة السامانية للزوال، ففي سنة ٣٨٣هـ ثار عليه اثنان من اكبر قواد السامانية هما أبو الحسن بن سيمجور، وفائق الخاصة غلام نوح بن نصر، واتصلا بشهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركي، وكانت بلاده تمتد من حدود الدولة السامانية شرقا حتى تتاخم حدود الصين، وأطمعاه في الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، وتمكن إيلك في هذه السنة من الانتصار على جيوش نوح بن منصور والاستيلاء على بخارى. على أن نوحا لم يلبث أن استرد حاضرة إمارته على إثر موت بغراجان وثورة أهالي بخارى عليه[2].

وفي سنة ٣٨٤هـ استعان نوح بن منصور بسبكتكين صاحب غزنة لحرب الأمراء الثائرين عليه. وانتصرت جيوشهما بالقرب من هراة على الأمراء الذين استعانوا ببني بويه وفروا إلى جرجان. كما استعاد نوح نيسابور، واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين، ولقبه سيف الدولة، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة. وعاد

(١) مسكويه، تجارب الأمم ،ج٣، ص ٩٣.
(٢) إبن خلدون، العبر، ج٤، ص ٤٦٥-٤٦٦.

نوح إلى بخارى، وعاد سبكتكين إلى هراة، وأقام محمود بنيسابور. على أن هؤلاء الثائرين لم يلبثوا أن انتصروا على محمود.

ومع أن ايام نوح بن منصور الساماني طالت حتى أربت على إحدى وعشرين سنة، إلا أن عهده كان مليئا بالثورات والحروب الأهلية بسبب صغر سنه، وتدخل النساء والوزراء في الحكم، وطمع أمراء الأطراف واستئثارهم بالسلطة، وطمع بني بويه والأتراك في بلادهم وقيام المنافسة بين أفراد البيت الساماني[١].

زوال الدولة السامانية :

لما توفى نوح بن منصور الساماني سنة ٣٨٧هـ، قام بعده ابنه (منصور بن نوح) فعمل على تأليف القلوب حوله، بإغداق الأموال على أنصاره وقواده. على أن إيلك المعروف ببغراخان التركي، الذي كان قد استولى على بخارى سنة ٣٨٣هـ، اتخذ من موت نوح بن منصور فرصة للاستيلاء على سمرقند. وانضم إليه فائق الخاصة الذي تمكن من الاستيلاء على بخارى، متظاهرا بأنه يسعى لخدمة الأمير منصور، "رعاية لحق أسلافه عليه إذ هو مولاهم، وأرسل إليهم مشايخ بخارى ومقدمهم في العود إلى بلده وملكه، وأعطاه من نفسه ما يطمئن إليه من العهود والمواثيق؛ فعاد إليها ودخلها، وولى فائق أمره وحكم في دولته، وولى بكتوزون إمرة الجيش بخراسان"[٢]. وفي السنة التالية بدأ النزاع بين الأمير منصور بن نوح ومحمود الغزنوي الذي أثار سخطه تولية

---

(١) حسن إبراهيم حسن، نفسه ، ج ٣، ص ٨٠.

(٢) إبن خلدون، العبر، ج٤، ص ٤٦٩، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٨١، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٥٦-١٥٩.

بكتوزون على خراسان؛ وطلب إعادتها إليه، فلم يجب إلى طلبه وساءت العلاقة بينهم. وسرعان ما قبض بكتوزون وفائق الخاصة على منصور بن نوح وسملا عينيه ولما يمض عليه في الإمارة غير سنة وسبعة أشهر، ووليا أخا الصغير (عبد الملك بن نوح). واتخذ محمود الغزنوي من اضطراب حبل الأمور في الدولة السامانية فرصة للإستيلاء على نيسابور وبخارى، وإستقر ملكه بخراسان وأزال نفوذ السامانيين عنها وخطب فيها للخليفة القادر بالله. ووقعت بلاد ما وراء النهر في يد إيلك بغراخان الذي قصد بخارى وأظهر التودد لعبد الملك بن نوح، ولكنه لم يلبث أن قبض على قواد السامانيين ثم على عبد الملك نفسه، وحبس معه أخاه منصور بن نوح الذي ولى إدارة السامانيين من قبله، كما حبس أخويه أبا إبراهيم إسماعيل وابا يعقوب ابني نوح، وحبس من أعمامه أبا زكريا وأبا سليمان، وأفرد كل واحد منهم في حجرة[١].

وإن من يستقصي تاريخ السامانيين ليرى أن زوال دولتهم يرجع إلى عوامل عدة، نذكر من بينها وقوع النزاع بين أفراد هذا البيت وخروج القواد وعمال الأطراف عليهم واستعانتهم ببعض أمراء هذا البيت على نوح بن نصر (٣٣١-٣٤٣هـ)، كما استعان بعض هؤلاء القواد وعمال الأطراف ببني بويه، مما أضعف الدولة السامانية وأدى إلى زوالها في النهاية. أضف إلى ذلك تدخل النساء والوزراء في الحكم بسبب صغر سن بعض الأمراء[٢].

وهكذا زالت الدولة السامانية على أيدي الغزنويين وخانات تركستان، وأصبحت كأن لم تغن بالأمس، كدأب الدولة قبلها، إن في ذلك

(١) راجع الفصل الخاص بالدولة الغزنوية.
(٢) حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج٣، ص ٨١.

لعبرة لأولي الأبصار كما يذكر الأثير. ويعلق ابن خلدون على ذلك بقوله: "وانقرضت دولتهم بعد أن كانت انتشرت في الآفاق ما بين حلوان وبلاد الترك، ووراء النهر، وكانت من أعظم الدول وأحسنها سياسة"(١).

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٧١.

الفصل الخامس
جوانب من حضارة الصفاريين والسامانيين

- تقديم.
- العلوم الدينية.
- الحركة الأدبية.
  - إحياء الشعر الفارسى.
- الفلسفة.
- الطب.
- الكيمياء والفلك والرياضيات.
- الجغرافيا .
- الفنون (العمارة ، الخزف ، صناعة الزجاج، صناعة النسيج، الموسيقى).

الفصل الخامس

جوانب من حضارة الصفاريين والسامانيين

تقديم:

شهدت خراسان وبلاد ما وراء النهر (بخارى) فى فترة حكم الصفاريين والسامانيين، نهضة حضارية واسعة اتضحت مظاهرها فى كافة المجالات، فقد اتصف السامانيون فى حكمهم لهذه البلاد الفسيحة الأرجاء بالعدل والصلاح، وتشجيع العلم والعلماء، فازدهرت الثقافة والعلوم والفنون في عهدهم ازدهاراً عظيماً. وأضافوا لمجدهم السياسي والحربي، مجداً حضارياً ونهضة علمية وفكرية. وجدير بالذكر أن هذه النهضة قد بدأت تزدهر مع بزوغ الاستقلال السياسي على عهد الطاهريين. ورغم فقدان بعض أقاليم هاتين الدولتين مجدهما واستقلالهما السياسي اللذان كان لهما فى الماضي، حيث كانت تمثل قواعد لدول مستقلة، مثل خراسان عاصمة الطاهريين السابقة، التي تحولت إلى ولاية تابعة لسيادة الصفاريين في سجستان أو السامانيين فيما وراء النهر، إلا أن التيار الثقافي الصاعد لم يتراجع، بل ازداد اندفاعاً وتقدماً، وأصبحت المدن الخراسانية عنواناً للنهضة الثقافية الإسلامية بصفة عامة، كما أن هذه المدن صارت مراكز هامة لعلماء وأدباء قفزوا بالثقافة الإسلامية علماً وأدباً إلى أعلى درجات الرقي والإبداع.

ويخيل إلينا أن الخراسانيين بعد أن فقدوا نفوذهم السياسي فى المنطقة والذى كان لهم على عهد الطاهريين، وجدوا فى النفوذ الثقافي العوض عن النفوذ السياسي للتعبير عن الذاتية الخراسانية، فاهتموا بالثقافة اهتماماً كبيراً سواء على المستوى الرسمي المتمثل فى القيادات

الخراسانية المحلية، أو على المستوى الشعبي المتمثل فى كافة طبقات المجتمع الخراساني التى شاركت فى تشجيع النهضة الثقافية كل طبقة بدورها وحسب قدراتها، بحيث أصبحت كافة هذه الطبقات تتنافس فى تقديم الحوافز المادية والمعنوية لأهل العلم والأدب(١).

وتوفرت لخراسان وبلاد ما وراء النهر فى هذه الفترة مقومات الازدهار الثقافي، وأهمها الانفتاح العلمي الذي كان يسود العالم الإسلامي فى تلك الفترة إلى حد كبير ، وذلك لأن التراث الفارسي القديم الذي استمدت منه الثقافة الإسلامية إحدى دعاماتها، تناوله عقول علماء خراسان ومفكريها، وراحوا يقدحون فكرهم فى إخراجه وبحثه وتلقيح معارفهم به، وانصهر هذا التراث فى قالب إسلامي جديد التقت فيه المعرفة الإنسانية فى ماضيها بالمعرفة الإسلامية، فكان النتاج خلقاً حضارياً جديداً هو الثقافة الإسلامية أو بمفهوم أوسع الحضارة الإسلامية(٢) ويدخل فى نطاق الانفتاح العلمي، ما تيسر لعلماء خراسان من سهولة انتقالهم إلى أرجاء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً لتلقي العلم والحصول على مصادره(٣).

وتيسر لخراسان فى هذه الفترة من تاريخها عوامل أخرى ساعدت على هذا الازدهار الثقافي، منها الرخاء الاقتصادي الذي ميز عامة المدن الخراسانية بحيث وصفت خراسان أنها من أغنى الأقاليم بثرواتها الاقتصادية فى الزراعة والصناعة والتجارة، مما أدى إلى توفر الإمكانيات اللازمة لدفع هذا الازدهار الثقافي. وقد تمثلت هذه الإمكانيات فى منح

---

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ج٢، ص ٢٩٧.

(٢) عفت الشرقاوي، فى فلسفة الحضارة الإسلامية ص ٥١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص ١٠٢، السبكي، طبقات الشافعية، ج٢، ص ٢٩٧.

العلماء والأدباء الهبات والهدايا التي توفر لهم الحياة الملائمة، وتحببهم في الاستقرار بخراسان. كما تمثلت هذه الإمكانيات في بناء المعاهد العلمية والمساجد والمكتبات اللازمة لنقل العلم وتلقيه، والحفاظ على مصادره، والصرف على طلابه والاعتناء بهم. وبالإضافة إلى العوامل السابقة فقد كان تولي أسر محلية تنتسب أساساً إلى العنصر الفارسي، وتشجيع هذه الأسر وتحمسها للنهضة الثقافية من أهم العوامل التي أدت إلى الازدهار الثقافي في خراسان[١]. وذلك لأن كل من الصفاريين والسامانيين ومن قبلهم الطاهريين عملوا على الارتفاع بدولهم إلى مستوى ثقافي يعبر عن عظمة هذه الدول وقوتها، إما بقصد تدعيم مراكزهم السياسية في العالم الإسلامي وخاصة عند الخلفاء العباسيين، أو استجابة حضارية لمطالب الشعوب الفارسية وأقاليمها للتعبير عن ذاتيتها.

العلوم الدينية:

وكان الفكر العقائدي أهم مظاهر الازدهار الثقافي، وأحد محركاته الدافعة للإنتاج الفكري في خراسان وبلاد ما وراء النهر، فقد ساد خراسان المذهب السني وهو المذهب الرسمي للخلافة حيث تغلب مذهب الشافعي الذي ينتسب إلى صاحبه محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٥/٨٢٠م). وساعد على انتشار هذا المذهب في هذه البلاد، ما كان يقوم به علماء الإقليم من رحلات علمية إلى العراق ومصر وغيرها من الولايات التي انتشر بها هذا المذهب[٢]. وربما ساعدت الاتصالات التي حدثت بين مصر وخراسان أبان عهد الطاهريين على انتشار هذا المذهب، لاسيما أن

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٤، ص ٣٥٥، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٤٣.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، ص ١٢٤، السبكي، طبقات الشافعية، ج٢، ص ١٨٧.

عبدالله بن طاهر كان قد تولى ولاية مصر (٢١١-٢١٣هـ/٨٢٦-٩٢٩م) ثم تولى بعد ذلك إمارة الدولة الطاهرية فى خراسان، وتدل الشواهد التاريخية على وجود اتصالات حضارية قوية بين ولايتي مصر وخراسان فى هذه الفترة.

وحمل فقهاء خراسان وبلاد ما وراء النهر على عاتقهم نشر المذهب الشافعي فى بلادهم، وحدث بهما العديد من فقهاء هذا المذهب فى القرنين الثالث والرابع الهجري (التاسع والعاشر الميلادى) وبلغ هؤلاء العلماء مبلغ الاجتهاد ويأتى على رأسهم أحمد بن نصر بن زياد النيسابوري (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م)، الذى كان يفتي بنيسابور ويفقه أهلها حسب المذهب الشافعي. وعرف أيضاً محمد بن إسماعيل البخارى (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م) صاحب كتاب الصحيح الذى عرف باسمه، والفقيه مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م) الذى ألف هو الآخر كتاباً فى الحديث سماه الصحيح[١].

وتشير الدلائل أنه فى الفترة التى تبعت فيها خراسان لسلطان الصفاريين، لم تؤثر الاضطرابات السياسية التى وقعت بين الصفاريين والخلافة على المذهب السني فى خراسان، حيث أن فقهاء السنة الخراسانيين عارضوا الحكم الصفاري وظلوا على ولائهم للخلافة العباسية، واتسعت دائرة إنتاجهم فى تأليف كتب الفقه والحديث. ولم يستطع الصفاريون كسب هؤلاء الفقهاء إلى صفهم، واكتفوا بمحاولة إرضائهم ومنع استشراء الشائعات التى أشيعت عن ميول يعقوب بن الليث الصفار للشيعة الإسماعيلية، حيث أدت هذه الشائعات إلى اتخاذ الفقهاء موقفاً مضاداً ليعقوب بن الليث.

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٨٠.

ويبدو أن علاقة الدولة الصفارية بفقهاء خراسان السنيين تحسنت بعض الشئ في عهد عمرو بن الليث، لاعتدال موقفه من الخلافة العباسية. فقد نبغ بعض فقهاء خراسان فى فترة حكمه نذكر منهم محمد إبن إبراهيم البوشنجي (ت ٢٩٠/ أو ٢٩١هـ/ ٩٠٢ أو ٩٠٣م) وهو من فقهاء نيسابور السنيين، حيث استقر بها بعد رحلاته الطويلة التى طاف فيها مدن العالم الإسلامي طلبا للعلم. وكانت للبوشنجي مجالسه العلمية لتعليم الناس ومناقشتهم فى مذهب الإمام الشافعي، حيث شهدت هذه المجالس المناظرات الفقهية بين البوشنجي وغيره من الفقهاء، مما ساعد على ازدهار الفكر العقائدي في نيسابور. وقد لقي البوشنجي العطف من عمرو الصفار، فمنحه الهبات والعطايا التي بلغت ما يوازي سبعمائة ألف درهم[١]. فلعل عمر أراد بهذا استرضاء كبار فقهاء نيسابور لتأييد حكمه فى خراسان.

ونبغ ايضا من فقهاء خراسان إبان حكم الصفاريين الفقيه إسحاق إبن موسى الاسفراييني (ت٢٨٤هـ/٨٩٧ م) وينتسب إلى مدينة إسفرايين إحدى مدن خراسان[٢]. وكان من فقهاء المذهب الشافعي، حيث شغل نفسه بنشر هذا المذهب بعد رحلاته الطويلة داخل وخارج خراسان.

وانتشر فقهاء المذهب الشافعي في مدن خراسان نتيجة انتشاره فى مدنها الكبرى كنيسابور ومرو الكبرى وغيرهما من مدن خراسان، فنذكر

---

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ج٢، ص ١٩٠ وما بعدها.

(٢) أسفرايين مدينة عامرة ذات أسواق حسنة. وكانت تسمى قديما باسم مهرجان كما يذكر ياقوت الحموى، وأصل إسمها أسبرايين أى (حملة التراس)، وكانت تكثر فى رستاقها أشجار الجوز، وهواؤها رطب ويكثر فيها الأعناب والقمح (لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٤٣٤-٤٣٥ والمصادر المذكورة هناك).

من هؤلاء الفقهاء أبو العباس السياري وأبو إسحاق الخالد آباذى ـ نسبة إلى خالد آباذ-إحدى قرى مرو ـ وغيرهما[١]. ونذكر أيضاً من فقهاء خراسان أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى، المزكي (ت٢٩٥هـ/٩٠٧م) وهو إمام أهل عصره بنيسابور فى معرفة الحديث، ولقد اشتهر المزكي ببساطته وتواضعه،ورغم أنه كان فقيراً لا يملك سوى منزله الذي يسكن به وحانوتاً يتكسب منه قوت يومه، إلا أن مجالسه العلمية قد اتسمت بالهيبة لسعة علمه [٢] ، ومن فقهاء خراسان أيضا الحسن بن سفيان النسوى أو النسائي (ت ٣٠٣هـ/٩١٥م) وهو من محدثي خراسان السنيين، واعتبر مصدراً يرجع إليه فى الحديث. ومن الطريف أن بعض العلماء والمحدثين منهم ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٢م) وغيره حاولوا فى بعض المجالس العلمية أن يختبروا موهبة حفظ الأسانيد الخاصة بالأحاديث عند النسوي بقلبها أو بتغييرها، إلا أن النسوى كان يردهم عند كل خطأ، فشهد له الجميع بالعلم الواسع والدقة فى رواية الأحاديث[٣]. كما بزغ فى الفقه فى هذه البلاد أبو بكر محمد بن المنذر النيسابوري وكان إماماً مجتهداً، وقد بلغ القمة فى معرفته بالحديث والأخلاق، وكان مجتهداً لا يقلد أحداً، وتوفى فى سنة ٣١٦هـ.

هذه أمثلة لفقهاء خراسان ومحدثيها السنيين مع كثرتهم وتعدد مؤلفاتهم فى فترة حكم الصفاريين. وقد جمع الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ/١٠١٤م) أسماء فقهاء نيسابور وحدها فى العصر الصفاري،

---

(١) القزوينى، آثار البلاد، ص ٤٥٦-٤٥٨؛ السبكي، طبقات الشافعية ، ج٢، صفحات ٢٥٨، ٢٩٧، ٢٩٨.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٠٥ -١٠٦.

(٣) إبن كثير، نفس المصدر والجزء والصفحات.

ومن خلال ما ذكره نستطيع أن نؤكد ازدهار علمي الفقه والحديث بهذه المدينة وكثرة أعداد الفقهاء من اهل السنة بها، مما يدل على أن عهد الصفاريين كان فترة تدعيم مذهب الإمام الشافعي ونقله ونشره في ربوع خراسان عن طريق فقهاء هذا المذهب ومحدثيه. (١)

ثم تميز عهد السامانيين باستيعاب مذهب الشافعي وانتشاره في المدن الخراسانية، مما يجعلنا نعتبر هذه الفترة من أهم فترات التدوين والتأليف في علمي الفقه والحديث بخراسان، وقد ساعد على هذا الازدهار عدة عوامل أهمها أن الدولة السامانية ربطتها بالخلافة العباسية صاحبة المذهب السني وممثلة زعامته الروحية علاقات طيبة، بل كانت الدولة السامانية نفسها من الدول التي أولت فقهاء المذهب السني رعايتها وعطفها، فهو مذهب الدولة الرسمي(٢). لذلك قدم أمراء السامانيين المنح والعطايا لفقهاء وعلماء هذا المذهب، كما اهتمت الدولة السامانية ببناء المدارس ودور الكتب والمساجد التى تمكن الفقهاء من ممارسة عملهم فى نشر وتأليف مؤلفاتهم الفقهية ولدينا من الشواهد مايدل على تقدير أمراء السامانيين لفقهاء خراسان، ويكفي أن نذكر تقدير الأمير الساماني إسماعيل بن أحمد (٢٧٩-٢٩٥هـ/٨٩٢-٩٠٧م) للفقيه الخراساني محمد ابن إسحاق الفقيه(٣). وساعد ايضاً على ازدهار علمي الفقه والحديث أن المذهب الشافعي الذي أصبح مذهب الأغلبية فى خراسان كانت قد وضعت له حدوده وأصوله، كان الفقهاء قبل الشافعي يجتهدون من غير أن يكون بين ايديهم حدود مرسومة للاستنباط. فجاء الشافعي فوضع هذه الحدود، فاعتبر أول من وضع أصول الفقه، ووسع الشافعي من دائرة حركة الفقيه

---

(١) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٢٤٧.

(٢) النرشخي، تاريخ بخاري، ص ١٠٧.

(٣) السبكي، طبقات الشافعية، ج٣، ص ١١٧، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٤٧.

فى حكمه أو فتواه بتقريره عن الاجماع كمصدر تشريعي بعد الكتاب والسنة، وقد ساعدت هذه الأسس التى وضعها الشافعي على تشجيع الاجتهاد لدى بعض الفقهاء مما أدى إلى تقدم وازدهار علم الفقه فى خراسان.

وهناك عوامل أخرى ساعدت على ازدهار علم الفقه فى خراسان إبان حكم السامانيين مثل انتشار المدارس والمعاهد المتخصصة لتدريس الفقه السني، حيث أنه كان من المتبع قبل ذلك قصر التعليم الديني على المساجد، إلا أن الوضع قد تغير على عهد السامانيين، فأصبحت هناك بالإضافة إلى المساجد مدارس ينبت خصيصاً لتلقي العلوم الدينية كالفقه والحديث وغيرها من العلوم[١]. ونعرف أسماء لبعض هذه المدارس التى بنيت فى نيسابور عاصمة خراسان، منها مدرسة ابن فورك، ومدرسة إسماعيل الاسترابادي، وغيرها من المدارس. ويمكننا بهذا أن نسند إلى مدينة نيسابور فضل السبق ببداية ظهور المدارس بها فى فترة حكم السامانيين، أي قبل ظهور حكم السلاجقة ووزارة نظام الملك (ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م) ، الذى نسب إليه أنه أول من أسس المدارس التي عرفت باسمه "النظامية"[٢]. أما العامل الأخير الذي ساعد على ازدهار علم الفقه فى خراسان إبان حكم السامانيين، أن هذه الفترة شهدت ظهور عدة فرق عقائدية مخالفة للمذهب السني كالإسماعيلية والكرامية، ووجود علماء وفقهاء لكل منها، مما جعل فقهاء السنة يتصدون لهذه الفرق مناظرة وتحقيقا وتأليفا، فأثرى ذلك كله عالم الفقه، وساعد على ازدهاره[٣].

---

(١) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣١٨ و ٣١٩.
(٢) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج١، ص ٣١٨.
(٣) البغدادى، الفرق بين الفرق، ص ١٨٩-١٩٧.

فإذا تكلمنا عن مميزات هذه الفترة من الناحية المنهجية فى صياغة علمي الفقه والحديث، نجد أن المؤلفات فى هذين العلمين اهتمت بوضع الفهارس المنظمة للأحاديث المروية مع الاعتناء بذكر المصادر وقوائم الإسناد. وتتضح هذه المظاهر جيدا فى كتاب "الغريبيين" لأبي عبيد الهروي (ت ٤٠١هـ/١٠١٠م) بل وزاد عليها عنايته بشرح اصطلاحات القرآن والحديث، واعتنى بتنسيق كتاباته والاعتماد على الترتيب الأبجدي تسهيلا على القراء[1]. ولم تكن هذه الخصائص المنهجية متوفرة من قبل، مما أعطى لمؤلفات هذه الفترة أهميتها فى تقدم علمي الفقه والحديث.

وليس عجيبا أن زاد عدد الفقهاء والمحدثين فى خراسان على عهد السامانيين وفاق عددهم ما كان على عهد الصفاريين، وقد وردت أسماء هؤلاء الأعلام فى كتب الطبقات والفرق، ونورد هنا بعض أسماء لهؤلاء الفقهاء والمحدثين الذين كان لهم الفضل فى ازدهار هذين العلمين على عهد السامانيين ومنهم محمد بن إسحاق السلمي (ت ٣١١ أو ٣١٢هـ/٩٢٣ أو ٩٢٤م) وأبو العباس السراج (ت٣١٣هـ/٩٢٥م) وأبو عوانه النيسابوري (ت ٣١٦هـ/٩٢٨م) والثقفي النيسابوري (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م) وأحمد بن عامر المروزي (ت٣٣٢هـ/٩٤٣م) وعلى بن محشاد (ت٣٣٨هـ/٩٤٩م)، والصبغي النيسابوري (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) وأبوسهل الصعلوكي (ت ٣٦٩هـ/٩٧٩م)، وأبو زيد المروزي (ت٣٧١هـ/٩٨١م)، والداركي (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م)، والخضري (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، والماسرجسي (ت ٣٨٩هـ/٩٩٨م)، وأبو عبيد الهروي

(١) انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ٧٩.

(ت٤٠١هـ/١٠١٠م)، والحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ/١٠١٤م) وغيرهم". [١]

وكان هؤلاء الفقهاء جميعا من فقهاء المذهب الشافعي ووصل علم الفقه على أيديهم إلى أعلى درجات التفوق، ويبدو أن إحساس الخراسانيين من أصحاب المذهب الشافعي بجهود فقهائهم في التأليف والمناظرة، جعلهم يطلقون على بعض هؤلاء الفقهاء الألقاب الفخرية، حتى أن خراسان أول الأقاليم التي عرف بها لقب "شيخ الإسلام" وأصبح هذا اللقب خاصا بكبار فقهائها دون غيرهم، كما يطلق على الفقهاء ألقاب أخرى كشمس الإسلام، وإمام الأئمة وغيرها من الألقاب[٢].

ومن فقهاء الشافعية في بلاد ما وراء النهر خلال العصر الساماني العالم أبو حاتم محمد بن حيان السمرقندي، وكان إماما كبيرا له تصانيف عديدة وطوف في البلاد، وقال عن نفسه :" لعلنا أخذنا عن ألف شيخ بين الشاش والإسكندرية"، وقد ولى هذا الفقيه قضاء سمرقند. ورحل إليه كثير من الناس ليأخذوا العلم عنه، وإليه يرجع كثير من المحدثين في حكمه على رجال الحديث بالجرح والتعديل وقد توفي في عام ٢٥٤هـ، ومن عظماء فقهاء الشافعية محمد بن علي القفال الشاش، الذي كان يعد إمام عصره في بلاد ما وراء النهر وناشر المذهب الشافعي في هذا الإقليم، وكان يقول بالاعتزال وله كتب في الفقه وأصوله، ومن أبرز فقهاء الشافعية في هذه البلاد أبو بكر أحمد بن الحسن بن الحسين البيهقي

---

(١) راجع: السبكي، طبقات الشافعية، ح ٣، ص ١٠٨-١٠٩، إبن خلكان، وفيات الأعيان، ح٢، ص ٣٦١، ح ٣، ص ٣٥١، ابن كثير، البداية والنهاية، ح١١، ص ٢٢٢ ومابعدها

(٢) السبكي، طبقات الشافعية، ج٣، ص ٧١ وما بعدها.

(نسبة إلى بيهق بالقرب من نيسابور) الحافظ الشافعي الذي رحل إلى كثير من البلاد، وهو أول من جمع نصوص الشافعي، وطلب إلى نيسابور لنشر العلم بها، فأجاب وأقام بها إلى أن توفى[١].

ولا تعني هذه السيادة لمذهب الإمام الشافعي السني في خراسان وبلاد ما وراء النهر، عدم وجود مذاهب سنية أخرى، فمن الثابت نبوغ كثير من فقهاء الحنفية في هذه البلاد، حتى أن المدن الخراسانية أصبحت على عصر السامانيين من المراكز الثقافية الهامة التي يأتي إليها تلامذة الفقه الحنفى لتلقي علومهم على يدي فقهاء خراسان من الحنفية، كما تولى بعض فقهاء الحنفية مناصب إدارية في الدولة كالقضاء وغيره[٢]. ومن أشهر فقهاء الحنفية الإمام ابو منصور الماتريدي نسبة إلى ماتريد من أعمال سمرقند وهو للحنفية في علم الكلام كالأشعري للشافعية، فقد صنف من الكتب كتاب التوحيد، وأوهام المعتزلة، ومآخذ الشرائع في الفقه وغيرها، ومات في سنة ٣٣٣هـ.

ويرتبط بازدهار العلوم الدينية إزدهار (علم الكلام)، وهو العلم الذي يبحث في ذات الله وصفاته وتفسير أفعال الإنسان خيرها وشرها حسب شريعة الإسلام، أو بعبارة أخرى يتناول العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية. ويذكر الأب جورج قنواتى أنه يمكننا بالنسبة إلى كل الأغراض العملية أن ننظر إلى علم الكلام على أنه علم لاهوت Theology ، ولكن مع التحفظ دائما بأن علم الكلام عند المسلمين لايشمل تماما ماتسميه الفلسفة المدرسية المسيحية باسم اللاهوت. ويضيف الأب قنواتى أنه من الممكن

---

(١) احمد أمين، ظهر الإسلام، ج١، ص ٢٦٤-٢٦٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص ٣٠٥.

أن نقسم تاريخ علم الكلام إلى عدة مراحل: أهمها وأولها مايمكن أن نطلق عليه مرحلة العقائد Creeds وهى ليست مرحلة تفكير نظرى بالمعنى الكامل لهذه الكلمة، وإنما كانت هناك محاولات لتخليص العقائد الواجب الإيمان بها فى صيغ موجزة [١] . ووجدت عوامل عامة وأخرى خاصة ساعدت على ازدهار هذا العلم في خراسان. أما العوامل العامة فترتبط بظهور الاجتهاد في الرأي وإمعان الفكر عند بعض المذاهب الإسلامية واستخدامها للقياس والاستدلال، مما أتاح لفقهاء المسلمين مناقشة الأمور الدينية والتناظر فيها باستخدام العقل والتصور بالإضافة إلى استخدام النصوص القرآنية والأحاديث. وأول متكلميهم من الفقهاء وأرباب المذاهب (بعد كبار الصحابة والتابعين) أبو حنيفة النعمانى، فإن أبا حنيفة له كتاب فى الرد على القدرية سماه (الفقه الأكبر) [٢] ، ويشمل عشر مقالات فى العقيدة تلخص موقف أهل السنة المعارض للخوارج والقدرية والشيعة والجهمية، ولأبى حنيفة رسالة أملاها فى " نصرة قول أهل السنة إن الاستطاعة مع الفعل"، وبظهور كتاب (الوصية) لأبى حنيفة تبدأ المسائل الكبرى فى الظهور. وللإمام الشافعى كتابان فى الكلام، أحدهما: " فى تصحيح النبوة والرد على البراهمة"، والثانى " فى الرد على أهل الأهواء"، ثم من بعد الشافعى تلامذته الذين جمعوا بين علم الفقه والكلام، وكان أبو العباس بن سريج أبرع هؤلاء الطلاب فى هذه

---

(١) شاخت و بوزورث، تراث الإسلام، ط ٢ ، عالم المعرفة، رقم ١٢، الكويت، ١٩٨٨، ح٢، ص ٧٤-٧٧.

(٢) هناك كتابان بهذا الاسم ينسبان إلي الامام أبى حنيفة. وقد أثبت (فنسيك) أن كتاب الفقه الأكبر (الأول) هو الوحيد الذى يتضمن أقوالا لأبى حنيفة، أما (الفقه الأكبر) فلم يصح نسبته إلى الامام ابى حنيفة. راجع: دائرة المعارف الإسلامية مادة (أبو حنيفة) ط٢، م١، ص ١٢٤.

العلوم[١]. ولعل ذلك ظهر واضحا في مذهب فرقة المعتزلة وموقفها من قضية خلق القرآن التى وافقهم فيها (المريسى) أحد كبار أصحاب أبى حنيفة، ثم حاول فقهاء السنة بعد ذلك إصلاح ما جاء عند المعتزلة، وأخذ ما هو معقول عندهم، وهو ما ظهر في مذهب الأشاعرة الذين صار أبوالحسن الأشعرى مؤسس علم الكلام السلفى Traditional Kalam شجي فى حلوقهم.[٢] وكانت هذه المدارس الفكرية المتطورة ضرورة للوقوف والتصدي أمام أعداء الإسلام من الملاحدة أو أصحاب الديانات الأخرى[٣].

ويجرنا هذا للحديث عن العامل الخاص بخراسان الذي ساعد على ازدهار علم الكلام بها، فقد شهدت خراسان في الفترة الأخيرة من القرنين الثالث الهجرى وبداية الرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلادي) ظهور بعض الاتجاهات العقائدية التي ابتعدت عن المذهب السني الرسمي، وبدأت هذه الاتجاهات تكون لنفسها كيانات عقائدية بنظريات محددة وعلماء يدافعون عن هذه النظريات. وكان أشهر هذه الفرق التي ظهرت في خراسان فرقة الكرامية. وتنتسب هذه الفرقة إلى أبي عبد الله محمد بن كرام السجزى (ت٢٥٥هـ/٨٦٩م) الذي ولد في سجستان ثم انتقل إلى

---

(١) البغدادى، الفرق بين الفرق، ص ٣١٤-٣١٥، شاخت و بوزورث، تراث الإسلام، ج٢، ص ٧٥.

(٢) البغدادى نفس المصدر ، ص ٣١٥، السبكي، طبقات الشافعية، ج٣ ص ٣٧٧. وينتسب الأشاعرة إلى أبى الحسن على بن إسماعيل إسحاق أبو الحسن من نسل الصحابى الجليل أبى موسى الأشعرى. وهو مؤسس مذهب الأشاعرة، وكان من أئمة المجتهدين. ولد فى البصرة وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم، ثم رجع وجاهر بخلافهم، وتوفى في بغداد فى عام (٣٢٤هـ/٩٣٥م)، وله عدة مصنفات منها: إمامة الصديق، الرد على المجسمة، واستحسان الخوض فى علم الكلام، ومن تلاميذه المشهورين الذين أخذوا على عاتقهم نشر مذهبه: أبو الحسن الباهلى، وأبو عبد الله بن مجاهد. (البغدادى ، نفسه، ص ٣١٥).

(٣) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص ٨.

نيسابور وقضى معظم حياته هناك. وكان الأمير طاهر بن عبد الله قد حبسه بها، إلى أن خرج منها في عام ٢٥١هـ إلى القدس فمات بها. وكانت الكرامية بخراسان ثلاثة أصناف: حقائقية، وطرانقية، وإسحاقية. وهذه الفرق الثلاث لايكفر بعضها بعضا، وإن أكفرها سائر الفرق، فلهذا إعتبرها (البغدادى) فرقة واحدة. [١]

وتقوم دعوة الكرامية كفرقة على الاعتقاد في التجسيم أو التشبيه، فيقولون أن الله جسم له حد ونهاية، وهذا شبيه بقول الثنوية في وصف وجودهم. ويتضح من بعض الكتب التي ألفها ابن كرام الأثر المسيحي أيضا، حيث وصف الله في كتاب "عذاب القبر" بأنه جوهر حيث قال "أن الله إحدى الذات إحدى الجوهر" وإن كان أتباع ابن كرام أبطلوا استخدام لفظ الجوهر بعد ذلك، ولكنهم استمروا يعتقدون في التجسيم[٢]. فاشتعلت الحرب الكلامية بين فقهاء خراسان وأتباع فرقة الكرامية التي زاد أتباعها وخاصة بين الطبقات الدنيا من الفلاحين أو صغار العمال الكادحين في المدن الخراسانية. وكانت آراء الكرامية ومعتقداتها إيذانا ببداية التصدي والهجوم من قبل فقهاء خراسان السنيين، فعقدت المناظرات الكلامية، وألفت العديد من الكتب للرد على اعتقادات هذه الفرقة. وشهدت خراسان في هذه الفترة نوعا من تكتل فقهائها بشتى مذاهبهم للرد على الكرامية وما تنادي به. ويؤكد (البغدادى) أنه ناظر أحد الكرامية في مسألة أن قول الله عندهم حادث فيه، وكلامه قديم. وبين له خطأ ذلك موجها كلامه له متسائلا " إذا زعمت أن الكلام هو القدرة على القول، والساكت عندك قادر على القول في حال سكوته، لزمك على هذا القول أن يكون الساكت

---

(١) البغدادى، الفرق بين الفرق، ص ١٨٩.
(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٨٩-١٩٠.

متكلما"، فالتزم الكرامى ذلك [١]. كذلك ناظر البغدادى ابراهيم بن مهاجر شيخ الكرامية فى مجلس ناصر الدولة أبى الحسن محمد بن ابراهيم إبن سيمجور صاحب جيش الدولة السامانية فى سنة ٣٠٧هـ فى مسألة أن الزانى عرض فى الجسم الذى يضاف إليه الزنى، وألزمه - البغدادى - أن يكون المحدود فى الزنى غير الزانى. كما عارضه فى بعض المسائل الأخرى، ورد عليه وأفحمه وألزمه بوجهة النظر الإسلامية الصحيحة.[٢] ويؤكد بوزورث BOSWORTH أن احتدام النقاش والمناظرات الكلامية لفرق الكرامية أصبح منظما في القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى، حيث وجدت للكرامية أماكن أشبه بالخانقاه أو المدرسة يلتقون فيها ويناظرون، ويعلمون أتباعهم، مما زاد من خطورة هذه الفرقة.

ولم تكن الكرامية وحدها مسئولة عن ازدهار علم الكلام في خراسان، وإنما وجدت أيضا فرق شيعية كالزيدية والإسماعيلية وذلك بتأثير الولايات المجاورة لخراسان التي انتشرت فيها عقائد هذه الفرق مثل طبرستان وجرجان وغيرهما. وبدأ يظهر في نيسابور نفسها بعض دعاة الفرق الشيعية مثل الداعية أبو عبدالله الخادم، وأبو سعيد الشعرانى الذى قتل بها فى ولاية أبى بن بكر بن حجاج. [٣] ويذكر (البغدادى) أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين كان أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان، لأن الذين

---

(١) البغدادى ، نفسه ، ص ١٩٢.

(٢) البغدادى ، نفسه ، ص ١٩٧.

(٣) عن دعاة الإسماعيلية فى خراسان راجع : البغدادى، نفسه ، ص ٢٤٨ ومابعدها/ المقريزى، إتعاظ الحنفا، الطبعة الثانية، تحقيق د. الشيال، القاهرة، ١٩٩٦، ج ١، ص ٤٠ ، ٥٣، محمد السعيد جمال الدين، دولة الإسماعيلية فى إيران، ص ٦٨ ومابعدها.

ضلوا عن الدين الإسلامى بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم فى زمان الخليفة المأمون وإنتشارها فى زمان المعتصم ، إلى أيام البغدادى (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) أكثر من الذين يضلون بالدجال فى وقت ظهوره. [١]
ووصل الأمر أن بعض قادة خراسان أنفسهم انضموا إلى هذه الفرق الشيعية وساعدوا دعاتها لنشر عقائدهم في مدن خراسان، بل وصل الأمر إلى انتقال الفكر الشيعي من خراسان إلى بلاد ما وراء النهر وإلى شخص الأمير الساماني نفسه نصر بن أحمد (٣٠١-٣٣١هـ/٩١٩-٩٤٢م) وحاشيته، وعلى رأسهم الوزير محمد بن موسى البلخى، وذلك عن طريق الداعية الحسين بن على المروزى، فكان كلاهما خير معين ومساند لهذه الدعوة، [٢] مما اثار الغضب عليه من رعاياه السنيين وأدى إلى عزله في النهاية عن منصبه. وأشهر دعاة الشيعة فى بلاد ماوراء النهر هو محمد بن أحمد النسفى، وأبو يعقوب السجزى المعروف ببندانه، ورغم أن دعاة الشيعة ومتكلميها اعتمدوا في بداية دعوتهم على السرية، إلا أنهم بعد ذلك قوى أمرهم وراحوا يطرحون عقائدهم بتنظير وفطر، بل وألف فقهاء مذهبهم بعض الكتب التي تحمل أفكار مذهبهم العقائدية والدعوة له. ولعل أهم الكتب التي ظهرت للباطنية في النصف الأول من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادي بخراسان كتاب "البيان" من تأليف شخص يدعى غياث، عرض فيه اصول مذهبهم وشرائعه، وكتاب "المحصول" لمحمد بن أحمد النسفي، وكتابي "أساس الدعوة وتأويل

---

(١) البغدادى ، الفرق بين الفرق، ص ٢٤٧.
(٢) محمد السعيد جمال الدين عن الكرديزى، دولة الاسماعيلية فى إيران ، ص ٧٠-٧٢.

الشرائع" و"كشف السرار" من تأليف أبي يعقوب السجزى المعروف ببندانه[١].

ونبغ في مقابل هؤلاء من فقهاء السنة الخراسانيين أيضا من تولوا الرد على الفرق السابقة من مخالفي السنة، نذكر منهم الدرامي (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) وهو الذي تصدى للكرامية في هراة، وطرد محمد بن كرام منها، ومن مؤلفات الدرامي أيضا كتاب "الرد على الجهمية" التي تقول بالجبر، ووجد أيضا غير الدرامي العديد من فقهاء خراسان ومتكلميها الذين اشتهروا بتصديهم لأصحاب الفرق الأخرى من غير السنة مثل السراج النيسابوري (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) وأبو سهل الصعلوكي (ت ٣٦٩هـ/٧٩٧م) والفاشاني (ت ٩٨١/٣٧١) وغيرهم[٢]، وقد اتسمت مؤلفات علماء الكلام من أهل السنة في مناقشتها لعقائد الفرق المناوئة بالجدية التي وصلت إلى درجة العنف أحيانا في حكمها على بقية المناوئة، حيث أخرجتها عن دائرة الإسلام كلية، ونسبت هذه المؤلفات السنية الفرق المناوئة من شيعة وكرامية وغيرها إلى الإلحاد أو الثنوية إلى غير ذلك من العقائد التي لا يقرها الإسلام[٣].

وازدهر أيضا في هذه الفترة (علم التصوف) الذي يعني اصطلاحيا كما يقول السيوطي في مؤلفه القيم (مقاليد العلوم) العلم بالأحوال الموروثة من تصحيح الأعمال ظاهرا وباطنا. وهو ما اقتضى العكوف على العبادة والزهد في متاع الدنيا وليس الانقطاع عنها، ونحن عندما

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٤٨، وأنظر أيضا: محمد السعيد جمال الدين، نفس المرجع، ص ٧٢ ومابعدها والمصادر المذكورة هناك.

(٢) السبكي، نفس المصدر، ج٣، ص ١٠٨، ١٦٧.

(٣) البغدادي، نفس المصدر، ص ٢٤٧، ٢٧٠.

نتكلم عن التصوف أو مذهب الصوفية (Sufism)، ندخل فى ناحية من أروع نواحى الفكر الاسلامى، والحضارة الإسلامية. ولقد قدمت نظريات متعددة حول أصول هذه الحركة فى الاسلام: فقيل أن أصلها من الرهبانية السريانية، أو من الأفلاطونية المحدثة أو الزردشتية الفارسية أو الفيدانتا (Vedanta)الهندية. لكن أمكن إثبات أنه لايمكن التمسك بالافتراضات التى تذهب إلى اقتباس المسلمين التصوف من أصول أجنبية، وثبت أن أصل التصوف إسلامى صرف، وبدايته ظهرت، مع ظهور الاسلام نفسه كما هو واضح من بعض آيات القرآن الكريم. فالحق سبحانه وتعالى يقول " أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هاو، فأنهار به فى نار جهنم، والله لايهدى القوم الظالمين"، وغير ذلك من الأحاديث النبوية الشريفة. (١) ولعل ازدهار التصوف في خراسان إبان فترة حكم الصفاريين والسامانيين، يرجع إلى محاولة الهروب من النزعة المادية التي سيطرت على المجتمع الخراساني في تلك الفترة عموماً وما ارتبط بها من تناحر وقلاقل سياسية واجتماعية، ووصل الصراع إلى حد كبير حتى بين الفرق العقائدية والمذهبية، فيؤثر عن أقوال بعض متصوفة خراسان قوله :"ابتلينا بزمان ليس فيها آداب الإسلام ولا أخلاق الجاهلية، ولا أحلام ذوي المروءة"(٢).

لذلك فرض متصوفة خراسان على أنفسهم مسئولية أخلاقية مؤداها إظهار الحقائق ومعالجة الأخطاء الاجتماعية، بعدم التكالب على المصالح الدنيوية وتنزيه النفس عن الدنايا، ومن ثم لم يكن موقف متصوفة

---

(١) القرآن الكريم، سورة التوبة ، آية ١٠٩ ، شاخت و بوزورث، تراث الإسلام، ح ٢، ص ٨٧ ومابعدها.

(٢) السلمى، طبقات الصوفية، ص ٣٠٣.

خراسان في هذه الفترة هو التقوقع أو اعتزال المجتمع، وإنما اتخذوا موقف القدوة الحسنة، فمن أقوال بعضهم في هذا الشأن :"الفتوة تؤخذ استعمالاً ومعاملة لا نطقا"، كما أنهم اعتبروا أنفسهم حملة رسالة سامية هدفها إظهار ظواهر الشريعة الإسلامية وبواطن حقائقها إما بقول أو بفعل بما وهبهم الله من فراسات صادقة، وقد وضع الصوفية لأنفسهم درجات يتدرجون بها في مراحل الوصول إلى الإيمان أو إلى الله حسب اصطلاحهم، أدناها الإجابة وأعلاها التوكل على الله. [١]

ومع أن متصوفة خراسان لم ينعزلوا عن مجتمعهم إلا أنهم فضّلوا الخلوة في وقت العبادة، فمن أقوال بعضهم :"العبادة حرفة حوانيتها الخلوة ورأس مالها الاجتهاد بالسنة وربحها الجنة". وقد اشتهر عديد من أسماء المتصوفة في خراسان نذكر منهم أبو زيد البسطامي (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م) وابو حفص النيسابوري (ت ٢٧٠هـ/٨٨٣م) وأبو عثمان الحيري النيسابوري (ت ٢٩٨هـ/٩١٠ م)، وابو عثمان الوراق النيسابوري (ت حدود ٣٢٠هـ/٩٣٢م)، والزجاجي (ت ٣٤٨هـ/٩٥٩م)، والفراء (ت ٣٧٠هـ/٩٨٠م)، وأبو الحسن العامري (ت ٣٨١هـ/٩٩١م) وغيرهم من علماء التصوف[٢].

الحركة الأدبية:

أما عن الأدب فقد شهدت فترة حكم الصفاريين والسامانيين نهضة أدبية مميزة، نستطيع وصفها بالثنائية أو الازدواجية الأدبية ونقصد بذلك ازدهار الأدب العربي بالإضافة للأدب الفارسي، ولا يعني هذا اختفاء الأثر

---

(١) السلمى، طبقات الصوفية، ص ١٤٩.
(٢) نفس المصدر، ص ١٠٩، ١٤٩، ٢٩٩، ٢٣١.، فتحي أبوسيف، خراسان، ٢٥٠ – ٢٥٥.

الفارسي في الأدب العربي شكلا وموضوعا قبل هذه الفترة كما يذكر (بروكلمان) في تاريخ الأدب العربي [١] . وهو ما أطلق عليه البعض "أدب اللقاء" في العصر العباسي الأول، ولكننا لا نوافق في الوقت نفسه آراء بعض الدارسين الإيرانيين المعاصرين، الذين يحاولون إسناد ما حدث من تطور في الأدب العربي إلى أدباء الفرس الذين اتقنوا العربية، فقد كان لعلماء العرب دورهم في هذا التطور، وخاصة أن الكثيرين منهم انتسبوا إلى مدن فارسية، وهم ليسوا فرسا، ولكن نظرا لاستيطان هؤلاء العلماء في مدن فارسية، فانتسبوا إلى مدنهم التي ولدوا بها. وحسبنا في هذا أن نذكر على سبيل المثال أبو الفرج الأصفهاني (٢٨٤-٣٥٦هـ/ ٨٩٧- ٩٦٦م) صاحب كتاب الأغاني الشهير، فهو عربي الأصل، وبديع الزمان الهمداني (ت ٣٩٨هـ/١٠٠٧م) صاحب المقامات المعروفة فهو كما يقول عن نفسه مضرى المحتد، وغيرهما من العرب الذين تصور البعض بحكم انتسابهم إلى مدن فارسية أنهم من أصل فارسي[٢].

وسار بعض الدارسين العرب المعاصرين على نفس الوتيرة، فقرر الدكتور حسن إبراهيم حسن أن العرب في العصر العباسي شغلوا أنفسهم بالرياسة دون العلم انفة في انتحال العلم[٣]. ويبدو لنا أن هذا الرأي لا يستند أيضا إلى الواقع التاريخي في العصر العباسي، فإن صدقت حرفية العلم وامتهانها من جانب العرب في فترة حكم الأمويين، فلا تصدق على فترة حكم العباسيين، الذين كان أغلب خلفائهم شغوفين بالعلم وأهله، بل اعتبر بعض خلفاء العباسيين من العلماء لشغفه بالعلم والأدب، وحسبنا

---

(١) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٢، ص ٨.
(٢) ناجي معروف، علماء ينسبون إلى مدن أعجمية وهم من أرومة عربية، حوليات كلية الآداب جامعة بغداد، ١٩٦٥، ص ٥-٩.
(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٢، ص ٢٧٩.

في هذا الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م)، الذى لقب لعلمه واهتمامه بالعلم والعلماء بالخليفة العالم. أما مسألة الرياسة وانشغال العرب بها، فهى مسألة في حاجة إلى تصحيح أيضاً، حيث أن العرب لم ينفردوا كعنصر في العصر العباسي بهذه الرياسة، وإنما بقيت لهم فقط الخلافة، أما بقية أجهزة الدولة السياسية والإدارية، فقد شاركت بقية العناصر فيها من فرس وترك وغيرهما. ومن ثم فنعني بازدواجية الأدب في خراسان ظهور الأدب الفارسي ككيان بلغة فارسية جديدة كوسيلة للتعبير عن هذا الأدب، بالإضافة إلى الأدب العربي الذى ازداد في هذه الفترة[1].

وكانت اللغة العربية هي لغة الأدب شعراً ونثراً بعد أن أصبحت اللغة الرسمية والشعبية في بلاد الفرس، وتقوقعت أمامها اللهجة البهلوية، وانحصر استخدامها في مناطق محددة، حيث فر اصحاب الدين الزردشتي، وظلوا يستخدمونها فيما بينهم على نطاق ضيق كما يذكر (عبد العزيز بن عبد الله) فى مقاله القيم عن " العربية لغة العلم والحضارة " ، وليس لدينا أدلة على تشجيع أو إحياء لغة فارسية جديدة من جانب أي من ولاة أو أمراء الولايات الفارسية بصورة رسمية، بل على العكس تشير المصادر إلى رفض أمراء الطاهريين استخدام أية لهجة فارسية قديمة بدلاً من العربية لغة القرآن والدين الإسلامي، فهم لم ينظروا إلى الأدب الفارسى نظرة حسنة، وكانوا يرون العناية به مخالفة للدين الإسلامى. وينسب إلى عبد الله بن طاهر أمير خراسان (٢١٣-٢٣٠هـ/٨٢٨-٨٤٤م) إقدامه على حرق إحدى المنظومات البهلوية التي تدعي (وامق وعزرا) حتى لا يتهم بميوله الفارسية المتعصبة. ووصل الأمر أن بعض أمراء

---

(١) فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٥٦-٢٥٧.

الطاهريين أنفسهم نظموا الشعر بالعربية[١]. ولذلك فلا نستطيع أن نبني على بعض الاستخدامات القليلة للهجة البهلوية أساسا للحكم على وجود لغة فارسية مناهضة للغة العربية قبل حكم الصفاريين[٢].

وتفيد بعض الإشارات التاريخية إلى حدوث بعض التطور اللغوي في فترة حكم الصفاريين، حيث تحققت الازدواجية اللغوية، وبدأت اللغة الفارسية تأخذ دورها بشكل رسمي وأدبي معا، بجانب اللغة العربية. فالعلامة (بارتولد) يذكر أن إزدياد نشاط المانوية لا فى خراسان التابعة لهم مباشرة فحسب، بل فى البلاد الأخرى أيضا، أدى إلى ازدهار الحضارة عامة وإزدهار الحضارة الإيرانية خاصة. وفى أيامهم نقلت عاصمة خراسان من مرو إلى نيسابور التى صارت فى مدة وجيزة أحد مراكز الحضارة، وصارت مدينة بيهق ـ سبزوار الحالية ـ أهم مراكز الدعاية الشيعية. [٣] وكانت هذه اللغة الفارسية الناهضة تحمل في داخلها التراث اللغوي الإيراني بعد امتزاجه بالأدب العربي وتأثره به، حيث بدأت تظهر لهجة أدبية استعملت كوعاء للشعر والنثر، وهي التي عرفت بالدرية أو الفارسية الحديثة، فأخذت هذه اللغة الجديدة جذورها من الفارسية الوسيطة، فكانت تطورا طبيعيا لها، ونتيجة للتفاعل بين اللهجتين الرسميتين في العهد الاشكاني والعهد البهلوي، بل وبعض اللهجات المحلية الأخرى. [٤]

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ١١٧، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج ٢١، ص ٣٣-٣٤.

(٢) فتحي أبو سيف، نفسه، ص ٢٥٧.

(٣) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠٢-١٠٣.

(٤) إسعاد قنديل، فنون الشعر الفارسي، ص ١١.

ويبدو لنا أن هذا التطور اللغوي الذى حدث على عهد الصفاريين لم يتم مفاجأة، وإنما كانت له خطواته التي سار فيها، فقد كان تقدم العناصر الفارسية وسيطرتها على مقاليد الأمور السياسية والعسكرية في العصر العباسي الأول من الظواهر التي دفعت ببعض القيادات الفارسية أو ببعض المتعصبين من الفرق أن يكيدوا للعرب ولغتهم بوجود لغة قومية مناهضة للغة العربية. ومن هنا جاء الربط عند كثير من الدارسين (مثل بارتولد) بين ظهور الدول المستقلة ونهضة اللغة الفارسية الحديثة[١]. ولا مانع أن يكون هذا التطور اللغوي تطوراً طبيعياً يتفق مع دورات التاريخ وتغيراته التي تشمل الإنسان في شتى مجالات حياته المادية والثقافية، ولكننا لا نستطيع تجاهل أثر الشعوبية الفارسية في خلق هذا التطور والتعجيل به.

لذلك أصبحت اللغة الفارسية لغة شبه رسمية مع بداية حكم الصفاريين حتى أن يعقوب بن الليث فضل التحدث بها بين حاشيته، واستهجن أن يمدح بغيرها شعراً ونثراً[٢]. وتطورت اللغة الفارسية على عهد السامانيين وأصبحت في معظم فترات حكمهم لغة رسمية، مما أدى إلى انتشارها داخل المجتمع الخراساني، وخاصة بين طبقة المثقفين والعاملين في دواوين الدولة، فصارت اللغة الفارسية لغة الثقافة، تقف مع العربية على حد سواء. ولا يعني ذلك بطبيعة الحال ضعف اللغة العربية، فقط ظلت هذه اللغة حتى نهاية حكم السامانيين لغة العلم والثقافة في خراسان، تدون بها المؤلفات والموسوعات العلمية. وتشير الدراسات المقارنة للغتين العربية والفارسية أنه حتى بعد انحسار المد الحضاري

---

(١) بارتولد، تاريخ الحضارة الاسلامية، ص ١٠٣، بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، ج٢، ص ٧.

(٢) مجهول ، تاريخ سيستان، ص ٢٠٩.

للغة العربية عن بلاد الفرس، فإن الآداب الفارسية ظلت تستمد وجودها وكيانها من الآداب العربية. وبهذا تحققت الازدواجية اللغوية، وتمتعت خراسان ثقافياً وعلمياً بوجود اللسانين العربي والفارسي، وقد انتقلت هذه الصورة إلى الشعر وفنونه، فوجدنا الشعر العربي والفارسي جنباً إلى جنب، العربي بتفوقه وازدهاره، والفارسي يبدأ مراحل تطوره على طريق الازدهار.

ويبدو أن شعراء العربية في خراسان لم تتح لهم الفرصة الكاملة في الانطلاق إبان حكم الصفاريين، وذلك لعوامل سياسية واجتماعية أهمها الاضطرابات السياسية وانقسام القوى الخراسانية على نفسها، وكثرة الحروب الداخلية، فأدى ذلك بالتالي إلى عدم الاستقرار الاجتماعي الذي يرتبط عادة بانزواء الشعراء وخمولهم، أما العامل الثاني فيرتبط بسياسة الدولة الصفارية نفسها تجاه الأدب العربي، وهي سياسة تشير إلى عدم الحماس للشعر العربي وتحيز لشعراء الفارسية، ومع ذلك فلدينا بعض الإشارات على وجود بعض شعراء العربية الذين مدحوا أمراء الصفاريين، فتشير المصادر إلى بعض الأبيات اشعرية التي مدح بها الشعراء يعقوب بن الليث عند فتحه مدينة هراه الخراسانية، ورغم أن يعقوب لم يأبه بما قيل في مدحه، وفضل أن يكون مديحه بالفارسية، إلا أن ذلك يؤكد وجود شعراء العربية في فترة حكم الصفاريين(١).

ولكن الموقف تغير تماما على عهد السامانيين الذين ربطتهم بالخلافة العباسية علاقة وطيدة ، وأرادوا أن يجعلوا من الولايات الخاضعة لسلطانهم خاصة بخاري وخراسان مراكز حضارية على مستوى

---

(١) مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢٠٩، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٦٠.

العالم الإسلامي، فاحتضنوا شعراء العربية والفارسية معا، ولقد شجع السامانيون الحركة الأدبية،، كما شجعها وزيران لهذه الدولة فكانا صورة مصغرة لابن العميد وابن عباد وهما: الوزير البلعمي، والجيهاني. ولما كان السامانيون حماة لأهل السنة، فقد صنف فى أيامهم كتاب فى العقائد باللغة العربية لوقاية الشعب من الرافضة، ثم ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية. وفى زمنهم أيضا ترجم تفسير الطبرى إلى الفارسية، كما ألف تفسير آخر بالفارسية. وأفتى الناس بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية. وقد إدعى علماء الدين بأن الأنبياء المتقدمين كانوا يتكلمون الفارسية حتى زمن إسماعيل عليه السلام جد العرب. (١) لذلك ازدهر الشعر العربي بشتى أشكاله في المديح والهجاء والزهد وغيرها. وحفلت خراسان بعديد من الشعراء الذين قرضوا الشعر بالعربية نذكر منهم: أبوأحمد بن أبي بكر الذي تقلد بعض المناصب الإدارية في خراسان كنائب للسامانيين، وقد استخدم هذا الشاعر شعره في تشخيص النظم الإدارية السامانية في خراسان وعيوبها، فقد إحتفظ الثعالبى بأشعاره فى نقد عمال الخراج بنيسابور. كما عرف الهجاء وله في هجاء الوزير أبي عبد الله الجيهاني وزير السامانيين في عهد نصر بن أحمد (٣٠١-٣٣١هـ/ ٩١٣-٩٤٢م) بعض أبيات من الشعر منها:

يا إبن جيهان لا وحقك لاتصلح	فاغضب أو فارضين بالحراسة
ولو أن التدبير والحكم فى الخلق	على العدل ما وليت كناسة

وكان هذا الشاعر يقرض الشعر بأوزانه المختلفة البسيط والخفيف والكامل. (٢)

---

(١) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠٣.
(٢) الثعالبى، يتيمة الدهر، ج ٤ ، ص ٦٧، بارتولد، نفسه ، ص ١٠٣.

ومن شعراء خراسان أيضا الذين قرضوا الشعر العربي أبي الطيب الطاهري الذى لقي العطف من أمراء السامانيين، ولكنه لم ينس ما كان لأسرته الطاهرية من حكم في خراسان، لذلك فاضت أشعاره بتمجيد نيسابور عاصمة خراسان، واشتهر أيضا الحسين بن علي المروزدي وهو من قادة جيوش خراسان وله احتكاكاته السياسية مع أمراء ووزراء السامانيين التى انطبعت على أشعاره العربية. وقد أحاط شعراء العربية بقادة جيوش خراسان وحكام مدنها، كما أحاطوا بأمراء السامانيين في مركز الدولة ببخاري ولدينا بعض أسماء لشعراء من المدن الخراسانية، ومنهم أبو الحسن المزني شاعر نيسابور، وأبو أحمد الساوي الهروي شاعر هراة، وأبو الحسن بن المؤمل الذي كان شاعرا وكاتبا لفائق الخاصة أحد قادة خراسان في الفترة الأخيرة من حكم السامانيين، ومحمد بن موسى شاعر بلخ، وأبو الفضل السكري والمروزي شاعر مرو، وأبوأحمد اليماني البوشجنى شاعر بوشنج، وغيرهم من شعراء العربية[١]، مما يدل على ازدهار الشعر العربي في خراسان على عصر السامانيين.

إحياء الشعر الفارسي:

وشهدت هذه الفترة من حكم الصفاريين والسامانيين نهضة الشعر الفارسي، فقبل ذلك ظهرت إشارات عن بداية قرض الشعر الفارسي حتى أنه يسند لأهل خراسان بعض الأشعار الفارسية التي قالوها في هجاء أسد بن عبد الله القسري والى خراسان في العصر الأموي بعد هزيمته من أمير ختلان وخاقان الترك. كما توجد إشارات أخرى عن قرض الشعر

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، القسم الخاص بشعراء خراسان وما وراء النهر، ص ٦٤ وما بعدها.

بالفارسية في خراسان عندما كان المأمون مستقرا بها كولي للعهد، ثم ولايته للخلافة واتخاذه خراسان مركزا له فترة من الوقت (١٩٨-٢٠٢هـ/٨١٣-٨١٧م)، فيروي (عوفي) أن أحد شعراء خراسان وهو عباس المروزي أنشد قصيدة مدح في المأمون بالفارسية، ولقى هذا الشاعر العطف من المأمون. ويسند البعض الآخر لحنظلة الباذ عيسى (ت ٢١٩أو ٢٢٠هـ / ٨٣٤هـ أو ٨٣٥م) الفضل في بداية قرض الشعر بالفارسية، ولدينا من اشعاره أو مما نسب إليه من أشعار أشكال مختلفة في الغزل وفى الحماسة وغيرها. ويؤخذ من بعض الروايات أنه كان لحنظلة ديوان شعر حفظ فيه شعره الفارسي، ولكن لم تصلنا إلا بعض الأبيات من هذا الديوان. وناقش كثير من الباحثين مدى صحة انتساب هذه الأبيات إلى حنظلة، حيث أجروا عليها النقد، وشكك البعض في انتسابها إليه لما وجدوه في هذه الأشعار من نضج لا يتفق مع البداية الشعرية التي بدأ بها الشعر الفارسي. لذلك تعتبر فترة حكم الصفاريين والسامانيين هي الفترة التي اتفق عليها كبداية حقيقية لقرض الشعر بالفارسية. [١]

واسند لشعراء هذه الفترة فضل السبق في قرض الشعر الفارسي، وأولهم محمد بن وصيف السجزي الذي كان كاتبا وشاعرا ليعقوب بن الليث واخيه عمرو، حيث استجاب هذا الشاعر إلى رغبة يعقوب في خلق أدب فارسي يتناسب مع وضع الدولة الصفارية الجديدة بحكم فارسيتها[٢]. فبدأت تظهر لهذا الشاعر بعض قصائد المدح التي بدأ بها الشعر الفارسي، مما يدل على أن البداية أخذت الطابع الرسمي، وهو ما يعرف بشعر القصور أو البلاط. ولدينا من هذه القصائد التي قيلت في مدح يعقوب،

---

(١) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٠١.
(٢) مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢٠٩، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٦٢

تلك القصيدة التي أنشدها محمد بن وصيف بمناسبة انتصار يعقوب على الطاهريين في هراة المدينة الخراسانية وانتصاراته الأخرى. ومطلع هذه القصيدة (الترجمة العربية):

أيها الأمير الذي أمراء العالم الخاص منهم والعام..

عبيده وخدمه وكلابه وغلمانه

في اللوح المحفوظ حظ اولى يقول اعطو الملك

لأبي يوسف يعقوب بن الليث المهام (١)

ثم ازداد قريض الشعر بالفارسية على عهد السامانيين اذين شجعوا الكتابة والنظم بالفارسية رغبة منهم في إحياء لغتهم القومية والنهوض بآدابها، فقد كانوا كما ذكرنا من أصل فارسي لذلك راجت هذه اللغة في عهدهم، فقد شملوا برعايتهم وحملوا في قصورهم كتاب العربية إلى جانب كتاب الفارسية. ولذلك يرى (بارتولد) وغيره من علماء أوروبا أن النهضة القومية الفارسية ما هي إلا إحدى نتائج ظهور دول في فارس غير مرتبطة ببغداد، ويرى ايضا أن الدول الفارسية قد عاونت على ترقية القومية الفارسية(٢).

فازداد عدد الشعراء الذين قرضوا الشعر بالفارسية حتى أن عوفي الكاتب الفارسي ذكر ما يقرب من ثلاثين شاعرا فارسيا على عهد السامانيين مما يدل على ازدهار الشعر الفارسي في هذه الفترة، وتعددت

---

(١) إسعاد قنديل، فنون الشعر الفارسي، ص ٣١.

(٢) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٩٧.

مجالات الشعر الفارسي في ظل السامانيين، وظهرت أنماط مختلفة، فمنها ما قيل في المديح أو الهجاء، ومنها ما قيل في الغزل بنوعيه البشري والصوفى. كذلك بدأت تظهر على عصر السامانيين الملاحم الشعرية التى ستزدهر في الفترة الأخيرة من حكمهم ازدهارا كبيرا.

وساعد على هذا الازدهار الأدبي في مجال الشعر الفارسي، أن أمراء السامانيين أحاطوا الشعراء برعايتهم فأجروا عليهم الرواتب والهبات، وانتقلت هذه العناية بالشعراء من الأمراء إلى قادة الجيوش وحكام المدن والوزراء[١]. ويؤكد عوفي ما وصل إليه الشعراء من رفاهية عند ترجمته للشاعر الرودكي في عهد الأمير نصر بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١هـ/٩١٣-٩٤٢م) بأن ثروات الرودكي زادت من كثرة الهبات حتى أنه كان في حوزته مائتا غلام. وكان البلاط السامانى في بخارى زاخرا بالعلماء والأدباء الذين يفدون على الدولة، وأصبحت بخارى عاصمتهم مركزا من مراكز الثقافة تشع منه المعرفة، ويزخر بالأدباء ورجال الفكر والفن.

وعلى الرغم من أن أغلب الشعراء في فترة حكم السامانيين فضلوا الانتقال إلى بخارى عاصمة الدولة السامانية، وأحاطوا ببلاط الأمراء هناك، إلا أن الانفتاح الثقافي الذي تميزت به فترة حكم السامانيين، يؤكد انطلاق الشعر الفارسي في خراسان. وأغلب الظن أن كثيرا من شعراء بخاري بدأوا حياتهم الأدبية في خراسان، ثم شدهم بعد ذلك بريق بخارى فانتقلوا إليها كعاصمة الدولة الحاكمة. فتشير أسماء بعض الشعراء إلى نسبهم الخراساني كالدقيقي الطوسي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) من طوس،

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٤، ص ١٤٨.

والكسائي المروزي، (ت ٣٩٤هـ/١٠٠٣م) من مرو وغيرهما من الشعراء.

وتميزت هذه الفترة أيضا بظهور الملاحم الشعرية، وهي ظاهرة أدبية تظهر بظهور الروح الوطنية والحماس الديني. ولما كانت الدولة السامانية من الدول المتحمسة لفارسيتها ونسبها الإيراني القديم، فبدأت تظهر بعض الأعمال التي أطلق عليها الشاهنامه ـ سير الملوك ـ التي اعتمدت فى نظمها على الفن المعروف بالمثنوي، الذى يتناسب مع شعر الملاحم الطويلة حيث لا يتقيد الشاعر بوزن وقافية موحدة في الملحمة كلها. ونعرف من هذه الملاحم شاهنامة أبي على البلخي، وشاهنامة أبي منصور نسبة إلى أبي منصور محمد بن عبد الرازق الطوسي قائد جيش خراسان في عهد عبد الملك بن نوح السامانى (٣٤٣-٣٥٠هـ/٩٥٤-٩٦١ م)، وكلها أعمال ملحمية في النصف الأول من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادي، وموضوعها تاريخ الفرس القديم وأمجادهم وبطولاتهم، وقام الشاعر الدقيقي الطوسي بأمر من نوح بن منصور الساماني (٣٦٥-٣٨٧هـ/٩٧٦-٩٩٧م) بنظم شاهنامة جديدة بدأها بنظم قصة كشتاسب الإيراني وحربه مع أرجاسب الطوراني لحماية الدين الزردشتي، ولكن الدقيقي قتل قبل إتمام هذه الملحمة، وتجدر الإشارة إلى أن الشاعر الدقيقى قد صرح بعلاقته بالعقيدة الزردشتية قائلا إنه يفضل الخمر وشفتى حبيبه ودين زردشت على كل شئ آخر. [١] حيث استفاد منها بعد ذلك الفردوسي (ت ٤١١ أو ٤١٦هـ ، ١٠٢٠أو ١٠٢٥م) في الشاهنامة التي نظمها، والتي وقفت بشعر الملاحم الفارسية في صف

---

(١) بارتولد عن مقدمة الشاهنامة ، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠٤.

واحد مع ملاحم اليونان والرومان بل ربما تفوقت عليها. وقد بلغ عدد أبياتها ما يزيد على خمسين ألف بيت، وتناولت تاريخ الإيرانيين من أقدم عصورهم حتى سقوط الدولة السامانية، ويصفها (بارتولد) بأنها بقيت كنزا قوميا للشعب الإيراني كله. ولهذا الكتاب مكانة ممتازة في آداب العالم، إذ أن الأقوام الأخرى عاشوا عصورهم السياسية بعد أن فقدت أساطيرهم بهجتها بتأثير الكتاب [١] وهنا يجب الإشارة أن الفردوسي يعتبر من شعراء خراسان في العصر الساماني، فمولده ونشأته بإحدى قرى طوس – إحدى مدن خراسان - ، ولقي العطف من حسين بن قتيبة حاكم طوس، وقد أنهى الفردوسي الشاهنامه عام ٣٨٩هـ/٩٩٨م بعد أن قضى في تأليفها خمسة وعشرين عاما[٢].

وعرف في فترة حكم السامانيين شعر الغزل الذي يعتبر (الرودكي) رائدا له، فقد كان هذا الشاعر نديما لمجلس الأمير نصر بن أحمد، وينسب إليه أيضا أنه اول من ابتدع الارتجال الغنائي الفارسي، (وإن كان شعره لا يخلو من كلمات عربية) فغنى كثيرا على أنغام العود أمام الأمير نصر وصحبه الأمير معه عندما استقر في مدينة هراة الخراسانية. ويسند إلى أشعار الرودكي وغزله في بخارى شعرا وغناءا تحريك مشاعر الأمير نصر وحنينه إلى بخارى وترك مدينة هراة الخراسانية. ويذكر (بروكلمان) أن أوزان (الرودكي) التي إصطنعها كأوزان جميع شعراء الفرس من بعده، كانت مفرغة في القوالب العربية. وقد ولد (الرودكي) في قرية صغيرة بالقرب من سمرقند. ولم يكن جميل المنظر فحسب، بل

---

(١) بارتولد، نفسه ، ص ١٠٧.

(٢) إسعاد قنديل، فنون الشعر الفارسي، ص ٤٨، أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ١٥٣.

كان عذب الصوت بارعا في الموسيقى ، حتى حظي بمكانة مرموقة عند الأمير السعيد نصر بن أحمد الساماني. وقد دعا الرودكي في شعره إلى فلسفة في الحياة بعيدة عن الهم ناضحة بالسعادة، مستوحاة من حب النساء والغناء والخمر، على الرغم من شرائع الإسلام التي تحرم مثل هذه الأمور، فقد كان شعراء إيران فى عصر السامانيين يذيعون آراء لاتتفق مع الإسلام. ولم تقتصر أراء الرودكى على ماسبق، وإنما كان من رأيه أنه "لامعنى لتحويل الوجه إلى القبلة والقلب منجذب إلى القدسية المجوسية، ويجب الإيمان بحب الإله العام لجميع الأديان، فإن إلهك يقبل حبك ولكن لايقبل صلاتك". [١] وكان إلى جانب هذا كله مؤسس الملحمة التعليمية، وهي أخصب فروع الأدب الفارسي على الإطلاق كما يذكر (بروكلمان)، فقد حاكى في الشعر الفارسي كتاب (كليلة ودمنة) الهندي القديم الذي سبق للإمبراطور الساساني كسرى أنوشروان أن أمر (برذويه) طبيبه الخاص بترجمته إلى البهلوية ثم نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية في صدر الدولة العباسية[٢].

ولقد افتخر (البلعمي) وزير الأمير إسماعيل الساماني بمكانة الرودكي بين شعراء العرب والعجم فقال عنه:"إن الرودكي شاعر لا نظير له بين شعراء العرب والعجم". ولقد استحق الرودكي هذه المكانة بالفعل، حيث أن شهرته بذت شعراء الفرس القدامى، حتى لقب بأنه أبو الشعر الفارسي ورائده في العصر الحديث، ومن دواعى الأسف والحزن أن آثاره الشعرية فقدت وكانت تملأ مائة كراسة، ولم يعثر منها إلا علىالقليل .

---

(١) بارتولد، نفسه ، ص ١٠٤.
(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج٢، ص ١١٥.

ولقد ترتب على صحبة الرودكي للأمير نصر بن أحمد الساماني ورعاية الأخير له، أن قربه من مجلسه الخاص، فعلا شأنه ونمت ثروته، واسبغ عليه النعمة حتى قيل أنه كان يمتلك مائتا غلام. غير أن الرودكي قد أصابته محن الأيام والدهور، ولم ينعم بعطف الأمير الساماني طويلا، فقد أفل نجمه في أواخر حياته، عندما غضب عليه سيده الأمير لأسباب دينية لعلها بسبب إيمانه بأفكار ترتبط بالمجوسية، وإنكاره للأفكار والمبادئ الإسلامية، فتبدلت سعادته شقاء ونعيمه بؤسا، وقد صور نكبته هذه خير تصوير في أبيات شعرية منها (مترجمة):

وألماه : واحسرتان : على أن قطع دور الزمان

على الطريق دون أن يكون معي آلة ولا سلاح

كلما بدا لي مجد بدت لي بعده محنة

ولا غرو فلم تكن الأيام لتمر دون أن تصنع العجائب

وقد استمرت هذه المحنة حتى وافاه الأجل في عام ٣٢٩هـ(١).

وشارك شعراء خراسان في شعر الغزل البشري والصوفي وأهم هؤلاء الشعراء الشهيد البلخي (ت ٣٢٥هـ/٩٣٦م)، والدقيقي الطوسي (ت ٣٦٨هـ/٩٧٨م)، وكان الشعراء يقرضون هذه الأشعار أما في مقطعات أو رباعيات . كل هذه إشارات تؤكد ازدهار الشعر الفارسي إبان حكم الصفاريين والسامانيين(٢). وإن كان عهد السامانيين بحق أول العهود التي ارتفعت فيها الآداب الفارسية، وظهر في أيام حكمهم كثير من

---

(١) حامد عبد القادر، قصة الأدب الفارسي، ج١، ص ١٣٠-١٣٤، محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ١٩٨-٢٠٠.

(٢) إسعاد قنديل، فنون الشعر الفارسي، ص ٥٥.

الشعراء وقد أورد (عوفى) في كتابه عددا من الشعراء الذين عاشوا في هذا العصر وبلغ عددهم ٢٧ شاعرا، ومنهم أبو شكور البلخي، وأبو بكر محمد بن علي الخنسروي، والجرجاني وغيرهم كما سبق أن ذكرنا.

وشهدت هذه الفترة ازدهار (النثر العربي والفارسي) على السواء وساعد على تقدم الكتابة النثرية أن الخلفاء والأمراء أولوا اهتماما كبيرا بكتاب الرسائل الذين كانوا يصيغون للخلفاء رسائلهم الرسمية إلى عمالهم أو إلى وزرائهم أو حتى إلى أعدائهم ومنافسيهم، فصارت الكتابة فن يستدعي التأنق والبراعة لإظهار القدرة وإبراز العبقرية. وكان أشهر من كتب الرسائل النثرية هو عبد الحميد بن يحي كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين (١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٤-٧٤٩م) حيث صارت كتابته النثرية نموذجا احتذاه من بعده الكتاب. وأسند لعبد الحميد فضل السبق في كتابة الرسائل النثرية الطويلة المنمقة(١). وهذا النوع من الرسائل يعرف بالرسائل الديوانية، إلا أنه وجد أيضا بجانب هذه الرسائل الديوانية كتابات نثرية حرة أو بعيدة عن متطلبات الدولة ورسائلها، وقد استخدمها الكتاب في مؤلفاتهم التاريخية والأدبية، كما يذكر الدكتور شوقي ضيف.

وتعد كتابات ابن المقفع (ت ١٤٠هـ/٧٥٧م) الذى كان معاصرا لعبد الحميد الكاتب نموذجا للكتابات النثرية الحرة. وازدهرت من بعده الكتابات النثرية، واشتهر العديد من كتابها، نذكر منهم أحمد بن يوسف صاحب رسائل الخميس في عهد المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٨م)، وهى الرسائل التى كانت توجه إلى أهالي خراسان عند تولية الخليفة العباسي أمور الخلافة(٢). وعرف العديد من كتاب الرسائل مرورا

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٧٢.
(٢) الجهشاري، نفس المرجع، ص ٣٠٤.

بابن الزيات والصولي ووصلاً إلى الجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م) الذى غلبت على كتابته الإجادة والإطناب والطرافة مع استخدام الأسلوب النثري الرائع.

وكان الطاهريون أنفسهم الذين حكموا خراسان مع بداية القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادي قد اهتموا بفن كتابة الرسائل، فالرسالة التي أرسل بها طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله حاملة وصايا الأب إلى الابن، وواجبات الأمير والقائد نحو الخليفة، وغيرها من شئون الإدارة والسياسة، تعتبر من أعظم الرسائل النثرية التي تدل على تقدم فن النثر على عصر الطاهريين. والملاحظة العامة التي تميزت بها الرسائل النثرية في القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادي هي عدم التزام كتاب الرسائل بصفة دائمة في استخدام السجع. وكانت المعاني تصاغ بألفاظ سهلة وأسلوب عذب. (١)

ورغم الدلائل التي تشير إلى استهجان أمراء الصفاريين للأدب العربي وخاصة يعقوب بن الليث، إلا أن وجود كتاب الرسائل العربية في دواوين الدولة الصفارية، ووجود بعض الرسائل الديوانية المتبادلة بين أمراء الصفاريين والخلافة من ناحية وبينهم وبين أمراء السامانيين من ناحية أخرى، يؤكد استمرار الكتابات النثرية العربية على عهد الصفاريين، إذا أضفنا إلى هذا أن خراسان تعرضت في أغلب فترات حكم الصفاريين إلى الانقسامات السياسية، وكان على رأس كل قوة قائد أو

---

(١) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى، ح ٢، ص ١٠٧-١٠٨.

حاكم مدينة له اتصالاته الرسمية مع الخلافة أو مع القوى المنافسة له، جاز لنا أن نتصور استمرار الكتابات الرسمية التي استخدم فيها فن النثر.

ولكن مع بداية حكم السامانيين لخراسان قرب مطلع القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادي وهو القرن الذى ازدهرت فيه الكتابة النثرية في المشرق الإسلامى بصفة عامة، بحيث فضل الناس النثر على غيره من فنون الأدب وأصبحوا يتذوقون الكتابات النثرية عن الشعر، فمن الأقوال التي قيلت في هذا الشأن "النثر أصل الكلام والنظم فرعه والأصل أشرف من الفرع"[١]. وتنوعت في هذا القرن الكتابات النثرية منها ما هو ديواني برع فيه كتاب من أمثال ابن العميد (ت ٣٦٠هـ/٩٧٠م) والصابي (ت ٣٨٤هـ-٩٩٤م) والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م) وأبو حيان التوحيدي (ت حوالي ٤٠٠هـ/١٠٠٩م) وغيرهم، وقد ساعد هؤلاء بكتاباتهم على دفع فن النثر وتقدمه في هذه الفترة[٢].

ووجد أيضاً بالإضافة إلى الرسائل الديوانية رسائل عرفت بالإخوانية وهي التي لم تختص بالدواوين، وإنما كانت أدبية صرفة تتناول موضوعات اجتماعية وعقائدية، ويعد الخوارزمي (ت ٣٨٣هـ/٩٩٣م) من أهم كتاب الرسائل الإخوانية. وليس هناك مانعاً أن يكتب أصحاب الرسائل الديوانية رسائل إخوانية أو عامة، فقد فاقت بعض رسائل ابن العميد الإخوانية رسائله الديوانية وخاصة تلك الرسالة التى وصف فيها شهر الصوم[٣].

---

(١) مصطفى الشكعة، بديع الزمان الهمداني، القاهرة ١٩٧٥، ص ٧١.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ٢٠٦، الشكعة، نفس المرجع، ص ٧٣.

(٣) الشكعة، نفسه، ص ٧٤، ١٠٢.

وكان من الطبيعي أن تتأثر خراسان ثقافياً بهذا الازدهار في فن كتابة النثر بالمنطقة الشرقية من العالم الإسلامي، وخاصة أن هذا القرن – الرابع – شهد حركة التأليف الأدبي والعلمي في خراسان حيث كان العلماء والأدباء يفضلون صياغة مؤلفاتهم باستخدام الأسلوب النثري، بل كثيراً ما كانت تعقد المناظرات الفقهية بين فقهاء خراسان ويغلب عليها أيضاً استخدام النثر في النقاش والمناظرة. واشتهرت خراسان بعديد من كتابها في فترة حكم السامانيين، وإن كانت الملاحظة التي لاحظناها في الشعراء الخراسانيين نلاحظها أيضا في الكتاب وهي محاولة هؤلاء بعد الوصول إلى الشهرة والنبوغ في فن الكتابة النزوح إلى بخارى مركز الدولة السامانية، ونذكر من كتاب خراسان الذين عاشوا في كنف مدنها وحكامها محمد بن عيسى الدامغاني الذى كان كاتبا لأبي منصور محمد بن عبد الرازق قائد جيش خراسان في عهد عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣-٣٥٠هـ/٩٥٤-٩٦١م) وقد تولى الدامغاني ديوان الرسائل للسامانيين عدة مرات. ومن كتاب خراسان أيضا أبو جعفر الرامي، وينتسب إلى الرام إحدى رساتيق نيسابور، بعد أن ذاع صيته في فن الكتابة انتقل إلى بخاري، حيث تولى ديوان الرسائل للسامانيين[1].

وكانت مدينة نيسابور من المدن الكبيرة التي فتحت أبوابها جاذبة العديد من الكتاب المجيدين في فترة حكم السامانيين، وخاصة في الفترة التي أسندت فيها رياسة هذه المدينة لأسرة من الأسر التي عنيت بالثقافة عناية كبيرة وهي أسرة آل ميكال، وهي من الأسر الخراسانية الفارسية التي تنتسب إلى (ميكال بن عبد الواحد) من سلالة يزدجرد الملك الساساني. وكان أفراد هذه الأسرة أنفسهم من الكتاب البارعين، وقد

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر ، ج٤، ص ١٤٣، ١٥١.

اشتهر منهم في عهد السامانيين الأمير أبو العباس إسماعيل بن عبد الله الميكالي (ت ٣٩٢هـ/١٠٠١م). ونعمت نيسابور كعاصمة لخراسان في ظل آل ميكال بمقدم كثير من الكتاب الذين وصلت شهرتهم للآفاق من أمثال أبي بكر الخوارزمي (ت ٣٨٣هـ/٩٩٣م) وبديع الزمان الهمداني (ت ٣٨٩هـ/١٠٠٧م) وغيرهما ممن ذكرهم الثعالبي بأسمائهم ومؤلفاتهم حيث يتضح من خلال ما ذكره مدى ما وصل إليه فن النثر من ازدهار في هذه الفترة. [١]

وتميزت الكتابات النثرية في هذه الفترة باستخدام السجع والمحسنات اللفظية، كما ينسب إلى هذه الفترة ظهور المقامات التي يرجع الفضل إلى بديع الزمان الهمداني في ازدهارها، حيث كانت المقامة عرض في صورة قصة نثرية مسبوكة النسج والهيكل، يأتي فيها المدح أو الوعظ بطرافة وإنشاء جميل.

وأدى استخدام اللغة الفارسية كلغة رسمية في فترة حكم الصفاريين والسامانيين إلى تقدم النثر الفارسي، ووجود بعض الكتاب الذين أجادوا كتابة الرسائل بالفارسية، ورغم أن (دولتشاه) يؤكد أن اللغة الفارسية لم تستخدم رسميا في كتابة المناشير والرسائل الرسمية حتى نهاية الحكم الساماني، ألا أنه يبدو أن عدم استعمال الفارسية في لغة الكتابة الرسمية كان خاصاً بمكاتبات الدولة السامانية مع الخلافة فقط، أما فيما عدا ذلك من مكاتبات فقد كانت الفارسية تستخدم كلغة رسمية فى أيام أكثر حكامهم[٢]. وتشير الدلائل على استخدام هذه اللغة في الكتابة الرسمية

---

(١) الثعالبى ، يتيمة الدهر ، ج٤، ص ٦٤ إلى ٩٩.

(٢) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠٣.

حتى في العهد الصفاري، حيث كان محمد بن وصيف السجزي كاتباً من كتاب الفارسية للدولة الصفارية بالإضافة إلى كونه شاعرهم.

وبدأ استخدام النثر الفارسي في ترجمة الكتب الفارسية القديمة التي كتبت بالبهلوية أو غيرها، فينسب إلى فترة حكم الصفاريين ترجمة بعض الكتب الساسانية مثل كتاب "ملوك العجم"، الذي يحتمل أن تكون ترجمته تمتد على عهد يعقوب بن الليث، وأن الذى قام بترجمته أحد علماء خراسان. وكانت أهم الأعمال النثرية التي تمت في بداية حكم السامانيين هي ما قام به الوزير الساماني (أبي الفضل البلعمي) في عهد الأمير إسماعيل بن أحمد (٢٧٩-٢٩٥هـ/٨٩٢-٩٠٧م) بترجمة كتاب "تاريخ الأمم والملوك" من تأليف المورخ الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) من اللغة العربية إلى اللغة الفارسية في عام ٣٥٢هـ، وقد استخدم البلعمي الأسلوب النثري في هذه الترجمة بعد أن حذف التفاصيل المملة التى كانت موجودة في السفر الأصلي، وقد اشتهرت ترجمته، وترجمت بدورها إلى لغات أخرى عديدة[١]. واقدم الشاعر الرودكي على ترجمة كتاب كليلة ودمنة في عهد الأمير نصر بن أحمد (٣٠١-٣٣١هـ/٩١٣-٩٤٢م) ونال عن هذه الترجمة التي بلغت في أسلوبها النثري حدا كبيراً من التفوق منح الأمير وعطاياه. كذلك قام علماء السامانيين الذين أجادوا الكتابة باللغة الفارسية الجديدة بإيحاء من أمراء السامانيين وخاصة عبد الملك بن نوح (٣٤٣-٣٥٠هـ/٩٥٤-٩٦١م) ومنصور بن نوح (٣٥٠-هـ٣٦٦/ ٩٦١-٩٧٦م) بترجمة تفسير القرآن الذي صنفه الطبري أيضا. ولم تقف الكتابة النثرية على عهد السامانيين عند حد الكتابات الأدبية أو الدينية،

---

(١) النرشخي، تاريخ بخاري، ص ١٣٩، العبادي، فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ١٥٣.

وإنما تعدتها إلى المجالات العلمية، فلدينا من الكتب العلمية التي تمت ترجمتها على عهد السامانيين كتاب "الأبنية عن حقائق الأدوية" الذى ترجمه بأسلوب نثرى موفق الدين أبو منصور على الهروى في عهد الأمير نصر بن أحمد أيضاً. هذه أهم المجالات التي استخدم فيها الكتاب الأسلوب النثري في صياغة كتبهم أو ترجماتهم، وهي بدايات تمهيدية لازدهار النثر الفارسي بعد ذلك سواء في الكتابة الأدبية أو العلمية(١).

الفلسفة:

وشهدت هذه الفترة ازدهاراً في علم (الفلسفة الإسلامية)، وهو العلم الذى أطلق عليه الحكمة، ويبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه من الوجود بقدر الطاقة لتصير النفس الإنسانية بتحصيلها كاملة مضاهية للعالم العقلى. وقد نبغ عديد من فلاسفة المسلمين الذين حاولوا التوفيق بين الفلسفة والدين، ونجحوا في هذا المجال إلى حد بعيد، وخاصة أن الدين الإسلامي يدعو إلى النظر في جنبات الكون والتأمل في مخلوقات الله، كما أنه بدأت تظهر بعض الأفكار الإسلامية التي نادت باستخدام الفلسفة اليونانية ومنهج تفكيرها في الشريعة الإسلامية، ليتحقق بذلك تخلص الشريعة مما ترسب فيها من جهالات وضلالات، فشهدت هذه الفترة ترجمة العديد من كتب فلاسفة اليونان كأرسطو وأفلاطون والتأثر بما فيها من أفكار، مما أعطى للفلسفة الإسلامية صبغتها العالمية.

والجماعة التي نادت بهذه الأفكار تسمى جماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا)، وهم جماعة اجتمعوا حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى

---

(١) ولهذا الكتاب تسمية أخرى هى "روضة الأنس ومنفعة النفس". تصحيح شادروان أحمد بهمنيار بكوشش حسين محبوبي اردكاني، طبع طهران ١٣٤٦ (فتحي أبوسيف، خراسان، ص ٢٧١-٢٧٢).

على تصنيف كتاب في أنواع الحكمة الأولى، ورتبوه مقالات عدتها إحدى وخمسون مقالة، خمسون منها في خمسين نوعا من الحكمة، ومقالة حادية وخمسون جامعة لأنواع المقالات على طريق الاختصار والإيجاز، وهي كما يذكر (القفطي) مقالات مشوقات غير مستقصاة ولا ظاهرة الأدلة والاحتجاج، وكأنها للتنبيه والإيماء إلى المقصود الذي يحصل عليه الطالب لنوع من أنواع الحكمة.

وقد كتم مصنفوها أسماءهم، ولذلك اختلف الناس في الذى وضعها، فقالت أكثر الروايات أنهم من نسل الإمام على بن أبي طالب، وكانت هذه الجماعة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية. وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة الإسلامية فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها، وأفردوا لها فهرسا وسموه (رسائل إخوان الصفا) [1].

ورغم أننا لا نستطيع أن ننكر الاقباسات التي نقلها فلاسفة المسلمين من كتب أرسطو وأفلاطون، وخاصة فيما يتعلق بالفلسفة السياسية المتصلة بالدولة والحكام، وغيرها من الآراء الفلسفية التى ظهرت في كتابات فلاسفة المسلمين، إلا أن هذه الاقتباسات لا تقلل من

---

(١) القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بدون تاريخ، ص ٥٨ وما بعدها، جبور عبد النور، إخوان الصفا، مجموعة نوابغ الفكر العربى رقم (٧)، دار المعارف ، مصر ١٩٨٣، ص ١٥ ومابعدها.

قيمة الأعمال التي ألفها فلاسفة المسلمين، وفي محاولة إحياء الفلسفة اليونانية والوصول بها إلى درجة كبيرة من الازدهار بما اضافوا عليها من تجديدات.

وشهد النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى والقرن الرابع/ العاشر الميلادي ظهور أعظم فلاسفة المسلمين وأهمهم الكندي (ت ٢٦٠هـ/٨٧٣م) ومن مؤلفاته "إثبات النبوة" و"التوحيد"، والفارابى (ت ٣٣٩هـ/٩٥٠ م) ومن مؤلفاته "آراء أهل المدينة الفاضلة" و"فصوص الحكم"، وابن سينا (ت ٤٢٨هـ/١٠٣٧م)، ومن مؤلفاته "الشفاء" و"الإشارات". ونظرا لما تمتعت به خراسان في فترة حكم السامانيين من ازدهار ثقافي، فقد حظيت مدنها بزيارات متعددة من هؤلاء الفلاسفة، الذين وجدوا في المدن الخراسانية عواصم ثقافية مزدهرة ملائمة لوجودهم بها كما أن أمراء السامانيين استضافوا العديد من هؤلاء الفلاسفة في بلاطهم من أمثال الرازى (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) والفارابى (ت ٣٣٩هـ/٩٥٠م) وابن سينا (ت ٤٢٨/١٠٣٦) وغيرهم.

وهناك فلاسفة نشأوا وعاشوا معظم حياتهم في خراسان، وخاصة في مدينة (بلخ) الخراسانية التي ينتسب إليها كل من أبي زيد أحمد بن سهل البلخي (ت ٣٢٧هـ/٩٣٨م) وعبد الله بن أحمد الكعبي (ت ٣١٧هـ/٩٢٩م) فقد قامت بفضلهما حركة فلسفية ونهضة فكرية عظيمة في ربوع الدولة السامانية، لقد استطاع الأول أن يجمع بينه الفلسفة والعلوم الشرعية، يقول عنه ياقوت الحموي في معجمه "أنه جمع بين الحكمة والشريعة"[(١)]، أما أبو حيان التوحيدي فقد قال عنه "

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١، ص ١٢٥.

أنه لم يتقدم له شبيهه في الأعصر الأولى، ولا يظن أنه يوجد له نظير في مستأنف الدهر، ومن تصفح كلامه في كتاب أقسام العلوم، وفى كتاب أخلاق الأمم، وفى كتاب نظم القرآن ، وفى كتاب اختيار السيرة، وفى رسائله إلى إخوانه، وجوابه عما يسأل عنه، وبيده به، علم أنه بحر البحور وأنه عالم العلماء، وما روي في الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواء". وله عديد من الكتب منها "حدود الفلسفة" و "السياسة الكبير" و"السياسة الصغير" و"أخلاق الأمم" وغيرها من الكتب كما ألف كتاب صور الأقاليم وهو خرائط ملونة موضحة ببعض الشروح. وقد مات ببلخ سنة ٣٢٢ هـ في عهد السعيد نصر بن أحمد الساماني. (١) ويمثل الكعبي هو الآخر مرحلة التوفيق بين الفلسفة والدين، فاشتهر بتعمقه فى علم الكلام، وكان من كبار علماء المعتزلة، وكان له مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكعبية، ومات في سنة ٣١٧هـ(٢).

وتوجد بعض الدلائل عن علاقة الفيلسوف الإسلامي الكبير محمد إبن محمد بن طرخان أبو نصر الفارابي بالدولة السامانية، فمن ناحية نسبه فهو أساسا من (فاراب) إحدى مدن بلاد ما وراء النهر(٣)، وإن كان إبن ..قل قد نسبه إلى (وسيج) لا إلى فاراب، كذلك حاولت بعض الدراسات الإيرانية الحديثة إثبات نسب الفارابي الخراساني على أساس أنه من فارياب إحدى ضواحي بلخ الخراسانية وأن والده كان أحد قادة

---

(١) احمد أمين ، ظهر الاسلام ، ح١ ، ص ٢٦٧.

(٢) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج١، ص ٢٦٧، محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ٢٠٤.

(٣) عرفت قديما باسم باراب أو فاراب، وتسمى حاليا أترار، وهى مدينة كبيرة عليها حصن فيه الجامع، ولها أسواق وقهندز، وهي أرض فى سبخة ذات غياض (القزويني، آثار البلاد، ص ٥٤٨، ابو الفدا، مختصر ، ج٢ ص ٩٩، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٢٨).

الجيش الخراساني. ولعل هذا اللبس مرجعه إلى التشابه بين فاراب فيما وراء النهر أو فارياب بخراسان، كذلك كانت خراسان وبلاد ما وراء النهر تحكمها دولة واحدة هى الدولة السامانية، ولكن يبدو لنا أن نسبة الفارابي إلى فاراب أقرب إلى الصحة، حيث تميل أغلب الروايات إلى هذه النسبة، كما أن النسبة إلى فارياب فاريابي، وهي نسبة لم نجدها بشأن الفارابي، مما يرجع نسبة التركي إلى فاراب ولا يتنافى ذلك مع يكون أصل الفارابي من خراسان ثم انتقل إلى فاراب التي نسب إليها حسب التقاليد المتبعة آنذاك. وهو ما أكده القفطي(١) . والفارابي فيلسوف المسلمين غير مدافع، دخل العراق واستوطن بغداد وقرأ بها العلم الحكمة على يوحنا بن جيلاد في أيام الخليفة المقتدر العباسي، ولقد تفوق الفارابي على أقرانه في التحقيق وشرح الكتب المنطقية وأظهر غامضها وكشف سرها وقرب متناولها، وله كتاب شريف في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه ولا ذهب مذهبه فيه وصار هذا الكتاب مرجعا لطلاب العلم لا يستغنون عنه. وله كتاب في أغراض أفلاطون وأرسطوطاليس يشهد له في صناعة الفلسفة. ومن منصفاته : كتاب البرهان، وكتاب القياس الصغير، وكتاب الرد على جالينوس وغيرها(٢).

ولما كان أمراء السامانيين مهتمين بالعلماء والفلاسفة فقد كلف منصور بن نوح (٣٨٧-٣٨٩هـ/٩٩٧-٩١٩م) أمير السامانيين الفارابي بجمع ما كان قد ترجم من كتب اليونان منذ أيام المأمون العباسي، فكان من ضمن هذه الترجمات التي علق عليها الفارابي وشرحها إحدى كتب

---

(١) القفطي، أخبار العلماء، ص ١٨٢، ويؤكد عبدالعزيز جنكيز خان (تركستان قلب أسيا، ص ٤٣) أنه كان تركيا.

(٢) القفطي، أخبار العلماء، ص ١٨٢ – ١٨٤.

الحكمة اليونانية التي قدمها الفارابي للأمير منصور وسماها "التعليم الثاني" فأطلق على الفارابي بعدها "المعلم الثاني"[١]، وبقيت هذه المخطوطة في خزانة منصور بن نوح حتى اطلع عليها فيما بعد ابن سينا وأسس عليها كتابه الشفاء، ومن آراء الفارابى الفلسفية أنه كان مقتنع بوحدة المعرفة التى تتوجها الإلهيات. وفى كتابه (إحصاء العلوم) يحصى العلوم المتنوعة ويتكلم عنها، ويذكر الفلسفة فى النهاية على أنها رأس العلوم، لأنها تضمن اليقين فى المعرفة التى يحصل عليها بالبرهان.[٢] ولقد قدم الفارابي على سيف الدولة الحمداني في حلب فأكرمه وعرف موضعه من العلم ومنزلته من الفهم، ورحل بصحبته إلى دمشق ومات بها[٣].

وينتسب الفيلسوف الإسلامي الكبير ابن سينا الذى أطلق عليه المعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي إلى مدينة بلخ الخراسانية، ففيها ولد وبدأ حياته، ثم انتقل إلى بخاري عاصمة السامانيين وأكمل تعليمه على يد علمائها، كما أنه استفاد إفادة كبيرة من خزينة كتب الأمير نوح بن منصور الساماني (٣٦٦-٣٨٧هـ/٩٧٦-٩٩٧م) التي امتلأت بمصادرها الفلسفية والعلمية عند زيارة ابن سينا للأمير وعلاجه له. ويذكر (إبن أبي أصيبعة) نقلا عن ابن سينا في ترجمة حياته بنفسه قصة تعلمه الفلسفة على يد (أبي عبد الله الناتلى) الفيلسوف يقول إن أخاه ووالده كانا يتذاكران الفلسفة والهندسة وحساب الهيئة، ثم جاء إلى بخارى

---

(١) القفطي بنفسه، ص ١٨٢ ـ ١٨٣، فتحية النبراوي، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ص ١٨٤ ـ ١٨٦.

(٢) الفارابى، إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، ط٢، القاهرة ، ١٩٤٩، ص ١٣، ٤٣ ، ٧١، ٧٢، شاخت و بوزورث، تراث الإسلام، ح ٢، ص ٦٨-٦٩.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ١٥٢.

أبو عبد الله الناتلي وكان يدعى المتفلسف، وأنزله والد ابن سينا في منزله وكلفه بتعليمه، فابتدأ بتدريس كتاب إيساغوجي، وتفوق في فهم المسائل وإيجاد تصورات فلسفية طيبة، ثم أحكم دراسة علم المنطق بنفسه من خلال القراءات الخاصة ، خاصة كتب (إقليدس) والمجسطي، وبعد مفارقة الناتلي له، اشتغل هو بتثقيف نفسه من النصوص والشروح من الطبيعي والإلهي، فتفتحت أمامه أبواب العلم، فقرأ ما وراء الطبيعة لأرسطو، فصعب فهمه ولم يقدر على حل معضلاته، ولما قرأ شرحه للفارابي، بعدما اشتراه من السوق بثلاثة دراهم، فهم هذا الكتاب. ولقد ألف ابن سينا في المنطق والفلسفة. مقتفيا أثر أستاذه الفارابي، وكذلك تأثر بأرسطو، وبحث في الإلهيات، وكان يحاول أن يوفق بين فلسفته وعقيدة أهل السنة، كما تكلم في الإنسان والنفس الإنسانية والعقل[١].

وتجدر الإشارة إلى أن ابن سينا وقد استفاد كثيرا من مكتبة السامانيين، قد ترك لنا وصفا لها بعد أن أذن له في دخولها لقراءة ما فيها، فيقول "دخلت دارا ذات حجرات كثيرة، وفي كل حجرة صناديق مملوءة بالكتب، وفي بعضها كتب العربية والشعر، وفي أخرى الفقه، وأخرى للعلم والفلسفة، وكان لكل مجموعة خاصة من الكتب أمكنة معينة لها، وقد تفقدت أسماء المؤلفين القدامى لأبحث عن مؤلفاتهم، وراعني ما وجدت من الكتب الكثيرة التي لا يعرفها كثير من الناس". وقد اتهم ابن سينا بتدبير حرق هذه الخزانة حتى لا يظفر عالم آخر بما ظفر به هو من اطلاعات في الفلسفة والعلوم التي حوتها مصادر هذه الخزانة.

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج٢، ص ٢، بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠٩.

وأغلب الظن أن هذا الاتهام لا يقف على قدميه، فليس من المعقول أن يقدم عالم مثل ابن سينا يعرف لهذه المصادر العلمية قيمتها على هذه الجريمة في حق التراث العلمي والأدبي، كما أن هذه الخزانة لم تكن وقفا على ابن سينا، فكما نعلم أن أمراء السامانيين احتضنوا العلماء والفلاسفة ولم يبخلوا عليهم بشيء، فمصادر هذه المكتبة إذن طرقت قبل ابن سينا، وليست ممنوعة عن علماء السامانيين وفلاسفتهم، وأخيرا فكيف يستطيع عالم شاب مثل ابن سينا حضر إلى بخاري لمهمة محددة وهي علاج الأمير، أن يدبر مؤامرة حرق إحدى مؤسسات الدولة التي تتبع إدارتها وملكيتها إلى أعلى سلطة وهي الأمير الساماني نفسه، بما يعنى ذلك كله من شدة الحراسة عليها. لذلك لا نملك إلا الشك الذي يصل إلى نفي ما نسب إلى ابن سينا من تهمة حرق هذه الخزانة. وأغلب الظن أن يكون خصوم ابن سينا هم الذين ربطوا بين حرق الخزانة وهو ما حدث فعلا وزيارة ابن سينا لبخاري التي سبقت حرق هذه الخزانة، وليس لابن سينا علاقة بحرقها. ويبدو لنا أن حرق هذه الخزانة تم في ظروف الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي سادت مدينة بخارى في هذه الفترة، فقد كانت هناك انقسامات بين قادة الجيوش من الترك مع وجود أخطار خارجية من ناحية الدولة الخانية في بلاد الترك، بالإضافة إلى ما كانت تقوم به بعض الفرق العقائدية من فتن داخلية كالإسماعيلية والكرامية وغيرها[١].

وشارك ابن سينا كغيره من الفلاسفة في موائمة الفلسفة للدين الإسلامي، ولعل أهم النظريات التي نلمح فيها هذا التوفيق، ما حاول ابن سينا أن يصل إليه من إثبات وجود الله وصفاته، وغيرها من الأفكار

---

(١) البغدادى، الفرق بين الفرق، ص ١٨٩-١٩٧، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٧٥-٢٧٦.

التي نسبت له. ويدخل إبن سينا فى نطاق الإلهيات جميع ماجاء الوحى فى القرآن الكريم. ويبين أن الله، هو واجب الوجود والذى لاواجب وجود سواه خير قادر على كل شئ، وخالق كل شئ وقدير حكيم. وإلى جانب ذلك يحاول إبن سينا أن يتبين من جديد عن طريق الإستدلال الفلسفى صحة أوامر القرآن الخاصة بأمور الجماعة، وهى الخلافة، وبناء الأسرة، وبيان حكمة تعدد الزوجات، والطلاق، وما إلى ذلك. (١)

الطـــــب:

شهدت فترة حكم الصفاريين والسامانيين تقدما ملحوظا في علم الطب، وهو العلم الذي يبحث بدن الإنسان للحفاظ عليه. وفى ذلك يقول إبن سينا " إن الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة مايصح ويزول عن الصحة، ليحفظ الصحة حاصلة ويستردها زائلة" (٢) فلم يعد أطباء المسلمين مجرد نقله عن الطب اليوناني الذي ترجمت كتبه إلى العربية، وإنما تعدوا هذه المرحلة عن طريق تجاربهم في علاج المرضى، واكتشافهم لأمراض جديدة ومحاولاتهم علاجها ، ومن الملاحظ فى العلم الطبى كما فى علوم أخرى كثيرة، أن بعض الإنجازات الرئيسية فى الطب تمت فى أوائل إشتغال المسلمين بهذا العلم. وكانت الولايات الشرقية الفارسية قد تعرفت على الطب اليوناني وترجمت بعض كتبه إلى الفارسية القديمة، عن طريق المراكز الثقافية الإيرانية التي أخذت بالعلم اليوناني وأهمها جند يسابور التي بقيت شهرتها في الطب حتى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادى، فأقدم موسوعة عربية فى الطب لازالت باقية

---

(١) راجع عن تلك الآراء ، مصنفات إبن سينا (كتاب السياسة) كتابه الكبير الجامع (الشفاء) (شاخت و بوزورث، تراث الإسلام، ج٢، ص ٦٩).

(٢) إبن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ص ١٥-١٦.

بين أيدينا، وهى كتاب (فردوس الحكمة) الذى كان يحتوى على ثلاثين مقالة، والمقالات تحتوى على ٣٦٠ كتابا، ظلت فى نواحى معينة تفوق كل ماعداها. وقد ألف هذا الكتاب (على بن ربن الطبرى) فى عام ٢٣٦هـ/٨٥٠م، أى أن المؤلف كان معاصرا لحنين بن إسحاق. وأهمية هذا الكتاب ترجع أولا إلى حقيقة هامة هى أن مؤلفه كان على علم بالكتاب الرائد الذى وضعه حنين بن إسحاق عن طب العيون، وربما كان أيضا على علم بترجمته لكتاب (مقالة فى الدلائل) أى التشخيص لأبقراط. والسبب الثانى لأهمية كتاب (فردوس الحكمة) هو أن مؤلفه خصص فصلا قائما بذاته للطب الهندى، بغرض واضح هو المقارنة بين هذا الطب وبين طب اليونان الذى يقوم عليه الكتاب أصلا. وثالث أسباب هذه الأهمية هو أن المؤلف يستخدم مصطلحات حنين فى الفصل الأول المطلول من الكتاب، الذى يدور حول فلسفة الطبيعة [١]. كذلك ازدهر الطب في الولايات الشرقية من ناحية أخرى عن طريق علاقات هذه الولايات بالهند، حيث أصبح الهنود أساتذة في البيمارستنات الإسلامية، عاملين على ترجمة ما لديهم من كتب إلى العربية، كما سافر أطباء المسلمين إلى الهند لتعلم الطب هناك.

والبيمارستان كلمة فارسية مركبة من مقطعين، بيمار بمعنى مريض أو عليل أو مصاب، وستان بمعنى مكان أو دار، فهي إذن تعنى دار المرضى(٢). ولعل انتشار البيمارستانات من مدن المشرق الإسلامي إبان

---

(١) أبو الحسن على بن ربن الطبرى (ت٢٤٧هـ/٨٦١م)، طبيب حكيم ولد فى طبرستان ونشأ بها ، ألف عددا من المصنفات الهامة منها: فردوس الحكمة، الدين والدولة، منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير، وأخذ عنه محمد بن زكريا الرازى عندما إستقر إبن ربن فى بلدة الرى (القفطى، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٥٥، شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ج ٢، ص ٢٥٤-٢٥٥).

(٢) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام،دمشق١٩٣٩، ص ٤١.

حكم الدولة الطاهرية وتقدير حكام هذه الدولة لعديد من الأطباء أمثال يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٢/٨٥٧م) وقد خدم هذا الطبيب الرشيد والأمين والمأمون، وعاش إلى عصر المتوكل، وولاه الرشيد بيت الحكمة وكلفه بترجمة الكتب اليونانية، وله مؤلفات عديدة منها (كتاب فى الجذام) وهو أول من كتب فيه. وسابور بن سهل (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م) ، من الشواهد التي تدل على تقدم علم الطب. ولقد كان سابور بن سهل صاحب بيمارستان (جند يسابور) وكان فاضلا عالما متقدما في هذا النوع، وله تصانيف مفيدة مشهورة منها كتاب (الأقرباذين) المعمول عليه في البيمارستانات وحوانيت الصيادلة وهو إثنان وعشرون بابا، وتوفى نصرانيا في سنة ٢٥٥هـ [١]. وقد أورد حمد الله المستوفى دليلا آخر على تقدم الطب في خراسان، وذلك عندما استقدم الخليفة العباسي الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م) أحد أطباء نيسابور عاصمة خراسان لعلاجه وذلك لشهرة أطبائها وتفوقهم.

ورغم ما تدل عليه الإشارات السابقة من تقدم علم الطب في خراسان في الفترة التي سبقت حكم الصفاريين والسامانيين، فقد استمر ازدهار هذا العلم بشكل ملموس على عهد الصفاريين حيث شهدت هذه المرحلة ممارسة الأطباء لتجارب وإجراء الجراحات الطبية، حتى أن يعقوب بن الليث الصفار نفسه أجريت له عملية جراحية استخدمت فيها الأنابيب والمحاقن والمخيط [٢] وغيرها من أدوات الجراحة، مما يدل على تقدم علم الطب. كذلك شهدت هذه الفترة وضع الأسس الصحيحة لمن

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج٢، ص ١١٧، القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٤١.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص ٤٤٧، فتحي أبو سيف، خراسان ص ٢٧٧.

يعمل بالطب؛ فبعد دراسة الطب نظريا وعمليا في مدارس الطب التي انشأت لهذا الغرض، يتقدم الطلاب لأداء الإمتحان، ثم يقسمون اليمين وينالوا الشهادة التي تؤهلهم لممارسة مهنة الطب تحت إشراف ورقابة الدولة، وهذه الشهادة التي تسمى "إجازة" كان لابد للطبيب أن يحصل عليها قبل ممارسة عمله، وذلك بتأدية امتحان أمام كبار الأطباء، فإذا أجازوا له ممارسة المهنة، مارسها بمقتضى منحه الإجازة[١]، وكان الخليفة المقتدر العباسي (٢٩٥-٣٢٠هـ) اول من أمر بتأدية الإمتحان لكل من يريد ممارسة الطب، وذلك بعد أن اخطأ أحد المتطببين (المتمرنين الذين لايحملون إجازات) في سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م، في معالجة رجل من العامة فمات. وجعل الخليفة أمر هذا الإمتحان إلى (سنان بن ثابت بن قرة)، فامتحن سنان في نواحي بغداد وحدها تسعمائة من المتطببين، وأصبح هذا الامتحان نظاما عاما على بقية الولايات. [٢]

وازداد الطب ازدهارا على عهد السامانيين، حيث أصبحت الولايات التابعة لهم ومنها خراسان مراكز علمية ذائعة الشهرة، بالإضافة إلى رعاية أمراء السامانيين أنفسهم للأطباء، الذين كان على رأسهم في هذه الفترة الرازي (ت٣١٣هـ/٩٢٥م)، كما شهدت الفترة الأخيرة من حكمهم ظهور نجم ابن سينا.

---

(١) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص ٤١، عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ص ١١٧-١١٨.

(٢) تجدر الإشارة إلى أن الخليفة المقتدر وأمه كانوا يهتمون كثيرا بالطب والأطباء وصحة الرعية، فقد أنشأت أم المقتدر في عام (٣٠٦هـ) مارستانا، وكان مبلغ النفقة فيه في العام سبعة الآف دينار، كما كانت ترسل خزانة الطب والأشربة إلى الحرمين الشريفين في موسم الحج (ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص ٢٢١، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٤٩).

وينتسب (أبو بكر محمد بن زكريا الرازي) إلى الري موطن ولادته في عام (٢٤٠هـ/٨٥٤م) حيث نشأ بها، ثم انتقل إلى بغداد فتعلم الموسيقى وضرب على العود، ثم ترك ذلك وأقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيرا، وألف كتب كثيرة في ضروب المعارف الطبيعية والإلهية، ثم أقدم على تعلم الطب بعد الأربعين من عمره فبرع فيه، حتى أنه وصل إلى مدبر بيمارستان الري ثم مدبر بيمارستان بغداد. وقد بلغ منزلة رفيعة وصار " إمام وقته في علم الطب"، ولقبه إبن أبى أصيبعة بـ"جالينيوس العرب". وتدل المؤلفات التي ألفها الرازي في هذه الفترة على مدى ازدهار علم الطب بفروعه المختلفة، فمن هذه الكتب كتاب "الجامع"، وهو عبارة عن سبعين مقالة في الطب[١]. ولعل هذا الكتاب الذى عرف باسم "الحاوي"، وإن كان ابن خلكان يذكر أن كتاب الجامع يختلف عن كتاب الحاوي، فهما كتابان منفصلان، ويصف كتاب الحاوي بأنه يقارب ثلاثين مجلدا. ويعتبر كتاب الحاوي من أعظم ولشهر كتب الرازى وأبعدها أثرا فى عالم الطب وهو عمدة الأطباء في النقل منه والرجوع إليه عند الاختلاف[٢]. وقد توصل الرازي في كتاب الحاوي إلى أدوية لم يصل إليها غيره من الأطباء، واعتبره البعض أكثر أهمية من كتاب "القانون لابن سينا".

ومن مؤلفات الرازي أيضا كتاب في "الأعصاب" وكتاب "الطب الملوكي" وكتاب "الطب الروحاني". ثم له كتب في أمراض محددة

---

(١) ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص ٧٧، القفطي، أخبار العلماء، ص ١٧٨، إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٤١٦، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٣٨٧.

(٢) ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ص ٤١٦، ابن خلكان، نفسه، ج٤، ص ٢٤٤.

ككتابه عن "الجدري والحصبة"، وهو الكتاب الذى طالما تناقش حوله العلماء، وعرف فيه لأول مرة تعريفا صحيحا الفرق بين الجدرى والحصبة، وكذلك كتاب " الحصى فى الكلى والمثانة". ثم يظهر مدى ماوصل إليه الرازي من تفوق وعلم بالطب في كتابه الذي ألفه على أبقراط Hippocrates وجالينوس Galenos وأطلق على هذا الكتاب اسم "الشكوك"، يدور فيما اثبته الرازي وحققه وأجرى عليه التجارب في الطب اليوناني، وما أثبته هو مخالفا أطباء اليونان، مما يدل على براعة هذا الطبيب. وتعد هذه المؤلفات خير دليل على تقدم علم الطب في هذه الفترة، بما فيها الطب النفسي والعصبي، وهي أنواع تحتاج إلى براعة في التشخيص والعلاج[١].

أما الكتاب الهام الذي يهمنا ذكره، واختلفت بسببه الروايات وتعددت الآراء فهو كتاب "المنصوري" أو "الطب المنصوري" الذي ألفه الرازي وأهداه إلى أحد أمراء السامانيين. ويحتوى هذا الكتاب على عشر مقالات في الطب بمختلف فروعه مثل تشريح أعضاء الجسم، وتأثير الأغذية والأدوية وحفظ الصحة، والاحتراس عن الأمراض المعدية، والعناية بالجنين والطفل، والمسموم، والأمراض، والحميات.. وغيرها. وتذكر بعض المصادر أن الرازي ألفه للأمير منصور بن نوح أو منصور ابن خاقان أمير خراسان الساماني في ذلك الوقت[٢].

---

(١) ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص ٧٨، القفطي، نفسه، ص ١٧٩، شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ح ٢، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٢) القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٧٨، غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٤٨٩

وليس في أمراء السامانيين من يدعى منصور بن خاقان، ولكن وجد أميران باسم منصور بن نوح أولهما حكم الدولة السامانية من ٣٥٠ إلى ٣٦٦هـ/٩٧٦م، وثانيهما الذي حمل نفس الاسم تولى أمور الدولة من ٣٨٧ حتى ٣٨٩هـ/٩٩٧-٩٩٩م، والمعروف أن الرازي توفي في ٣١٤هـ/٩٢٥م ومن ثم لا نستطيع أن نقبل الرواية التي تقول أن الرازي أهدى كتابه إلى الأمير الساماني منصور بن نوح، حيث أن حكم هذا الأمير جاء بعد وفاة الرازي بما لا يقل عن ثلاثين عاما. وحاولت بعض المصادر(١) إيجاد مخرج لهذا البعد الزمني باحتمال حصول الأمير الساماني منصور بن نوح الأول على هذا الكتاب وهو في طفولته، وهو مخرج ليس له ما يبرره، فما الداعي أن يقدم الرازي هذا الكتاب إلى طفل لم ينضج بعد، في الوقت الذى كان كبار الأمراء يفخرون ويتقبلون مثل هذه الكتب كهدايا، ويجزون عنها العلماء خير الجزاء.

وبإجراء المقارنات وربط الأحداث بعضها ببعض، نستطيع أن نرجح أن كتاب المنصوري الذى ألفه الرازي لم يقدمه للأمير منصور بن نوح أمير الدولة السامانية وأنه قدمه لصديقه الأمير (منصور بن إسحاق الساماني) نائب الدولة السامانية على ولاية الري في عهد أمير السامانيين إسماعيل بن أحمد (٢٧٩-٢٩٥هـ/٨٩٢-٩٠٧م) عربونا لهذه الصداقة، فقد كان منصور بن إسحاق من أبناء عمومة الأمير إسماعيل، وتولى الري في الفترة ما بين ٢٩٠-٢٩٦هـ/٩٠٢-٩٠٨م، وهذا هو سبب اللبس الذي وقعت فيه معظم المصادر التي كتبت عن كتاب المنصوري في الطب. ولعل خير دليل على صدق هذا الرأي ما ذكر على

---

(١) ابن خلكان، وفيات، ج٤، ص ٢٤٥.

إحدى مخطوطات هذا الكتاب حيث ورد صراحة إهداء الكتاب إلى الأمير منصور بن إسحاق بن أحمد الساماني وكنيته أبو صالح. كل هذه الدلائل تشير إلى صدق ماذهبنا إليه، وخاصة أن الرازي لم يصنف لهذا الأمير الساماني منصور بن إسحاق كتاب المنصوري فقط، وإنما الف له أيضا كتاب "الطب الروحاني" الذي يحتوى على عشرين مقاله في الطب. وقد انتشرت في هذه الفترة ظاهرة إهداء الأطباء أعمالهم ومؤلفاتهم ليس فقط إلى الأمراء الكبار وإنما أيضا إلى زملائهم وأقرانهم من العلماء، فنستطيع أن نتصور الطبيب الذي يقطن أصفهان مثلا يرسل ببعض أبحاثه الطبية إلى الطبيب الذي يوجد في نيسابور أو بخاري، فيتبادلون المعارف الطبية بهذه الطريقة[١].

وقد احتفظ (ابن النديم) في فهرسته بأخبار عن الرازي الإنسان والطبيب وأهم تصانيفه الطبية. فقد اشتهر هذا الرجل بالكرم والعطف على المرضى لاسيما الفقراء منهم، حتى كان ينفق عليهم ويعالجهم بإرشاداته الطبية، ومن أقواله الطبية المأثورة "ومهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب"، ومنها أيضا "وإذا كان الطبيب عالما والمريض مطيعا فما اقل لبث العلة". وكان الرازى يعتمد فى دراسة الأمراض على تعريف المرض، ثم بيان العلة والسبب وفيما إذا كان ينقسم من حيث السبب أو النوع أم لا، وينتهى بالعلاج وبيان الاستعداد ثم الاحتراس ثم الإنذار، واهتم الرازى أيضا بتاريخ المرض. وقد لاحظ الرازى تأثير العامل النفسى

---

(١) ابن جلجل، نفس المصدر، هوامش ص ٧٩-٨٠، القفطي، نفسه، ص ١٧٩، إبن أبى أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٤٥٩، ابن خلكان، وفيات، ج٤، ص ٢٤٥، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٨٠-٢٨١.

فى صحة المريض وفى إحداث بعض الأمراض العضوية. ويعتبر الرازى أول من استخدم مصارين الحيوانات لخياطة الجروح، وأول من إستخدم الرصاص الأبيض فى المراهم، وأدخل الزئبق فى المسهل، واستخدم الأفيون كمنوم وفى حالات الإسهال الحاد. ومن مصنفاته الطبية غير ما تقدم ذكره : (كتاب في أعلى الحمية المفرطة تضر الأبدان)، وكتاب مايقم من الفواكه، وكتاب النقرس، وكتاب أوجاع المفاصل، إثنان وعشرون فصلا، وكتاب دفع مضار الأغذية، وغيرها كثير، سوى مؤلفاته في المنطق، والفلسفة والهندسة، والكيمياء[1]. وخلاصة القول، فإن أبو بكر الرازي يعد بحق طبيب المسلمين غير مدافع كما يذكر (القفطي). وتجدر الإشارة إلى أن هذه الشهرة قد تجاوزت حدود البلدان الإسلامية إلى أوربا، فعرف بأنه (جالينوس العرب) وسمي عندهم Razes وقد توفي الراوي بعد أن أصيب بالعمى في آخر عمره، وجدير بالذكر أن معارفه أشاروا عليه بالقدح فى عينيه، فقال لهم "لا" قد أبصرت من الدنيا حتى مللت منها، فلا حاجة لى إلى عينين"، وقد اختلفت الروايات في تاريخ وفاته فالقاضي صاعد الأندلسى يحدد وفاته بعام ٣٢٠هـ، بينما ذكر (ابن شيراز) في تاريخه أنه توفى سنة ٣٩٤هـ، وإن كانت المراجع الحديثة تأخذ بتاريخ أقرب لرأي القاضي صاعد وهو عام ٣١٤هـ.

ويعتبر (أبو الحسن بن عبدالله بن سينا) Avicenna فى الغرب، من الأطباء الذين عاصروا الفترة الأخيرة من حكم السامانيين، فقد عاش بين سنتى (٣٧٠-٤٢٨هـ/٩٨٠-١٠٣٧م) ويعرف بالشيخ الرئيس

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٤١٧-٤١٩، القفطي، نفسه، ص ١٨٠ – ١٨٢، محمد على حيدر، المرجع السابق، ص ٢٠١-٢٠٣، جلال موسى، منهج البحث العلمى عند العرب، ص ١٨٢ ومابعدها.

والفيلسوف الطبيب، حيث أنـه نشـأ فـي بلـخ إحـدى مـدن خراسـان وأكمـل دراساته في بخاري، فبعدمـا درس الرياضيـات والفلـك، رغـب فـى دراسـة الطب فنبغ فيه، وأصبح طبيبـا يمـارس الطـب ويعلمـه وهـو فـى السادسـة عشرة من عمره. قال عن دراسته للطب " فلا جرم أنى برزت فيه فى أقـل مدة، حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون علـى علـم الطـب، وتعـهدت المرضـى، فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأخالف فيه، وأنا فى هذا الوقـت مـن أبنـاء ست عشرة سنة". [1] وله العديد من المؤلفات الطبية، وأهمها كتابه "القانون في الطب" الذى جمع فيه ابن سينا خلاصة تجاربه الطبية، ومعارفه التـي استقاها من طب اليونـان والفـرس والـهند وغيرهم، وذكره لأهـم الأدويـة المعروفة في ذلك الوقت ، ويقع كتـاب القـانون فـى خمسـة أجزاء تتنـاول علوم التشريح ووظائف الأعضـاء، وطبائع الأمـراض والصحـة والعـلاج. ووصفت فيه الأمراض بأحسن مما وصفت به فى الكتـب التـى ألفـت قبلـه، وهـذا الكتـاب العظيـم قـد وضعـه ابـن سينا مـع تلاميـذه، وتستعمل كلمـة القانون في العالم الإسـلامي فـى معنـى يخـالف معناهـا فـي أوروبـا، فـهو عندهم "مجموع قوانين العلـم" ، وأصبـح هـذا الكتـاب القيـم كمـا يذكـر " مارتن .انسر" إنجيل الطب فى العصور الوسطى"، وحل إلى حد مـا محـل مؤلفات الرازى. [2] وقد ظهر نبوغ ابـن سينا فـي الطـب وهـو فـي صغـر سنه، حتى أنه استدعي لعلاج الأمير السـاماني نـوح بـن منصـور (٣٣٦-

(١) إبن أبى أصيبعة، المصدر السـابق، ص٤٣٧، جوستـاف لوبـون، حضـارة العـرب، ص ٥١٨.

(٢) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ج٢ ، ص ٢٥٨.

٣٨٧هـ/٩٧٦-٩٩٧م) الذي أكرم معاملة ابن سينا وأحسن استقباله[١].

ولقد تكلم إبن سينا عن الأورام الخبيثة، وذكر أن السبيل الوحيد للشفاء منها، إنما هو الجراحة في أدوار المرض الأولى، على أن يكون الاستئصال واسعا وعميقا، وأن يعقم الطبيب جميع المنطقة الباقية بعد الاستئصال، ومع هذا كله فإن الشفاء غير أكيد، وكان له معرفة جيدة بالطب النفسي.

الكيمياء والفلك والرياضيات:

ولم يقتصر الازدهار الثقافي في خراسان وبلاد ما وراء النهر على العلوم السابقة، وإنما شهدت فترة حكم الصفاريين والسامانيين نهضة علمية في شتى فروع الثقافة الأخرى، وذلك لأن علماء هذه الفترة اتسمت ثقافتهم بالموسوعية، مما جعلهم يطرقون أنواع العلوم المختلفة الطبيعية والإنسانية ، ويؤلفون فيها الكتب والأبحاث. ولذا فإن نواحي معينة من نشاطاتهم العلمية لاتقع على وجه التحديد فى نطاق الإطار المخصص لهذا المبحث، فقد ألف كل من الفارابي وابن سينا بالإضافة إلى مؤلفاتهم السابقة مؤلفات أخرى في المنطق والعلوم الرياضية وغيرها. كما أن الرازي ألف في الكيمياء مؤلفات عديدة منها كتاب "في أن صناعة الكيمياء إلى الوجوب أقرب منها إلى الامتناع"، وكتاب "سبب وقوف الأرض في وسط السماء"، وكتاب "الآراء الطبيعية"، ورسالته في غروب الشمس، والكواكب، ورسالته في استدارة الكواكب وغيرها. وقد أهدى أحد كتبه في الكيمياء إلى الأمير الساماني منصور بن إسحاق حاكم

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٤٣٧، بارتولد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١١٠، بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٢ ، ص ١١٦.

الرى سابق الذكر. وقد طالبه هذا الأمير الساماني بإجراء التجارب الكيميائية أمامه، وسهل له الحصول على المواد الكيميائية اللازمة لتجاربه. ويمتاز الرازي أنه قدم تقسيما منطقيا للعناصر الكيميائية المعروفة لديه، وأعطى أوصافا دقيقة للأدوات والطرق التي استخدمها في تجاربه العلمية، وتوصل من خلال ذلك إلى نتائج دقيقة مبنية على ملاحظاته الشخصية[١].

وازدهرت كذلك العلوم الفلكية والرياضية في خراسان، حيث قرر ابن النديم[٢] أنه كان بخراسان علماء عديدين تفوقوا في العلوم الرياضية والفلكية في القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى أي فترة حكم السامانيين. ومن المعروف أن عالم الرياضيات الشهير (محمد بن موسى الخوارزمي) (ت حوالى ٢٣٢هـ/٨٤٦م) عاش فترة من حياته في خراسان مما ساعد على ازدهار النهضة العلمية في الرياضيات بهذا الإقليم، فيعتبر الخوارزمي أول من وضع تنظيم منهجي باللغة العربية لكل المعارف العلمية أي الأعداد ومنازلها والصفر، وهو ما عرف في الأسبانية GUARISMO والإنجليزية ALGORISM وهى اصطلاحات مشتقة من اسم الخوارزمي نفسه، لما أوجده من الترقيم معتمدا على كتب الهند في الرياضيات ولقد صنف الخوارزمى فى هذا الصدد كتابا باسم "الجمع والتفويق لحساب الهند" وقد ضاع أصله، وفي هذا الكتاب وضع الخوارزمى القواعد اللازمة لاستعمال الأرقام الهندية التى هذبها العرب

(١) ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص ٧٨،القفطي، نفسه، ص ١٧٩-١٨١، شاخت، وبوزورث، تراث الإسلام، ص ٢٣١، ٢٣٣،

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٠٨.

واستعملوها فى المشرق الإسلامى مثل ١، ٢، ٣، ٤، ٥، الخ. وعن الخوارزمى أيضا أخذنا كتابة الأعداد على أساس (الخانات)[١].

وكان هذا العالم وأصله من خوارزم منقطعا إلى خزانة كتب الحكمة للخليفة المأمون العباسي، وهو من أصحاب علم هيئة النجوم والكواكب، وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجه الأول والثاني، ويعرف بالسندهند، وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونقله الشاعر الأندلسي عباس بن ناصح الجزيري إلى الأندلس بتكليف من الأمير عبد الرحمن الأوسط، وصار هذا الكتاب أساسا لقيام المدرسة الأندلسية لعلم الفلك، وإستفاد منه مسلمة المجريطي رأس هذه المدرسة. ومن مؤلفات الخوارزمي أيضا كتاب الرخامة، وكتاب العمل بالأسطرلاب، وكتاب الجبر والمقابلة[٢].

وشهد النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مولد عالم كبير من علماء الرياضيات الخراسانيين وهو العالم أبو الوفا محمد بن محمد البوزجاني (٣٢٨-٣٨٨هـ/٩٣٩/٩٩٨م) الذي ولد ببوزجان من ضواحي نيسابور، وتلقى تعليمه بها، ثم ارتحل إلى المدن الإسلامية الأخرى. ومنها بغداد لاستكمال دراساته، فقرأ العدد والهندسة، على أبي يحيى البارودي، وأبى العلاء بن كرنيب، ثم عاد إلى خراسان.

---

(١) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام ، ح٢، ص ٣٠١-٣٠٢.

(٢) ابن سعيد ، الأندلسى، المغرب في حلي المغرب، ج١، ص ٤٥، القفطي، أخبار العلماء، ص ١٨٧، شاخت وبوزورث، نفس المرجع،ح٢، ص٣٠٢-٣٠٤، ص ١٦٨، وعن تأثير كتاب السندهند على ثقافة الأندلس الفلكية راجع: إبراهيم عبدالمنعم سلامة، رحلات عباس بن ناصح الثقافية إلى العراق وأثرها في تشكيل ثقافات الأندلس في عصر الدولة الأموية، بحث ألقى فى مؤتمر الاسكندرية الدولى الثالث للتبادل الثقافى بين شعوب البحر المتوسط ، الاسكندرية، أغسطس ١٩٩٨.

وللبوزجاني عديد من المؤلفات أهمها كتاب "ما يحتاج إليه العمال والكتاب من صناعة الحساب"، رتبه في سبعة أبواب يتناول كل منها موضوعا حسابيا كالنسبة والضرب والقسمة والمساحة وغيرها. ومن مؤلفاته أيضا كتاب تفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة، وكتاب "المدخل إلى الأرثماطيقي"، ووجدت مؤلفات أخرى لأبي الوفاء البوزجاني في الفلك منها "معرفة الدائرة من الفلك"، وكتاب "الكامل"، ويحتوي على ثلاثة مقالات في دراسة الكواكب وحركاتها، وكتاب المجسطي وكتاب تفسير كتاب ديوفنطس في الجبر، وكتاب استخراج مبلغ المعكب بمال مال وما يتركب منها، وكتاب العمل بالجدول الستيني، ولم يزل أبو الوفاء البوزجاني مقيما ببغداد إلى أن توفي بها في ٣ من رجب سنة ٣٨٨هـ[١]. ويذكر غوستاف لوبون أن شهرة البوزجانى الفلكية إنما ترجع إلى معرفته للإختلاف القمرى الثالث، وذلك أنه استوقف نظره مافى نظرية بطليموس من النقص فى أمر القمر فبحث فى اسبابه، فرأى إختلافا ثالثا غير المعادلة المركزية والاختلاف الدورى، يعرف اليوم بالاختلاف. ولقد نسب هذا الاكتشاف إلى (تيخو براهه) بعد وفاة أبى الوفاء البوزجانى بستمائة سنة، مما يدل علىوصول مدرسة بغداد فى أواخر القرن الثالث الهجرى/ العاشر الميلادى، إلى أقصى مايمكن علم الفلك أن يصل إليه بغير نظارة ومرقب. وكان أبو الوفاء مجهزا بآلات متقنة، فقد شاهد إنحراف سمت الشمس بربع دائرة يبلغ نصف قطرها إحدى وعشرين قدما[٢].

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٠٨، القفطي، أخبار العلماء، ص ١٨٨-١٨٩.
(٢) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٤٥٧-٤٥٨.

الجغرافيا:

وفى بلاط السامانيين بلغت الجغرافية العربية أوجها العلمي أيضاً، على الرغم من أن العرب قد تكشفوا قبل ذلك بزمن طويل عن عناية خاصة بوصف البلدان، يذكيها في جنوبي بلاد العرب بخاصة اعتزاز بالحضارة التي تمت لتلك الديار قبل الإسلام، على ما نرى في "صفة جزيرة العرب" الذى وضعه الهمداني المتوفى في سجن صنعاء سنة ٣٣٤هـ. وكانت طليعة رواد العرب مؤلفة من تجار يسيحون للتجارة، وعلى ماكان يُعوز هؤلاء من الاستعداد الضرورى للتأمل العلمى، لم تخل رحلاتهم التجارية من طرائف مفيدة فى بعض الأحيان، والواقع أن نظام البريد والاستعلامات الذي اقتبسه الأمويون عن ملوك الفرس، وتعهده العباسيون الأوائل بالتجديد والتوسع كان قد قدم للدولة شبكة من المواصلات أفاد منها أصحاب الوظائف في الدولة، كذلك عنيت الكتب المؤلفة في الخراج بالتنظيم المالي، مما جعل الدول الناشئة كالدولة السامانية تهتم اهتماما كبيرا بشئون البلدان، والشعوب المجاورة، وبرز هذا بصورة خاصة في اهتمامهم الكبير بالجغرافيا[١].

وفى بلاط إسماعيل الساماني (٢٧٩-٢٩٥هـ) ألف الوزير الجيهاني كتابا لم يصلنا للأسف استطرد فيه من بحث الضرائب إلى وصف البلدان المجاورة، ثم نجد أبا زيد البلخي وكان في خدمة إسماعيل ببلخ يضع مصورا جغرافيا وجعله ذيلا لأطلس إسلامي قديم موضوع على أساس اقتبسه الخوارزمي عن جغرافية بطليموس. ولذلك يقول (عبدالعزيز جنكيزخان) أنه أول من كتب الجغرافيا على طريقة اليونان، ولم تقتصر

---

(١) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج٢، ص ١١٦، ١١٧.

جهود أبى زيد البلخى على ذلك فحسب، بل نراه يكمل كتاب رحلة التاجر سليمان السيرافى الذى كتبه فى عام ٨٥١م، وكان ذلك فى عام ٨٨٠م، وأضاف أبوزيد البلخى إلى هذه الرحلة معارف أخذها عن عرب زارو بلاد الصين. [١]

وكان هذا المصور الجغرافى المنسوب لأبى زيد البلخى الكتاب أساسا للأثر الذى وضعه المقدسي المتوفى سنة ٣٨٧هـ، وأطلق عليه "أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم"، والذى أشاع الحياة في هذا المصور الجغرافي بما وضعه عليه من دراسات بارعة، ومواد جمعها من رحلاته الشخصية حول البلاد الواقعة في حوزة كل من السامانيين والفاطميين.

بيد أن المسعودي المتوفي سنة ٣٣٤هـ في مصر، كان أوسع منه أفقاً، فقد قادته شهوة الترحال بطريق الهند إلى سيلان والبحر الصيني[٢] إلى أن يزور كل أرجاء العالم تقريبا فزار بلاد الفرس والهند وجزيرة سرنديب وصحب التجار إلى بحار الصين، كما زار سواحل إفريقية الشرقية والسودان، وقام برحلات في إقليم بحر قزوين وبلاد الشام وفلسطين، وزار مصر في عهد الإخشيد سنة ٣٣٠هـ، ولقد قضى المسعودى خمسا وعشرين سنة من حياته على هذه الممالك، وقيد ماشاهده فى تآليفه الكثيرة المهمة التى تُعد كتاب (مروج الذهب) أشهرها[٣].

---

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٤٦٥، عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ص ٤٣.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج٢، ص ١١٧.

(٣) غوستاف لوبون، نفسه، ص ٤٦٦-٤٦٧، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي ج٣ ص ٤٠٤، محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ٢١٠.

الـــفــنـــون:

ولم يقتصر الازدهار الثقافي في خراسان وبلاد مـا وراء النـهر علـى العلـوم والآداب فحسب ، وإنمـا ازدهـرت أيضـاً الفنـون بمختلـف فروعـها ومنـها:

(أ) العمارة :

أخـذ فـن العمـارة يزدهـر شـيئاً فشـيئاً فـي عصـري الصفـاريين والسامانيين في كل من خراسان وبلاد مـا وراء النـهر. ولسـوء الحظ لـم يبـق مـن الآثـار المعماريـة لفـترة حكـم الصفـاريين والسـامانيين إلا النـذر القليل. ومن أروع هذه الآثار وأهمها في العمارة الإسلامية (مشهد الأمـير إسـماعيل بـن أحمـد السـاماني)، وهـو أقـدم مشـهد مـن نوعـه فـي تـاريخ العمارة الإسلامية بعد مشهد قبة الصليبية بسامراء الذي أقامته أم الخليفة المنـتصر العباسي بعد موتـه في ربيع الثـاني سنة ٢٤٨هـ.

وقد شيد الأمير إسماعيل هذا المشهد في الضواحـي الغربيـة لمدينـة بخاري،ولهذا المشـهد أهميـة كبـيرة فـي الفـن المعمـاري الإسـلامي حيث يمكننا عن طريقه أن نصف بعض المظـاهر والسـمات المعماريـة فـي هـذه الفترة. فقد اجتمعت فيـه مجموعـة مـن هـذه المظـاهر التـي جعلتـه أعظـم المباني الإسلامية في القرن الثالث الهجري، وهـذه المظـاهر تعتبر فاتحـة عصر جديد للتطور الذي اصاب مثيلاتـها بعـد ذلـك فـي المبـاني الإسـلامية ومن هذه المظاهر :

١- توجد في كل واجهة عشرة عقود تخفي من الخارج منطقة الانتقال إلى القبة، وهذه الظاهرة نجدها أيضا في مشهد السلطان سنجر في مرو القديمة.

٢- الحنايا التي لكل واحدة منها طاقان صغيران وهي التي أقيمت عليها القبة، ونجد نموذجاً لهذا في مشهد السلطان سنجر، وهذان المثالان الوحيدان اللذان ذكرهما الأستاذ كريزول لهذه الظاهرة.

٣- وفى الركنين اللذين يكتنفان الحنية من أعلاها نجد زخرفتين مستديرتين، ونجد مثلها في خصري عقود النوافذ (وهناك مثال لهذا في المحراب الرئيسي لجامع ابن طولون)، وهذه الظاهرة نجدها بعد ذلك في كثير من أبنية بخاري وغيرها، وفى المحارب الفاطمية، وفى الأبنية الإسلامية في الهند، ونجد هذه الزخرفة المستديرة تتحول فيما بعد إلى سرة تتفرع منها زخارف أخرى.

٤- القبة الكبيرة الرئيسية التي تقام على أركانها اربع قباب أخرى صغيرة، وهذه كانت مقدمة لما جاء بعد ذلك في عمارة المشاهد الهندية الإسلامية(١).

ولعل أهم ما يميز العمارة في تلك الفترة أن المعماريين بدأوا في استخدام الآجر والجص بدلا من الحجر الذي كان مستخدما قبل ذلك، كما تأثرت الفنون المعمارية بالفنون الساسانية، فكانت الجوامع الكبيرة ذات أعمدة أو دعائم ، تحمل السقف مباشرة، ووجدت ايضاً مساجد ذات أعمدة خشبية. وأقيمت الأعمدة الاسطوانية القصيرة، ويعلو الأعمدة وسادة بسيطة تحمل أقواسا زورقية الشكل. فأصبح الشكل نموذجا في العمارة

(١) زكي حسن، الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، القاهرة، ١٩٤٦.

الفارسية، ويعد استخدام الآجر من أهم الأسباب التي أدت إلى ازدهار فن العمارة وروعة جمالها، وذلك لأن الآجر استخدم لأغراض مختلفة كالقبوات – جمع قبوة- ذات الشكل نصف الاسطواني، والقبوات المتصالبة والقبوات المقببة وغيرها من الأشكال. وقد اتضحت هذه الأشكال المعمارية في مقبرة الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني، حيث زينت بنقوش بارزة رافعة من الآجر.

وكما لعب استخدام الآجر دورا هاما في المعمار، فقد ساعد أيضاً على تقدم فن الزخرفة لسهولة تشكيله وتغطيته بألوان مختلفة سواء على المساجد وقبابها أو على المقابر، وتشكل الكتابات والأشكال النباتية والمشبكات الهندسية الزخرفات الداخلية المنحوتة على الجص. ولدينا بعض النقوش بالألوان المائية عثر عليها في نيسابور ترجع غالبا إلى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادي، وهي عبارة عن حنية من الجص أو مقرنصة التي كانت ترتكز عليها القباب في إحدى العمائر التي كشفت أطلالها في مدينة نيسابور، ولعها أقدم الأمثلة للمقرنصات أو الدلايات التي أصبحت في العصور التالية من خصائص العمارة الإسلامية. وتتمثل الزخرفة في هذا الرسم الحائطي في وجود فروع نباتية ووريقات وأنصاف وريقات محورة عن الطبيعة ووريدات. ويبدو في تأليف الزخرفة اتجاه إلى بدء اللوحات التي تطورت في العصور التالية، فنشأت منها رسوم الرقش العربي (الأرابسك) (١).

---

(١) مارسيه، الفن الإسلامي، ص ٩٨-١٠٠، زكي حسن، أطلس الفنون الزخرفية، ٢٧٤، ٥٠٣، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٨٤.

كذلك ازدهرت الفنون التطبيقية الأخرى ممثلة في خزف وزجاج واخشاب ونسيج وسجاد، بحيث احتلت هذه الفنون في خراسان مركزا أساسيا بين الفنون الإسلامية هناك، فلم يقف الفنان الخراساني عند حد تطوير الأساليب الصناعية والزخرفية القديمة، بل ابتكر أساليب جديدة في شتى أفرع الفنون التطبيقية[١]. ولحسن الحظ لدينا العديد من الأواني الخزفية، وبعض السجاجيد التى ترجع إلى فترة حكم الصفاريين والسامانيين، وقد حفظ بعضها في المتحف الإسلامي بالقاهرة، وبعضها الآخر بالمتاحف الإيرانية والأوروبية.

(ب) الخزف:

وقد أدى الازدهار في فن الخزف إلى تخصص بعض المدن والأقاليم الشرقية في صناعة وإنتاج القيشاني ذي البريق المعدني المستخدم آنذاك في الأقاليم الشرقية ومنها خراسان، ثم ابتكرت نيسابور عاصمة خراسان نماذج خزفية جديدة عبارة عن أقداح مزينة بكتابات سوداء على خلفية قشدية اللون[٢]. ثم بدأت الأواني الخزفية في نيسابور تأخذ خطوة جديدة في زخرفتها باستخدام العناصر النباتية والحيوانية متأثرة بفن الزخرفة الإيراني القديم أو الصيني وذلك بعد تهذيب بسيط يجرد الأنماط الساسانية والصينية في بعض الأحيان من العنف والقوة[٣]. وقد أتبعت نفس الطريقة في بخاري حيث تميز خزفها بأنه ذو أرضية سوداء أو سمراء وعليها زخارف منقوشة فوق الطلاء، يبدو فيها التآلف بين الألوان مع وجود نفس الرسوم النباتية او رسوم للطيور كالبط والبجع

(١) حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، ص ٣٣٥.

(٢) مارسيه، الفن الإسلامي، ص ١٠٥.

(٣) زكي حسن، الفنون الإيرانية، ص ١٨.

وغيرها[١]. وتجدر الإشارة إلى أن صناعة الخزف قد نشطت فى بلاد ماوراء النهر فى عصر الدولة السامانية، وكان هذا الاقليم من أزهر الأقاليم الإسلامية، وكان بلاط السامانيين فى سمرقند محط العلماء والأدباء والفنانين وموطن النهضة الأولى.

وكان صناع الأواني والقدور الخزفية يحرصون على كتابة أسمائهم على ما يصنعون، فلدينا بعض الأسماء التي ذكرت على الأطباق والقدور، وإن كنا لا نعرف عن أصحابها شيئا، فتذكر على بعض الأواني والأطباق عبارات "مما عمل سهيل" و"مما عمل ابن صالح" و"مما عمل صالح" [٢]. وكانت تذكر أيضاً بعض العبارات الأخرى غير الأسماء مثل "كل هنيا" أو "كل هنيا مريا" وغيرها من العبارات[٣].

(ج) صناعة الزجاج:

ولعل ازدهار صناعة الزجاج في خراسان واستخدامه في المساجد والمنازل أدى إلى ازدهار فن النقوش الزجاجية، حيث كان الفنانون يزينون نوافذ المساجد أو المنازل بالرسوم النباتية والحيوانية أو كتابة بعض الآيات القرآنية بالخط الكوفي.

(د) صناعة النسيج:

وازدهرت فنون النسيج وصناعة السجاجيد في خراسان، واشتهرت مدن خراسان وعلى رأسها نيسابور ومرو بجودة صناعات النسيج بهما والتفوق في تزيين النسيج برسوم النباتات أو الطيور أو

---

(١) محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ٢١٢.

(٢) انظر هذه الأواني والأطباق في المتحف الإسلامي تحت أرقام (١٦٠٠٥ و ١٣٦١٨ و ١٣٦٣٠ و ١٦٠٠٤).

(٣) نفسه ، تحت أرقام (١٣١٩٧ و ١٤٧١١).

إضافة السلوك الذهبية إلى الصناعات المنسوجة، فيضفي عليها ذلك بريقا وجمالا [١]. كذلك اشتهرت بخارى فى عهد السامانيين باتقان صناعة الحرير الذى جعلوا عليه رسوما حيوانية جميلة، وقد عثر على قطعة من النسيج الساماني محفوظة الآن بمتحف اللوفر بباريس عليها كتابة نصها "عز و اقبال للقائد أبي منصور بختكين أطال الله بقاءه". ولعله القائد عاش فى بلاط عبد الملك بن نوح حاكم خراسان وماوراء النهر، وجرح وقتل فى عام ٣٤٩هـ، على يد هذا الأمير. [٢]

(هـ) الموسيقى:

وشهت هذه الفترة تقدما ملحوظا في الموسيقى التى تعني صناعة الألحان المرتبة على الأنغام. فالتأليف الموسيقي يعني تركيب النغمات، والنغمة تعني صوت محدد غير متغير، والثقل كيفيتان مسموعتان تعرضان لبعض الأصوات بالقياس إلى آخر [٣]. وجدير بالذكر إلى أن المنظرين المسلمين وغيرهم من الأوربيين فى العصور الوسطى، كانوا يذهبون إلى أن الموسيقى تنتمى إلى العلوم الرياضية، ومن ثم فرغم أن العديد من رسائلهم فى هذا الشأن يعتبر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للطريقة التى عالجوا بها المسائل الفنية (التحليل العددى للفواصل الموسيقية، أجناس البعد الرباعى) فإن من الصعب أن نقرر: هل كانوا يمثلون ماجرى العمل به فعلا، أم أنهم كانوا يعيدون إنشاء نظريات الإغريق فى هذا الصدد. [٤] ومن المعروف أن فن الموسيقى والغناء قديم

---

(١) ياقوت الحموى، معجم، مجلد ٥، ص ٦٥، حيدر، نفسه، ص ٢٢٧.

(٢) زكى محمد حسن، الفنون الإيرانية، ص ٢٤٧، حيدر، نفسه، ص ٢١٢.

(٣) السيوطي، مقاليد العلوم، ص ٢٧.

(٤) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ح٢، ص ٣٥٦.

في إيران، فقد وجد على الآثار الساسانية بعض الصور التي توضح الرقص الغنائي على أصوات الموسيقى في العصر الساساني. وقد تأثر العرب في فترة حكم الأموين والعباسيين بالموسيقى الإيرانية تأثرا كبيرا سواء إذا كان ذلك في الألحان أو الغناء. وشهدت فترة وزارة البرامكة للعباسيين رواج الفنون الموسيقية الإيرانية وزيادة التأثر بها والعمل على نقلها إلى فنون الموسيقى الإسلامية ونعرض أسماء العديد من المغنيين والمغنيات فى العصرين الأموى والعباسي من أمثال عزه ورباب ورابعة وزرياب وغيرهم، وقد اشتهر من المغنيين الفرس في العصر العباسي إبراهيم بن ميمون أو ماهان المعروف بإبراهيم الموصلي، ومنصور المعروف بزلزل وغيرهما(١).

وكان لازدهار الشعر الفارسي أثره الفعال في ازدهار فن الغناء والموسيقى بخراسان، حيث فضل العديد من شعراء الفارسية استخدام الغناء في عرض أشعارهم على أمراء السامانيين مع استخدام الأنغام الموسيقية، بل ابتدع الشاعر الفارسي الرودكي الارتجال الغنائي أمام الأمراء. وأدى اتصال فلاسفة المسلمين بالتراث اليونانى والهندى إلى معرفة فن الموسيقى والتأليف فيه. وتجدر الإشارة إلى أنه منذ القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، نجد تمييزا قائما بين الغناء، وبين الموسيقى النظرية. لكن لسوء الحظ لا نملك إلا القليل عن وصف هذا الغناء أو تحليله، بالرغم من أن المؤلفات الأدبية العامة كالأغانى للأصفهانى تزودنا بمادة غنية عن حياة الموسيقيين البارزين، وتصور تصويرا حيا دورهم فى بلاط الخلفاء والأمراء. ويمثل الفيلسوفان الشهيران الفارابى، وإبن سينا الاتجاه المشائى الأرسطى فى الموسيقى،

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص ١٥٤.

وأهم ما فى كتابات إبن سينا الموسيقية يتمثل فى القسم الممتاز من كتابه (الشفاء) الذى تحدث فيه عن الموسيقى، بينما يعتبر مصنف الفارابى الضخم المعروف بكتاب (الموسيقى الكبير) أعظم مؤلف فى الموسيقى صنف حتى عصره" كما يذكر فارمر. (١)

ولدينا العديد من أسماء الآلات الموسيقية التي كانت تستخدم في خراسان مثل الناي والدف والصنوج والكوسات والعود والقانون والشهرود أو شاهرود، والسنتور – بالعربية صنطير – والكمانجة أو الكمنجا. ولعل تأليف الفيلسوف الإسلامي الفارابي الذي قضى فترة من حياته في بلاط السامانيين لكتابه الهام الموسيقي الكبير، وغيره من المؤلفات الموسيقية مما يؤكد على تقدم فن الغناء والموسيقى في هذه الفترة. وتجدر الإشارة إلى أن الفارابى قد قدم لنا بعض الآلات الموسيقية التى كانت تستخدم فى عصره ومنها عودين طويلى العنق لهما دساتين مختلفة تمام الإختلاف، أحدهما يسمى الطنبور البغدادى، والآخر الطنبور الخراسانى، وهذا النوع الأخير يرجع إلى أصل فارسى. وقد طور الفرس والترك فيما بعد عدة أنواع أخرى من هذه الطنابير بينها طنبور الشروان. كما قدم لنا الفارابى أول وصف للآلة الموسيقية ذات القوس المعروفة بالرباب. (٢)

يتبين لنا مما سبق أن خراسان وبلاد ماوراء النهر قد شهدتا فترة من أهم فترات تاريخهما الحضاري، رغم ما تعرضتا له من اضطرابات سياسية، وقد بدت مظاهر هذا التقدم الحضاري في شتى فروع المعرفة العلمي والأدبية.

---

(١) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام ، ح٢، ص ٣٥٧-٣٥٩.

(٢) شاخت و بوزورث، تراث الإسلام، ح٢، ص ٣٨٢.

الفصل السادس
الدولة الزيارية فى بلاد الديلم
(٣١٦–٤٣٣هـ)

- أرض الديلم.
- مرداويج بن زيار (٣١٦-٣٢٣هـ).
  - علاقة مرداويج ببنى بويه.

(تزايد الهجرة الديلمية إلى الجنوب).

مقتل مرداويج (٣٢٣هـ).

- ولاية وشمكير بن زيار (٣٢٣-٣٥٧هـ).
  - مقتل ماكان(٣٢٩هـ).
  - علاقة وشمكير ببنىبويه.
  - وفاة وشمكير الزيارى (٣٥٧هـ/٩٧٦م).
- ولاية بيستون بن وشمكير (٣٥٧-٣٦٦هـ).
- ولاية شمس المعالى قابوس بن وشمكير (٣٦٦-٤٠٣هـ).
- ولاية فلك المعالى منوجهر (٤٠٣-٤٣٣هـ).
- ولاية نوشيروان بن فلك المعالى (٤٢٣- ٤٣٥هـ).
- خاتمة.
- أسماء الأمراء الزياريين وزمن إمارة كل منهم.

الفصل السادس

الدولة الزيارية في بلاد الديلم

(٣١٦ / ٤٣٣هـ)

أرض الديلم:

كانت ناحية الديلم تشمل – عند القدماء- جزءا من جيلان الحالية التي كانت تحد بولاية قزوين جنوبا ومنطقة (جالوس) (تنكاين الحالية) شرقا. ومع أن جميع جيلان والولايات الساحلية لبحر الخزر كانت تصير جزءا من بلاد الديلم، حينما كان الديالمة يمدون سيطرتهم إليها، لكن اسم (الديلم) في الحقيقة هو اسم الجزء الجبلي من جيلان الحالية وحسب، وكان يطلق عليه (ديلمان) و (ديلمستان) أيضا. وكان يقابل الجزء المنخفض والسهلي الذي كان يسمى باسم (جيلان). اذن فإن (ديلمان) أو الديالمة والـ(ديلمستان) أو أرض الديلم تعني مساكن جماعة الديلم، و(جيلان) تعني مساكن جماعة الجبل. وأخذ هذا التحديد يزول تدريجيا وصار اسم (جيلان) يطلق على الجزء المحصور بين طبرستان وطالش وطارم وقزوين.

وبسبب الطبيعة الجبلية لمساكن الديلم وصعوبة السيطرة عليها، فقد عاش الديلم مستقلين دائما وكان لهم آداب وحياة خاصة بهم قبل أن وقعت تحت تأثير من الخارج. ولما كان الديلم رجال حرب وأصحاب شجاعة فقد كانوا يمدون سيطرتهم إلى المناطق التي على حدودهم مثل قزوين وطارم وجالوس، ولجأ سكان هذه المناطق إلى بناء الاستحكامات والقلاع لمنع اعتداءاتهم خاصة في قزوين وجالوس[1].

---

(١) القزويني، آثار البلاد، ص٣٣٠، ٤٣٥، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص٣٣.

ولم تنفتح مساكن الديالمة أمام المسلمين مع شدة حروبهم لهم، ولم تستسلم لهم هذه الجماعة، فبقوا على مذهبهم القديم وآدابهم المتوارثة. ولم يتمكن أحد من المسلمين من النفوذ فى بلادهم غير السادات العلويين الذين التجأوا إلى الديلم وجبال طبرستان فى خلافة المتوكل والمستعين بسبب ايذائهما لجميع العلويين.

وكما رأينا فى الفصل المتعلق بالدولة الزيدية العلوية فى طبرستان، فقد وفق السادات بعد مدة من اقامتهم فى هذه المنطقة فى جمع أتباع وأشياع كثيرين وانتشر الإسلام بذلك فى بلاد الديلم. وقبل اعتناق الديالمة للإسلام كان لبلادهم عند المسلمين حكم دار الحرب أى أنها بلاد الكفار الذين يثاب على جهادهم وغزوهم، فكان حكام الرى وقزوين وطبرستان يهاجمون الديلم أحيانا ويستأسرون منهم ويبيعونهم أو يهدون منهم للخلفاء. ولهذا فقد عرف الديلم بين المسلمين فترة من الزمن على أنهم غلمان أسرى وموال مثلهم كالزنوج والهنود وغيرهم.

ومن بين الأسر القديمة للديلم أسرة (آل جستان) التى حكمت على حدود نهر (منجيل) وقصبة الديلم الحاليين. وهؤلاء قبلوا تبعية الحسن بن زيد الداعى الكبير بمجرد أن أعلن ثورته، ولم يبخلوا عليه طوال مدة إمارة الدعاة على طبرستان بصادق عونهم ولذلك كان إذا طُردوا من جرجان وطبرستان لا يلجأون إلا إلى أراضى آل جستان.

وفى الفترة التى تحكم فيها آل سامان فى طبرستان ـ وقد استمرت ثلاثة عشر عاما (من ٢٨٧ حتى ٣٠١ هـ) كان الناصر الكبير (الأطروش) يعيش منزويا بين الديالمة بعد قتل محمد بن زيد، فصرف كل همه إلى أن يدعوا بقية الديلم للإسلام وينشر الآداب والأحكام الإسلامية فيهم، ويأخذ منهم العُشر، ويدافع عنهم ملكهم ابن حسان. ولما كان

الناصر مثال الإيمان التام والعلم والزهد الكاملين، فقد اعتنق أكثرية الديلم الإسلام عن طواعية وبنى لهم المساجد، وزحف بهم كما يذكر ابن خلدون إلى ثغور المسلمين، أراهم مثل قزوين وسالوس فأطاعوه، وهدم حصن سالوس. ثم دعاهم إلى غزو طبرستان، فرفضوا في بداية الأمر، لأن السامانيين كانوا قد استمالوهم بالمهادة والإحسان. فأقبل الناس على طاعتهم. فلما دعاهم الأطروش إلى غزو طبرستان، لم يجيبوه من أجل السامانيين. غير أن الظروف تحولت لصالح الأطروش، عندما عُزل ابن نوح وال السامانيين العادل على الديلم، وخلفه على ولاياتها (سلاما) الذى أساء السيرة، ولم يحسن سياسة الديلم. فهاجوا عليه فقاتلهم وهزمهم. واستعفى من ولايتها، فعاد ابن نوح إلى حكمها، وصلحت الحال. كما كان إلى أن مات. فولّى عليها محمد بن إبراهيم بن صعلوك. فأساء السيرة وتنكر للديلم، فانتهز الأطروش هذه الفرصة، ودعاهم إلى غزو طبرستان فأجابوه وكان من أثر هذا أن استطاع الناصر فى (٣٠١ هـ) أن يخرج طبرستان مرة أخرى عن قبضة العمال السامانيين. وخلاف آل جستان دخل أكثر رؤساء الجبل والديلم، الذين لم يتحملوا أن يظلوا خاملى الذكر وكانوا يطلبون الشهرة وذيوع الصيت، فى خدمة الدعاة، وأهم هذه الجماعة هم من سبق ذكرهم ضمن تاريخ العلويين خاصة الناصر الكبير وأبنائه مثل (ليلى بن النعمان) و(حسن بن فيروزان) وابن عمه (ما كان بن كاكى) و (أسفار بن شيرويه) و(مرداويج بن زيار) و (على بن بويه ماهيكير) (١).

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٥٧ - ٤٥٩.

مرداويج بن زيار(٣١٦ - ٣٢٣ هـ):

ثورة مرداويج فى ٣١٦ هـ:

كان مرد آويج ومرد آويز وتعنى المتعلق بالرجولة الحرى بها، كما مر بنا عند الحديث عن الدولة الزيدية، في بداية أمره من أتباع أسفار بن شيرويه. وأسفار بدأ أمره بحياته فى خدمة علويى طبرستان، ثم تحول عنهم فى النهاية ولحق بالأمير نصر السامانى وعماله فى خراسان، وقتل بعون منهم شيرويه الداعى الصغير فى(٣١٦هـ) وجعل ماكان بن كاكى يتوارى. ونتيجة لهذا استولى على جرجان[1].وطبرستان وقزوين والرى وقم وكاشان ولرستان[2]. وبعد أن حاز أسفار هذه القوة ثار على الخليفة والأمير نصر. وكان الأمير نصر عازما على ضربه لكن الأمر انتهى بالصلح وقبول أسفار أن يدفع خراجا سنويا، وأن يحكم المناطق التى استولى عليها. لكن الرجل، ولم يكن قد أسلم واستمر على دين آبائه، لم يحسن معاملة رعيته المسلمين المتعصبين خاصة أهالي قزوين حتى أنه أمر ذات مرة بأن يلقى بموذن كان يؤدى للصلاة من فوق المنارة، وبخراب المساجد وأخذ يحصل من العامة المال متعديا كل حدود النصفة والعدل. وسبق القول أن أسفار استدعى لخدمته حينما كان يتأهب لغزو طبرستان أحد كبار قواد الديلم المعروف بـ(مرداويج بن زيار) الجبلى وقدمه على جيشه، وقصدوا طبرستان، واستولى الاثنان عليها من الداعى الصغير وما كان بن كاكى فى عام (٣١٦ هـ)[3].

---

(١) فى هذا الفصل والفصول بعده إذ تحدثنا عن جرجان فإنما نعنى جرجان القديمة أى كنبد قابوس الحالية، وليست جرجان الجديدة أو استراباد الحالية.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٤٧٥.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٧٧.

ويذكر (ابن خلدون) أن الحسن بن القاسم الداعى كان قد استولى على الرىّ وأعمالها من يد نصر بن سامان، ومعه قائده (ما كان بن كالى). فلما غلب أسفار على طبرستان، زحف إليه الداعى وقائده ما كان، فانهزما وقتل الداعى، ورجع ما كان إلى الرىّ، واستولى أسفار بن شيرويه على طبرستان وجرجان، ثم سار إلى الرىّ وأخذه من يد ما كان بن كالى، واستولى على سائر أعمال الرى وقزوين وزنجان وابهر وقم والكرخ، وعظمت جيوشه، فانتصر على جيوش الخلافة العباسية التى سيرها المقتدر العباسى إليه، فعظم أمر أسفار وكثر عيثه وعسف جنده[1].

وبعد فتح طبرستان أنفذ أسفار مرداويج إلى طارم حيث كان (سلار) أحد أمراء أسرة (آل مسافر) يحكم فيها مستقلا ليدعوه إلى بيعة أسفار. وكان مرداويج شديد التبرم والضجر بمظالم أسفار، فتعاهد سرا مع سلار المسافرى، وحينما كان أسفار ينتظر عودته من قزوين أرسل مرداويج إلى جماعة من قواد جيشه ووزيره محمد بن مطرف الجرجانى، كانوا ينقمون على أسفار أيضا وأطلعهم على اتحاده مع سلار وعزمهما الثورة على أسفار. فهاج الجند على أسفار، فلما رأى أسفار هذا ووصله قصد مرداويج وسلار فر هاربا من قزوين إلى الرى ثم قصد بيهق.

ولما عرف أن ما كان بن كاكي بخراسان وقد دعاه مرداويج إلى قصده، يمم فار نحو قلعة (الموت) (تعنى بلغة الديلم تعليم العقاب) ونمى الخبر إلى مرداويج، فسار لاعتراضه، وقدّم بعض قواده أمامه، فلحقه القائد وجاء به إلى مرداويج، فقتله فى عام ٣١٦ هـ، ورجع إلى الرى ثم

---

(١) العبر، ج٣، ص٤٧٦.

إلى قزوين، وقدم إليه ما كان من خراسان، فأمره على جيلان وطبرستان[١].

ولم تمر فترة طويلة حتى تكدر الصفو بين الاثنين، وأسرع مرداويج لما قوى أمره، لدفع ما كان بطبرستان فغلبه عليها، ثم أجلاه عنها، وعاد بعد السيطرة على جرجان إلى أصفهان غانما منتصرا، أما ماكان فقد هاجم بعون الأمير نصر الساماني جرجان والدامغان لكنه غُلب ورجع إلى خراسان منهزما.

وبعد قتل أسفار وطرد ما كان، تملك مرداويج طبرستان وجرجان والدامغان والجزء الأعظم للعراق العجمي، وتجاوزت مناطق حكمه في (٣١٩ هـ) مع ولايات السامانيين من ناحية والبلاد التي يحكمها الخليفة العباسي حكما مباشرا من ناحية أخرى. وأخذ يتقاطر عليه رؤساء الديلم طمعا في المال الذي كان يهبه لجنده وحاشيته، وطفق اعتباره وشوكته يزيدان يوما بعد يوم، وكثرت جموعه وعظم خراجه. فلم يكف ما في يده من الأعمال إنما تطلع إلى السيطرة على نواحي أخرى. ففي عام (٣١٩هـ) وجه مرداويج ابن أخته بجيش للسيطرة على همدان، لكنه لم يحقق شيئا لتآزر شعب همدان مع نائب الخليفة وكان يدعى محمد بن خلف بل قتل في معركته معه. مما جعل مرداويج يتحرك بنفسه من الرى إلى همدان، وبعد أن أتم سيطرته عليها أوقع بها مذبحة استمرت يومين. فبعث المقتدر الخليفة العباسي ابن خاله (هارون بن غريب) بجند كثيف لدفعه. ودارت بينهما معركة شديدة انتهت بهزيمة هارون، واستولى مرداويج على بلاد

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٧٦، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص٣٦.

الجبل وماوراء همدان، وبعث قـائده إلـى الدينـور ففتحـها عنـوة، وإنتـهت عساكره إلى حلوان فقتل وسبى.

وبذلك امتدت سيطرة مرداويج حتـى حـدود العـراق العربـى. وبعد فترة قصيرة قصد فتح أصفهان، فأنفذ الخليفـة حاكمـا جديـدا للدفـاع عنـها هو (مظفر بن ياقوت) لكن مظفرا فشل فـى الحفـاظ عليـهما، واستخلصها جند مرداويج بسهولة، ثم دخلها مرداويج بعد قليل علـى رأس ٤٠ أو ٥٠ ألفا من الجند. وقد أطمعه إنتصاره فى أصفهان فى أن يعجل بارسال جزء من جيشه للتمكن من الأهواز، فاستولوا عليـها وعلـى خوزستان كذلك وجبى أموالها وقسم الكثير منها فـى أصحابـه وصـار علـى حـدود العـراق العربى تماما. لكنـه سير مبعوثا من لدنه إلى المقتدر يتعهد ألا يتعـدى علـى بـلاد الخلافـة ويدفـع سـنويا مـائتى ألـف دينـار إليـه مـن خـراج همـدان والدينور.[1] مقابل أن يقلده الخليفة المقتدر ولاية هذه الأعمـال، وإضافـة همذان والكوفة إليها، فأجابه الخليفـة إلـى طلبـة وقاطعـه وولاه وذلـك فـى سنة ٣٠٩هـ، ويرى الدكتور أحمد الشـريف أن موافقـة الخلافـة العباسـية على تفويض مرداويج حكم هذه البلاد، إنما كان بهدف وقف تيـار الـهجرة الديلمية، وأن تظل العلاقات سلمية بين مرداويج وبين الخلافة، فلا يتعـدى أحد الطرفين على الآخر، وتقف بذلك الهجرة الديلميـة. كمـا يـرى الدكتـور الشريف أن الدولة الزيارية رغم أنها دولة شيعية زيدية المذهـب، إلا أنـها استغنت عن الإمامة الزيدية، عندما اتصلـت بالخلافـة العباسـية واعترفت بها، وقبلت التقليد من الخلفية العباسى. وأصبحت دولـة (طرفدارية) [2].

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٤٧٧.

(٢) حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص ٤٨٩، ٥٠٣.

ولعل هذا راجعا إلى فكر الزيدية الذين كانوا يجيزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل. كما ذكرنا من قبل، ولذلك أظهروا الولاء للخلافة العباسية السنية حرصا على مصلحتهم السياسية. وهذا ما سوف يفعله البويهيون عند إقامة دولتهم.

وتجدر الإشارة إلى أن الزياريين فكروا في إقامة دولة فارسية. ولذلك أحيوا التقاليد الساسانية في البلاد. وامتد بهم الطموح إلى إعادة مُلك بني ساسان الفرس، فابن طباطبا يقول عن طموح مرداويج أنه فكر في الاستيلاء على بغداد وأن ينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب(١).

وفي عام (٣٢٠ هـ) بعث مرداويج رسولاً منه إلى أخيه (وشمكير) في جيلان وكان يعمل بالزراعة يستدعيه إليه. فلم يطعه وشمكير في البداية بل لعن أخاه لأنه داهن الخليفة العباسي وطوع نفسه إليه. وفي النهاية رضى لاصرار الرسول بأنه يلحق بأخيه. فجاء إليه حافيا بما كان يعاني من أحوال البداوة والتبذل في المعاش، ينكر ما يراه من أحوال الترف ورقة العيش. ثم صار إلى ترف الملك وأحوال الرياسة، فرقت حاشيته وعظم ترفه وأصبح من عظماء الملوك وأعرفهم بالتدبير والسياسة كما سنرى(٢).

وفي العام التالي وصل إلى مسامع مرداويج أن السامانيين عادوا وسيطروا على جرجان، وأن الأمير نصر بن أحمد ووزيره محمد بن عبيدالله البلعمي وجيشا كثيفا ينتظرون في نيسابور. فترك الري قاصدا جرجان لكنه أدرك أنه لن يستطيع استردادها ، فاضطر إلى أن يستمع إلى

---

(١) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٥١، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص٤٢.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٤٧ ـ ٤٧٨، عباس إقبال، نفس المرجع، ص٣٧.

نصح البلعمى فتصالح مع الأمير نصر وترك جرجان إلى السامانيين وقفل عائدا إلى الرى.

علاقــة مرداويــج ببنــى بــويــه:

(تزايد الهجرة الديلمية إلى الجنوب)

فى هذه الآونة كان (ماكان) الذى نال هزائم متلاحقة من مرداويج وعماله يعيش فى خراسان فى حماية السامانيين، على أمل الاستيلاء على جرجان وطبرستان. وبعد صلح مرداويج مع الأمير نصر الساماني خابت آماله وحار فى أمره وتخلى عنه أتباعه وذهب كل منهم إلى ناحية. وتجدر الإشارة إلى أن الديلم كانوا بعد أن انفتح أمامهم خط الثغر الطبرى - طبرستان - يهاجرون على هيئة أجناد، فكانوا يتخذون لأنفسهم قائدا يتبعونه، وكان هذا القائد ينتقل من خدمة ملك إلى خدمة ملف آخر حسب مصالح جماعته، وحسب من يحتاج لخدمته، ومن يدفع له ولأصحابه أكبر عطاء ممكن. أى أنهم كانوا جندا مرتزقة، وهذا ما تكرر مع كبار قوادهم مثل أسفار بن شيروية، ومرداويج بن زيار، وعلى بن بويه.

وكان من أتباع ماكان الذين تركوه، أبناء (بويه الصياد) الذين عاشوا فترة فى خدمته، فقالوا له (مادمنا وما دام أتباعنا محل اعتمادك فى هذه الأيام السوداء فإن الأصلح أن تأذن لنا حتى نأتى لخدمتك إذا تحسنت الأمور) وذلك لكى تخف عنه مؤنتهم. فرضى ماكان بهذا الأمر، وسلك أولاد بويه وأتباعهم طريقهم رأسا إلى مرداويج. فاحتفل الأمير الزيارى بمقدمهم وقبلهم فى خدمته وأكرمهم، فى حين قتل جماعة من قواد (ما كان) وأولادهم بعدما استأمنوا إليه، وأمر كلا منهم (بنى بويه) على جزء من العراق العجمى (بلاد الجبل، وأحيانا يجمع فيسمى إقليم

الجبال). ومن بينهم (علىّ) الذى لقب بعد بعماد الدولة والذى عينه فى الكرج وهى ولاية صغيرة فى أقصى الجنوب من ممتلكات الدولة الزيارية، بين همذان وأصبهان(١). ولقد كان مرداويج حريصا على أن يوزع المهاجرين إليه توزيعا يضمن به طاعتهم، فكان إذا ولاهم لم يبقهم فى ولاياتهم مدة طويلة،وكان إذا رأى لديهم مالا كثيرا خصص بعض هذا الدخل لجند جُدد، وكان لا يولى واليا إلا بعد أن يدير الأمر فى فكره مرات ومرات. ولكن مرداويج بعد قليل ندم لأنه قسم الولايات الهامة بين أولاد بويه والقواد الديالمة الآخرين، وأراد أن يحول بينهم وبين ما يشتهون. فأرسل رسالة إلى أخيه وشمكير ووزيره الحسين بن محمد القمى والد (ابن العميد) المعروف الذى كان مع وشمكير أيضا بالرى (٢) ليمنعاهم من التحرك، وإذا رفض أحدهم يرسله إليه.

وكان على بن بويه قد شمل إبن العميد الوزير بأفضاله(٣). مما جعله يعرض عليه رسالة مرداويج قبل أن يسلمها لوشمكير، ثم أشار عليه بقصد الكرج تحت جنح الظلام(٤). وحينما حل الصباح أطلع الوزير

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٨، ص٩٢، ابن خلدون، العبر، ح٣، ص٤٩٠ - ٤٩١، السيوطى، تاريخ الخلفاء ص٣٥٤، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص٥٠٤.

(٢) هو أبو الفضل محمد بن الحسين القمي من وزراء وأدباء البويهيين المعروفين، وكان والده كاتب ماكان بن كاكى، ثم صار صاحب ديوان رسائل نوح بن نصر السامانى. وبلغ إبن العميد وزارة ركن الدولة الديلمى وظل فى وزارتهم حتى وفاته. وكان أستاذا في النجوم والفلسفة والبلاغة ويجمع فى تأليفه بين المعانى الدقيقة والصناعة اللفظية، ومن آثاره ديوان الرسائل ومذهب فى البلاغات، توفى عام ٣٦٠هـ.

(٣) قيل فى ذلك أن عليا بعد أن وصل الرى لم يكن يملك غير سرير عرضه للبيع فاشتراه العميد بمائتى دينار وأرسلها إليه. فأخذ على عشرة دنانير ورد الباقى إلى الوزير واكتسب بهذا قلب الوزير وكان يزمع فى خبيئة نفسه أن يحقق أحلام سيطرته.

(٤) مسكويه، تجارب الأمم، ح١، ص٢٧٨، ابن خلدون، العبر، ح٣، ص٤٩١.

وشمكير على رسالة أخيه، فمنع الآخرين من قصد ولاياتهم، وهمّ بارسال من يرد عليا بن بويه عن مقصده، فتدخل الوزير أيضا بحجة أنه لن يعود مختارا وربما يؤدى به هذا الأمر إلى عصيان مرداويج، وصرفه عن إرادته. ووصل على بن بويه إلى الكرج وأنشأ يحسن معاملة الرعية وعمال مرداويج ويبعث إلى مرداويج برسائل الرضا والشكر، ثم أخذ فى فتح القلاع على أطراف الكرج مثل قلاع الخرمية التى ظفر منها بذخائر كثيرة.

وسرعان ما إشتدت شوكته فى هذه النواحى وملك قلوب الرعية واحترامها، ولهذا سعى مرداويج أن يضعف والى الكرج، فأرسل إليه جندا من المهاجرين يتقاضون أرزاقهم من دخل ولايته، فاحتفى عليا بمقدمهم، واستفاد من ذلك لأنه لم يكن طالب مال. وإنما كان طالب رجال، ولما كان قد تعود أن يعطى كل ما يغنمه للأجناد، فإنه أكرم الوافدين عليه حتى صاروا أتباعا له، وهنا أدرك مرداويج خطأ تصرفه، وندم على ما فعل، وحاول أن يستقدم هؤلاء الجند الذين صاروا قوة لعلى بن بويه، ويحولهم إلى مكان آخر، فخاف هؤلاء الأجناد على أنفسهم، وأيقنوا أن الأمور قد تحرجت بينهم وبين مرداويج، وهنا بدأ النزاع بين الزيارية وبين أتباع على بن بويه، مما جعل مرداويج يصمم على إزالته والقضاء عليه أمامهم[1]. وعندما علم على بن بويه بنية مرداويج نحوه، دبر خطة للفرار من الكرج إلى مكان لا تصل فيه إليه يد مرداويج، وأن يدخل فى طاعة الخلافة العباسية ليكون من خدامها بدلا من أن يخدم مرداويج. فالهجرة إذن هجرة جند ينتقل من خدمة سيد إلى خدمة سيد آخر. غير أن مثل هذا

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٢، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٩١، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص٥٠٥.

التنقل لم يكن ينظر إليه دائما بعين الإرتياح من الولاة والملوك والخلفاء فلم علم مرداويج بتدبير على بن بويه، عمل جاهداً على إفساده، فأرسل إلى أمراء الكرج فاستأمن إليه (شيرزاد) من كبار قادة الديلم، فقويت نفسه وسار إلي أصبهان وبها الأمير المظفر بن ياقوت فى عشرة آلاف مقاتل، وأبو على بن رستم على الخوارج، وسيرهما لقتال على بن بويه، فأرسل الأخير يستعطفها فى الانحياز إلى طاعة الخليفة العباسى وخدمته، والمسير إلى بغداد، فلم يوافقاه، وكان أبو على بن رستم أشد كراهة لعلى بن بويه، فمات فى هذه الأيام، فاستراح إبن بويه منه، أما ابن ياقوت فقد سار ثلاثة فراسخ عن أصبهان وكان فى أصحابه بعض الديلم على رأسهم حسل وديلم، فاستأمنوا إلى إبن بويه، ولما اشتبك الطرفان، وقعت بينهما محركة بظاهر أصفهان فى عام ٣٢١ هـ، فانهزم المظفر بن ياقوت، واستولى على بن بويه على أصبهان، وكان عسكره نحو من تسعمائة، فى حين بلغ جند ابن ياقوت الذى فر إلى فارس نحوا من عشرة آلاف، وكان سبب النصر كان يذكر إبن الأثير وابن خلدون إنضمام جماعة الديلم فى جيش ابن ياقوت وعددهم ٦٠٠ مقاتل أثناء المعركة إلى الديلم أتباع على بن بويه[1].

ولقد ترتب على فتح على بن بويه لأصفهان، أن بلغ القلق مداه بكل من الخليفة القاهر العباسى(٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ)، ومرداويج، وخوفهما على أملاكهما. فأخذ مرداويج بتوعد عليا من بويه ويوعده، محاولاً استدعاءه إليه مرة، ومرة بارسال أخاه (وشمكير) بجيش عظيم إلى أصفهان للقضاء عليه. وشعر على بن بويه بخطورة البقاء فى أصفهان،

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٨، ص٩٣، ابن خلدون، العبر، ح٣، ص٤٩١، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح٣، ص٤٢، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص٣٩ .

لأن بقاءه فيها يجعله قريبا من مرداويج من ناحية، ويسخط الخلافة العباسية من ناحية، بسبب حرصها على التمسك بأصفهان تحت طاعتها. فما كاد على بن بويه يعلم بمسير وشمكير إليه، حتى قصد مدينة أرجان الكبيرة (بهبهان الحالية) وتقع على بعد ستين فرسخا من كل من شيراز والأهواز، فاستولى عليها بدون قتال، لأن صاحبها أبو بكر بن ياقوت لم يأنس من نفسه قوة للوقوف أمام ابن بويه الذى ألحق الهزيمة بوالى أصفهان، وانسحب إلى الجنوب ليستطيع الانضمام إلى غيره، وليستطيع بعد ذلك مواجهة زحف على بن بويه، أما ابن بويه فقد استخرج خراج أرجان الذى بلغ ألفى ألف درهم. فى حين دخل وشكمير أصفهان فملكها، لكنه لم يهنأ بها، إذ أن الخليفة القادر أرسل إليه أن يتركها لواليه محمد بن ياقوت، فتركها بعد أن تلكأ فى خروجه منها[١].

مكث على بن بويه فى أرجان مرة من الزمن، طلبا لراحة جنده، وجمع بعض المال من الناس، ثم خشى أن يجتمع عليه مرداويج وشمكير فاستمر فى انسياحه مع قواته نحو الجنوب، فاستولى على (النوبندجان) وهى مدينة كبيرة تقع بين أرجان وشيراز، دون قتال كبير، بسبب جبن واليها عن مقاومته، أو حتى مساندة قوات آل ياقوت التى وصلت من فارس للتصدى لعلى بن بويه. وهكذا وصل على بن بويه من الكرج إلى النوبندجان دون أن يحارب إلا مرة واحدة فى معركة كبيرة، فقد كان يقتصد فى خوض المعارك ما أمكن، وهذا يعطينا صورة، كما يذكر الدكتور أحمد الشريف عن رجل سياسى، يستعمل الحكمة أكثر مما يستعمل السيف، فمع كونه قائدا لم يكن يتعجل القتال، وكان يفضل التريث

---

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ج١، ص٢٩٧ – ٢٩٨، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٩١، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص٥٠٦.

والسياسة[1]. ثم بدأ بعد ذلك يستعد للزحف نحو شيراز، فاستولى أولا على مدينتى كازرون، غرب شيراز، واصطخر، ليقطع شيراز عن المنطقة الشرقية، وليجبى الأموال منهما لينفق فى عسكره، ثم تقدم نحو شيراز فلقى جيش المظفر بن ياقوت عند قنطرة شيراز، فوقعت بينهما موقعة كبيرة (موقعة القنطرة) فى عام ٣٢٢هـ ، فانهزم صاحب شيراز، وفر إلى واسط، واستسلمت المدينة فاستقر بها على بن بويه واتخذها قاعدة له. ويمدح إبن خلدون معز الدولة بن بويه حيث أبلى فى ذلك اليوم بلاءاً حسناً، فكان من عوامل النصر[2].

وهكذا استقر المهاجرون الديلم النازحون من الشمال إلى الجنوب بعد عامين فى مدينة شيراز. فعلى الرغم من أنهم فتحوا بلاداً ومدنا كثيرة، إلا أنهم مروا بها دون أن يتركوا بها حامية، ودون أن يخضعوها خضوعا تاماً. حتى بلغوا شيراز، وشعروا فيها الأمن، فاستقروا فيها واتخذوها قاعدة، وكان اختيارهم لهذه القاعدة ينم عن بُعد نظر سياسى وحربى سليم[3].

تقدم مرداويج بسرعة إلى أصفهان من الرى وأعاد أخاه إليها ليحفظها، وتقدم بنفسه لقتال على بن بويه. وكان على بن بويه ومرداويج يفتحان البلاد فى هذه الآونة باسم الخليفة العباسى فى الظاهر، ولكن فى باطن الأمر كان كلاهما يهدف إلى تكوين دولة خاصة به والاستيلاء على على خراج المدن وتحميل الخليفة بأمره، لأنه لم يعد للخليفة قدرة

---

(١) حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص٥٠٦.

(٢) مسكويه، تجارب الأمم، ح١، ص٢٩٧ – ٢٩٨،ابن الأثير، الكامل، ح٨، ص٩٣، ٩٥،ابن خلدون، العبر، ح٣، ص٤٩١، ٣٩٢، السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ٣٥٤، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح٣، ص٤٢.

(٣) حسن محمود، أحمد الشريف، نفس المرجع، ص٥٠٧.

عسكرية أو سياسية يؤبه بها وكان لا فوت له من أن يحكمه أمير أو قائد غالب. وهاجم مرداويج الأهواز ليقطع الطريق على علي بن بويه الذى كان يريد الخليفة وبغداد وليجعل دار الخلافة تحت تهديده الدائم. ولكن الخليفة الذى لم يكن راضيا على أى من هذين الندين أنفد قائده ابن ياقوت ليدفع مرداويج ، غير أن الأخير استطاع الانتصارعلى ابن ياقوت وكاتبه أبو عبد الله البريدى، وملك الأهواز [١] .

ومع أن مرداويج كان تمكن من إسترداد رامهزمز والأهواز في شوال (٣٢٢ هـ) لكنه ظل عاجزا أمام جند الخليفة ولم يستطع التقدم إلى العراق. غير أن طموح علي بن بويه السياسي، وتطلعه إلى أن يصبح متقلدا من قبل الخلافة العباسية على ما تحت يده من أملاك، أدى إلى تجدد الصراع من جديد بينه وبين مرداويج الزيارى. فالروايات التاريخية تذكر أن عليا بن بويه نال تقليد الخلافة لحكم البلاد التى كانت تقع تحت سيطرته مقابل مبلغا كبيراً من المال، فأصبح بذلك واليا شرعيا، وأمن جانب الخلافة، وأتباعهم آل ياقوت الذين كانوا يتحفزون لاسترداد ما اغتصبه منهم. فعظم شأنه فى فارس وبلغ مرداويج خبره فخاف غائلته وسطوته، فحشد قواته وأرسلها إلى أصفهان دون أن تشعر بها قوات بنى بويه، ثم أرسل مدداً جديدا، واتجهت هذه القوات نحو الجنوب بعد أن قسمت نفسها قسمين لتحصر بينها عليا بن بويه فى شيراز. فلما علم الخليفة العباسى بتقدم قوات الزياريين، شعر بخطورة الموقف على أملاكه، فأرسل جيشا بقيادة إبن ياقوت ليردها، فأصبح مرداويج بذلك معرضا لسخط الخليفة والوقوع فى حروب مع جنده، ومن ثم يتحول من الولاة المتقلدين إلى الولاة العصاة المتغلبين. وفى ذلك الحين كان على بن بويه يعمل على

(١) إبن الأثير، الكامل ، ح ٨، ص ٢٨٦، إبن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٩٢.

كسب رضا مرداويج الذى كان يلاحقه منذ أن خرج من الكرج إلى أن استقر فى شيراز، فانتهز تأزم العلاقات بين مرداويج والخلافة العباسية، وتملق سيده القديم، وعرض عليه فى مرونة سياسية أن يدخل فى طاعته، وأن يكون ما بيده تابعا للدولة الزيارية، ويخطب على منابر أعماله لمرداويج، فرحب مرداويج بهذا العرض. واشترط أن يرسل على بن بويه أخاه الحسن إلى مرداويج ليكون رهينة عنده على الوفاء، فقبل على بن بويه هذا الشرط وأرسل أخاه الحسن كرهينة إليه محملا بالهدايا النفيسة والطرف[١]. وبهذا العهد الذى أعطاه على بن بويه لمرداويج، أمن على حدود دولته وأصبح مركزه قويا، وقصده الرجال من كل ناحية من نواحى الديلم[٢].

مقتل مرداويج (٣٢٣ هـ):

لم يكن مرداويج مثل أخيه وشمكير وسيده الأول أسفار بن شيرويه، فى الأصل مسلما، أو قبل الإسلام فى الظاهر، لكنه كان متعلقا فى الباطن بالآداب الإيرانية القديمة ومراسيم المذهب الزردشتى. لهذا كان شديد الكره للخليفة العباسى وولاته العرب. وكان يهدف إلى احياء دولة الساسانيين الخالية، وتخريب بغداد وتعمير المدائن وعمائر الملوك الإيرانيين وإدالة الأسرة العباسية، وفى ذلك يقول الإمام السيوطى أن مرداويج كان "مسالم لصاحب المجوس، وكان يقول: أنا أرد دولة العجم، وأمحق دولة العرب"[٣]. ولهذا فقد توج نفسه بتاج مرصع كما كان يفعل

---

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ج١، ص٣٠٢، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٨، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص٠٤.
(٢) حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص٥١٠.
(٣) السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٧.

أنوشيروان، وكان يجلس على عرش ذهبى ويقف عسكره صفوفا بالبعد عنه، ولا يخاطبه أحد إلا الحجاب الذين قد رتبهم لذلك[(١)]. وينفق كثيرا فى اقامة الأعياد القومية الإيرانية. وفى شتاء عام (٣٢٣هـ) حينما كان فى أصفهان أمر فى ليلة عيد النور[(٢)]. أن يجمع وقود كثير وأسباب الاضاءة واشعال النيران على شاطئ نهر (زانيده)، وأن يقام احتفال واحتفاء عظيمان يليق بهذا العيد القديم ويجدر بمثل ملكه. وقبل اقامة مراسم هذا الاحتفال بيوم انشغل مرداويج بتقصى الاعداد له، فوجد أنه لم يعد له الاعداد الكافى فأخذته العزة بالإثم وأراد البطش بمن عهد إليهم بذلك. فخشى رؤساء الجيش على أنفسهم وخافوا سفكه دمهم واعتزموا الثورة عليه قبل أن يوقع بهم انتقامه ويتخلصون منه. لكن الحسين بن محمد أخمد هذه الفتنة. وبعد هذا بأيام أربعة حرض مرداويج جنده الديلم على ضرب غلمانه من الترك وتأديبهم لسخطه عليهم وهددهم بالقتل، لأنه لم يصف يوما للأتراك وكان يسميهم بالشياطين ويبدى كرهه لهم.

فتآمر الغلمان الترك على قتله لكى ينجوا منه، وانتهزوا ذهابه للحمام يوما وأمر رئيس حراسه لغضبه منه أن يدع حراسته له فهاجموه

---

(١) أبو الفدا، المختصر، ج٢، ص٧٣. يسميه الفرس (جشن سده) يحتفلون ليلته باشعال النيران باللوز والجوز ويشربون الخمر حولها ويطربون ويلهون، ويقع فى شهر بهن وهو الشهر الحادى عشر من السنة الشمسية الإيرانية، يقع فى اليوم العاشر فيه. أما الاحتفال باشعال النور فيحدث ليلة اليوم الحادى عشر، وسبب تسمية (سده) أى المئوى أنه يقع قبل النيروز بخمسين يوما وخمسين ليلة، وسبب الاحتفال به فى عقيدتهم أن أفريدون فى حربه للضحاك كما فى شاهنامة الفردوسى الشهيرة أمر الناس باشعال النيران على أسطح منازلهم ليلا لكى يتحقق من أن وزير الضحاك المسمى (ارمائيل) كان ينقذ نصف الشباب المعينين للقتل لكى يدهن الضحاك كتفيه بأمخاضهم فتهدا الحيتان النابتتان على كتفيه ولا تؤذياه إذا أصابتا من هذا الدهن (عن أعياد الفرس راجع: كتاب البيرونى (التفهيم لأوائل صناعة التنجيم)، ص ٢٥٣ ـ ٢٦١، طبعة عام ١٣١٨ هـ. نشر بإيران تصحيح جلال همائى).

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٨٦، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤٩٢.

فى الحمام وقبضوا عليه وقتلوه، ثم نهبوا قصره وما به من أثاث وهربوا إلى أصفهان خوفا من الجنود الديالمة وترتب على مقتله أن تفرق كثير من جند الديلم، واتجهوا مهاجرين نحو الجنوب، والتحق بعضهم بخدمة بنى بويه فى شيراز وكان ذلك فى عهد الخليفة العباسى الراضى بالله[1].

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المؤرخين الإيرانيين قد ركزوا على فترة حكم مردوايج بن زيار، وإعتبروها ذات أهمية سياسية فى تاريخ الفرس، لاحيائه الرسوم الملكية الفارسية، واعتزازه بها.

ولاية وشمكير بن زيار (٣٢٣ – ٣٥٧ هـ):

(وشمكير) صفة للوشم الذى وضعه هذا الرجل على يده، حيث وشم على ذراعه صورة طائر صغير فعرف بوشمكير. وبعد قتل مرداويج تحول الجند الجيليون والديلم من أصفهان إلى الرى وبايعوا أخاه وشمكير، كما أن الديالمة بخوزستان أخلوها له وأسرعوا إليه، وسنحت بهذا الفرصة للحسن بن بويه أخى على وكان مقيما بالأهواز فى ذلك الوقت كرهينة، ففر من حبسه ولحق بأخيه فى فارس. ولما سمع الأمير نصر بن أحمد السامانى بخبر قتل مرداويج الذى كان يعتبر دائما ندا خطير له، سُر وعزم على استعادة جرجان وطبرستان والرى تلك المدن التى كانت تحت سلطان السامانيين فى عهد الأمير إسماعيل، وخرجت عن أيديهم فى حكم الناصر الكبير وأسفار ومرداويج، فأصدر أوامره إلى حاكم خراسان الأمير محمد بن مظفر بن محتاج الجغانى، وما كان بن كاكى الذى يعيش فى كرمان متواريا، أن يهاجما قومى الرى وجرجان (كان

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠٣ – ١٠٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٣٦٤، السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٧ عباس إقبال، تاريخ إيران، ص٤١ - ٤٢.

الأمير محمد الجغانى هذا قد استولى على كرمان كما سيأتى فى تاريخ السامانيين) فى عام (٣٢٢ هـ) وكان ماكان عاملهم هناك). وأسرع ماكان للسيطرة على الدامغان ولكن عامل وشمكير ويدعى بانجين الديلمى، هزمه وهزم جيش الأمير الجغانى أيضا فرجع ما كان إلى نيسابور وبقى فيها حاكما من قبل الأمير نصر.

كان لوشمكير خلاف الأمير نصر، عدو كبير هو على بن بويه الذى رأى فى آخر عهد مرداويج أن الصلاح يقتضى وقتذاك الصلح معه وأخذ ينتظر السانحة فى فارس. ولما قتل مرداويج ونجا الحسن بن بويه أمده أخوه على بجند ويعث به للسيطرة على أصفهان عندما بلغه أن وشمكير قد أنفذ عسكره مدداً لما كان بن كالى، وأن أصبهان خالية، فسار إليها من رامهُرمز وأخرج من بقى منها من أصحاب وشمكير، وملكها واستقر بها[١]، ثم توجه لفتح همدان والرى وقزوين وقم وكاشان. واتخذ أباالفضل بن العميد وزيرا له[٢]. فاضطر وشمكير إلى استدعاء ما كان إليه وكان يقضى أيامه فى نيسابور فى حسرة الاستيلاء على جرجان وضياعها فولاه هذه الولاية. ويذهب الدكتور فتحى أبو سيف إلى أن وشمكير قد اقتنع على مايبدو بضرورة مصالحة (ما كان بن كالى) ليفوت على السامانيين فى خراسان استخدامهم أسلوب التفرقة بين قادة الديلم، فتنازل وشمكير عن جرجان، ثم عن سارية بطبرستان، ومنحهما لمكان بن كالى، فاستحكمت المودة بينهما، وخرج ماكان بن كالى على طاعة

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٥٠٦.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٦٤، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص٤٣.

السامانيين[١]. وفى هذه الأثناء تملك على بن بويه على خوزستان وأجبر وزير الخليفة على أن يترك له الجند المقيم بالبصرة ليحارب بهم وشمكير ويرسل منهم مددا لأخيه الحسن بأصفهان ويفسر بعض الباحثين تحول على بن بويه من مهادنة الدولة الزيارية، إلى الطمع فى أملاكها، فى عهد وشمكير بتنافى قوة الطرفدار الجيد (على بن بويه) التى أصبحت تعادل قوة الزياريين (الطرفدار القديم)، لا سيما وأن بينهما مسافة خاضعة لخلافة تفصل بين أراضيهما. كما أن وشمكير كان أقل قدرة من أخيه مرداويج، كما كان يواجه صعوبات سياسية تحول بينه وبين فرض التبعية على الديلم، كما كان الحال فى عهد مرواويج[٢]. ولو أراد فعلا تنفيذ هذه التبعية، لما استطاع بسبب قوة على بن بويه، فالفريقان متساويان فى القوة، كذلك لم يكن لدى ابن بويه ما يجعله يلين فى معاملة الزياريين، كما كان يمكن أن يلين لو كان تعامله مع أئمة الزيدية فالزياريين فى نظر على بن بويه ينقصون عن الإمامة الزيدية شيئا هاما هو لهيبة الروحية[٣].

وفى عام (٣٢٧ هـ) استخلص وشمكير أصفهان من يدالحسن بن بويه الذى هرب إلى اصطخر ثم استطاع الأمير الزيارى فتح قلعة (الموت) وزادت قوته وشوكته[٤].

---

(١) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠٥، ١١٤.

(٣) حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص٥١٣.

(٤) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص٤٣.

قتل ما كان(٣٢٩ هـ):

ساء الأمير نصرا الساماني نكران ما كان لجميله وتركه له وذهابه إلى عدوه وشمكير، فأنفذ أبا على أحمد بن الأمير محمد إبن محتاج في (٣٢٨هـ) لتأديبه والسيطرة على جرجان، وحاصر الأمير إبن محتاج ماكان في هذه المدينة فسير وشمكير (شيرج) أخا (ليلى بن النعمان) من الرى مددا لما كان، ولكنه بدلا من مناصرة ما كان على أبى على بن محتاج توسط بينهما، فاشترط أبو على أخذ جرجان لكى يصرف نظره عن أسر ماكان. والتجأ ما كان بطبرستان.

وبينما كان وشمكير حزينا على ذهاب جرجان، تواطأ الحسن بن بويه وأخوه مع أبى على بن محتاج، فاستفادوا من أن وشمكير وجه أغلب جنده لمقابلته، فاستصفوا أصفهان واستأسروا جمعا من قواد وشمكير. وبعد أن أخذ أبو على بن محتاج جرجان عهد إلى (إبراهيم بن سيمجور) بحكمها وأتى الرى فى بداية ربيع الأول من عام (٣٢٩ هـ) وكان يغرض هو وأبناء بويه إلى الأطباق على وشمكير واستخلاص الولايات التى فتحها مرداويج فى مدة عشرة أعوام منه. وهكذا وقع وشمكير بين فكى كماشة فلم يجد بدا من الهروب إلى الرى ليعاونه ماكان، بينما كان أولاد بويه قد اقتربوا من حدود الرى قادمين من أصفهان بعون من أبى على بن محتاج. واشتعلت الحرب بين الفريقين فى الرى فى ٢١ من ربيع الأول من عام (٣٢٩هـ) ولم يفد ماكان استبساله شيئا إذ كانت الغلبة من نصيب أبى على بن محتاج والحسن بن بويه. وانتهى أمر ماكان إلى القتل. وركن وشمكير إلى الفرار إلى طبرستان، ودخل أبو على الرى وبعث برأس ماكان وأسرى كثيرين من الديلم إلى بخارى حيث يوجد الأمير نصر

السامانى، وطلب من كاتبه صياغة رسالة مختصرة لارسالها للأمير السامانى بشأن انتصاراته، فكتب له الكاتب عبارة حازت على إعجاب الأمير السامانى وهى "أما ما كان قد أصبح كاسمه". ثم مد سيطرته إلى زنجان وأبهر وقزوين وقم والكرج وهمدان ونهاوند والدينور، وأوصل حدود الدولة السامانية حتى حلوان(١).

ولما وصل خبرمقتل ماكان إلى (سارى) ثار ابن عمه (حسن بن فيروزان) بحجة أن وشمكير تسبب فى قتل ماكان فى حرب الرى عمدا، لكنه غلب على أمره مع حربه مع شيرج بن ليلى، فالتجأ بأبى على بن محتاج بالعراق وحثه على ضم طبرستان. فبدأ أبو على بحصار سارى لكنه لم ينل منها شينا بسبب قسوة شتائها ومقاومة وشمكير، وفى النهاية طب وشمكير الأمان ووافق على أن يخطب للأمير نصر السامانى من ذاك الوقت فصاعدا. وفى أواخر سنة (٣٣٠ هـ) صالح أبو على وشمكير وتحرك إلى بخارى مصطحبا معه سالار ولد وشمكير كرهينة، ولم يكد يصل خراسان حتى وصله خبر موت الأمير نصرالسامانى (٢).

علاقة وشمكير ببنى بويه:

رافق حسن بن فيروزان أبا على بن محتاج فى عودته إلى بخارى، وفى أثناء الطريق انقض على معسكر أبى على وهرب راجعا إلى خراسان بأسلاب عظيمة وبابن وشمكير(سالار). ثم أخذ جرجان والدمغان وسمنان ، ولم ير عامل السامانيين فى جرجان إبراهيم بن سيمجور غير

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٨، ص٥٦، أبو الفدا، المختصر، ح٢، ص٨٨، عباس اقبال، تاريخ إيران، ص٤٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح٨، ص١٤٢، فتحى أبو سيف، خراسان، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

مصالحته حلا. وانتهز وشمكير الفرصة أيضا فاستعاد الرى ، بينما أرسل حسن بن فيروزان ابنه سالار إليه وقبل طاعته.

وحث الحسن بن بويه حليف أبى على بن محتاج خطأه لاستخلاص الرى من قبضة وشمكير الذى انهزم أمامه إلى طبرستان، وفر منها إلى خراسان، فأطبق الحسن بن بويه على طبرستان، ودخل حسن بن فيروزان فى طاعته، وزوجه بابنته التى ولدت له فخر الدولة الديلمى.

وكان وشمكير يهدف من فراره إلى خراسان أن يستمد الأمير نوحا بن نصر السامانى وقائده المعروف أبا على بن محتاج. فأمده الأمير السامانى بأبى على هذا و(منصور بن قراتكين) لفتح الرى، لكنهما لم يستطيعا الصمود أمام الحسن بن بويه. غير أن وشمكير نجح فى اخراج جرجان عن يد حسن بن فيروزان فى صفر من (٣٣٣ هـ) وإن لم يستطع الحفاظ عليها طويلا، بل اضطر إلى الهروب إلى خراسان بحماية من منصور بن قراتكين [١].

وكان هذا الموقف وراء خروج الأمير نوح السامانى إلى جرجان لقتال حسن بن فيروزان والحسن بن بويه، لكن حاكم طوس (أبا منصور محمد بن عبد الرزاق الطوسى) الذى جمعت باسمه أول شاهنامة نثرية، ولهذا فإنه يذكر بالخير في تاريخ الأدب الفارسى [٢] ثار على نوح وتحالف

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح٨، ص ٦٢ .

(٢) صار قائد جيش خراسان من قبل أبى بن محتاج نحو عام (٣٣٥ هـ) أول أمره، وحينما فكر في محالفة ركن الدولة الديلمي لضرب وشمكير بن زيار، عرف الأخير بأمره فدس إليه السم فمات (٣٥٠ هـ). وشهرته الأدبية تفوق شهرته السياسية لأنه أمر أبا منصور المعمري وزيره بتدوين أخبار الملوك الفرس السابقين بما يسمى الشاهنامه، فاستقدم هذا الوزير علماء خراسان والعالمين بالتاريخ وانجزوا هذا العمل عام (٣٤٦ هـ). وقد صارت هذه الشاهنامه المصدر الرئيسى الذى استقى منه الفردوسى الشاعر الفارسى الشهير (توفى عام ٤١١ أو ٤١٦ هـ) شاهنامته الشعرية، وكذلك الشاعر الفارسى الدقيقى (متوفى نحو ٣٦٥ هـ) من قبله.

مع آل بويه. فتحول نوح إليه أولا فهرب أمامه إلى الرى محتميا بحلفائه. وأكرمه إبن بويه ووجه إلى آذربيجان لحرب أحد أمراء آل مسافر.

وفى عام (٣٣٦ هـ) استخلص منصور بن قراتكين طوس ونيسابور من أيدى أتباع أبى منصور الطوسى واستأسر أمه وبعض أتباعه وأرسلهم إلى بخارى. وفى نفس العام أخرج الحسن بن بويه وصهره حسن بن فيروزان وشمكير مرة ثانية عن طبرستان وجرجان، فلجأ الأمير الزيارى هذه المرة بآل سامان فى خراسان ليستمدهم.

ومن هذا التاريخ حتى نجاح فتح الحسن بن بويه فى طبرستان للمرة الثانية فى (٣٤٢ هـ) ، حدث صدام كثير بين آل بويه والقواد السامانيين الذين كانوا يقدمون لعون وشمكير، فقد أرسل الأمير نوح إبن نصر السامانى قائد جيوشه أبى على بن محتاج إلى الرى، فنسق إبن محتاج مع وشمكير بن زيار خطة حربية، وسارا معا تجاه الرى التى كان يحكمها ركن الدولة البويهى، والذى فضل أمام ما رآه من ضخامة جيشهما، أن يتحصن بقوته في قلعة طبرك - طبره - الحصينة واستمر الحصار طويلا، وكان النصر للطرفين سجالا إلى أن تصالح أبو على مع ركن الدولة البويهى [1] فى الرى وانتهزها البويهى فرصة لكى يزيح وشمكير نهائيا عن طبرستان وجرجان. ففر وشمكير هاربا إلى خراسان مرة أخرى، وإتهم أبا على بن محتاج أمام الأمير نوح بالتحالف مع البويهيين، وذلك لأن الخراسانيين تخوفوا قرب الشتاء، وتهيبوا سقوط الثلج عليهم، فوافقوا على الصلح. وتم الاتفاق بينهما على التزام ركن

---

(١) فى عام ٣٣٤ هـ استولى أحمد بن بويه على بغداد وحجر على خليفتها المستكفى، ولقبه الخليفة معز الدولة ولقب أخاه الحسن بركن الدولة وأخاه عليا بعماد الدولة، وسوف يذكر هؤلاء بألقابهم بعد هذا .

الدولة بدفع ٢٠٠ ألف دينار سنويا للأمير نوح مقابل رفع الحصار عنه، وترك الري له، ولقى هذا الاتفاق القبول عند ابن محتاج الذى فضل العودة إلى خراسان. ولقد عارض الأمير الساماني هذا الاتفاق. ويرى الدكتور فتحي أبوسيف أن وشمكير –وكان قد عارض هذا الاتفاق- قد لعب دوراً في معارضة الأمير نوح الساماني لهذا الصلح، ويستند في ذلك على رسالة احتفظ بها ابن مسكويه،أرسل بها وشمكير إلى الأمير الساماني، بين له فيها أنه كان بالإمكان دحر قوة ركن الدولة وهزيمته، لولا تخاذل ابن محتاج ومما لأنه للبويهيين، فعزله نوح عن حكم خراسان، فعصى أبو على وأعلن امارته على نيسابور[1]. فحول نوح إليه وشمكير ليزيله، فاتجه مضطرا إلى ركن الدولة. فصحبه ركن الدولة إلى جرجان التى كان يحكمها وشمكير باسم السامانيين، فحاصره ركن الدولة في مدينة سارية بطبرستان، مما جعله يلوذ بالفرار منها[2]. ولكن هذا الحال لم يدم، لأن بمجرد عودة ركن الدولة استولى وشمكير على جرجان بعون الخراسانيين، حتى جعل ركن الدولة وشمكير في النهاية يختفي في جيلان (٣٥١ هـ) فعادت إلى طاعته طبرستان وجرجان من جديد.

وفاة وشمكير الزياري (٣٥٧ هـ/٩٧٦م):

وخلال هذا الصراع أخرج البويهيون ولاية كرمان أيضا عن يد أميرها (أبى على بن الياس)، فقصد أبو على الأميرمنصور بن نوح الساماني في بخارى، وشجعه على تملك ولايات آل بويه، فوجه الأمير

---

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ج٢، ص١٥٤ – ١٥٧، فتحي أبو سيف، خراسان، ص١٢٩ - ١٣٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

الساماني إلى الري جيشا كثيفا يقوده كل من وشمكير وأبو الحسن سيمجوري. ويبدو أن الدافع الذي دفع الأمير الساماني لاعطاء القيادة لوشمكير، ما وصله من معلومات عن تهاون نوابه في خراسان، وعدم جديتهم في محاربة البويهيين، كما حدث من قبل مع ابن محتاج. ويذهب الدكتور فتحي أبو سيف إلى أن الأمير الساماني ربما أراد استغلال رغبة وشمكير في قتال البويهيين الذين قضوا على سلطانه في جرجان وطبرستان، وقد اتضح ذلك في الرسائل المتبادلة بين وشمكير وركن الدولة، التي هدده فيها وشمكير بألفاظ جارحة، حتى أن كاتب ركن الدولة كان يستحي من قراءة هذه الألفاظ والتهديدات[١].

ولقد طلب ركن الدولة المدد والمساعدة من جميع أفراد الأسرة البويهية ، فقدم إليه ابن (بناه خسرو) المعروف بعضد الدولة ابن أخيه باختيار الذي لقب فيما بعد بعز الدولة، ولكن قبل أن يلتقي الجيشان ببضعة أيام خر وشمكير في (أول المحرم من عام ٣٥٧ هـ/ ٩٧٦م) من على جواده بينما كان يصطاد فلقي حتفه. وانفرط عقد جيشه ونجا الحسن بن بويه من هذا الخطر الداهم.

ولاية بيستون بن وشمكير (٣٥٧-٣٦٦هـ):

بعد موت وشمكير خلفه في الإمارة الزيارية ابنه الأكبر أبو منصور بيستون الذي كان بطبرستان في ذلك الوقت لكن كبار أتباعه الذين رافقوا جيش السامانيين بايعوا أخا وشمكير الأصغر وهو (قابوس). وانحاز أبوالحسن سيمجوري إلى قابوس أيضا. فركن بيستون إلى حماية

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ح٢، ص٢٣٢ – ٢٣٤ ابن الأثير، الكامل، ح٨، ص٢٠٨ ، ابن كثير، البداية والنهاية، ح١١، ص٢٦٣، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح٣، ص١١٠ – ١١١، فتحي أبو سيف، خراسان، ص١٣١ -١٣٢.

ركن الدولة الذى ملكه طبرستان، وتزوج ركن الدولة بابنته التى ولدت لـه عضد الدولة. واستولى قابوس بعون السـامانيين علـى جرجـان. ودام هـذا الحال حتى عام (٣٦٦ هـ) حين مـات بيستون واستقل قـابوس فـى ملكـه لكن لم يبق له من جميع البـلاد التـى فتحـها جده مرداويـج غير جرجـان وقسم من طبرسـتان، وكـان يحيا فيـها فـى واقـع الأمـر تحـت حمايـة السـامانيين. وقد لقب المطيـع الخليفـة العباسى بيستون فـى (٣٦٠ هـ) بظهير الدولة، بأمر من عضد الدولـة، وأصدر أمره بـأن يحكم جرجـان وطبرستان رسميا [١].

ولاية شمس المعالى قابوس بن وشمكير (٣٦٦-٤٠٣هـ):

مات ركن الدولة فى نفس العام الذى تولـى فيـه قـابوس، وقسمت بلاده بين أبنائه الثلاثة عضد الدولة ومؤيد الدولـة وفخـر الدولـة فصـارت فارس وكرمان لعضـد الدولـة ومؤيـد الدولـة. وهمذان وجـزء مـن عـراق العجم لفخر الدولـة.

وفى عام (٣٦٩ هـ) طمع عضـد الدولـة ومؤيـد الدولـة فـى مـلك أخيهما فخر الدولة واستخلصا منه بـالفعل همـذان. فلجـأ فخـر الدولـة إلـى حماية قابوس فى جرجان، حيث كانت تربطـهما صلـة قرابـة [٢]. فاستقبله بحفاوة وكرم ووعده أن يقوم لنجدته ويسترد له ملكه مـن أخويـه. وعنـد ذاك أرسل عضد الدولة ومؤيـد الدولـة إلـى قـابوس أن يـترك فخـر الدولـة الرى إليهما مقابل خراج عام، فرفض قابوس هذا الاقتراح واعتـبر قبولـه مخالفا للضيافة والمروءة وأغلظ لهما فى رده، وأصبـح هـذا الـرد العنيـف

---

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص٤٧.
(٢) أبو الفدا، المختصر، ج٢، ص١٢١ - ١٢٢.

ذريعة لغزو أخوى فخر الدولة طبرستان وجرجان. ولما لم يستطع قابوس المقاومة، هرب بعد حرب قصيرة هزم فيها بالقرب من (استراباد) إلى خراسان فى جمادى الآخرة من (٣٧١ هـ) ولحق به فخر الدولة وخرجت عنهما جرجان وطبرستان واللتان سقطتا فى أيدى عضد الدولة وأخيه مؤيد الدولة.

وكانت حكومة خراسان وإمارة جيشها فى هذا الوقت لحسام الدولة أبى العباس تاش من طرف السامانيين، وقد صدر إليه أمر نوح بن منصور باعادة قابوس وفخر الدولة إلى بلادهما آمنين. فوجه أبو العباس تاتش أحد أعوانه ويسمى (فائق الخاصة) إلى قومس واتجه هو إلى جرجان وحاصر فيها مؤيد الدولة واستمر حصاره لها شهرين لكنه لم يستطع دخول المدينة بالرغم من انضمام فائق إليه. وفى النهاية تواضع مؤيد الدولة مع فائق وجنده، بعد أن دفع له رشوة طائلة، على أن يهربوا جميعا فى أول بداية القتال. وخرج مؤيد الدولة من جرجان فى رمضان من (٣٧١ هـ) وحمل على جند تاتش وقابوس وفخر الدولة. ولما انسحب فائق وأصحابه بناء على الاتفاق، ولم يستطع تاتش وقابوس وفخر الدولة الثبات ، ولوا وجوههم منهزمين إلى نيسابور، ولم يحقق الجيش السامانى شيئا. واستمر قابوس فى حالة من التشتت بسبب تردى الوضع الداخلى للبلاط السامانى والمنافسة الشديدة بين حسام الدولة تاتش وفائق الخاصة، ورؤساء الأسرة السيمجورية حتى عام (٣٨٨ هـ)، ونتيجة لهذا بات قابوس بعدما حكم أربعة أعوام (٣٦٦ ـ ٣٧١ هـ) محروما من

الإمارة مدة سبعة عشر عاما (٣٧١ – ٣٨٨ هـ) بعيدا عن ملك أبيه يعيش فى حماية آل سامان فى خراسان [١].

أما فخر الدولة بن بويه فلما مات أخوه عضد الدولة فى (٣٧٢هـ) وأخوه مؤيد الدولة فى (٣٧٣ هـ) قدم الرى بدعوة الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة[٢] وخلف أخاه وسلك غير سبيل المروءة خلافا لقابوس، فبدلا من أن يساعده فى وصوله إلى حكمه الضائع، أناب أبا العباس تاش الذى تحول عن السامانيين واحتمى به فى حكم جرجان. وكان المانع فى عودة قابوس إلى جرجان والذى صرف فخر الدولة عن هذا الأمير هو وزيره الصاحب بن عباد الذى لم يكن على صفاء مع قابوس. وهكذا ظلت ولاية جرجان فى يد عمال آل بويه حتى عام (٣٨٨هـ) ، وظل قابوس منتظرا بخراسان مؤملا فى عون السامانيين وقواد جيشهم.

وبعد موت الصاحب بن عباد فى عام (٣٨٥ هـ) ووفاة فخر الدولة فى سنة (٣٨٧ هـ) ظهر فى أحوال ديالمة العراق الضعف التام وتولى أمرهم إبن فخر الدولة الأصغر (مجد الدولة أبو طالب رستم الذى لم يتجاوز الرابعة من عمره). فأفاد قابوس من هذا الوضع، ولما كان يائسا من عون آل سامان الذين صاروا فريسة الهرج والمرج والضعف الشديد، انتوى أن يستعين برفاقه الديلم والطبريين ويستعيد جرجان من عمال آل بويه بنفسه. وكان أول من تصدى لعون قابوس هو الاسبهبد شهريار بن

---

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص٤٨، فتحى أبو سيف، خراسان، ص١٣٣ – ١٣٤.

(٢) الصاحب بن عباد المتوفى عام (٣٨٥ هـ) من رجال وكتاب البويهيين وكان من أهل الطالقان. لحق فى شبابه بخدمة ابن العميد ووزر لمؤيد الدولة البويهى. ويشتهر أكثر من السياسة بعلمه وأدبه وحدبه بأهل العلم والأدب والفضل، وكان لا يقل عنهم إن لم يزد تمكنا فى علوم الأدب. وكان له مكتبة ضخمة بلغ عدد ما فيها أن ملأ عشرة مجلدات، ومن آثاره كتاب المحيط فى علوم اللغة العربية.

شروين من رؤساء طبرستان، وبفضل هذه المساعدة تمكن بسهولة من أن يتغلب على أخى زوج فخر الدولة وهو (رستم بن مرزبان) خال مجد الدولة وأخى (سيدة خاتون) أمه. واستولى على (آمل) أيضا اثنان من أتباع قابوس ثم أطبقا على استراباد. وسعى فيروزان بن حسن بن فيروزان المعروف مرارا أن يستعيد استراباد لآل بويه من أتباع قابوس ولكنه أصيب بالفشل فى كل مرة ومزقت جيوش الدولة شر ممزق. ونتيجة لهذا فتحت جرجان أيضا، وعاد قابوس فى شعبان من سنة (٣٨٨هـ) بعد سبعة عشر عاما من الفراق إلى عرشه بدعوة من أتباعه[١].

وزحف مجد الدولة بجيشه يعزم استعادة طبرستان وجرجان من قابوس مرتين، لكنه أدرك فى النهاية أنه ليس كفوا له، فاضطر إلى مصالحته، خاصة وأن أخا فيروزان وهو نصر بن حسن الذى كان يحكم قومس من جانب الديالمة قبل عودة قابوس، ثم طرده عنها أتباع قابوس، قد سلك طريق العصيان ونهب أموال الرعية والظلم والجور وتسبب بذلك فى إشعال فتنة كبرى، وكان مجد الدولة يود أن يدفع شروره بيد قابوس. وهرب إلى قهستان خوفا من مجد الدولة وضم إلى جانبه أبا القاسم سيمجورى وحثه على مهاجمة الرى وأتى به وبأتباعه إلى ضواحى هذه المدينة. لكنهما لقيا هزيمة فادحة من قابوس ففرا إلى السلطان محمود الغزنوى.

وقد وسع شمس المعالى فى فترة حكمه الثانية (٣٨٨ ــ ٤٠٣ هـ)، من دائرة ملكه فى ناحية الغرب، فقد استولى على رويان وجالوس

---

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص١١٢، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص٤٩ ــ ٥٠.

وجيلان وأناب ابنه (منوجهر) فى حكمها. ولما زادت قوة السلطان محمود الغزنوى وشوكته فى هذا الوقت بسبب استيلائه على خراسان، شعر قابوس بالخطر المحدق بدولته، وسعى لإرضاء السلطان محمود الغزنوى، فقام بإرسال التحف والهدايا إليه وأظهر له الحب والإخلاص. ولكن هذا الصفو دام فقط حتى (٣٩٠ هـ). لأن فى هذا العام، على النحو الذى سوف يرد فى تاريخ السامانيين فيما بعد، تكدر الصفو بينهما بسبب ثورة الأمير المنتصر إسماعيل بن نوح السامانى على السلطان محمود، والتجأ الأول إلى قابوس الذى استقبله بالإكرام، ولم يعد الوداد كما كان إلا بعد أن خلص قابوس من انحيازه إلى الأمير المنتصر ولم يسمح له بالقدوم إلى جرجان.

مقتل قابوس (٤٠٣ هـ):

كان قابوس رجلا فظا غليظا سريع الغضب يحكم بالقتل بسهولة، بل ويقتل بيده كل برئ لأدنى المظنة، لهذا تجرع من يديه جمع كثير مرارة الموت ورجفت قلوب المقربين إليه، واستقرت الضغينة فى صدور غالب قواد جيشه ورعيته له، إلى أن قتل حاجبه الخاص وكان رجلا مسالما وديعا يحبه الجيش، فثار الجند وأحاطوا بمقامه فى قلعة (جناشك) – بين جرجان القديمة واستراباد- ولكنهم لم يتمكنوا من القبض عليه، فذهبوا إلى جرجان واستدعوا منوجهر ابنه من طبرستان وأفهموه أنه إذا لم يتحالف معهم فى عزل أبيه فسوف يجلسون غيره فى الحكم. فاستسلم منوجهر طوعا أو كرها وصاحب الجيش للقبض على أبيه فى بسطام حيث التجأ. وتلاقى الأب والابن فى هذا المكان. واعتزل قابوس الحكم برغم اصرار ابنه على قبول أمره وإستعداده. لدفع شر الجند، ووافق قابوس أن

ينزوى فى قلعة جناشك، ولكن الجنود لخوفهم من عودته وانتقامه منهم، انتهزوا فرصة وقتلوه فى نفس القلعة فى عام (٤٠٣ هـ).

وكان شمس المعالى قابوس رغم شدته وفظاظته أشهر أفراد الأسرة الزيارية، لأنه كان رجلا فاضلا وكريما محبا للفضل ومشجعا للشعراء وأديبا حسن الخط، وكان دائم الاختلاط والمراسلة مع الفضلاء والعلماء فى عهده حتى فى أثناء غيبته فى خراسان وفقدانه للحكم، وكان كثير الانعام والاكرام لهم، فوصل صيت فضائله إلى الأطراف والأكناف. ومهر في الشعر الفارسي والعربى، وكان بلاطه مجمع الفضلاء والشعراء الذين كان يغدق عليهم فى عيدى النيروز والمهرجان. ومن شعرائه المعروفين الحكيم أبو بكر محمد بن على الخسروى السرخسي، وأبو القاسم زياد بن محمد القمرى الجرجانى اللذان مدحاه بالفارسية. وقد كثر الشعراء العرب والحاشية العربية عنده. وقد ألف العالم الجليل أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى كتابه الشهير (الآثار الباقية) فى عام (٣٩٠ هـ) باسم قابوس، وقصده من خوارزم حبا له الحكيم والطبيب العظيم أبو على الحسين بن سينا، ولكن قبل وصوله جرجان سمع بخبر القبض عليه وقتله، فعاد آيسا إلي قزوين وهمذان فى حماية آل بويه [١].

ولاية فلك المعالى منوجهر (٤٠٣ – ٤٢٣ هـ):

بعد مقتل قابوس خلفه ابنه منوجهر ولقبه القادر الخليفة العباسى (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ) بفلك المعالى وكان أول عمل له بعد توليه القبض على قتلة أبيه ومعاقبتهم. وكان لمنوجهر أخ اسمه (دارا) حكم طبرستان قبله،

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٥٢ ـ ١٥٤، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص٣٩١، ٤٠٢، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص٥١ ـ ٥٢.

لجأ إلى السلطان محمود الغزنوى فى غزنة قبل قتل أبيه بفترة لسوء ظن وقع بينهما، وكان يعيش فى كنف الغزنويين أملا فى الوصول إلى الحكم. وقد لقى دارا هذا الحظوة والمكانة الرفيعة عند السلطان فى أول الأمر، ولكن محمودا الغزنوى تغير عليه لجفاء قوله فى مجلسه فهرب إلى والى الكرج. فأخبر السلطان واليها بخبره وطلب منه أن يسلمه إليه. فلما وصله ألقى به فى السجن، وإن عفا عنه بعد مدة،لأنه كان يريدً أن يجعله آلة لتنفيذ هدفه فى السيطرة على جرجان وطبرستان بأن يصل به إلى حكمهما. ولاح قتل قابوس للسلطان محمود الغزنوى فرصة مناسبة لاتمام نيته، لكن منوجهر بادر بارسال التحف والهدايا واعترف بسيادة سلطان غزنة عليه وطلب ابنته ليتزوج بها. وأصبح هدف محمود واقعا عمليا بسبب أن منوجهر كان قد نصبه الخليفة العباسى رسميا وقبل اطاعة السلطان، فزوجه بابنته وعقدت بين الطرفين معاهدة مقتضاها قبول منوجهر لتبعية السلطان محمود.

وفى عام (٤٢١ هـ) حينما مرض السلطان محمود مرض الموت سير منوجهر لمسعود الغزنوى خلفه رسولا خشية أن يتحول بعد موت أبيه عن عهده معه، ويجعل من دارا أخيه الذى كان يتوقع هذه الفرصة ليستولى فيها على جرجان وطبرستان، [illegible]بة لتحقيق مقاصده ، فتمكن من تجديد العهد السابق مع الغزنويين، وبناء عليه لم يتعرض الغزنويين إلى بلاده ما دام منوجهر حيا.

ولقد وقع بين فلك المعالى منوجهر ومجد الدولة الديلمى صاحب الرى خلاف مرتين، وكان منوجهر ينحاز إلى أعداء مجد الدولة عداء له، لكن هذه الخلافات التى سوف يشار إليها فى تأريخ أحداث البويهيين والغزنويين، لم تؤد إلى حرب حاسمة وكان الأمر ينتهى دائما بالصلح.

ومع أن فك المعالى لم يكن فى مثل فضل أبيه شمس المعالى، لكنه سار على نقس سيرته، ونهج نهجه فى اجتلاب الفضلاء واكرام الشعراء، وكانت احدى مآثره ظهور الشاعر الفارسى الشهير (منوجهرى الدامغانى) فى عهده، والذى اشتق تخلصه من اسم هذا الأمير الزيارى، ومنوجهرى الدامغانى هذا هو أبو النجم أحمد بن قوص بن أحمد المنوجهرى الدامغانى المتوفى (٤٣٢ هـ) وهو من كبار الشعراء فى القرن الخامس وعصر مسعود الغزنوى ممدوحه. وكان هذا الشاعر على وقوف تام بالأدبين العربى والفارسى وأفاد كثيرا من الأدب العربى معاني وأساليب وألفاظا نادرة. ويعد مبتكرا لفن الطبيعة والشراب. وفوق الأدب كان على دراية بالطب والنجوم وتقرأ الاصطلاحات كثيرا فى أشعاره [١].

ولاية نوشيروان بن فلك المعالى (٤٢٣ – ٤٣٥ هـ):

مات فلك المعالى منوجهر بجرجان بعد جلوس السلطان مسعود الغزنوى على عرش أبيه بعامين، واشتهر أن خال فلك المعالى وهو باكاليجار كوهى بن ويهان [واسمه مركب من كلمة (أبو) العربية، وكلمة (كاليجار) الديلمية، ومعناها الحرب، وكأنما اسمه ترجمة لاسم أبو الهيجاء، وأبو الحرب العربيتين، وهذا اللقب كان متداولا بين الديلم وتلقب به بعض بني بويه، والسلاجقة] قائده ورئيس حجابه قد دسا له السم حتى يؤول الحكم إلى باكاليجار، لأن منوجهر لم يكن له وارث غير ابن صبى اسمه نوشيروان.

أنفذ باكاليجار بعد موت منوجهر رسلا إلى السلطان مسعود الغزنوى، وطلب منه أن يعهد إليه بإدارة بلاد فلك المعالى، فقبل مسعود

---

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص٥٣.

عرضه وتزوج بابنته بعد أن عقد معه معاهدة ، وقبض باكاليجار على زمام الأمور باسم نوشيروان الصبى[1].

وفى الآونة التى خرج فيها مسعود الغزنوى إلى الهند مجاهدا (فى عام ٤٢٥ هـ) سلك باكاليجار سبيل العصيان وامتنع عن دفع الخراج السنوى وتحالف مع جماعة من أعدائه فى الرى وأصفهان. وتحرك السلطان مسعود فى ربيع الأول من (٤٢٦ هـ) صوب جرجان، ولما سمع باكاليجار بذلك أخذ معه نوشيروان بن فلك المعالى وتحصن بسارى، فأتاها مسعود بعد تسخيره جرجان واستراباد، فغادرها باكاليجار مرغما ومعه نوشيروان إلى كجور وجيلان، وكان مسعود يسعى سعيا حثيثا للقبض عليه حتى انتهى إلى آمل.

وفى جمادى الأولى من هذا العام تغلب السلطان الغزنوى على جيش باكاليجار فى (ناتل) احدى قرى غرب آمل وأسر قائد عسكره. ثم أمر مسعود بتحصيل المال جزافا من أهل آمل فلما عجزوا عن تسديده أساء عماله وجنده معاملتهم وارتكبوا فى حقهم قبائح كثيرة. وفى هذا الوقت وصل مسعودا من حدود خراسان أخبار هجمات التركمان السلاجقة، فصمم مسعود على ترك طبرستان وجرجان وقصد خراسان. وكان لباكاليجار ولد رهينة مع السلطان مسعود، فأرسل بابن له آخر له يطلب عفوه فأعاده مسعود إلى أبيه بخلع وأبقى باكاليجار فى إمارة طبرستان وجرجان على أساس المعاهدة السابقة وعاود رحلته إلى خراسان.

---

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٥٤.

وظل باكاليجار يحكم باسمه نوشيروان بن فلك المعالى من وقت عودة السلطان مسعود عن جرجان حتى عام (٤٣٣ هـ) ، أى لمدة سبعة أعوام، وتسلط على كافة أمور الدولة بعلة صغر سن نوشيروان الذى كان محجورا عليه. ولما هزم مسعود الغزنوى فى عام (٤٢٩ هـ) على يد طغرلبك السلجوقى وسقط الجزء الغربي للبلاد الغزنوية فى يد السلاجقة، خلص باكاليجار من تبعية الغزنويين، واعتبر نفسه مستقلا. لكن نوشيروان الذى كان قد بلغ الرشد فى هذا الوقت قام بالقبض على باكاليجار واسترد حكم أجداده وتخلص من قبضته وهدأ باله من هذا الأمر. ولكن طغرلبك السلجوقى كان قد استولى فى هذه الأيام على خراسان والعراق، وكان بصدد السيطرة على طبرستان وجرجان. وتحرك السلطان السلجوقى قبل أن يبلغه القبض على باكاليجار للإستيلاء على هاتين الولايتين فى عام (٤٣٣ هـ)، وهرب نوشيروان إلى سارى. وفى النهاية لم يجد بدا من قبول تبعيته لطغرلبك وتعهد له بأداء ثلاثين ألف دينار سنويا[١]. وبقى فى إمارته الاسمية تحت أمر عامل السلطان السلجوقى، الذى أقيمت له الخطبة على منابر هذه البلاد، واستمر هذا الحال حتى عام (٤٣٥ هـ)، حينما مات نوشيروان وتولى ابنه (جستان). ويعد عام (٤٣٣هـ) الذى استولى فيه طغرلبك على جرجان وطبرستان عام انقراض أسرة آل زيار، لأنه بالرغم من أن أمراء هذه الأسرة كانوا قد فقدوا استقلالهم الواقعى قبل ذلك بفترات، وكانوا يعيشون تحت حماية الغزنويين، لكنهم كانوا يؤدون الخراج إلى الغزنويين وحسب، حتى سنة استيلاء طغرلبك، فى حين أرسل طغرلبك من بين أتباعه الديالمة من

---

(١) ابن الأثير. الكامل، ح٩ ص١٨٢ - ١٨٣، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح٤، ص٥.

يسمى (مردآويج) لحكم جرجان وطبرستان، فتزوج مردآويج هذا بأم نوشيروان، فوقع الأخير تحت مراقبة الأول من كل جهة وانصاع لأمره. ولا يعرف نهاية جستان بن نوشيروان ولا سنة وفاته [١].

خاتمة

إن من اشتهر من الأمراء الزياريين لسبب خاص فى تاريخ ايران اشتهارا جديرا هو الأمير عنصر المعالى كيكاوس الذى كان إبنا للاسكندر إبن شمس المعالى قابوس، وليس يعرف بالضبط هل وصل الإمارة حقا، وهو مؤلف الكتاب الأشهر (قابوسنامة) وقد صنفه هذا الأمير فى عام ٤٧٥ هـ ككتاب نصح لتربية ابنه (جيلان شاه). وكتاب قابوسنامة أحد الكتب السامقة للنثر الفارسى، ويمثل كمال المهارة والمقام العالى للأمير عنصر المعالى فى الفضل والأدب والاطلاع.

والخلاصة: أن الدور الذى قامت به الدولة الزيارية يختلف عن الدور الذى قامت به الدولة الزيدية فى طبرستان. فالزياريين قاموا بتوسيع القاعدة التى أرساها الزيديون لهجرة الديلم فى الشمال، ومدوا خط هجرتهم نحو الجنوب، فاستولوا على أصفهان، والرى، ونهاوند، وهمذان، ورغم كونها دولة شيعية المذهب إلا أنها استغنت عن الامامة الزيدية، واتصلت بالعباسين، وفكر ملوكها فى إقامة دولة فارسية، ولذلك أحيوا التقاليد الساسانية فى هذه البلاد [٢].

---

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص٥٥، ٥٦.

(٢) حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص٤٨٩.

أسماء الأمراء الزياريين وزمن إمارة كل منهم

١ - أبو الحجاج مرداويج بن زيار (٣١٦ - ٣٢٣ هـ).

٢ - أبو طاهر وشمكير بن زيار (٣٢٣ - ٣٥٧ هـ).

٣ - ظهير الدولة بيستون بن وشمكير (٣٥٧ - ٣٦٦ هـ).

٤ - شمس المعالى أبو الحسن قابوس أخو بيستون(٣٦٦ - ٤٠٣ هـ).

٥ - فلك المعالى منوجهر بن قابوس (٤٠٣ - ٤٢٣ هـ).

٦ - نوشيروان بن منوجهر (٤٢٣ - ٤٣٥ هـ).

٧ - جستان بن نوشيروان (٤٣٥ -؟).

الفصل السابع
الدولة الغزنوية
(٣٥١-٥٨٢هـ/٩٦٢-١١٣٦م)

- تقديم.
- قيام الدولة الغزنوية.
- أبو اسحاق ألبتكين مؤسس الدولة الغزنوية.
- ولاية سبكتكين (٣٦٦-٣٨٧هـ/٩٧٦-٩٩٧م).
- ولاية يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوى (٣٨٨-٤٢١هـ/٩٩٨-١٠٣١م)
  - حروب محمود الغزنوى لصاحب سجستان.
  - السلطان محمود وخانات الترخستان.
  - إستيلاء محمود الغزنوى على خوارزم (٤٠٧-٤٠٨هـ).
  - فتوح محمود الغزنوى فى بلاد الهند(٣٩٢-٤١٦هـ).
  - فتح الرى وأصفهان (٤٢٠هـ).
  - وفاة السلطان محمود (٤٢١هـ).
- السلطان محمد بن محمود.
- السلطان مسعود بن محمود (٤٢١-٤٣٢هـ).
  - حروب السلطان مسعود.
  - السلطان مسعود والتراكمة الغز والسلاجقة.
  - وفاة السلطان مسعود (٤٣٢هـ).
- السلطان مودود بن مسعود (٤٣٢-٤٤١).
- عبد الرشيد ـ فروخ زاد.
- ظهير الدولة إبراهيم.

الفصل السابع

الـــــدولـــــة الغـزنـويـــة

(٣٥١-٥٨٢هـ/٩٦٢-١١٣٦م)

تقديـم :

امتدت فتوحات المسلمين في آسيا إلى بلاد السند، وهي تقع شرقي فارس على ساحل بحر الهند، وهي عبارة عن دلتا نهر السند العظيم. Indus، وتعتبر المدخل لشبه القارة الهندية. وقد كان يسكنها عناصر آرية Aryas تشبه سكان فارس، وإن كان أغلب سكانها من عناصر تسمى الهندية فنسبت إليها البلاد تميزت بلون أسود خاص، مما جعل العرب يعدونهم من جملة السودان كما يذكر صاعد الأندلسي، وسكنها أيضاً أصناف من قبائل مجهولة مثل : الزط، السيابجة، الطفوف، كذلك وجدت عناصر تركية كثيرة في بلاد اسمها "قيقان" تلي خراسان من الشرق وتعتبر من بلاد السند. وكانت الهند دائماً ممالك متفرقة تتراوح بين القوة والضعف، وكان بعضها خاضعاً للفرس المجاورين لهم. وكان يوجد بالسند مملكة قوية هي مملكة (الموريا Maurya) قبل أن يغزوها الإسكندر الأكبر في عام ٣٢٥ ق.م. وكان لسكان هذه البلاد ديانة قديمة مزدهرة عرفت بالبرهمية نسبة إلى شخص يدعى (برهام)، ويقول مؤرخو العرب أنها ديانة تؤمن بإله واحد، إلا أنها تبطل النبوات وتحرم ذبح الحيوان وتمنع من إيلامه. غير أنها مزجت بالوثنية (عبادة قوى الطبيعة، الأصنام)[1]، ثم ظهرت حركة البوذية التي سماها العرب

---

(١) أحمد الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، سلسلة الألف كتاب، رقم ١٥٨، القاهرة ١٩٥٧، ج١، ص ٢٩.

بالصابئة، وهي حركة دينية إصلاحية قامت على أساس فكرة الزهد الفلسفية (اليوجا)، وهي تنسب إلى بوذا (الحكيم) الذي عاش حوالي (٥٦٣ ـ ٤٨٣ ق.م)، وعرف أتباعها عند العرب بالبددة وهم البوذيون. كما يذكر (الشهرستاني)[1].

ولقد اتصل العرب ببلاد السند قبل الإسلام، فقد كانوا يرحلون إليها للتجارة، ولما جاء الإسلام فإن عامل الخليفة عمر بن الخطاب على البحرين وعمان وكان يدعى عثمان بن أبي العاص الثقفي، كان متلهفاً على الغارة في السند،، فأرسل إليها حملة في سنة ١٥هـ/٦٣٦م، وصلت إلى بلدة (تانة)، مما أغضب الخليفة لتغريره بالمسلمين[2]. ولكن ازدياد اهتمام العرب ببلاد السند كان منذ أن استولوا على (مكران) في شرقيها، والتي فتحت عنوة في أيام عمر أو معاوية، واتخذوها قاعدة للإغارة على السند. كذلك كان المسلمون يغزون السند أحياناً من ناحية مفازة سجستان التي كانت قد فتحت في أيام معاوية بن ابي سفيان. ويذكر المؤرخون غارات العرب المبكرة على السند في عهد الخليفة عثمان إبن عفان وفي أواخر أيام الخليفة علي بن أبي طالب، إلا أنها لم تكن شديدة ومتصلة إلا في أيام معاوية، فقد كانت بلاد الهند كما يذكر (جيبون) ترتعش في أيامه. وكانت أغلب هذه الغارات على بلاد قيقان من أرض السند التي كان أهلها من الترك، وأيضاً ضد (الخلج) وهم جنس من الترك

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٦.

(٢) يذكر البلاذري (فتوح البلدان، ص ٤٢٠) أن عثمان بن أبي العاص لما رجع من غزوه كتب إلى عمر يعلمه ذلك، فكتب إليه عمر يا أخا ثقيف حملت دودا على عود، وإني أحلف بالله لو أصيبو لأخذت من قومك مثلهم".

أو الهياطلة، الذين كانوا يعيشون في أرض (كابل) أو (زُبلستان) التي كانت تقع بين الهند ونواحي سجستان[1].

وكان المهلب بن أبي صفرة القائد المعروف أشهر القادة المسلمين الذين غزوا السند في أيام معاوية، فقد توغل في أعالي الهند وهزم أهلها عند (بَنّة) ولوهو (لاهور، الأهور) وهما بين الملتان وكابل في سنة ٤٤هـ/٦٦٤م، ولكن انشغال العرب بالفتنة بعد موت معاوية، ثم فتنة (ابن الأشعث) بسجستان أيام عبد الملك بن مروان، حد من نشاط المسلمين في هذه الناحية، وإن كان (زنبيل) حاكم هذه المناطق قد صالح الحجاج بن يوسف الثقفي بعد تسليمه ابن الأشعث وقبل دفع الجزية، وإلى الحجاج بن يوسف الثقفي يعود الفضل في غزو بلاد السند وفتحها، فقد أعد حملة برية وبحرية جعل على قيادتها محمد بن القاسم الثقفي صهرة وابن عمه، الذي لم يكن يتجاوز سبعة عشر عاماً، وكان بحق معجزة حربية، فقد دبر خطة محكمة مثلما كان الحال بالنسبة للغزو في بلاد ماوراء النهر، فسار محمد من مكران في سنة ٨٩هـ/٧٠٨م ففتح (أرمنيل) و(والدّبيل) ميناء السند العظيم، ثم سار عنها إلى شمال السند، وأخذ لا يمر بمدينة إلا فتحها صلحاً أو عنوة، حتى قتل داهر وغلب على بلاد السند ودخل عاصمتها (راور) عنوة، ثم استولى على مُلتان وأصاب بها ذهبا كثيرا، وسماها المعمورة بدلاً من ملتان، وذلك في سنة ٩٥هـ/٧١٥م. بعدها أوغل محمد بن القاسم في شمال السند إلى مدينتي بَيْلمان وقندهار، حتى وصل إلى أقصى حدود قشمير أو كشمير التي كانت تجاور الترك. وقد كان فتح محمد بن القاسم لبلاد السند من أعظم الفتوح

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢١، أحمد الساداتى، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية، ص ٥٦-٥٧.

الإسلامية، فبعده لم يتجاوز أحد من الغزاة فتوحاته فيها إلى أيام الغزنويين[١].

ولقد استمر المد الإسلامي يصبغ هذا الإقليم بالصبغة الإسلامية في الدين والثقافة خلال عصري بني أمية والعباسيين، فقد أنشأ العباسيون بها عدة مدن ومساجد ساعدت على نشر الثقافة الإسلامية، كما قام هشام إبن عمرو التغلبي في خلافة أبي جعفر المنصور العباسي بفتح ماإستغلق من السند، وأعاد قواد العباسيين فتح بقية أقاليم الهند التي كانت قد خرجت على طاعة المسلمين مثل كشمير والملتان وغيرها. وكان اكتساب إقليم السند الصبغة الإسلامية في هذه الفترة مقدمة لظهور حركة قومية هندية تكتسب الشكل الإسلامي والطابع الإسلامي، وهذه الحركة الاستقلالية التي تعبر عن تراث الهند وماضيها وقوميتها تتخذ صورة دولة مستقلة هي الدول الغزنوية التي استمرت نحو قرنين من الزمان (٣٥١-٥٨٢هـ/٩٦٢-١١٣٦م)[٢].

قيام الدولة الغزنوية :

ينتسب الغزنويون إلى "غزنة" أو غزنى أو غزنيين، وهي من مدن أفغانستان الحالية الواقعة في سفوح جبال سليماني، وكانت هذه المدينة المركز الأول والعاصمة للغزنويين. وقد بدأت منها أهميتهم واعتبارهم. ولقد اشتهرت هذه المدينة في التاريخ في ختام القرن الرابع

---

(١) البلاذري، نفسه، ص ٤٢٣-٤٢٧، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٧٦-٧٧، ٨٣-٨٤، عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ج٢، ص ٢٢٨-٢٣٧، الساداتى، نفس المرجع، ح ١، ص ٥٩-٦٦.

(٢) البلاذري، نفسه، ص ٤٣٠-٤٣٣، حسن محمود وأحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٤٧٢.

الهجري (العاشر الميلادي) عندما اتخذها السلطان محمود الغزنوي العظيم حاضرة له. ولكنه لم ينته إلينا للأسف كما يذكر (لسترنج) وصف واف لغزنة حين جدد السلطان محمود بناءها وزينها بما غنمه من غزواته في الهند. غير أنه من حسن الحظ أن (الاصطخري) قد وصفها قبل ذلك بفترة، فقال إنها مثل بلدة الباميان ولا بساتين لها. ويجري بها نهر، "وليس في هذه المدن التي في نواحي بلخ أكثر مالا وتجارة من غزنة، فإنها فرضة الهند"، ولقد ذكر الرحالة (المقدسي) أسماء كثير من رساتيقها وقراها ومدنها، وكتب اسمها (غزنين) بصيغة المثني، وذكر أن استعمال اسم غزنين كان أكثر من غزنة. وزاد المقدسي على ذلك أن البلاد التي ما بين غزنة وكابل كانت تعرف باسم "كابلستان"[(١)].

أبو إسحاق ألبتكين مؤسس الدولة الغزنوية :

وتعتبر الدولة الغزنوية التركية أعظم دولة ظهرت في أفغانستان وبلاد الهند في العصر الإسلامي، وكانت أفغانستان جزءا من أملاك الدولة السامانية التي انبثقت منها الدولة الغزنوية، ومؤسس هذه الدولة مملوك من مماليك السامانيين الذين تدرجوا في الرقي إلى أن بلغوا مرتبة الإمارة وهو أبو إسحاق ألبتكين. وقبل أن نتحدث عن أولية الدولة الغزنوية يجدر بنا أن نشير باختصار إلى النظام التربوي الذي اتبعه السامانيون في تربية مماليكهم الأتراك، لنتعرف على عوامل صعود نجم ألبتكين المملوك التركي لآل سامان الذي أسس الدولة الغزنوية. ويرجع الفضل إلى الوزير نظام الملك الطوسي في شرح هذا النظام التربوي، فهو يذكر في كتابه

---

(١) الإصطخري، ص ٢٨٠، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٥٨، ٣٧٥، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٩٦-٢٩٧، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٨٧.

"سياست نامه" إن مماليك السامانيين كانوا يرقون تدريجياً بناء على خدماتهم وشجاعتهم، وليس اعتماداً على المحسوبية أو الجاه، وبعد هذا الاستهلال يوضح لنا مراحل تربية وترقية هؤلاء المماليك، فيقول إن المملوك عند شرائه يخدم عاماً على قدميه، فيسير مرتدياً قباء من القطن يسمى زنداجي (نسبة إلى مدينة زنداجي شمالي بخاري التي اشتهرت بالملابس القطنية) بجوار سيده الممتطي صهوة جواده. ولم يكن مسموحاً لهذا المملوك بركوب الخيل في عامه الأول في ربقة العبودية، وإلا تعرض لعقاب شديد. فإذا أتم عامه الأول في الخدمة أخبر عريف الدار بذلك حاجب الحجاب، فيقدم الحاجب للمملوك حصانا تركيا بعنان دون سرج، ثم يمنح المملوك في العام الخامس من خدمته سرجاً ولجاماً مزينا بنجوم من المعدن، وسروالاً من القطن المخلوط بالحرير، وبعض الأسلحة التي يُحلقها في سرج فرسه، وفى العام السادس يمنح المملوك ملابس أفخر من ذي قبل. وفي العام السابع يمنح خباء ذا طنب واحد وستة عشر وتدا، كما يمنح ثلاثة من الرقيق ليقوموا بخدمته. وعندئذٍ يستحق المملوك لقب (عريف الدار) ويضع على رأسه طاقية من الجوخ الأسود الموشاة بالفضة، كما يرتدي قباءاً حريرياً كنجويا (نسبة إلى مدينة كنجة في إقليم شيروان على ساحل بحر قزوين وكانت مركزا لتجارة الحرير، وهي بجمهورية أذربيجان الآن). ثم يأخذ المملوك بعد ذلك في الترقي عاما بعد عام، وتزاد حاشيته تدريجيا إلى أن يصل إلى مرتبة (صاحب الخيل) ثم (حاجب الحجاب). ورغم هذه المناصب فإن هؤلاء المماليك لم يتلقبوا بألقاب الإمارة، ولم يتولوا أعمالاً كبيرة كحكم الولايات، أو قيادة

فرقة من الفرق العسكرية إلا بعد أن ينضجوا، وحدد السامانيون سن النضج لمماليكهم بسن الخامسة والثلاثين[١].

ويعلق الدكتور (أحمد مختار العبادي) على هذا النظام بقوله إن هذا النظام التربوي العسكري الإسلامي الذي اتبعه السامانيون مع مماليكهم، كان يقوم على التدريج والترتيب في تنشئتهم، كي يكتسبوا الخبرة اللازمة في مناصب الإدارة والقيادة، وتجدر الإشارة إلى أن هذا النظام التربوي الساماني كان الأساس الذي سار على منهاجه بعد ذلك عدد كبير من الدول الإسلامية مثل دولة السلاجقة الأتراك وأتباعها من الأتابكة والأيوبيين، غير أنه قد تبلور وازدهر بشكل راسخ متين زمن دولة المماليك في مصر والشام، مما مكنها من صد الزحف المغولي شرقا والانتصار على المستعمر الصليبي غربا[٢].

وكان (ألبتكين) غلاما تركيا اشتراه الأمير الشهيد أحمد بن إسماعيل الساماني، ثم دخل في خدمة أخيه نصر من بعده، وأثبت في خدمة السامانيين كفاءة عالية، فبلغ عندهم منزلة كبيرة فأسندوا إليه منصبا عاليا هو رئاسة الحجاب الذي بلغه في عهد عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣-٣٥٠هـ)، [٣] وقام ألبتكين باغتيال بكر بن مالك قائد الجيش الساماني في بخاري في عام ٣٤٥هـ، وكان قد ولي قبل ذلك في عام ٣٤٤هـ عاملا على مدينة (هراة) من قبل عبد الملك بن نوح، غير أنه أقصي عن منصبه بعد وفاة مولاه، ثم رقي في عام ٣٤٩هـ/٩٦٠م إلى منصب قيادة جيش السامانيين، وتولي حكومة خراسان حتى أواخر عام

---

(١) نظام الملك، سياست نامة، ص ١٤١.
(٢) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ١٥٥.
(٣) إبن خلدون، العبر، ج٤ ، ص٤٧٣.

٣٥٠هـ، ولعل عبد الملك بن نوح قد منحه قيادة الجيوش وحكم خراسان رغبة في إبعاده عن العاصمة كما يذكر (عبد الحي حبيبي صاحب تاريخ مختصر أفغانستان)، فتسلم ألبتكين مهام عمله في خراسان حيث اصطحب معه غلمانه وعبيده ومنهم بلكاتكين Balkatgin وسُبُكتكين Subuktigin، الشاب، الذي ساعد ألبتكين في إدارة أمور خراسان وبسط سلطانه عليها[١].

ويبدو أن ألبتكين لم يفقد نفوذه في العاصمة بخاري بعد انتقاله إلى خراسان حتى أبا الفضل البلعمي الوزير أرسل له بعد وفاة الأمير عبد الملك بن نوح لأخذ رأيه فيمن يصلح للإمارة مما يدل على قوة نفوذ ألبتكين، واختلفت آراء المؤرخين حول رد ألبتكين، فيرى بعضهم أن إجابته على سلطات بخاري أفادت ضرورة تعيين أحد أبناء عبد الملك، ويرى البعض الآخر أن إجابة ألبتكين أفادت تعيين منصور بن أخو عبد الملك بدلاً من ابنه وأغلب الظن أن سبب هذا اللبس يرجع إلى أن عبد الملك بن نوح كان له أخ باسم منصور وابن بنفس الاسم مما أوجد لبسا عند بعض المؤرخين في معرفة ميول ألبتكين الحقيقية. ومع هذا فليس هناك شك أن الذي تولى من بعد عبد الملك هو أخوه منصور وليس ابنه، وذلك لأن قادة الجيش في بخاري أقدموا على تنصيب منصور الأخ بدلا من الابن الذي تحمس له ألبتكين، فقرر ألبتكين تنفيذ ما يريده بالقوة واتفق مع قادة خراسان على ذلك، وسار بقوته نحو بخاري[٢].

---

(١) نظام الملك، سياست نامه، ص ١٤٥، ٣٨١، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٦٩.

(٢) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ١٣٢، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٧٧.

ونجد أن الأمير الساماني منصور بن نوح استطاع أن يغري قادة خراسان بالخروج على ألبتكين، وعين قائدا آخر على جيوش خراسان، مما جعل موقف ألبتكين حرجا[١]، فاضطر إلى التوقف في بلخ، وألحق الهزيمة بجند الأمير منصور بن نوح، ورغم هذا الانتصار، ورغم ما لألبتكن من أملاك وضياع واسعة في كل من خراسان وبلاد ما وراء النهر (٥٠٠ ضيعة، ١٠ آلاف جواد وبغل وجمل، وعدة آلاف من رؤوس الأنغام)، إلا أنه قد يمم ناظريه ناحية أفغانستان لكي يتجنب مقاتلة ولي نعمته الأمير الساماني من جديد. ويعود السبب وراء اختيار أفغانستان بالتحديد لأنها كانت داراً للكافرين، فعزم على جهادهم، وهناك سبب آخر لزحفه نحو غزنة هو تصميم الأمير منصور على حربه، إذ سير ضده جيشا أوكل قيادته لأحد قادة بخاري ويدعى اشعث بن محمد في ٣٥١هـ/٩٦٢م، فسارع ألبتكين بالسير نحو غزنة، واستطاع هزيمة حاكمها الذي اختلف في اسمه بين أبي بكر أو أبي على لاوق، فتمكن ألبتكين من محاصرته في قلعة غزنة الحصينة حتى سقطت في يده بعد أربعة شهور، وأعلن نفسه حاكما على غزنة وإتخذها داراً لإقامته[٢].

ولما فشلت الحملات التي وجهها الأمير منصور بن نوح الساماني نحو ألبتكين، فضل السامانيون الاعتراف به وإقراره على غزنة، وما استطاع أن يضمه إليه من ممتلكات جديدة، حيث استطاع ضم بست، وجزءاً من مملكة كابل المجاورة، وكان ذلك في عام ٣٥١هـ/٩٦٢م، ومن ثم يعتبر هذا التاريخ بداية تأسيس الدولة الغزنوية. ولقد انشغل ألبتكين بعد استقراره فى غزنة بالجهاد على حدود كابل ومعابر المناطق الجبلية

---

(١) النرشخي ، تاريخ بخاري ص ١٣٢.
(٢) نظام الملك، نفسه، ص ١٥٠،١٥٢.

شرقي أفغانستان، واستولى في هذه الفترة (٣٥١-٣٥٢هـ) على كابل، ثم دخل في حرب مع أحد راجات السند وقبل أن تنتهي هذه الحرب مات ألبتكين في عام (٣٥٢هـ/٩٦٣م) تاركاً حكم غزنة لابنه أبي إسحق إبراهيم، وإن كان نظام الملك يجزم بأن ألبتكين لم يكن له ابناء، فلعل إبراهيم هذا كان أحد قادته[1].

ولاية سبكتكين (٣٦٦-٣٨٧هـ/٩٧٦-٩٩٧م):

وبعد عام من ولاية أبي إسحاق إبراهيم الدولة الغزنوية، أخرجه أبو علي أمير غزنة السابق منها فهرب أبو إسحاق إلى بخاري واستمد الأمير منصور بن نوح، فساعده على استعادة إمارته واشترط عليه أن يعتبر نفسه تابعاً له، فقبل ذلك وسك عملة غزنة وخطب على منابرها باسمه. وهكذا توطدت العلاقات الودية بين حكومة بخاري وغزنة خلال عهد منصور بن نوح الساماني. ووقعت إمارة غزنة بعد موت أبي إسحاق إبراهيم بن ألبتكين في عام ٣٥٥هـ في يد غلمان ألبتكين، وتولاها منهم اثنان واحد بعد الآخر بموافقة جنوده ومجاهدى جيشه إلى أن صارت في العشرين من شعبان عام ٣٦٦هـ من نصيب سبكتكين صهر ألبتكين.

وتفصيل ذلك أنه عندما تولى أحد قادة الجيش الغزنوي ويدعى (بيريتكين) الإمارة في غزنة، وجلب على نفسه كراهية الجند باستدعاء (أبي علي لاوق) مصطحبا بابن حاكم كابل لمساعدته في حكم غزنة، مما أثار الجند وكان على رأسهم سبكتكين، فقاد حملة تمكن عن طريقها من أسر أبي علي لاوق وابن حاكم كابل، ووضعهما في السجن ثم أمر بقتلهما

---

(١) نظام الملك، سياست نامه، ص ١٥٣، ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٤٣

بعد ذلك. وقد أدت هذه الأعمال إلى ارتفاع شأن سبكتكين فوافق قادة وأشراف غزنة على تنصيبه أميرا عليهم في عام (٣٦٦هـ/٩٧٦م) "لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه، فقدموه عليهم وولوه أمرهم وحلفوا له وأطاعوه، فأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة"[١].

و(ناصر الدين سبكتكين) الذي ربط فيما بعد النسابة ممن تمتعوا بعطف الدولة الغزنوية، شجرة نسبه بملوك الفرس الأقدمين، أصله من الترك الوثنيين كما يذكر(البيهقي)، وكان قد وقع هو وجماعة من قومه في أسر المسلمين من الترك أنفسهم، أو من مطوعة السامانيين، فساقه تجار الرقيق إلى خراسان فاشتراه ألبتكين بنيسابور. ولم تلبث أخلاق المملوك الشاب أن اجتذبت اهتمام سيده منذ البداية، فترقى بأسرع مما جرت به العادة كما يذكر (نظام الملك)، وبعد اعتلاء منصور الساماني العرش صحب سبكتكين مولاه إلى غزنة حيث قدم له ولخلفائه من بعده خدمات جليلة انتهت بإعلانه أميرا على غزنة كما ذكرنا[٢].

استقر حكم الدولة الغزنوية على يد الأمير سبكتكين واتسعت دائرة حكمه، وتمكن بعد ولايته بفترة لم تتعد عامين من الاستيلاء على (قصدار) القريبة من غزنة، و(بست) الواقعة بين سجستان وهراة، وكان صاحب (بست) ويدعى (طغان) قد استعان به على الثوار الذين استولوا على بلاده، ولكنه لم يف بتعهداته له وماطله، فأنزل به سبكتكين الهزيمة واستولى على بست، ثم صار إلى قصدار بعد أن خرج عليه واليها

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٤٦، عبد العزيز جنكيزخان، تركستان، ص ٥٠،حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٨٥.

(٢) البيهقي، تاريخ البيهقي، ص ٢١٦-٢١٨،ابن خلدون، العبر ج ٤، ص ٤٧٣.

واعتصم بها لمناعتها وصعوبة مسالكها، واستولى عليها وأرغم هذا الوالي على الاعتراف بطاعته. ومن الغنائم التي صارت من نصيب سبكتكين في هذا السفر التحاق الشاعر (أبي الفتح علي بن محمد البستي) بخدمته، وكان في البداية يعيش في بلاط بايتوز أمير قصدار ويعمل كاتبا له[1].

وقد أتاحت هذه الانتصارات الفرصة لسبكتكين للاستيلاء على جزء كبير من بلاد الهند، فاستولى على بعض المواقع الجبلية فيها حيث توجد مدينة كابل حاضرة بلاد أفغانستان حاليا. وكانت هذه المواقع ولاتزال تعرف باسم Hind أو Hund، ويعرف ملوكها باسم ملوك مملكة الشاهات، ويعرفون عامة باسم ملوك الهند في كابل، وعاد سبكتكين بعد ذلك غانما إلى غزنة، وقد أفزعت أعماله أحد ملوك الهند ويدعى (جيبال) الذي كانت مملكته تمتد في شمال غرب الهند، وقد رأى في استيلاء سبكتكين على أطراف بلاده تهديدا لمملكته، فدخل مع سبكتكين في حروب طاحنة، لكن سبكتكين ألحق به الهزيمة في سنة ٣٦٩هـ، وأجبره على طلب الصلح على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها إليه، فاستقر ذلك، ورهن عنده جماعة من أهله حتى يتم تسليم البلاد. وأرسل معه سبكتكين من يتسلمها، ولكن (جيبال) قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه، فلما سمع سبكتكين بذلك سار نحو الهند وتوغل داخل حدودها وخرب كل ما مر عليه من بلادهم، حتى افتتح قلاعها الحصينة مثل لمغان وهدم بيوت الأصنام، كما افتتح (بشوار)

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص١٤٧، ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٤٧٤، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج٣، ص ٨٥-٨٦، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٧١.

وهي مدن لم يصل إليها فاتح مسلم من قبل على حد تعبير (العتبي).[١] وقد اهتم سبكتكين ببناء المساجد في المدن الجديدة التي فتحها، فيكون بذلك قد شارك مدن السند مثل زابل وقصدار والمنصورة في نشر الدين الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية ببلاد الهند، ثم عاد إلى غزنة وسار في إثره جيبال في مائة ألف مقاتل، فلقيه سبكتكين وألحق به هزيمة قاسية وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم، وذل الهنود بعد هذه الوقعة، ولم يكن لهم بعدها راية، ورضوا بألا يطلبوا في أقاصي بلادهم، وكان من أثر انتصار سبكتكين في هذه الموقعة أن دخل في طاعته الأفغان والخلج. كما قوت هذه الغنائم من مركزه في غزنة، وأدت هذه الحروب التي انشغل فيها سكتكين ببلاد الهند إلى عدم اهتمامه بما حدث في بخاري أو خراسان من فتن واضطرابات[٢] ويعلق إبن خلدون على ذلك بقوله " وكان سبكتكين فى شغل عن أمرهم بماهو فيه من الجهاد مع كفار الهند" [٣].

وكانت الفترة التي تولى فيها سبكتكين حكم غزنة هي نفس الفترة التي شهدت اضمحلال وانهيار الدولة السامانية، ومع أن سبكتكين كان من الناحية الفعلية مستقلا عن السامانيين وأكثر نفوذا منهم، فإنه كان يعترف كما يقول المستشرق (لين بول) لهم بالسيادة، وشن الحروب وفتح البلاد لحسابهم حتى "اتسعت رقعة ولايته، وعظم حجم جريدته، وعمرت أرض خزانته، وأشفقت النفوس من هيبته"[٤]، لذلك لم يجد الأمير نوح إبن منصور بديلا عن الاستعانة بقوة سبكتكين عندما خرج على طاعته كل

---

(١) العتبى، تاريخ اليمينى، ح ١، ص ٥٨، ٦٣، الساداتى،نفسه،ح١، ص ٦٦ومابعدها.

(٢) العتبي، تاريخ اليمينى، ج١، ص ٥٨، ٦٢، ٦٣، ٧٦،ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٦٤، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج٣، ص٨٦، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٧٩.

(٣) إبن خلدون، العبر ، ح ٤، ص ٤٦٧.

(٤) العتبي، تاريخ اليمينى، ح، ص ٦٣، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٨٦.

من أبي علي السيمجوري وفائق بخراسان ويبدو أن سبكتكين وجدها فرصته، فأسرع في إجابة الأمير الساماني إلى طلبه مصطحبا ابنه محمود معه لتعضيده، وسار إلى جيحون، في جيش كبير ومعه مائتان من الفيلة ليقضي على هذين العاصيين. وحاول بعض المؤرخين[1] تبرير إجابة سبكتكين لنجدة الأمير نوح بن منصور على أنها حرص من سبكتكين على إظهار الولاء والطاعة للأمير الساماني. إلا أنه يبدو أن سبكتكين علم بحقيقة الموقف المتدهور في خراسان من ناحية، وضعف أمراء السامانيين من ناحية أخرى، وأدرك أن الدولة السامانية تعيش آخر أيامها، فلا مانع إذن من مد نفوذه إلى أملاك جديدة غربا تجاه خراسان. وقد أشار (الهروي) إلى نزعة سبكتكين التوسعية في خراسان وما وراء النهر كإحدى أهدافه لمساعدة الأمير نوح، وخاصة أن بعض المدن الخراسانية كانت تستنجد بسبكتكين وتدعوه لامتلاكها، إذ يذكر (الجوزجاني) أن أهالي مدينة بلخ راسلوا سبكتكين واستنجدوا به من ظلم عمال السامانيين. فوافق سبكتكين على تلبية نداء الأمير الساماني في بخارى. وسارع جيشه بالسير نحو هراة التي كانت مركزا لتجميع الخارجين في خراسان على سلطة السامانيين. وكان كل من فائق وأبي علي السيمجوري قد راسلا فخر الدولة بن بويه لمساعدتهما فأجابهما إلى ذلك، بعد أن شجعه وزيره الصاحب بن عباد، فأرسلت إليهما الإمدادات العسكرية معونة لهما. ورغم ذلك فقد تعرضت قوتهم للهزيمة بسبب انحياز (دارا بن قابوس بن وشمكير) أمير جرجان الذي كان قد انضم إليهما إلى جيش الأمير وسبكتكين. مما أدى إلى حدوث خلل في

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٦٤، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٦٧.

صفوف جيشهم وهزيمته[١]. واستطاع سبكتكين إرغام كل من أبي علي السيمجوري وفائق على الخضوع للأمير الساماني نوح بن منصور، مع إلزامهما بدفع خمسة عشر ألف درهم له.

ويسرد (الكرديزي) رواية تتعلق بدهاء سبكتكين الذي لما كان على علم بنية (دارا) للغدر بأصحابه قال في حضرة جاسوس لأبي علي على إن دارا وفايق وأخا لأبي علي يدعى أبو القاسم قد قرروا الانضمام إلى قوات السامانيين أثناء المعركة، وأن أحدهم وعد بأن يسلم أبا علي في يد سبكتكين. فلما انضم دارا فعلا إلى السامانيين، فقد أبو علي الثقة في حليفيه الآخرين كذلك مما تسبب في هزيمته[٢].

ولكن لم يمض وقت طويل حتى رفض أبو علي السيمجوري هذا الاتفاق وثار من جديد على سلطان السامانيين، مما دفع سبكتكين إلى معاودة حربه بالقرب من هراة (٣٨٤هـ/٩٤٤م)، ورغم ما أبداه أبو علي من استماتة في القتال، إلا أن هذه المقاومة ضعفت مع الوقت أمام مهارة محمود بن سبكتكين، وتمكنت قوة سبكتكين من دخول هراة حيث تمت المقابلة مع الأمير نوح الذى عظم جهود آل سبكتين، فأطلق على الأمير سبكتكين لقب "ناصر الدين والدولة" ومنحه ولاية بلخ، ولقب محمود إبن سبكتكين "بسيف الدولة"، ومنحه قيادة جيوش خراسان، فسار محمود نحو نيسابور ليقوم بمهام عمله الجديد، وتمكن من دخولها[٣].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، نفس الجزء، ص ١٦٤، إبن خلدون، العبر، ج٤، ص ٤٦٧.

(٢) العتبي، نفسه، ج١، ص ٥٠ ـ٥٤، النرشخي، تاريخ بخاري، ص ١٦٤-١٧٣، بارتولد، تركستان، ص ٣٣٩، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج٣، ص ٨٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٦٤، إبن خلدون،العبر، ج ٤، ص ٤٦٧-٤٦٨، بارتولد، نفسه، ص ٣٩٩، فامبري، تاريخ بخاري، ص١٢١.

وما كاد محمود يستقر في نيسابور حتى فوجئ من جديد بمحاصرة أبي علي السيمجوري وفائق لها (٣٨٥هـ/٩٩٥م)، فاضطر محمود أمام هذا الحصار إلى ترك نيسابور واتجه نحو هراة بعد أن مني بهزيمة على يد أبي علي السيمجوري. وعبثا حاول أصحاب وقادة أبي علي إقناعه بضرورة مطاردة محمود وقوته حتى لا يجتمع مع أبيه سبكتكين ويكونا جيشا واحدا. وفضل السيمجوري مراسلة كل من الأمير نوح وسبكتكين لاستمالتهما في تركه على نيسابور ولكن دون جدوى. [١]
وما أن سمع سبكتكين بما حدث لابنه محمود في نيسابور حتى سارع بالسير نحوها، حيث تقابل مع جيش أبي علي السيمجوري وفائق بالقريب من طوس إحدى مدن خراسان. وقد استطاع بمهارته العسكرية أن يشترك في هذه المعركة بمداهمة جيش السيمجوري وفائق من الخلف مما أدى إلى انكسار جيشهما (٣٨٥هـ/٩٩٥م)، وغلب على أبي علي السيمجوري وفائق من جراء هذه الهزيمة اليأس في عمل شيء جديد ضد سبكتكين وقوته المنتصرة[٢]. فحاول كل منهما منفردا أن يفتح باب التفاوض مع الأمير نوح الساماني لينال العفو لنفسه، وهرب القائدان الثائران إلى سرخس ومنها إلى آمل، مستفيدين من أن سبكتكين وجيشه الكبير لم يكن بوسعهم أن يجتازوا الصحراء في سرعة. ومن آمل أرسل كل منهما رسله إلى الأمير نوح يستعطفه. ولا ندري الأسباب التي جعلت الأمير يقبل إمكانية الصلح مع أبي علي في الوقت الذي لم يقبل فيه مصالحة فائق. فلعل الأمير أراد أن يفرق بينهما باتخاذ موقف مغاير لكل

---

(١) إبن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٦٨.
(٢) قال بعض الشعراء في شأن هذا الانتصار نكاية في أبي علي سيمجور:
عصى السلطان فابتدرت إليه ... رجال ما يقلعون أبا قبيس
وصير طوس معقله فكانت ... عليه طوس اشام من طويس
(أبو الفدا، المختصر، ج٢، ص ١٣٠).

منهما، وربما كان للوزير عبد الله بن عزير دور في هذا القرار، فمن المعروف عنه ميله لآل سيمجور من قبل[١]. وأغلب الظن أن يكون الأمير قد وافق على حضور كليهما إلى بخاري ولكن فائق لم يأمن على نفسه، ففضل الالتجاء إلى إيلك خان في بلاد الترك وهو ما يميل إليه حمد الله المستوفي. وتذكر الروايات أن المأمون بن محمد أمير (الجرجانية) الذي كان يأوي أبا علي، أرسل إلى حكومة بخاري يشفع في أبي علي ويسأل الصفح عنه، فسمح له بالرجوع إلى بخاري، حيث قوبل باحتفال كبير من جانب الوزير عبد الله بن عزير والحاجب بكتوزون وغيرهما من الأعيان، واستقبله الأمير نوح الساماني في دار الإمارة، غير أنه لم يلبث أن أعتقل فيما بعد بأمر من نوح نفسه بقلعة بخاري هو وثمانية عشر من إخوته وأصحابه في عام ٣٨٦هـ/٩٩٦م[٢]. ولعل هذا تم بناء على رغبة سبكتكين الذي طلبه أسيرا ليأمن جانبه رغم معارضة حاشية الأمير وعلى رأسهم وزيره ابن عزير، حتى أنهم أرغموا الأمير بعد ذلك على معاودة طلب أبي على السيمجوري من سبكتكين. ولكن عيون الأخير ومندوبيه في بخارى راسلوه قبل أن يصل طلب الأمير، فسارع سبكتكين بترحيله إلى غزنة واعتذر للأمير وأودعه السجن، ومات في سجنه بغزنة عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م[٣]. وازداد نفوذ سبكتكين وابنه في خراسان فيروي (البيهقي) أن كبار قادة خراسان وبعض أبناء البيت الساماني كانوا يقفون ممتطين جيادهم بباب خيمة الأمير العادل سبكتكين فإذا ما خرج عليهم

---

(١) ابن الأثير، الكامل ج٧، ص ١٦٩، ابن خلدون،العبر، ج ٤، ص ٤٦٨-٤٦٩.

(٢) العتبي، نفسه، ج١، ص ٥٥-٥٦، النرشخي، تاريخ بخاري، ص ١٨٦-١٩١، ابن خلدون ،العبر، ج ٤، ص ٤٦٨-٤٦٩، بارتولد، تركستان، ص ٤٠٠.

(٣) فاميري، تاريخ بخاري، ص ١٢٢، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٨٣.

ترجل الجميع احتراما له، مما يدل على ما وصلت إليه مكانة سبكتكين حتى بين أبناء البيت الساماني نفسه.

وكان فائق قد لاذ بالفرار إلى بلاد الترك شرقا (كاشغر) عند إيليك خان وإسمه (أبو نصر أحمد بن علي، الذي حكم بعد بغراخان)[١] - فعمل فائق على إقناع إيليك على غزو بخاري. وبدأت الأنباء تصل إلى الأمير نوح باستعداد إيليك خان للهجوم على بخاري. فسارع الأمير من جديد بطلب المساعدة من سبكتكين الذي جاء على رأس قوة كبيرة إلى بخاري. وبدلا من استقبال سبكتكين، فوجئ برفض الأمير وامتناعه عن استقبال هذه القوة وتشكك سلطات بخاري في نواياها. وأغلب الظن أن المسئول عن اتخاذ هذا الموقف الذي دلل على تضارب وارتباك السلطات السامانية في قراراتها هو الوزير عبد الله بن عزير الذي كان متسلطا على شخص الأمير، وذلك لأنه رأى في قوة سبكتكين الجديدة ما يهدد وجوده في الوزارة، فأقنع الأمير بوسائله الخاصة لاتخاذ هذا الموقف من قوة سبكتكين القادمة إلى بخاري، واكتفى بطلب مساعدة هذه القوة أو جزء منها عند قدوم إيليك خان فعلا للحرب [٢].

وقد أدى هذا إلى اتخاذ سبكتكين موقفا مغايرا تماما، فبدلا من حرب إيليك خان تم الاتفاق معه على اقتسام أملاك السامانيين. وزحف محمود بن سبكتكين نحو بخاري على رأس قوته لعزل الوزير ابن عزير وإبعاده عن السلطة، حيث تم تعيين وزير آخر عن طريق سبكتكين وهو

---

(١) أبو الفدا، المختصر، ج٢، ص ١٢٩.

(٢) ويذكر ابن خلدون رواية غريبة مفداها أن فائق لما فارقه أبو علي السيمجوري، سار إلى كاشغر فأكرمه إيلك خان وكتب إلى نوح يشفع فيه، فقبل شفاعته، وولاه عليها وأقام بها (العبر، ج٤، ص ٤٦٩) فهل يفهم من هذه الرواية أن الأمير الساماني عزل إيلك خان عن ملكه وأعطاه لفائق؟!.

أبو نصر أحمد بن محمد بن أبي زيد. وبعد عزل ابن عزير سلم إلى سبكتكين هو والحاجب إيلمنكو بناء على رغبته، فأودعهما السجن بقلعة (كرديز).

هذا وقد ظل سبكتكين بطبيعة الحال الحاكم المطلق على جميع الولايات الواقعة جنوبي جيجون، ولم يعد للأمير نوح الساماني يد في مجريات الأحداث بخراسان. أما في بلاد ما وراء النهر فقد جهد الوزير أبو نصر أحمد في إعادة الأمور إلى نصابها باستعمال الشدة "يغسل دما بدم" كما يذكر العتبي[1]. غير أن الوزير أبا نصر أحمد قتل على يد غلمانه بعد خمسة أشهر من توليه السلطة في بخاري. وقد نكل الأمير نوح بهؤلاء الغلمان القتلة، خوفا من أن يتهمه سبكتكين الذي كان يسبغ حمايته على الوزير أبي نصر بالتواطؤ على قتله، ثم بعث نوح رسولا إلى سبكتكين يرجوه تعيين خلفا للقتيل، فترك سبكتكين الأمر للأمير نوح الساماني نفسه، فوقع اختياره على أبي المظفر محمد بن إبراهيم البرغشي الذي ظل يشغل منصب الوزارة حتى وفاة الأمير نوح في يوم الجمعة الرابع عشر من رجب عام ٣٨٧هـ/٢٣يوليو ٩٩٧م[2].

وفي تلك الظروف تفجرت الأحداث في خراسان من جديد أثناء غياب كل من سبكتكين ومحمود، حيث ثار أحد إخوة أبي علي السيمجوري ويدعى أبا القاسم انتقاما لما حدث لأخيه، واستطاع حصار نيسابور والاستيلاء عليها، إلا أن هذه الحركة سرعان ما خمد أوارها، عندما سارع محمود بن سبكتكين بالسير إلى نيسابور عائدا إليها، إذ اضطر

---

(١) العتبي، نفسه، ج١، ص٥٧، النرشخي، تاريخ بخاري، ص ١٩٦، بارتولد، تركستان، ص ٤٠١.

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٤٠١-٤٠٢.

أبو القاسم السيمجوري إلى إخلائها فارا بنفسه من لقاء جيش محمود الذي استقامت له أمور خراسان. وبعد أن اطمأن سبكتكين إلى أحوال خراسان فضل العودة إلى غزنة. فلعله أراد الاطمئنان على أحوالها، وربما كما يذكر بعض المؤرخين، لإحساسه بالمرض وعدم قدرته على تحمل الظروف المناخية في بلخ التي كان يحكمها مما دفعه للعودة. ولكن اشتد عليه المرض فمات وهو في طريقه إلى غزنة (٣٨٧هـ/٩٩٧م)، بعد أن حكم عشرين عاما وضع خلالها أساس إمبراطورية الغزنويين بفضل ما أحرزه من نصر مؤزر في فتوحه في الشرق والغرب، وما اشتهر عنه من الصلابة وقوة الإرادة ومتانة الخلق، و"كان سبكتكين عادلا خيرا كثير الجهاد، حسن الاعتقاد، ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء"[1]. وقد رثاه شاعره المشهور أبو الفتح البستي وكان كاتبا له بقوله[2]:

قلت إذ مات ناصر الدين والدو	لة حياه ربه بالكرامة
وتداعت جموعه بافتراق	هكذا هكذا تكون القيامة

ولاية يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوي (٣٨٨-٤٢١هـ/٩٩٨-١٠٣١م):

أوصى سبكتكين قبل وفاته أن تؤول إمارة غزنة ومعها بلخ إلى ابنه الأصغر إسماعيل متخطيا بذلك حق محمود الأكبر سنا، والأكثر تجربة في إدارة أمور السياسة والحرب. ويرجع الهروي ذلك إلى أن محمود كان قد حرم من ميراث أبيه دون أن يذكر الأسباب التي دفعت سبكتكين

---

(١) العتبى، تاريخ اليمينى، ج ١، ص ٥٠-٥١، ٥٤ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ٣، ص ٨٧.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٦٢-٢٦٣.

لحرمانه من هذا الميراث. ورغم أن سبكتكين أدرك قبل وفاته كفاءة محمود وقدرته سياسيا وعسكريا، وضعف قدرات إسماعيل بالنسبة لمحمود إلا أنه أقدم على هذه الخطوة، وأوصى أن تؤول الإمارة من بعده لإسماعيل. وقد أدى هذا إلى استضعاف الجند لإسماعيل، فاشتطوا في طلب الأموال منه حتى أفنى الخزائن التي خلفها أبوه[١]. على الرغم من أنهم هم الذين رفعوه إلى دست الإمارة تنفيذا لوصية أبيه.

ونظرا لما قدره محمود من خطورة اشتعال الفتنة داخل البيت الغزنوي، لاسيما بعدما رأي حدوث الاضطرابات المتكررة في خراسان، فرأى بثاقب نظره حل هذه المشكلة سلميا مع أخيه. ولكن إسماعيل رفض الحلول السلمية[٢]. وعلى العكس من ذلك أسرع بتقديم مساعداته للأمير الساماني أبو الحارث منصور بن نوح وحرضه على حرب محمود في خراسان، مما دفع بالمشكلة بين الأخوين إلى اتخاذ خطوات أخرى غير سلمية.

ولا ندري العوامل الأساسية التي جعلت سبكتكين يسند ولاية عهده لإسماعيل بدلا من محمود، رغم وضوح الاختلاف في قدرات كل منهما. ويميل بعض المؤرخين مثل (بوزورث) إلى تفسير هذا العمل على أساس أن إسماعيل بن سبكتكين من زوجته التي كانت لها مكانتها الخاصة عنده وهي ابنة ألبتكين قائده ومولاه من قبل، أما محمود فكان ابنه من زوجة أخرى وهي أخت حاكم زابل حتى أن محمود كان يطلق عليه الزابلي. إلا أنه يبدو أن سبكتكين وضع في اعتباره بالإضافة إلى العامل السابق أن خراسان في حاجة إلى قائد متمرس لإدارة أمورها، ولم

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٨٤، أبو الفدا، المختصر، ج٢، ص ١٢٣.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٨٥.

يجد شبيها لمحمود ابنه في قدراته السياسية والعسكرية التي ظهرت إبان فترة حروب سبكتكين في الهند، وكذلك في حسن إدارة محمود لخراسان بعد ذلك، مما دفع سبكتكين إلى منح حكم غزنة لإسماعيل وترك خراسان لمحمود، حتى تظل هذه الولاية - خراسان - لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية تابعة للغزنويين، ولكن محمود لم يقنع بذلك بعد وفاة أبيه(١).

ولما يأس محمود من الحل السلمي اضطر للسير نحو غزنة، لإرغام أخيه على الخضوع له. واستطاع محمود ضم قوة عمه (بغراجق) إليه، وكان عمه متوليا على هراة وبوشنج من مدن خراسان. وضم محمود إليه أيضا بعض قوات أخيه نصر الذي كان متوليا بست. وبعد أن اطمأن محمود إلى قوة جيشه سار إلى غزنة، فاضطر إسماعيل إلى ترك بلخ والرجوع ناحية غزنة للدفاع عنها، حيث وقعت الحرب بين الجانبين، فانتصرت قوات محمود، وتمكنت من حصر إسماعيل في إحدى القلاع، فلم يلبث أن طلب الأمان الذي منحه له محمود وأشركه معه في الإمارة، لكنه ألقى به في السجن بعد مدة لسوء ظن به، ومات إسماعيل في السجن، وكانت مدة إمارته سبعة شهور، فتمكن محمود بعد ذلك من الانفراد بالولاية في غزنة(٢).

وكان من أهم أغراض محمود الغزنوي بعدما وضع يده على مملكته الصغيرة التي ورثها عن أبيه سبكتكين أن يرث ملك السامانيين. ولكن محمود الذي جاء إلى غزنة لم يكن على استعداد للتنازل عن سلطاته في خراسان، ولعله تلكأ كثيرا في مساومة أخيه إسماعيل لحل ما بينهما

---

(١) فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٨٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٨٥، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٦٩-٤٧٠، عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ص ٢٥٠، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٧٢.

سلميا لتوقعه خطورة ترك هذه الولاية. ولذلك ما أن قضى على تمرد اسماعيل حتى عاد إلى خراسان من جديد، فوصل إلى بلخ حيث تقابل مع الأمير الساماني منصور بن نوح الذي بارك انتصاراته على أخيه ومنحه حق ولاية بلخ وهراة وترمذ وبست إرضاء له وتعويضا عن ولاية خراسان التى كان بكتوزون مدبر أمر الأمير السامانى قد إستولى عليها مستغلا الصراع الدائر بين أبناء سبكتكين محمود واسماعيل [١]. ولكن الأمير الساماني رفض الموافقة على منح محمود حق قيادة الجيوش في خراسان كما كانت له من قبل. وذلك لأن قيادات بخاري العسكرية أرغمت الأمير أثناء غياب محمود عن خراسان على منح هذا المنصب إلى أحدهم وهو (بكتوزون). وحاول محمود الذي حز في نفسه تصرف الأمير منصور بن نوح معه عن طريق المراسلات والسفراء أن يسترد له منصبه بقرار جديد من الأمير منصور بن نوح، ولكن الأمير الذي فقد سلطانه لم يجرؤ على استصدار هذا القرار، مما جعل محمود يعد عدته للسير نحو نيسابور لاستعادة منصبه بالقوة. إلا أن بكتوزون هرب من المدينة انتظارا لوصول الإمدادات، حيث سار الأمير منصور نفسه لإمداده واجتمعت قوتيهما بالقرب من سرخس، وأنعم الأمير علي بكتوزون بلقب "سنان الدولة" نكاية في محمود بن سبكتكين، مما جعل محمود يترك نيسابور مؤقتا وانحاز إلى مدينة مرو الروذ. [٢]

ولا ندري الأسباب التي جعلت كل من فائق وبكتوزون اتفقا على عزل الأمير منصور بن نوح حيث تم عزله فعلا، إذ استطاعوا القبض عليه عندما كان يتنزه في رحلة صيد ووكلا به من سمل عينه بعد أسبوع

---

(١) إبن خلدون ، العبر، ج ٤، ص ٤٦٩-٤٧٠.
(٢) إبن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٩١، إبن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٧٠.

من ذلك وأرسلوه إلى بخاري، وعينوا بدلا منه أحد أخوته ويدعى أبو الفوارس عبد الملك بن نوح (٣٨٩هـ/٩٨٨م). فلعل بكتوزون وفائق تشككا في إخلاص منصور بن نوح لهما، وأما ما ذكره (العتبي) أن محمود بن سبكتكين كان يعلم انشقاقات فائق وبكتوزون على الأمير منصور، ثم ما تبع ذلك من غضب محمود عندما سمع بعزل الأمير الساماني[١] لنا أن نحتمل حدوث بعض الاتصالات الودية والتي ربما حدثت سرا بينه وبين الأمير الساماني. فلما تشكك كل من فائق وبكتوزون في إخلاص الأمير منصور لهما قاما بعزله.

واتخذ محمود بن سبكتكين من هذه الحادثة ذريعة له في الهجوم على هذه القوة المعادية، وأرسل إليهما "يقبح عليهما فعلهما، وسار نحوهما طامعا فى الاستيلاء على الملك" [٢]. فسار تجاه سرخس حيث تجمعت قوتهم، ولكنهم ما أن سمعوا باقترابه حتى انسحبوا إلى مرو، فجد محمود في طلبهم وألحق بهم، وكادت الحرب أن تقع بين الطرفين إلا أنه تم التوصل بين الجانبين عن إمكانية الحل السلمي، حيث اتفق مبدئيا على احتفاظ محمود بولاية بعض المدن الخراسانية الهامة أمثال بلخ وهراة وغيرها، بينما تبقى نيسابور ومرو لبكتوزون وفائق، مع إحتفاظ بكتوزون بقيادة جيش خراسان، فيكون محمود بهذه الاتفاقية قد خسر منصبه الذي حرص على الحفاظ عليه. ورغم ذلك فقد رضى بهذا الاتفاق، ومن الواضح أن الذي حمله على ذلك كما يذكر (بارتولد) هو التفوق العددي لخصومه الذين انضم إليهم أبو القاسم سيمجوري. ورغما

---

(١) العتبى، تاريخ اليميني، ح١، ١٢٤،ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ١٩٦، إبن خلدون، العبر، ح٤، ص ٤٧٠.

(٢) إبن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٧٠.

من أن هذا الاتفاق لم يكن لصالح محمود إلا أنه سُرّ به كثيرا حتى أنه تصدق كما تذكر بعض المصادر (الكرديزي والبيهقي) بألفي دينار على الفقراء متبشرا بالسلام الذي حل على أطراف النزاع، وكان ذلك في ٣٨٩هـ/ مايو ٩٩٨م[١].

ولكن هذا السلام لم يعش طويلاً، وذلك لأن الجبهة المعادية لمحمود بن سبكتكين لم تكن طرفا واحدا، وإنما كانت أشبه بالحلف الذي ضم عدة أطراف بكتوزون وأنصاره، وفائق وفرقته العسكرية، وأبو القاسم السيمجوري وجماعته، ومعهم الأمير الساماني، وبالإضافة إلى كل هؤلاء جمع هذا الحلف أيضا طرفا آخر وهو الأمير دارا بن قابوس إبن وشمكير الديلمي الذي لم يوافق على هذا الاتفاق، فحرض بعض أتباع الأمير الساماني وجنده على مهاجمة مؤخرة جيش محمود التي كانت تحت قيادة أخيه نصر مما أثار محمودا، فأصر على الحرب بعد أن كان قد مال إلى السلام. ولا ندري الأسباب التي جعلت محمود مسبقا يوافق على قبول الاتفاق والصلح، ورغم أن هذا الاتفاق كان ينص على حرمان محمود من قيادة جيوش خراسان، وهو المنصب الذي حرص عليه حرصا شديدا. وأغلب الظن أن محمود بعد حصوله على إمارة غزنة أصبح مولعا بإدارة أمورها، وكان يخشى غيابه عنها طويلا فتحدث بها بعض الفتن الداخلية، أو تتعرض أملاكه الهندية إلى غزوات الهنود، لذلك لم يمانع أولا في عقد هذا الاتفاق الذي أعطى له بعض الحقوق في خراسان، وأمن جانب القوة الأخرى، ولكنه عندما تأكد من عدم جدوى مثل هذه الاتفاقات أصر على استئصال شأفة هذه القوى ليريح نفسه نهائيا من أخطارها[٢].

---

(١) بارتولد، تركستان، ص ٤٠٤، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٨٧.

(٢) فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٨٨.

ونظم محمود جيشه لخوض الحرب الفاصلة مع القوى الخراسانية والسامانية ومن انضوى في صفوفهم. فوضع محمود نصر بن سبكتكين في الميمنة، ووضع أحد قادته الموثوق بهم في المسيرة، وتولى هو بنفسه القلب، وبلغت قواته التي خاض بها هذه الحرب ما يقرب من ثلاثين الف مقاتل. وقد استخدم محمود الفيلة في القتال حتى بلغ عددها في هذه الحرب زهاء مائتين، وبدأ هجومه على القوى المتحالفة بالقرب من مرو في جمادى الأولى ٣٨٩هـ/٩٩٨م فكان النصر حليفه حيث تشتت أعداءه، ففر الأمير عبد الملك بن نوح إلى بخاري ومعه فائق تاركا أتباعه بين قتلى وأسرى، وفر أبو القاسم السيمجوري نحو خوزستان، كما لاذ بكتوزون فارا نحو نيسابور ومنها إلى جرجان، وبدأ محمود يعين عمالا من قبله على مدن خراسان، نذكر منهم أبو الحارث أرسلان الجاذب الذي تولى مدينة طوس، وقام بدور هام في القضاء على جيوب المقاومة التي تصدت لسلطان محمود على خراسان.[١]

وبهذه الانتصارات أصبح محمود بن سبكتكين سيدا على خراسان، فعين أخاه نصر قائدا لجيوشها ولقبه بلقب (إسفهسالار) أي قائد جيوش خراسان ونائب الملك بها، وعاد إلى بلخ لمراقبة الأحداث في بخاري[٢]. وأراد محمود أن يصبغ ولايته لخراسان بصبغة شرعية، فأرسل إلى الخليفة العباسي القادر بالله تقريرا عما حدث بينه وبين أمير السامانيين، وفى هذا التقرير يؤكد محمود أن سبب الحرب كان امتناع السامانيين عن الاعتراف بالخليفة. وأصبحت الخطبة في خراسان

---

(١) العتبى، نفسه، ج ١، ص ١٣٠-١٣١، ويحدد إبن خلدون تاريخ هذه المعركة بعام ٣٩٠هـ (العبر، ج ٤، ص ٤٧٠-٤٧١).

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٨٦.

لمحمود بن سبكتكين وللخليفة القادر، إذ كانت الخطبة حتى ذلك الوقت باسم الطائع لله فغيرها محمود للقادر، ولم يمض وقت طويل حتى وصلت محمود مباركة الخليفة لما قام به، وأضفى الخليفة الشرعية على حكم محمود وما استولى عليه، وبذلك زالت الدولة السامانية من خراسان على يد محمود الغزنوي، ويعلق العتبي على ذلك بقوله "ورث دولة آل سامان وملك ديار خراسان". وعبر الخليفة عن رضاه فأصبغ على محمود الألقاب الفخرية "مثل نظام الدين"، و" يمين الدولة وأمين الملة"، حيث صارت ألقابه بعد ذلك، كما لقب محمود بعد بالسلطان وهو أول من لقب به، وظهرت هذه الألقاب على السكة التي كانت تحمل اسمه[1].

أما أمير بخاري المهزوم فقد تعقدت أمامه الأمور بموت فائق الذي كان يمنيه بإمكانية إعادة الصفوف لحرب محمود[2]. ثم طويت بعد ذلك صفحات سيادة السامانيين على خراسان، بل وعن بخاري نفسها، التي دهمتها في نفس السنة (٣٨٩هـ/٩٩٨م) جيوش إيليك خان وهو أبو نصر أحمد الذي يلقب بشمس الدولة[3] واستطاع دخول بخاري وأسر أمير السامانيين وأهل بيته. ويحدثنا (الصابي) عن حركات المقاومة التي قامت في بخاري للإبقاء على سيادة السامانيين، وعن انقسام الأهالي بين مؤيد لهم ومعارض إلى أن وصل الأمر بفقهاء المدينة أن أعلنوا عدم

---

(١) ابن الأثير، نفسه، ج ٧، ص ١٨٦-١٨٧، ابن خلكان، وفيات، ج٢، ص ٨٤-٨٥، حسن إبراهيم حسن، نفس المرجع،ج٣، ص ٨٨.

(٢) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ١٣٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٩٧، ابن خلدون، العبر ج٣، ص ٤٦٥؛ج٤، ص ٤٧١، بارتولد، تركستان، ص ٤٠٥.

شرعية قتال الخانية لاتفاقهم في الدين وحسن سيرتهم، مما ساعد على استسلام بخاري لسلطة الدولة الخانية[١].

وبسقوط الدولة السامانية في بخاري، وسيطرة محمود الغزنوي على خراسان وتأييد الخلافة له بإعلان شرعية حكمه على هذه الولاية، تبدأ خراسان فترة أخرى في تاريخها تحت سيادة الدولة الغزنوية، "واتفق أصحاب الأطراف بخراسان على طاعته مثل آل أفريقون بالجوزجان والشاه صاحب غرسيان وبني مأمون بخوارزم". [٢]

وقد كان اعتلاء محمود الغزنوي العرش كسلطان مهيبا للغاية، وحدث ذلك في نفس الشهر الذي دخل فيه جيش إيليك خان بخاري (ذي القعدة ٣٨٩هـ/ أكتوبر ٩٩٩م)، وقد أحاط محمود نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة أكثر مما فعل السامانيون. ويذكر (بارتولد) أنه على الرغم من أن محمود الغوزنوي قد تلقب بالسلطان، وخاطبه به مؤرخو البلاط وشعراؤه وكتاب الإنشاء، غير أنه ظل في حياته العادية يدعى بالأمير كخلفائه، ويستند في رأيه هذا بأن (الكرديزي) لا يكاد يستعمل لفظ السلطان كلقب لمحمود الغزنوي، كما أن هذا اللقب لم يكن من بين الألقاب التي ضربت على سكة الغزنويين الأوائل[٣].

حروب محمود الغزنوي لصاحب سجستان:

ولم يكتف محمود بما استولى عليه من البلاد، بل عمل على مد نفوذه وتوسيع رقعة أملاكه، فيمم نازريه ناحية سجستان بهدف الاستيلاء

---

(١) فامبري، تاريخ بخاري، ص ١٢٣، بارتولد، تركستان، ص ٤٠٥.
(٢) إبن خلدون ، العبر، ج ٤، ص ٤٧١.
(٣) بارتولد، تركستان، ص ٤١١.

عليها. وكان يحكم سجستان في تلك الآونة (خلف بن أحمد)، الذي كان يحمل عداءً خفيا ويتوجس خيفة من قوة الغزنويين الناهضة منذ أن استقل سبكتكين بحكم غزنة، واستيلاء محمود على خراسان بسبب مجاورة ملكه لملك الغزنويين. ورغم ذلك فقد توثقت الصداقة ظاهريا بين الحكومتين السجستانية والغزنوية. ولما سنحت الفرصة لخلف بن أحمد للإغارة على أطراف بلاد الغزنويين لم يتورع عن انتهازها، فأغار على قهستان وهراة وكان يحكمهما (بغراجق) أخو سبكتكين وعم يمين الدولة محمود الغزنوي. وعند وفاة سبكتكين في عام ٣٨٧هـ، سُر خلف بن أحمد عند سماعه هذا الخبر وأرسل ابنه (طاهر بن خلف) للاستيلاء على (بوشنج)، فنجح في ذلك وسلبها من يدي (بغراق)، فلما علم محمود بذلك أسرع لمساندة عمه في رد خطر طاهر بن خلف، غير أن القائد السجستاني نجح في إلحاق الهزيمة ببغراق وتمكن من قتله، فأشعل ذلك نار غضب محمود الغزنوي على حكومة سجستان واستعد للثأر منهم.

وفي عام ٣٩٠هـ، كان خلف بن أحمد متوجها لقلعة (أسبهبد) إحدى قلاع سجستان الحصينة وبرفقته ولده وأهله، ففاجأه محمود بجيوش كثيفة عند هذه القلعة، وحاصره بها مدة طويلة، ولم يجد خلف بدا من التسليم، فنجا من الحصار بعد أن افتدى نفسه بمائتي ألف دينار. [١] وبعدها انشغل محمود الغزنوي بفتوحه في بلاد الهند، فاسترد خلف بن أحمد رباطة جأشه وانتقم ممن ساندوا محمود الغزنوي على حصاره أشد انتقام، مما جعل ابنه طاهر يثور ضده مطالبا إياه بالاعتزال، فوافق خلف ابن أحمد على التنازل عن إمارته لابنه، وتظاهر بالانشغال بالعبادة

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٧٩-٤٨٠.

والعزلة وخدع ابنه بالحيلة والتدبير وإظهار شفقة الأب على ابنه، فلما تمكن من ابنه قتله ثم غسله وكفنه وأوسده الثرى بنفسه، وكان ذلك في عام ٣٩٢هـ.

وجار أهل سجستان في النهاية من مظالم خلف بن أحمد، واستدعوا محمودا الغزنوي لكي يخلصهم من جور وعسف أميرهم، ووعدوه بالمساعدة وتسليم بلدهم إليه، فأسرع محمود بإجابة مطالبهم وكان يترقب أن تسنح له مثل هذه الفرصة، فقاتل خلفا بن أحمد وحصره في قلعة (طاق) إحدى قلاع سجستان، وبعد أربعة أشهر من المقاومة سلم خلف واستولى محمود على سجستان في صفر من عام ٣٩٣هـ، وأرسل بخلف بن أحمد إلى الجوزجانان، فألقى به في السجن لما سمع بمكاتبة الإيلخان، ثم قتل في سجن (دهك) بين زرنج وبست، غير أن سجستان لم تلبث أن خرجت على طاعة السلطان محمود الغزنوي، فجرد إليها حملة كبيرة نجحت في الاستيلاء عليها وإخضاعها لسلطانها ، فأقطعها أخاه صاحب الجيش نصر بن سبكتكين مضافة إلى نيسابور[1].

السلطان محمود وخانات الترخستان :

وكان الخانيون أو الخانات الذين استولوا في ذلك الوقت (٣٨٩هـ) على بلاد ما وراء النهر، وكانوا قد خلفوا السامانيين في تلك البلاد. كانوا مسلمين يعدون قبول أمير الخليفة العباسي فرضا ويعتبرون

(١) العتبي، تاريخ اليميني، ج١، ص ٩٩-١٠٤،ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٨٠-٤٨١، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٨٨، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٧٣-١٧٤.

أنفسهم كالغزنيين أتباعا للخليفة القادر ويسكون عملتهم ويخطبون باسمه، وأطلقوا على أنفسهم "موالي أمير المؤمنين".

وقد وقع نزاع بسبب منتصر الساماني بين محمود والأيلك نصر خان الذي حمل لقب "ناصر الحق" وضربه في سكته، غير أن هذه الفتنة قد خمدت وتزوج محمود ابنة نصر خان وبدأ السلام بين هذين الأميرين التركيين وأضحى نهر جيجون الفاصل بين ملكيهما. [1] وقد تلقى محمود هذا الصلح بحبور لأنه كان يترقب الفتح في الهند التي نذر أن يغزوها كل عام ويريد أن يفرغ للاهتمام بها. لكن الصلح لم يدم طويلا لأن الأيلك نصرا بمجرد أن توجه محمود لإحدى غزواته وأقام في المولتان بالسند (٣٩٦هـ) أرسل قائدخ (سباشي تكين) للسيطرة على خراسان من ناحية و(جعفرتكين) حاكم بخاري إلى بلخ للاستيلاء على طوس ونيسابور من ناحية أخرى، وقد حقق الجيشان هدفهما، ولكن بينما أبدى سكان بلخ مقاومة مستميتة دفعت الغزاة فيما بعد إلى أن يسلموها للنهب، كان موقف أهالي نيسابور إزاء الغزاة سلبيا للغاية، بل إن الطبقة الارستقراطية أخذت جانبهم. ولما وصل الخبر إلى محمود الغزنوي عاد سريعا إلى غزنة ومنها إلى خراسان وهزم جعفر وسباشي وأنقذ خراسان من سيطرة الخانيين. وفى السنة التالية عبر الأيلك نصر بعون قدرخان بن بغراخان والى الختن بجند آخرين وأسرع لمحاربة محمود وكان مقيما في طخارستان في هذا الوقت مع جمع من الأتراك الغز والخلجيين (نسبة إلى خلج بكسر الخاء وهو لفظ تركي ينطق حاليا خلخ بمعنى السيف)

---

(١) يذكر ابن خلدون (العبر، ج ٤، ص ٤٨٢) أن الإمام سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي وطغان جك والى سرخس كانا وسطاء الزواج والسلام بين السلطان محمود وإيلك خان.

والأفاغنة والهنود وخمسمائة فيل حربي. وفي الثاني والعشرين من ربيع الثاني من عام (٣٩٨هـ) على مقربة من جسر (جرخيان) على نهر بلخ في صحراء (كنز) على بعد فراسخ أربعة من بلخ استنبك الطرفان ولقي جيش الخانيين هزيمة قاسية وغرق جزء منهم في الماء أثناء فراره. ويقال إن الأيلك حين عنف قواده أجابوه بقولهم :"ليس لأحد قبل بمقاومة تلك الفيلة وذلك السلاح والعدة وألئك الرجال" كما يذكر الكرديزي وأكثر الشعراء تهنئة السلطان محمود بهذا الفتح[١].

ومعركة (كنز) إحدى الوقائع العظيمة الأهمية في تاريخ الغزنويين، لأن خطر الخانيين من هذا الوقت حتى عهد السلاجقة قد انتهى عن خراسان. أما نصر فقد ثار عليه أخوه (طغان خان) حاكم (كاشغر) بسبب هزيمته وتحالف مع محمود في عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م، ولم يستطع الخانيون بسبب نشوب الاختلافات الداخلية بينهم منافسة محمود أو مساواته، بل كان كل منهم يستمده على الآخر وكان حكمه جاريا متبعا في بلادهم.

استيلاء محمود الغزنوي على خوارزم (٤٠٧-٤٠٨هـ)

كانت خوارزم، [٢] وهي منطقة خيوه الحالية تحت إمرة أسرتين من الأمراء على عهد السامانيين أولاهما أسرة المأمونيين التي حكمت

---

(١) إبن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٨٣-٤٨٤، بارتولد عن الكرديزي، تركستان، ص ٤١٢، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٧٤-١٧٥.

(٢) خوارزم ناحية مشهورة ذات مدن وقرى كثيرة، وسيعة الرقعة فسيحة البقعة، وكان لإقليم خوارزم قصبتان أولهما في الجانب الغربي (الفارسي) من نهر جيجون تسمى الجرجانية. والأخرى في الجانب الشرقي (التركي) يقال لها كاث. والخوارزمية يخالفون أهل الجانبين في الرسوم واللسان والخلق والطباع، وبخوارزم مدن درغان وكردران وسافردز وهزاراسب وغيرها، وكان يصدر منها ثياب القطن=

على الجزء الشمالي لنهر جيجـون، وكـانت عاصمتـهم مدينـة جرجـانج أو الجرجانيـة أو أورجنـج مدينـة خيوه الحاليـة قد حلـت محلـها، وثانيـهما الخوارزمشاهيون القدماء الذين سيطروا علـى الساحل الأيمـن أي الجزء الشرقي لنهر جيجون وكانت عاصمتهم مدينة كـاث أو شهرستان. وتجدر الإشارة إلى آن أخبار استيلاء محمود الغزنوي على خوارزم، قد استقيناها من رواية مفصلة وفريدة نقلها (بيهقي) عن (تاريخ خوارزم) للبيروني.

وقد سبق ذكر لأبـي العبـاس مـأمون بـن محمـد صاحب جرجانيـة وقلنا أن هذا الأمير حمل على أبي عبد الله خوارزمشـاه صـاحب شـهركاث (٣٨٥هـ) الذي كان قد أسر أبا علي السيمجوري واستخلص منه خـوارزم الشرقية وقتله في نفس هذه الآونة في مقابل أبي على السيمجوري، وقـد أطلق على أبي العباس صاحب جرجانيـة مـن هـذا الوقـت خوارزمشـاه أي ملك خوارزم في حين أن هذا اللقب كان لولاة كاث. وبعد وفاة أبي العبـاس في (٣٨٧هـ) خلفه ابنه أبو الحسن علي وقبل بيعته للخانيين بعـد سقوط السامانيين، وبما أن محموداً قد تغلب عليهم فقد سالمه أبو الحسن وتزوج من أخته. وتولى جرجانية وخوارزم أبـو العبـاس مـأمون بـن مـأمون بعد أخيه أبي الحسن وتـزوج هـو أيضـاً بـأخت أخرى لمحمـود، وكـان مطيعـاً للسلطان مجبرا حتـى (٤٠٧) سـنة قتلـه ولكنـه كـان يظـهر الإخـلاص والمحبة للخانيين.

=والصوف أمتعة كثيرة تصل إلى الآفاق. وهم أكثر أهل خراسان إنتشاراً وسفراً (ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٩٥-٣٨٩، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٨٤ ومابعدها، القزويني آثار البلاد، ص ٥٢٥-٥٢٧، لسترنج، بلدان الخلافـة، ص ٤٨٩ ومابعدها).

وفي نفس العام ساء ظن محمود بخلوص نية أبي العباس فطلب إليه أن يخطب له في خوارزم فتظاهر خوارزمشاه بقبول طلبه، لكن أعيان خوارزم وأمراءها لم ينصاعوا وثاروا على حاكمهم وقتلوه وأمروا عليهم ابن أخيه أبا الحارث محمدا بن علي، فقصد السلطان محمود خوارزم بحجة الانتقام لدم أبي العباس خورازمشاه وإنقاذ أخته بجيش ضخم، وبعد معركة في (هزاراسب) بالقرب من جرجانية هزم جند خوارزم شاه هزيمة شديدة، ثم دخل في الخامس من صفر (٤٠٨هـ) جرجانية وقبض على جميع أفراد الأسرة المأمونية وأتى بهم غزنة، وترك خوارزم إلى قائده المشهور الترنتاش وزوال آل مأمون وصار الترنتاش ملك خوارزم. [١]

إن استيلاء محمود الغزنوي على خوارزم "التي انضافت كإحدى إخواتها إلى سائر ممالكه" كما يقول (العتبي) قد أعطاه التفوق على القراخانيين في بلاد ما وراء النهر.

وكان أفراد الأسرة المأمونية أغلبهم فضلاء محبين للفضل، وكانت جرجانية في عهدهم مركز اجتماع العلماء والفضلاء حتى أن أبا علي بن سينا كان يعيش هناك في بلاط أبي الحسن علي وأبي العباس مأمون، وكان أبو الريحان البيروني أيضاً من أجلة خواصهم ومستشاريهم[٢].

---

(١) إبن خلدون ، العبر ، ج ٤، ص ٤٨٨-٤٨٩.

(٢) بارتولد، تركستان،ص ٤١٥-٤١٦، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٧٦.

فتوح محمود الغزنوي في بلاد الهند (٣٩٢-٤١٦هـ) :

إصطبغت حملات محمود الغزنوي في بلاد الهند بين أعوام (٣٩٢-٤١٦هـ/١٠٠٠-١٠٢٤م) بصبغة الجهاد الديني، وكان يرمي من وراء هذه الحملات إلى نشر الإسلام في هذه البلاد ليكون ذلك كفارة لما كان من قتال المسلمين. ولذلك فرض - كما يقول ابن خلكان - على نفسه في كل عام غزو الهند. في حين كان محمود يبطن الإغارة على بلادهم ومعابدهم ومحال أصنامهم التي شهرت بكثرة ثروتها وآلاتها وأدواتها وأصنامها الفضية والذهبية، وقد جلب معه كل مرة بالإغارة على مدنهم غنائم لا تعد ولا تحصى. أضف إلى ذلك أن جيبال ملك البنجاب الذي حارب أباه سبكتكين حروبا طاحنة، كان لا يزال في قوة لا يستهان بها، كما أن قرب غزنة من بلاد الهند الشمالية، ووقوعها على قمة الهضبة التي تشرف على سهولها يجعلها سهلة الاتصال بوديان كابل وقورم ونهر جمال. كل ذلك أمد محمودا بمزايا فريدة ساعدت على نجاح غزواته في بلاد الهند. ومما ساعد محمودا على تحقيق هذه الأغراض كذلك استيلاؤه على بلاد ما وراء النهر التي آلت إلى إيليا خان بعد زوال الدولة السامانية، وعلى سجستان وبلاد الغور، مما قوى مركزه الحربي في الداخل وأطلق يده في توجيه حملاته المنتظمة إلى بلاد الهند. هذا ومن المعروف أن الهند لم تكن غريبة على محمود فقد سبق له أن شارك أباه سبكتكين فى غزواته لها من قبل، مما يسر له الإطلاع على أحوالها والوقوف على قدر غير قليل من أساليب القتال عند أهلها.[١]

---

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ، ح ٤، ص ٩٠، الساداتى ، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية، ح ١، ص ٨٧.

ولقد بدأ محمود هجماته على الهند بعد جلوسه على العرش في غزنة بخمس سنوات، وأنهاها قبل وفاته بخمس سنوات أخرى، لأنه انشغل بقمع أعدائه في الداخل والقادة السامانيين والخانات والأمير خلف بن أحمد صاحب سجستان، وفي الخمس سنوات الأخيرة لم تتركه ثورات العراق وخراسان والاهتمام للخطر التركي السلجوقي، أن يتوجه للهند خالي البال.

وفي سنة ٣٩٣هـ غزا محمود الغزنوي شمال الهند على رأس عشرة آلاف مقاتل؛ وانتصر على جيبال وأسره وغنم غنائم كثيرة حتى قيل إن عدد الأسرى بلغ أكثر من خمسمائة ألف، ثم أطلق جيبال على جزء من المال يؤديه وخمسين رأسا من الفيلة. وكان من عادة الهنود أن من وقع منهم أسيرا في أيدي المسلمين لا تنعقد له بعدها رياسة، ولذلك حلق جيبال رأسه، ثم ألقى نفسه في النار فاحترق، وترك مملكته لابنه أنندبال Anandapal. وكان من أثر ما أحرزه محمود من نصر في هذه الغزوة أن أطلق عليه "الغازي". (١)

وبعد أن أحل محمود الغزنوي الهزيمة بجيبال سار نحو ويهند Und وانتصر على أهلها، ثم قصد إقليم الملتان، وهو مركز مشهور للحجاج من الهنود في جنوب بلاد البنجاب على سمت غزنة؛ فاستولى على مدينة بهاطية، وانتصر على صاحبها بحيرا (٣٩٥هـ) ونشر الإسلام فيها، وولي عليها أحد المسلمين، وعهد إليه بتعليم أهلها قواعد الإسلام. وفي سنة ٣٩٦هـ قصد محمود مدينة الملتان نفسها، وانتصر وهو في طريقه إليها على أنندبال بن جيبال لأنه لم يسمح له بالمرور من بلاده،

---

(١) ابن الأثير، الكامل ، ج٨، ص ٢٠٤، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٨٠، الساداتي، نفسه، ج٢، ص ٨٨.

ولما سمع أبو الفتوح داود صاحب الملتان وكان يدين أهلها بمذهب القرامطة، بقدوم محمود الغزنوي إلى بلاده، فر إلى سرنديب، فقضى محمود على مقاومة أهلها وافتتحها عنوة وفرض عليها الجزية. [١]

وفي سنة ٣٩٧هـ أعلن محمود الغزنوي الحرب على ولد أنندبال الذي اعتنق الإسلام على يد محمود وتلقب بلقب نواسه شاه وحكم بلاده نيابة عنه، ولكنه ارتد عن هذا الدين وشق عصا الطاعة، فسار إليه محمود وانتصر عليه وضم بلاده إلى أملاكه. [٢]

وبينما كان محمود مشغولا بحرب إيلك خان، الذي استولى على بلاد ما وراء النهر من يد السامانيين ثم حارب جيوشهم على مقربة من بلخ وجيوش الغور على ما تقدم، عقد ملوك الهند وأمراؤها حلفا لمقاومة محمود والدفاع عن بلادهم وعن دينهم. وفي سنة ٣٩٨هـ عبر محمود نهر السند والتقى في ويهند الواقعة في البنجاب بجيش جرار يتألف من قوات أبرهمن بال بن أنندبال وراجات أدجين وجواليار ودلهي وغيرها، وكادوا يظفرون بالمسلمين.

ثم تبع يمين الدولة أثر أبرهمن بال حتى بلغ قلعة بهيم نغر، وكان الهنود قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم ونقلوا إليها الذخائر والجواهر، فنازلهم يمين الدولة وحصرهم وقاتلهم وأرغمهم على طلب الأمان، وفتحوا باب الحصن وملك المسلمون القلعة، وصعد يمين الدولة إليها في خواص أصحابه وثقاته، "فأخذ من الجواهر ما لا يحد ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية، ومن الأواني الذهبيات سبعمائة ألف

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٨١-٤٨٢.
(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٨٢، الساداتى، نفسه، ح١، ص ٨٩.

وأربعمائة منا، وكان فيها بيت مملوء من فضة طوله ثلاثين ذراعا وعرضه خمسة عشرة ذراعا، إلى غير ذلك من الأمتعة. وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم، ففرش تلك الجواهر في صحن داره؛ وكان قد اجتمع إليه الرسل والملوك، فأدخلهم فرأوا ما لم يسمعوا بمثله"[١].

وكان من أثر انتصار محمود في هذه الغزوة أن انتثر عقد هذا الحلف وزالت الثقة من نفوس هؤلاء الراجات، ودفع أنندبال إلى محمود غرامة كبيرة، وتعهد بأن يدفع إليه جزية سنوية، كما تعهد بأن لا يقف في طريقه إذا ما أراد المرور من بلاد البنجاب. أما داود صاحب بلاد الملتان فإنه ارتد إلى عقائد القرامطة، فغزا محمود بلاده في سنتي (٤٠٠-٤٠١هـ) واستولى على حاضرتها وقتل كثيرا من أهلها، وقبض على داود وأرسله إلى بلاد الغور حيث قضى بقية حياته. ثم استولى محمود الغزنوي على (ناردين) من قلاع البنجاب غرب نهر جيلم من أفرع نهر السند فى سنة (٤٠٤هـ) وهدم الصنم المعروف بسومنان وغنم غنام كثيرة. [٢]

ويعلق الدكتور الساداتى على كثرة حروب محمود الغزنوى فى بلاد الهند بقوله " ولئن كانت فكرة الجهاد التى تسلطت على محمودورجاله وأشرأبت بها نفوسهم، هى التى دفعت بهم إلى توالى غزوهم للهند، هذا بالإضافة إلى ماكان لكنوز هذه البلاد وثرائها الطائل من إغراء، فقد كان من العوامل البارزة التى ساعدت على إنتصارهم كذلك ماكان يغلب على الأمراء الهنادكة من تحلل إجتماعى جعلهم أبدا يقدمون

---

(١) ابن الأثير ، الكامل، ج٨، ص ٢٠٦، إبن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٨٤، حسن إبراهيم حسن ، نفسه ، ج ٤، ص ٩١.

(٢) إبن خلدون، العبر، ج٤، ص ٤٨٥.

مصالحهم الخاصة ومآربهم الشخصية على كل شئ فلا يبغون عنها حولا، ولو حتى بقدر ضئيل فى سبيل الهند". [١]

ثم عزم محمود على امتلاك قشمير، ولكنه لم يوفق في حملاته العديدة التي قام بها في سنتي ٤٠٤ و ٤٠٥ و ٤٠٦هـ وفقد كثيرا من جنده وغرق كثيرا منهم بسبب فيضان بعض الأنهار.

أقسم محمود على أن يغزو بلاد الهند في كل سنة، ولكنه انشغل في سنة ٤٠٧هـ بضم بلاد خوارزم على أثر مقتل خوارزم شاه مأمون، ثم تفرغ لفتح قشمير لذلك نراه يسير من غزنة سيرا متصلا مدة ثلاثة أشهر، يعبر نهري سيجون وجيلوم فيخضع له ملوك هذه الجهات. ثم يستمر في سيره حتى يصل إلى قشمير فيخضع له صاحبها (جنكى بن شاهى) ويسلم على يديه. وضمن دلالة الطريق [٢] ولما سمع راجا برن Baran، (ويدعى هودب أو هردتا Hardatta) زعيم بولند شهر بنبأ وصول جيوش محمود إلى بلاده، سقط في يده، وأخذ الفزع من نفسه كل مأخذ وخشي على حياته من عقاب الله، ولم ير بدا من اعتناق الإسلام، إذ رأى أن هذا الدين يحوطه سياج متين من قوة الله سبحانه وتعالى. وسرعان ما تقدم على رأس عشرة آلاف من رجاله، وأعلنوا للفاتحين رغبتهم في التحول عن دينهم القديم إلى الإسلام ومناصبة الكفار العداء. ثم سار عنه إلى قلعة كلجند Kulcand، وعليها راجا مهبان Mahban، فقاتله محمود قتالا شديدا، وغنم المسلمون أمواله، وملكوا حصونه ثم سار نحو متعبد لهم في مدينة مثورا Mathura أو بندرابان Bandrapan، وهو يقع على نهر

---

(١) الساداتى، نفسه ، ح ١، ص ٩١-٩٢.

(٢) وقشمير أو كشمير ناحية بأرض الهند متاخمة لقوم من الترك، فاختلط نسل الهند بالترك، فأهلها أكثر الناس ملاحة وحسنا، وهذه الناحية تحتوى على عدد كبير من المدن والضياع، وهى فى غاية المنعة (القزوينى، آثار البلاد، ص ١٠٤-١٠٥).

وفيه كثير من الأصنام : منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر، وكان فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفا وثلثمائة مثقال، ومن الأصنام المصوغة من النقرة حتى مائتي صنم، فأخذ يمين الدولة ذلك كله. ثم سار نحو كنوج Kannawj، وكان يحميها سبعة حصون على نهر الجنج، وكان صاحبها راجبال Radjyapala قد فارقها، ثم عبر نهر الجنج (أو كنك على ما يسميه ابن الأثير) فاستولى محمود الغزنوي على قلاعها وأعمالها، وفيها نحو عشرة آلاف بيت من بيوت الأصنام. ثم سار إلى قلعة (البراهمة) وتسمى مجهاون Mujhawan فقاتلوه قتالا شديدا، فأحل بهم الهزيمة ولم ينج منهم إلا الشريد، ثم سار نحو قلعة آسي على نهر الجنج. فلما اقترب منها هرب صاحبها جندبال فاستولى عليها يمين الدولة، ثم سار إلى قلعة (شروة) Sharwa. فلما اقترب منها نقل صاحبها جنداري ماله وقبوله نحو جبال منيعة يحتمي بها، ففتحها يمين الدولة وغنم ما فيها، ثم سار في طلب جنداري، وأسر كثيرا منهم وغنم ما معهم من مال وفيلة. وكان السبى في هذه الغزوة من الكثرة بحيث أن أحدهم كان يباع بأقل من عشرة دراهم. (١) ولما عاد محمود الغزنوي من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة وأنفق على بنائه كل ما غنمه في هذه الغزاة، وجلب إليه جذوع الرخام من الهند، وفرشه بالمرمر، وأعالى جدرانه بالأصباغ وصباب الذهب المفرغة من تلك الأصنام، وإحتضر بناء المسجد بنفسه، ونقل إليه الرخام من نيسابور"، كما بنى أمام المسجد

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٢٤٩، إبن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٨٩-٤٩٠، الساداتى، نفسه ، ج١، ص ٩٣.

مدرسة إحتوت فيها الكتب من العلوم القديمة، وأمر القواد والحجاب وسائر الخدام فبنوا بجانب المسجد من الدور ما لا يحصى.[(١)]

وقد حز في نفس ملوك الهند ما أحرزه محمود الغزنوي من نصر مؤزر وما أبداه بعضهم من تخاذل، فسار ننداراجا كالنجار Kalindjar وراجا كواليار Gwaliyar إلى راجبال راجا كنوج وحارباه لتركه حاضرة بلاده وقتلاه، وانضم إلى ننداكثير من ملوك الهند الخاضعين لنفوذ محمود الغزنوي، الذى خسر سلطانه في هذه البلاد. فلم ير بدا من العودة إلى الهند والقضاء على هذا الخطر قبل استفحاله، وقضى في طريقه على جماعة من الأفغان الذين كانوا يقطنون المناطق الجبلية بين غزنة والهند ويقطعون الطريق ويعوقون مواصلات محمود إلى هذه البلاد، ولما تم له ما أراد، قصد ننداوحلفاءه وقضى عليهم في بلاد البنجاب وغنم منهم غنائم كثيرة (٤٠٩/١٠١٩)[(٢)]. ويذكر (ابن ظافر الأزدي) أن من جملة المدن التي هاجمها السلطان محمود، مدينة (مهورة) التي تزعم الهنود أن الجن كانت رفعت قواعد بنيانها وبنت بيوت أصنامها، وكانت هذه المدينة تشتمل على زهاء ألف قصر، وكان فيها ألف بيت للأصنام المصنوعة من الذهب والفضة والمصنوعة من الخشب فعاد محمود إلى غزنة بما لا يحصى من اليواقيت والجواهر ما لا يعرف له قيمة[(٣)].

وهكذا استمرت غزوات محمود الغزنوي في بلاد الهند سنة بعد أخرى، حتى توج انتصاراته الباهرة في غزوته التي شنها عليها باسترداد ناردين، وهدم صنم (سومنان) وهو أعظم أصنامهم وكان الهنود يعتبرونه

---

(١) ابن خلدون ، العبر، ج ٤، ص ٤٩٠-٤٩١.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٢٦٨، حسن ابراهيم حسن، نفسه ، ج ٤، ص ٩٣.
(٣) ابن ظافر الأزدى، أخبار الدول المنقطعة، ص ٢٥٦-٢٥٧.

الملاذ الذي يحميهم من غزوات الغزنويين. "وكان كلما فتح محمود بن سبكتكين من الهند فتحا أو كسر صنما يقول أهل الهند: إن سومنات ساخط عليهم، ولو كان راضيا عنهم لأهلك محمودا دونه". فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه، ظنا منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام[1]. فاستعد لهذه الغزوة أتم استعداد، واخترق صحراء الهند (صحراء ثار) فى ثلاثين ألف فارس سوى المتطوعة، واستولى على أجمر Adjmar وأنهلوارة Anhliwara، وتركها صاحبها بهيم Bhim، ووصل إلى سومنان في ١٦ ذي القعدة سنة ٤١٦هـ (يناير ١٠٢٦م)، فرأى حصنا منيعا يشرف على البحر من فوق مرتفع، واستبسل الهنود في الدفاع عنه أشد دفاع. ثم علم أن أمراء جوجرات Gudiarat الذين فروا قبل قدومه قد لموا شملهم للذود عن معبودهم وساروا نحو المدينة، فترك بعض رجاله يحاصرون الهند واتجه ببقية جيشه صوب جيوش هؤلاء الأمراء، وانتصر عليهم بعد أن كادت تحل به الهزيمة فولوا الأدبار، واستطاع أن يستولي على هذا الصنم المشهور. وكان من الحجر ويبلغ طوله خمسة أذرع وأرسل بقطع منه إلى غزنة ومكة وبغداد، وتذكر الروايات أن السلطان محمود هو الذي إقتحم المعبد وحطم بنفسه برمح كان معه هذا الصنم الشهير. وقد أقيم معبد (سومنات) وكان أحد النماذج الرفيعة لفن العمارة الهندية على قواعد حجرية وعمد بأعمدة خشبية، وكانت تبرق على سقفه أربع عشرة قبة من الذهب. وكانت خزائنه تغص بالنفائس والجواهر التي كان يبعث بها الراجان والزوار الهنود لسنين طويلة. وقد قدرت قيمة هذه النفائس التي

---

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٩٢.

غنمها محمود بنحو عشرين ألف ألف دينار.[١] وقد سر محمود الغزنوي بهذا النصر المؤزر، وأرسل إلى الخليفة يعلنه بما فتح الله على المسلمين في الهند[٢].

ويعلق الدكتور (الساداتى) على هذه الغزوة بأن محمودا لم يكن ليخاطر بعبور صحراء مهلكة مثل صحراء (ثار) لمجرد تحطيم صنم أو الإستيلاء على الأموال الموجودة فى هذا المعبد الهندوكى. فواقع الأمر أن هذا المعبد كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكى. كما كان مقرا للخزانة التى ينفق منها على الأعمال الحربية، وهذا سببا منطقيا للإستيلاء عليه.[٣]

ويقول (ابن ظافر الأزدي) إن هذا الصنم الذي هو أعظم الأصنام عند أهل الهند، قد أحيط حوله هالة كبيرة من القدسية، فهم يرون أنه يحيي ويميت، ويوجد ويغيث، ويبدي ويعيد، ويفعل ما يريد، وأنه إذا شاء أبرأ العلل من البرص والعمى والشلل، وزعموا أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه فأنشأها فيمن شاء قبل الولادة، وهذا على مذهبهم في التناسخ، وكان كل ملك من ملوك الهند يقيم عنه نائبا في ملازمة عبادته والقيام بخدمته، ويرى أن ذلك إقامة لفرضه وتأدية لحجة، وكانت الهنود تعارض به البيت الحرام[٤].

---

(١) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص ٢٥٩-، إبن خلدون، العبر، ج٤، ص ٤٩٢-٤٩٣.

(٢) ابن ظافر الأزدي، نفس المصدر، ص ٢٥٨، إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص ٨٤-٨٥، حسن ابراهيم حسن، نفسه، ج٣، ص ٩٣.

(٣) الساداتى، نفسه، ج ١، ص ٩٦.

(٤) ابن ظافر الأزدي، نفسه، ص ٢٥٨-٢٥٩.

وقد أعجب محمود بجمال إقليم جوجرات وحسن مناخه، حتى أنه فكر في اتخاذ (أنهلوارا) حاضرة له واستخلاف ابنه مسعود في حكم غزنة، لولا أن قواده أشاروا عليه بالعدول عن هذا الرأي، وإستولى على نهرواله وهو فى طريق عودته إلى غزنة، التى عاد إليها محملا بالغنائم. وكانت آخر غزوات محمود الغزنوي لبلاد الهند في سنة ٤١٨هـ (١٠٢٧م) لتأديب الثوار الذين اعترضوه في أثناء عودته إلى غزنة، وأعد لهذه الغزوة أسطولا صغيرا، وأحل الهزيمة بالجات(الزط) Djats في نهر السند. (١)

ولم يفتر محمود الغزنوي عن توجيه حملاته إلى بلاد الهند طوال عهده، حتى أننا نرى نائبه ينال تكين في هذه البلاد يستولي في السنة التي توفي فيها محمود على (نرسي)، وكانت تعد من أعظم مدن الهند في ذلك الوقت. ولقد علق كثير من الباحثين على غزوات محمود الغزنوي في بلاد الهند، يقول ولسلي هيج :"يمكننا إلى حد ما أن نعتبر محمودا (الغزنوي) سلطانا هنديا خالصا. فقد فتح فى خريف حياته إقليم البنجاب، ونشر الإسلام في ربوع الهند، وفتح طريقا سلكه بعده كثيرون، وقنع خلفاؤه، بعد أن جردوا من أملاكهم في فارس وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر، بحكم إقليم البنجاب، وكونوا أسرة هندية خالصة".

ويقول ستانلي لين بول : إن حملات الغزنويين في بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقرا لهم، يمكن اعتبارها بدء حكم المسلمين الحقيقي في هذه البلاد. فقد مهدت الدولة الغزنوية في لاهور السبيل أمام محمد بن سام الغوري وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهي ونشروا نفوذ المسلمين في

---

(١) الساداتى، نفسه ، ج١، ص ٩٧.

أرجاء بلاد الهند الشمالية كافة. هذا ولو كانت غاية محمود من غزواته الهندية عموما جمع الأموال فحسب، كما يقول بعض المؤرخين، لكان وافق على ماعرضه عليه الهنادكة إفتداء صنم سومنات بالأموال الطائلة، ولما رد عليهم بقوله المشهور بأنه يؤثر أن ينعته الناس بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع الأوثان. (١)

وقد بلغ محمود الغزنوي في فتوحه "إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ولم تنل به قط سورة ولا آية، فدحض عنها أجناس الشرك، وبنى بها مساجد وجوامع،(٢) وأقام بدلا عن بيوت الأصنام مساجد الإسلام، وعن مشاهد البهتان، معاهد التوحيد والإيمان، فصارت الأطفال تهدد في بطالاتها بإقدامه، وتفزع بإقبال ألويته وأعلامه، وظل أندبالهم وجيبالهم وكماتهم وأبطالهم كما قال الأشجع السلمي :

وعلى عدوك يابن عم محمد رصدان : ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعته وإذا هدا سلت عليه سيوفك الأحلام(٣)

فتح الري وأصفهان (٤٢٠هـ) :

ومن أهم الأعمال التي قام بها محمود الغزنوي إزالته سلطان البويهيين في الري وبلاد الجبل، فقد انتهز فرصة استنجاد مجد الدولة بن فخر الدولة الذي استبدت أمه السيدة خاتون بالأمر دونه، وانصرف إلى

---

(١) الساداتى، نفسه ن ح ١، ص ٩٧.
(٢) إبن خلكان، وفيات الأعيان، ح ٢، ص ٨٢.
(٣) العتبي : تاريخ اليميني جـ١، ص ٣٨ ـ ٣٩؛ حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج٣، ص ٩٠-٩٥.

البناء واشتغل بقراءة الكتب، فاختلت دولته بعد موات أمه، فاستبد به جنده وتزايد شرهم. وكان محمود ينتظر الفرصة للاستيلاء على بلاد الجبل ولاستئصال الديالمة في هذه المنطقة، فأرسل في البداية عليا الحاجب إلى الري وأمره أن يقبض على مجد الدولة، ففعل على هذا. ثم وصل محمود بنفسه إلى الري في ربيع الآخر (٤٢٠هـ) واستحوذ على خزائن مجد الدولة ومكتبته القيمة وعلى ما يقرب من ألف ألف دينار نقدا وبقيمة خمسين ألف دينار جواهر، ثم قام بإحراق أكثر كتب مجد الدولة وكانت كتبا في الحكمة والنجوم وتأليفا في علوم الضلال، وبهذا زالت ودالت دولة الديالمة في الري.

وبعد فتح الري وقتل جماعة من أصحاب مجد الدولة بحجة سوء معتقدهم، فتح قزوين وساوه وآبه، وأرسل ابنه مسعودا لفتح زنجان وأبهر، ثم أنابه بعد فتح هاتين المدينتين على ممالك الديالمة التي فتحها جميعا وعاد إلى خراسان. [١]

وكانت حكومة أصفهان وهمدان وسابور خواست في هذا الوقت لعلاء الدولة أبي جعفر محمد بن دشمنزيار كاكوية، ولما رأى كاكويه أن محمودا تملك الري وقزوين وسائر أملاك مجد الدولة وأنه يرنو بنظره إلى بلاده، بادر وخطب في أصفهان لمحمود. فلم يتعرض محمود له، وهكذا بقى علاء الدولة في حكم ولاياته[٢].

وبعد عودة محمود إلى غزنة هاجم مسعود أصفهان فأخرجها عن يد علاء الدولة وأناب عنه حاكما لها وعاد إلى الري، لكن أهل أصفهان

---

(١) إبن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٩٤.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح٣، ص ٥٥٨، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٨٠.

ثاروا على والي مسعود وقتلوه. فقدم مسعود مرة أخرى إلى أصفهان من الري وأعمل في أهلها السيف فقتل منهم نحو خمسة آلاف وأعاد المدينة إلى حكمه وركن علاء الدولة إلى الفرار.

وفي (٤٢١هـ) هاجم مسعود همدان وطرد منها عمال علاء الدولة كاكوية فهرب علاء الدولة إلى خوزستان حتى يستمد أبا كاليجار وجلال الدولة الأميرين الديمليين، لكنهما لم يتمكنا من عونه لصراعاتهما الداخلية ونزاع أحدهما مع الآخر، ومكث علاء الدولة في خوزستان إلى أن سمع بوفاة السلطان محمود وعودة مسعود إلى خراسان، فاغتنم الفرصة وتملك أصفهان واستولى على أملاكه السابقة[١].

بقية جهود محمود الغزنوى:

وفي سنة ٤٠١هـ، حارب محمود الغور وكانوا لا يدينون بالإسلام، وتقع بلادهم الجبلية الوعرة المسالك بين هراة وغزنة، ومن ثم كانوا يقطعون الطريق ويخيفون السبيل، وقد أوقع محمود بهم وأخضعهم لسلطانه ونشر الإسلام بينهم، وأرسل إليهم جماعة من المسلمين يعلمونهم أصول الدين.

ولقد أرضي السلطان محمود الغزنوي الخلافة العباسية حين تتبع المخالفين لها والخارجين عليها بالقتل والنفي، فقد اهتم بالقضاء على أهل البدع والأهواء، ففي عام ٤٠٨هـ جد في محاربتهم دون هوادة، فقتل الرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة، كما نفى المعتزلة إلى خراسان وضيق عليهم، وأحرق كتب الفلسفة والمعتزلة والنجوم، كما

---

(١) ابن خلدون، نفسه، ج ٤، ص ٤٩٦، ٤٩٨-٤٩٩.

رفض أن يستجيب للفاطميين الذين حاولوا استمالته تخفيفا من حملته على أشياعهم وأنصارهم من الإسماعيلية[١].

تقييم عهد السلطان محمود ووفاته (٤٢١هـ):

أصيب محمود في آخر عمره بمرض السل (الدق)، وكانت ولادته في عام (٣٦٠هـ) وكان بسببه يشتد ضعفا ونحافة يوما عن يوم. واشتد عليه المرض في سفره إلى الري وعاد إلى خراسان بحالته هذه وأقام في بلخ، ثم قدم إلى غزنة في ربيع عام (٤٢١هـ)، وبعد بضعة أيام وافاه أجله في هذه المدينة في الثالث والعشرين من ربيع الأول من نفس العام.

وقد نال السلطان محمود وهو أول ملك مستقل وأكبر أفراد الأسرة الغزنوية بشجاعته وجرأته وكثرة فتوحاته وانتصاراته وجلال بلاطه شهرة بليغة في تاريخ المسلمين، خاصة لغزواته في الهند والغنائم التي استقاها منها ولاجتماع العلماء والشعراء في بلاطه والأشعار والكتب التي صنفت باسمه الذى صار معروفا في أكناف العالم وأطرافه. لكن ينبغي العلم أن أكثر هذه الشهرة يرجع إلى تملق معاصريه المتعصبين للذين عدوا غزواته في الهند في سبيل نشر الإسلام والقضاء على الكفار من أعظم الخدمات التي أسداها محمود للدين، وبرأوا ساحته كمجاهد في سبيل الله من كل عيب ونقص. بينما إذا نظرنا بعين الإنصاف وجدنا محمودا به عيوب عظيمة وأن فتوحاته بدل أن تقع في شعب إيران موقع الاستفادة انتهت بهم إلى أضرار بالغة. وبالجملة فإن أيام حكم محمود من

---

(١) حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج٣، ص ٨٩، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٤٧٥.

وجهة نظر الشعب الإيراني من العهود الكثيرة الإظلام، وليس لمحمود يمين الدولة في تاريخ إيران مثل هذه الشهرة للأسباب الآتية :

١- مشهور أن في بلاط محمود قد اجتمع أربعمائة شاعر ماهر يمدحون السلطان كان من بينهم كما نعلم العنصري البلخي[١] والفرخي السجستاني[٢] والعسجدي المروزي[٣] والزينبي العلوي[٤] والفردوسي الطوسي[٥] والمنشوري السمرقندي[٦] والكسائي المروزي[٧] والغضايري الرازي[٨]. وليس من أدنى شبهة في أن أعظم

---

(١) العنصري هو أبو القاسم حسن بن أحمد من شعراء القصيد الكبار في العصر الغزنوي وملك الشعراء في بلاط محمود. ويزيد ديوان قصائده وأغلبها في مدح محمود ومسعود عن ألفي بيت. وفوق القصائد له منظومات أخرى مثل وامق وعذرا وعين الحياة وغيرها، ويدل العنصري على إحاطة كاملة باللغة والأدب العربيين والعلوم العقلية، وقد صار أسوة أكثر شعراء القصيد الفرس، توفي عام (٤٩٢هـ).

(٢) أبو الحسن على بن جولوغ الفرخي المتوفي (٤٢٩هـ) ربا ديوانه عن تسعة آلاف بيت من قصائد وغزليات وقطعات ورباعيات، ويتميز عامة بالبساطة والسهولة والواقعية ويعد من ناظمي القصيدة الممتازين.

(٣) العسجدي المتوفي نحو (٤٣٢هـ) هو أبو نظر عبد العزيز بن منصور، ضاع ديوانه إلا من أشعار في كتب سير الشعراء وأشهرها قصيدته في فتح محمود الغزنوي لمعبد سومنات.

(٤) الزينبي هو عبد الجبار العلوي المحمودي وقيل أن اسمعه الزينبي ذكرت كتب تذاكر الشعراء بعضا من أشعاره.

(٥) الفردوسي المتوفي ٤١١هـ أو ٤١٦هـ هو أبو القاسم حسين شاعر الحماسة الكبير وابن إحدى أسر الدهاقين الأغنياء، بدأ نظمه سيرة أسلافه الأسطوريين والتاريخيين في سن الأربعين (نحو عام ٣٧٠هـ) وأنهاه نحو (٤٠٠هـ) منفقا من عمره ثلاثين عاما في ذلك بعد أن ذهب عنه ماله وشبابه وتقدم به مادحا السلطان محمود، لكنه لم يلق للأسباب التي سوف نشير إليها بعد ذاك، ما كان ينتظره من مال وجاه بل هرب خوفا من السلطان إلى آل باوند بطبرستان حيث هجاه. وينسب إليه خطأ قصة يوسف وزليخا الشعرية.

(٦) هو أبو سعيد أحمد بن محمد المنشوري السمرقندي من الشعراء الذين ضاع شعرهم غير قطع في كتب الأدب.

(٧) الكسائي هو أبو الحسن مجد الدين إسحاق المتوفي عام (٣٩١هـ) شاعر المدح والوصف والحكمة والوعظ والمعاني الفلسفية ومدح السامانيين كذلك.

(٨) وهو أبوزيد محمد المتوفي (٤٢٦هـ) من أهل الري مدح آل بويه قبل محمود الغزنوي وأفاض في مدح محمود وعطاياه في قصيدته اللامية. وكان له مع العنصري مباحثة أدبية وقصائد انتقادية.

هؤلاء العظام المشاهير جميعا هو الفردوسي الطوسي، كما أنه لم يك بين علماء بلاط محمود من هو أجل قدرا وأعظم منزلة من أبى الريحان البيروني. لكن محمودا كما نعلم لكثرة لؤمه سلك مسلكا مشهورا مع الفردوسي وأصدر أمرا بقتل أبي الريحان في وقت من الأوقات بسبب الحقيقة العلمية التي قالها وكانت تبدو كفرا في نظر السلطان ولم ينج ذلك العالم إلا بوساطة (أبي نصر مشكان) كاتبه[١].

ولم يكن بإمكان محمود وقد كان تركي الأصل ألا يحسن درك لطائف اللغة الفارسية ويعادي بشدة لتعصبه الشديد للمذهب السني كل ما يشتم فيه رائحة الحكمة وحرية الفكر، أن يكون طالب الشعر والأدب ناشد العلم والحكمة عن ميل قلبي أو تذوق طبيعي في أي وقت من الأوقات. وكان كل هذا التظاهر الذي شوهد منه لأن وجود الشعراء والعلماء المعروفين في البلاط في تلك الأيام كان يعد من أسباب عظمته وجلاله، وكان الشعراء بنظمهم قصائد المديح للأمراء والسلاطين والفضلاء وبتصنيف الكتب والرسائل باسمائهم أفضل وسيلة لإذاعة مفاخر ممدوحيهم وإعلاء صوت واسم مخدوميهم، حتى أن كل بلاط كان يباهي غيره في عدد شعرائه وكثرة فضلائه وشهرة أسمائهم وعلو سماتهم ووهج لمعاتهم. وكان محمود الذى لم يطق أن يتصور بلاطا فى عصره يفوق بلاطه في غزنة صيتا في أي ناحية كلما وجد من هؤلاء الشعراء والعلماء أثرا اجتذبهم إلى غزنة بالوعد والوعيد، كما فعل بالغضائري إذ استدعاه من بلاط مجد الدولة في الري بكثرة صلاته وطلب من ملك خوارزم أن يبعث له بأبي علي بن سينا وأبي الريحان البيروني وأبي سهل

---

(١) أبو نصر منصور بن مشكان صاحب ديوان رسائل محمود ومسعود الغزنويين، وتعد مكاتباته ورسائله الفارسية من أبلغ ما كتب حتى عصره وظل في منصبه حتى وفاته (٤٣١هـ).

المسيحي وأبي نصر بن عراق وأبي الخير بن الخمار وقد كانوا سبب ازدهار بلاط جرجانية، فلاذ منهم أبو علي بن سينا وأبو سهل المسيحي وكانا يخشيان تعصب محمود بآل زيار وآل بويه. ودخل بقيتهم الذين ظلوا بجرجانية لا يبرحونها في بلاط محمود اضطرارا لما فتحها. [١]

وقد حث محمودا تعصبه وجهله بالأدب أن يعامل الفردوسي الذي كان يخالفه المذهب بوضاعة وقبح وأن يؤذي هذا الشاعر العالي المقام فيبقى له في التاريخ ذكرا ذميما، وحق للفردوسي أن يقول فيه :

لم يكن للسلطان بلاط يقوم على العلم   وإلا لكان وضعني موضعي

٢- كان السلطان محمود يفرط في تعصبه للمذهب الحنفي، ولما كان جمع غفير في بلاد ما وراء النهر وخراسان قد اعتنقوا المذهب الإسماعيلي أو مذاهب الشيعة الأخرى بسبب دعوة الدعاة الإسماعيليين في هذه المناطق، فكان محمود يقتلهم بقسوة بالغة حيثما ثقفهم خاصة وأن الدعاة الإسماعيلية كانوا يدعون الناس في إيران لاتباع الخلفاء الفاطميين في مصر، وكان هؤلاء الخلفاء يناهضون بني العباس مخدومي محمود. وكان محمود يتعقب أغلب من لم يتمذهب بالمذهب الحنفي بتهمة القرمطة (أي الإسماعيلية ومشايعة الفاطميين) فيقتلهم. وكان في هذا المضمار يستوي لديه القرامطة والمعتزلة والحكماء أو الفلاسفة كما فعل بأتباع مجد الدولة إذ قتلهم بتهمة الاعتزال، وجعل من الجزء الأعظم من مكتبته النفيسة طعمة للنيران، وقتل رسول الخليفة الفاطمي في مصر. وكان هذا السلطان حينا يتهم الأعيان والأثرياء بسوء المعتقد للاستيلاء على أموالهم وضمها إليه.

---

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٨١-١٨٤.

٣- كان محمود رجلا بخيلا عابدا للمال طالبا للثروة، ومع أنه كان يتذرع في غزواته للهند بنشر الإسلام والجهاد والغزو في سبيل ذلك في الظاهر، فقد كان غرضه الأصلي نهب المعابد المتخمة بالثروة في الهند والقدوم بغنائمها. [١] وبالرغم من أنه أنفق جزءا زهيدا من هذه الغنائم في التعمير أبنية وحدائق وآثار خيرية في غزنة وبلخ وطوس، لكنه كان يكنز أكثرها ولا يصل للشعب شيء منها، بل أن عماله كلما خرج للغزو كانوا يسلبون الرعية مالها بقسوة وزجر تامين، ولما كان هذا الغزو يتكرر كل عام تقريبا فقد أصيب شعب إيران إصابات بليغة، وقد نفرت العامة بسبب هذا الظلم من نظام حكم الغزنويين نفورا جعل أهل خراسان يستدعون التراكمة السلجوقيين للاستيلاء على بلادهم عن طواعية تامة لما ذهب ريح محمود وتقلد مسعود السلطنة، وانحسرت الدولة الغزنوية بسبب هذه الحالة سريعا عن إيران وبلاد ما وراء النهر.

٤- ومع أن السلطان محمود قد استوزر وزراء أكفاء ، لكن أحدا منهم لم يستطع أن يؤسس أساسا متينا دائما لإدارة البلاد بسبب قوة السلطان واستبداده، ولم تكن أحوال العامة والرعايا مقترنة بالراحة والرفاهية إزاء تسلط جند محمود المغيرين الذين كانوا مزيجا من المجاهدين المتطوعين من أبناء قوميات مختلفة لعدم سيادة النظام والعدالة كما كانا في عهد الوزراء الأولين السامانيين أو عهد نظام الملك السجلوقي بعد. [٢]

---

(١) عباس إقبال ، نفسه، ص ١٨٥، وسبق أن دحضنا مثل هذه الآراء، مستندين إلى رأى د. الساداتي.

(٢) عباس إقبال، نفسه، ص ١٨٥.

ووزير السلطان محمود الأول هو أبو العباس فضل بن أحمد الاسفراييني الذي كان أولا كاتبا لفائق الخاصة، ثم لحق بعد زوال دولته بخدمة سبكتكين وابنه محمود ثم استقر في منصب وزارة محمود حتى (٤٠١هـ)، وكان أبو الفضل الاسفراييني رجلا كافيا محنكا صارت اللغة الفارسية في ديوان محمود بأمره اللغة الرسمية، فكتبت الأحكام والدفاتر والمراسلات بأمر من الوزير بالفارسية. وبعد عزل الاسفراييني، في (٤٠١هـ) استوزر محمود أبا القاسم أحمد بن حسن الميمندي الذي جمع الفضل والأدب مع الكفاءة والحنكة. وقد أعاد أبو القاسم الميمندي وكان ممدوح أكثر شعراء عهد محمود ومن المنشئين المشهورين باللغة العربية ديوان محمود إلى العربية خلافا لما فعل الاسفراييني، وذلك لكي يثبت فضله ومقدرته في هذه اللغة. وبقول مشهور أن سبب حرمان الفردوسي من تحصيل مكافأته هو هذا الميمندي بينما كان الاسفرايبيني يشجع ذلك الشاعر ويكرمه. (١)

ومع أن الميمندي كان أخو مخمود من الرضاعة ورفيقه في مكتب التعليم، إلا أن محمودا أزاله من الوزارة في سنة (٤١٦هـ) وأرسله ليسجن بإحدى قلاع الهند وظل بها حتى موت محمود. وكانت وزارة محمود في سنى سلطنته الأخيرة لأبي علي حسن بن محمد بن ميكال المعروف بحسنك الوزير والذي يعد بدوره من فضلاء المنشئين.

كما كان لعهد محمود جوانب أخرى أكثر إجحافا وظلما ساقت إلى هلاك آلاف من رعاياه، لا على أساس اتهامهم بالإلحاد بل نتيجة للضرائب الفادحة. ومن الواضح أن حملات محمود الهندية قد جلبت غنائم لا

---

(١) بارتولد، تركستان، ص ٤٣٤.

تحصى له ولجنده وللعدد الكبير مـن "المطوعـة" الذيـن سـارعوا مـن كـل فج، بما في ذلك من ما وراء النـهر، إلـى الانضمـام إلـى جيوشـه. وأحيانـا نبصر محمودا يصرف بعض هذه الأموال في تشييد مبان فخمـة كالمسـجد الجامع والمدرسة بغزنـة. غير أن حملاتـه العسكرية كـانت مصدر بـلاء وخراب للكتل الشعبية، فقد كان محمود على الدوام في حاجة إلى المال من أجل هذه الحملات. وقد حدث أن أمر قبل إحـدى حملاتـه العسـكرية بجمـع الأموال اللازمة في مدى يومين وتم ذلك بالفعل، غير أن الأهالي كما يذكـر مؤرخ البلاط "سلخوا سلخ الغنـم". (١) وهـذه الوقـائع تجعل مـن العسير القول بأن الوزير أبا العباس فضلا بـن أحمـد الاسفراييني، كمـا زعـم ذلـك المؤرخ نفسه، هو المسؤول الوحيد عن الضرائـب الفادحـة التـي وصلـت بـالبلاد إلـى تلـك الحـال حتـى "تداعـى معظـم الضيـاع ووقفـت القنـى بيـن القصور والانقطاع وشرد في البلاد أكثر الأكرة والزراع". وانضـاف إلـى هذه الظروف انـدلاع القحط (عـام ٤٠١هـ / ١٠١٠-١٠١١)، فقـد حـدث بسبب الصقيع المبكر أن القمح لم ينضج في موعده، فقاسـى الأهـالي مـن ذلك الأمرين، هذا على الرغم من أن القمح كـان يوجـد بكميـات كبـيرة فـي نيسابور، ويذكر العتبي أنه وجد بأسواقها ذات مد أربعمائة من من القمـح وهي كاسدة. ومؤرخنا عندما ساق هذه الواقعة لم يستطع إلا أن يشـهد الله على هذا بقولـه "فسبحان مـن يقضـي علـى مـن يشـاء بالفنـاء مـع إمكـان الأقوات ووجود الكفايات". ويقال إنـه هنالك بنيسابور ونواحيها وحدها ما يقرب من مائـة ألف نسمة، ولعل إشارة مولر إلى ضحايا الحملات الهنديـة يصدق بدرجة أكبر على ضحايا القحط أي "بل إن ربع هذا العدد لمن شأنـه أن يبدو شيئا مخيفا". أما الكلاب والقطط فقـد فنيـت بـالتقريب، بـل كـانت

---

(١) العتبى ، تاريخ اليمينى، ح ١، ص ٤٠.

هناك حالات أكلت فيها لحوم البشر. ورغما من أن الذين ثبتت عليهم هذه التهمة قد لقوا عقابا صارما إلا أنه يبدو أن ذلك لم يجد فتيلا. أما السلطان فقد اكتفى بأن أصدر أمره إلى ولاته بتوزيع المال على فقراء الناس. [١]

وقد اقتضى الأمر اتخاذ إجراءات أكثر فاعلية عندما توقف الرعايا عن دفع الضرائب نتيجة لما حاق بهم من كوارث، وقد رد الوزير على طلب السلطان للمال برفض حازم فلجأ السلطان إلى أفراد الطبقة الارستقراطية ممن لم تكن لهم علاقة برجال الديوان، وبوجه خاص إلى رئيس بلخ الدهقان أبي إسحق محمد بن الحسين. وغير معروفة الوسيلة التي لجأ إليها الرئيس ليجمع أموال طائلة من هراة في ذات عام ٤٠١، غير أن هذا لم يمنع الوزير من الإصرار على رفضه الضغط على الرعايا لحل الضائقة المالية، وفضل عن طيب خاطر أن يذهب إلى الحبس، الأمر الذي أثار ثائرة السلطان فأمر بمصادرة أملاك الوزير على الرغم من أنه أقسم بأنه لم يخف مالا قط. وقد قيل إنه حين كشف فيما بعد عن وجود مال له كان وديعة عند أحد تجار بلخ ، أعيدت محاكمته من جديد وظل يعذب كل يوم حتى أسلم الروح إلى بارئها (٤٠٤هـ/١٠١٣-١٠١٤). وقد تذرع السلطان بغيابه ساعة موت الوزير فأعرب حين عودته عن أسفه لما ابداه عماله من إفراط في الغيرة عند تنفيذ أوامره. [٢]

وإن كانت الأبنية الضخمة التي شادها محمود قد بنيت بالأموال التي جلبها من الهند، إلا أن عبء صيانتها قد وقع على كاهل الرعايا. ويحكي (حافظ آبرو) قصة منقولة عن القسم المفقود من مصنف بيهقي تتعلق بالبستان الكبير الذي أنشأه محمود ببلخ وكلف سكان المدينة مؤنة

---

(١) بارتولد، تركستان، ص ٤٢٩-٤٣٠.

(٢) العتبى، تاريخ اليمينى، ح ١، ص ٤٠-٤١.

صيانته. وكان السلطان يعقد بهذا البستان المآدب ولكنها كانت تنقضي سريعا، وذات يوم سأل السلطان بطانته عن السبب في فقدان مآدبه لروح المرح رغما من سحر البستان، فاستأذن العميد أبو نصر مشكان (أستاذ بيهقي) في أن يتحدث صراحة وقال :" إن أهل بلخ أجمعين تثقلهم مؤنة هذا البستان الذي لا يعود عليهم بالنفع، وهم في كل عام يشاركون بدفع أموال طائلة تصرف على هذا العبء الثقيل ولهذا فإن قلب السلطان لا ينتابه الفرح". فغضب السلطان ولم يكلم أبا نصر لأيام عديدة، وبعد ذلك بقليل استوقفه جمع من الناس في أحد شوارع المدينة وتظلموا إليه من هذه المؤنة الثقيلة، فقرر السلطان على الفور أن هؤلاء المتظلمين إنما فعلوا ذلك بإيعاز من أبي نصر، رغما من أن أبا نصر لم يكن له في واقع الأمر علم بما حدث. وبعد هذا استدعى السلطان رئيس بلخ وسأله عن مقدار ما ألحقه القراخانيون الذين طردهم السلطان من بلخ، من أضرار بالمدينة في عام ١٠٠٦، فرد الرئيس بأن تلك الأضرار لا يمكن حصرها "فقد أخضعوا المدينة لتخريب غير معقول وسيمر وقت طويل قبل أن تسترد حالتها الأولى، هذا إذا أمكن أن تستردها على الإطلاق". عندئذ قال السلطان :"لقد رفعنا جميع هذه المصائب عن أهل المدينة فإذا بهم يتضايقون الآن من مؤنة بستان واحد لي". فرد عليه الرئيس معتذرا :"إن ذلك الرجل لم يتحدث إلينا سلفا، وهذا التظلم حدث دون علم كبار أهل البلد وأعيانها". ورغما من هذا فإن السلطان عند رحيله إلى غزنة بعد أربعة أشهر من ذلك، أصدر أمرا كتابيا بإعفاء أهل بلخ من مؤنة البستان وجعلها على اليهود على ألا تزيد بأية حال عن خمسمائة درهم.

وهكذا فإنه لا يمكن القول بأية حال بأن محمودا كان مستبدا عادلا، استنادا على قاعدة السهر على إسعاد الرعية. وحتى فيما يتصل برعايته لشعراء وعلماء بلاطه فإن (أ. مولر) رغما من تحيزه لمحمود يعترف بأن دافعه لهذا لم يكن سوى رغبة دنيوية، هي أن يجمع ببلاطه النابهين من أهل عصره لا حبا حقيقيا للمعرفة والنور. كذلك لا يمكن أن يُؤخذ اهتمامه بالدين كدليل على ورعه وتقواه، وشخص كمحمود لم تكن لتخفى عليه طبيعة الصلة الوثيقة بين الدين وبين نظام استبدادي كنظامه، ومن هنا كان عطفه على الفقهاء والمشايخ ما بقوا أداة طيعة لسياسته. وفي بعض حالات استثنائية حين كان الأمر يتصل بمقدار ضئيل من المال فلربما كان محمود يأخذ في الاعتبار التماس أحد رجال الدين ليعفيه من ضريبة أو أخرى كما يذكر إبن خلدون [١]. غير أن رأيه فيما يتصل بدور رجال الدين كطبقة من طبقات المجتمع إنما ينعكس بوضوح تام في موقفه من حركة الزهد التي انبعثت بنيسابور في ذلك العهد. ومؤسس هذه الحركة هو الزاهد أبو بكر محمد بن إسحق رأس طائفة الكرامية التي أقامها أبو عبد الله محمد بن كرّام. وكان والد أبي بكر من مشاهير الزهاد، كما أن أبا بكر نفسه عرف بالزهد والتقشف منذ أيام سبكتكين. ولقد ظل محمود بعد أبيه يبدي له الكثير من الاحترام والإجلال ويؤثر طائفة الكرامية بعطفه ورعايته. ويورد العتبي فيّ هذا الشأن أبياتاً لأبي الفتح البستي يشير فيها إلى ما حظيت به هذه الطائفة من عطف لدى السلطان:

الفقه فقه أبي حنيفة وحده	والدين دين محمد بن كرام
إن الذين أراهم لم يؤمنوا	بمحمد بن كرام غير كرام

---

(١) إبن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٩٧، بارتولد، باكستان، ص ٤٣٢.

غير أن بعض الفقهاء اتهم الكرامية بالتجسيد، وقد عرفت الطائفة بالمغالاة في التعصب، وكان أبو بكر اليد اليمنى للسلطان في قمع الملحدين. وبلغ نفوذ أبي بكر بين أهل نيسابور درجة كبيرة اضطرت الترك عند غزوهم لها أن يلقوا عليه القبض حماية لأنفسهم من شيعته وحذراً من مكيدته وأخذوه معهم عند تراجعهم أمام جيوش محمود ولكنه أفلح في الإفلات منهم، الأمر الذي ضاعف من نفوذه في دولة محمود. ولم يلبث أن انعقدت له رئاسة الصوفية وأصبح صاحب النفوذ بنيسابور، فكان أهلها أجمعون من الخاصة والعامة ينظرون إليه "بعين المرجو والمخوف". ولم يلبث قمعه الذي لم يعرف حدود الحرمة للملحدين، ومصادرة أملاكهم، أن جرّ إلى الكثير من التعسف والظلم فأثار عليه في نهاية الأمر سخط الجميع. واضطر السلطان بعد تردد طويل إلى أن يتخلص منه. وعادت رئاسة نيسابور مرة أخرى إلى رجل من غير رجال الدين، فقد عيَّن السلطان في هذا المنصب أحد المقرّبين إليه وهو أبو علي الحسن بن محمد الذي ينحدر من صلب أسرة مشهورة، فقد كان جده "من جملة الأعيان والتناء" في دولة السامانيين، أمّا أبوه فقد انضم إلى محمود الذي كان ساعتئذ اسفهسالار السامانيين على خراسان. وقد أسرع الرئيس الجديد باتخاذ إجراءات صارمة ضد الكرامية، فعوقب أبو بكر بمصادرة أملاكه واعتقل كبار أنصاره وأرسلوا إلى قلاع مختلفة. أما بقية ممثلي الطوائف الدينية الأخرى وخاصة العلويون فقد بين الرئيس الجديد "أن حشمتهم بالطاعة موصولة، وحرمتهم بلزوم القصد وترك تعدي الجد مكفولة، فتلقوه بالإجلال وقابلوا أمره بالامتثال علما بأنه

ظل الله في أرضه، فما يغني غير الانقياد والميل على الغلو إلى الاقتصاد".[١]

وقد كان مرجع حروب محمود الدينية منذ البداية، كما أوضح ذلك عدد من البحاثة، هو طمعه في ثروات الهند وأنه لا أساس البتة للقول بأن دوافعها إنما كانت غيرته الدينية، كما أن قمعه للملحدين يمكن تفسيره أيضا بالدوافع السياسية التي أشرنا إليها قبل قليل، بل إن تهمة الإلحاد لم تكن أحيانا سوى وسيلة لمصادرة أملاك الشخص المتهم. ويقع في ذات الخطأ من يحاول أن يرى في محمود شخص المدافع عن الأماني القومية الإيرانية، برغم الملحمة الكبرى التي رفعها الفردوسي إليه. هذا وقد كان جيش محمود قاصرا على المماليك والمرتزقة وحدهم، ولكي يدعم (نظام الملك) نظريته في أن الجيش يجب أن يضم ممثلي جميع الشعوب نجده يشير بصفة خاصة إلى ما فعله محمود؛ وقد وجدت ألفاظه التأييد التام من الوقائع التاريخية كما يذكر العتبى. أما بقية الرعية فإنهم لم يكونوا في نظر محمود سوى مجموعة من دافعي الضرائب لا يتوقع منهم أدنى ضرب من الوطنية. ويذكر بيهقي أن سكان بلخ كان نصيبهم التقريع من محمود على مقاومتهم للقراخانيين، فقد قال لهم :"ما للرعية والقتال! لا جرم قد هلكت مدينتكم وأحرق من أملاكي بلد يغل عليّ أموالا طائلة، وإني أحملكم غرامة هذه الخسارة، ولكني أعفو عنكم فانظروا واحذروا أن يتكرر هذا فإن كل ملك يتسلط عليكم ويلزمكم بالخراج ويؤمنكم عليكم أن تدفعوا له الخراج وتحافظوا على أنفسكم.

---

(١) العتبى، تاريخ اليمينى، ج ١، ص ٤٥.

ويبدو أنه ابتداء من ذلك العصر نشأ تقسيم الشعب إلى فئتين: عسكر يدفع إليه الملك الأرزاق مقابل الإخلاص في خدمته، ورعية يحميها السلطان من الأعداء في الداخل والخارج لقاء الطاعة العمياء ودفع الضرائب بلا امتعاض أو تذمر. وليس للعسكر أو الرعية أدنى حق في الاعتراض على رغبة السلطان او أوامره، وقد إتضح ذلك في رسالة محمود إلى خوارزمشاه، هذا وقد ارتبط الحكم المطلق كما هي العادة دائما بنمو نظام للتجسس، ويقال إن محموداً نفسه زكّى العيون والأرصاد على ابنه مسعود كما يذكر البيهقى. (١)

إن جميع هذه الوقائع تدفعنا إلى الخروج بنتيجة مؤداها أن عهد محمود كان بلاشك عبئاً ثقيلاً على رعاياه، وإذا ما حدث أن محموداً نفسه لم يقدر له أن يتحمل العواقب الوخيمة لنظامه، ولم يحدث أن اهتز سلطان العرش من تحته، فإن مرد هذا كله هو هيبته الكبيرة في النفوس مما يجعل البون شاسعاً بينه وبين خلفائه. وقد حالت عزيمته القوية وذكاؤه وبعد نظره دون انعكاس حاد للجوانب العنيفة من شخصيته، ذلك أن محمودا كان يقع فريسة لسورة غضب شديد إذا ما عارضه أحد من الناس في القول، حتى مرت أحيانا على من فعلوا ذلك لحظات تعسة في حياتهم، ولكن حين يراجع نفسه فسرعان ماكان يعود إلى صوابه. وكان وضع الوزير في أمثال هذه الحالات عسيرا للغاية، وقد علقت امرأة ذكية على ذلك بقولها : "إن السلطان ما استوزر أحداً من الناس فإنه يعاديه بعد أسبوع من ذلك رغم حبه إياه، إذ يتصوره شريكاً له في الملك، والملك لا يتم بالشريك". وقد أشرنا قبل قليل إلى مصير أحد هؤلاء الوزراء. كذلك فقد قاسى خلفه الميمندي مرارة العزل والحبس باحدى القلاع بعد مصادرة

---

(١) بارتولد عن بيهقى، تركستان، ص ٤٣٤.

أمواله وكان ذلك في عام ٤١٦هـ.[١] ورغما من هذا فإن حالات الإعدام في عهد محمود (إذا ما استثنينا الاضطهاد الديني) كانت نادرة شيئاً ما، ويروي العتبي أن محمودا كان يرى أن "الملك الحازم من يسلب الجاني في حال سخطه ما يمكنه الوفاء بعينه أو بمثله عند رضاه، وجرح المال يؤسي بالتعويض والأحلاف فأما النفوس فليس لإتلافها من تلاف" وكان مصير الوزير الميمندي معرضاً لأن يصبح أكثر سوءاً، ذلك أن محمودا أرسل مكتوبا لأحد خواصه هو أبو القاسم كثير يأمره بإعدام الوزير "قصاصاً للدماء التي أريقت بأمر منه". وكان لرفض أبي القاسم القاطع بأن يأخذ على عاتقه مثل هذه المسؤولية الفضل في إنقاذ حياة الوزير. ويبدو أن هذه الشجاعة التي تنطوي على الكثير من النبل لم تعد على أبي القاسم بسوء، مما يقف دليلاً على أن محمودا كان بإمكانه أن يملك زمام نفسه.[٢] وكان احترام القانون على عهد الغزنويين لا يزال قويا في النفوس، بالدرجة التي جعلت المسئولين في حالات مصادرة أملاك من حل بهم غضب السلطان يجهدون في إعطائها صورة المبايعة القانونية. فمثلاً حين عزل محمود حكام غرجستان وسجنهم حتى ماتوا في حبسه، لم يمنعه من أن يدفع إليهم نقداً قيمة أملاكهم التي كانت قد ضمت إلى بيت المال (وإن كان تقييم هذه الأملاك قد ترك لمحمود وحده). وأكثر من هذا مغزى ما يقصه بيهقي بشأن مصادرة أملاك أحد الوزراء ممن حل بهم سخط السلطان (في عهد مسعود) وحكم عليه بالشنق، فقد قسر على الإقرار بأنه باع إلى السلطان عن طواعية واختيار أملاكه من عقار

---

(١) ابن خلدون ، العبر، ح ٤، ص ٤٩٨.

(٢) العتبى، تاريخ اليمينى، ح١، ص ٦٩، بارتولد، نفسه، ص ٤٣٥-٤٣٦.

ومنقول وأنه تسلم النقود التي قدروها ثمناً لها، ثم سجل الحاكم في ذلك المحضر وأجرى القضاة اللازم في مثل هذه الحالات.

٢ـ السلطان محمد بن محمود

(من ربيع الآخر حتى شوال من عام ٤٢١هـ) :

عين السلطان محمود في مرض موته ابنه محمدا وكان في هذا الوقت والي جوزجانان وبلخ خلفا له وحرم ابنه الآخر مسعود هذا الحق لغضبه عليه. فلما مات محمود قدم محمد من بلخ إلى غزنة وجلس على عرش أبيه وتلقب بلقب (جلال الدولة).

وكان محمد ضعيف النفس محبا للهو واللعب غير معتن بأمور الملك، ولهذا تواطأ جمع من كبار قواد الجيش وأكابر الدولة سرا مع مسعود وكان آنذاك في الري واستدعوه للسلطة وخلافة أبيه فقد كان أكثرهم يميلون إليه لقوته وشجاعته وعلو سنه[١]. وقدم مسعود بدعوتهم من الري إلى نيسابور ولحق به جماعة من خاصة محمود وأمراء جيشه كأبي النجم إياز بن أويماق غلام السلطان محمود المشهور وعلى حشاوند صاحب أبيه وهنأوه بالسلطنة، ووصل في نفس الحين منشور رسمي بإمارته من الخليفة القادر العباسي، فسلك مسعود طريقه إلى غزنة رابط الجأش ثابت الجنان.

فاختار محمد كبير حجابه عليا بن ايل أرسلان. وكان من أقرب خاصته فسمي لذلك بعلي القريب، ومعه عمه يوسف بن سبكتكين قائدين لجيشه وتهيأ لمنع مسعود. لكن هذين القائدين سرعان ما أدركا أن

---

(١) إبن خلدون ، العبر، ج ٤، ص ٤٩٧-٤٩٨.

مقاومة مسعود وحربه لن يجديا نفعاً فقبضا على محمد في (١٣ شوال ٤٢١هـ) وكان مشغولاً بالخمر والشرب وأعمياه وحبساه في إحدى القلاع، ثم ناديا بمسعود أميرا للجيش وسلطانا للبلاد. أما مسعود فما أن بلغ هراة حتى قبض على (علي القريب) وقتله وألقى بعمه يوسف في الحبس وعامل كثيرا من قواد الجيش الذين غدروا بأخيه ومكروا به معاملة تختلف شدة ورأفة. ووفدت عليه رسل جميع الملوك من جميع الآفاق للتهنئة. (١)

وكانت وزارة محمد فى السبعة شهور زمن إمارته لـ (خواجه أبي سهل أحمد بن حسن الحمدوي) وكان هذا الوزير من كبار المنشئين والفضلاء والمهتمين بالأدب في ذلك العهد.

٣- السلطان مسعود بن محمود (٤٢١ – ٤٣٢هـ)

أمر شهاب الدولة مسعود بعد وروده غزنة وتوليه مقام أبيه أن يأتوه بأبي القاسم أحمد بن حسن الميمندي الذي ألقي في السجن بالهند بأمر السلطان محمود منذ عام (٤١٦هـ) إلى عرشه ليستخلصه لوزارته وظل هذا الوزير فى منصبه حتى وفاته فى عام ٤٢٤هـ. ومن بين من أمسك بهم مسعود حين حاز العرش أبو علي حسنك الميكالي الوزير فقد اتهمه السلطان بالقرمطة بسبب سعيه في إبلاغ أخيه محمد إلى السلطة ثم قام بشنقه.

---

(١) تاريخ البيهقى، ص ٨١ ومابعدها، إبن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٩٨، الساداتى، نفس المرجع، ج١، ص ١٠١

حروب السلطان مسعود :

وأول واقعة هامة لعهد إمارة مسعود هي غزوة ولاية مكران سنة (٤٢٢هـ) فقد أنفذ السلطان جيشاً ليعين أحد ولدي واليها المتوفي (عيسى) ثم أدخل مكران حتى حدود السند تحت طاعته، وفى السنة التالية سير مسعود جيشاً آخر إلى كرمان تقاتل مع نواب أبي كاليجار الديلمي أمير فارس لكن وزير الأخير أصاب جنده بهزيمة فعادوا منهزمين إلى خراسان.[١]

والحرب الثالثة لمسعود كانت في الرى وهمدان وبلاد الجبل لتأديب العصاة الذين ثاروا بين عامي (٤٢٣) و (٤٢٤هـ) عليه بعد عودته من هذه الولايات إلى خراسان.

وفي نفس سنة وفاة محمود وأوبة مسعود إلى نيسابور كما سبقت الإشارة، تقدم علاء الدولة كاكويه من خوزستان إلى أصفهان واستولى بيسر على هذه المدينة وهمدان والرى، وأخذ يهاجم أملاك فلك المعالي منوجهر بن قابوس الزياري الذي كان يعيش تحت أمر الغزنويين وأخذ خوار ورامين ودوماند من عماله فاستنجد فلك المعالي بالسلطان مسعود فسير جيشاً من خراسان لمدده. فاستعاد هذا الجيش بعون علي ابن عمران من أصحاب فلك المعالي ومن ممدوحي الشاعر (منجوهري الدامغاني) الرى من علاء الدولة الذي جرح بالمعركة وفر إلى قلعة (قردخان) التي تبعد عن همدان مسافة خمسة عشر فرسخاً. وبعد فرار علاء الدولة خطب منوجهر في الرى للسلطان مسعود وأناب مسعود عنه أحد رجاله وهو (تاش الفراش) في حكم الرى وبلاد الجبل فى (٤٢٣هـ).

---

(١) ابن خلدون ، العبر، ح ٤، ص ٤٩٩.

وبعد أن التأمت جراح علاء الدولة هاجم من ناحية همدان (بروجرد) ممداً فرهاد بن مرداويج، فأرسل تاش الفراش وعلي بن عمران جيشا يتعقبهم، وقد تمكن هذا القاندان بعد سلسلة من الحروب في (٤٢٣هـ) أخيراً من أن يجبرا علاء الدولة على الفرار إلى أصفهان ويخرجا همدان وبروجرد وسابورخواست والكرج عن سيطرته[١].

وفي عام (٤٣٤هـ) قدم مسعود بنفسه من غزنة بهدف معالجة أمور الرى وبلاد الجبل إلى خراسان، ولما بلغ نيسابور علم أن عامله على البلاد المفتتحة بالهند (أحمد بن ينالتكين) قد أعلن عصيانه. فاضطر السلطان إلى تغيير وجهته وصمم على إتيان الهند، وبعث أبا سهل الحمدوي الوزير السابق لأخيه محمد من نيسابور للرى لمراقبة تصرفات تاش الفراش الذي جار الناس من جوره وظلمه، وقبل عذر علاء الدولة كاكويه وكان يطلب عفوه وأبقاه على أصفهان حاكما بشرط أن يؤدي إليه خراجا سنويا.

وعمل أبو سهل الحمدوي على إصلاح ما خربته حكومة تاش الفراش بكل عدل وكفاءة، فخول للرعية أسباب الرفاهية والرضا أثر قضائه على البدع التي أقرها سلفه وخضع تاش لأمره، إلى أن حلت سنة (٤٢٥هـ) وكان الصفاء بين أبي سهل وعلاء الدولة في الظاهر وحسب، ولكن علاء الدولة لما استنكف أن يؤدي الخراج السنوي ثم أعلن عصيانه يمده فرهاد بن مرداويج، وجه أبو سهل لهما جيشا فقتل فرهاد ولاذ علاء الدولة بالأمير أبي كاليجار ببلاده. واستولى أبو سهل الحمدوي على أصفهان وغنم خزائن علاء الدولة وأرسل نفائسها إلى غزنة ومن بينها

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٥٥٨، ج ٤ ، ص ٤٩٩-٥٠٠، عباس إقبال، نفسه، ص ١٩٠.

مؤلفات الحكيم المشهور أبي علـي بن سينا الذي كان يعيش آنذاك في أصفهان وكان وزيرا لعلاء الدولة. ووقع علاء الدولة ثانية في حرب مع أبي سهل (٤٢٧هـ) لكنه لم ينل نصرا فانهزم إلى طارم فآمنه إبن السلار صاحبها. (١)

ومن حروب مسعود في الغرب وقائعه في جرجان وطبرستان مع أبي كاليجار كوهي خال والقائم على أمر أنوشيروان الزياري في سنة (٤٢٦هـ) ولقد قاسى أهل طبرستان فى هذه الحروب أذى شديداً من الجنود الغزنويين، ولقد استولى السلطان مسعود على جرجان، ثم سار إلى آمد فملكها وفارقها أصحابها، فتتبعهم وقتل وأسر. ثم راسله صاحب طبرستان فى عقد الصلح وتقرير البلاد عليه فأجابه مسعود إلى ذلك ورجع خراسان. (٢)

أما في الشرق أي الهند فقد يمم مسعود ناظريه إليها فىعام (٤٢٤هـ) بسبب عصيان عامل أبيه على الهند أحمد بن ينالتكين، وبعد أن طوع أحمد لأمره فتح إحدي قلاع الهند الهامة، ثم آب في السنة التالية إلى خراسان لما سمع بأنباء استيلاء التركمان عليها. وفي (٤٢٦هـ) عصى أحمد بن ينالتكين مرة أخرى وهزم جند مسعود، فسير مسعود أحد قائديه الهنود المطيعين له ويدعى (تلكْ) كان على قدر كبير من الشجاعة وعلو الهمة، لدفعه فهزم أحمد وغرق معظم قواته أثناء فرارهم في مياه نهر السند فقتل أحمد نفسه فأرسل برأسه إلى مسعود. (٣)

---

(١) إبن خلدون ، العبر، ح ٤، ص ٥٠٠-٥٠٢.
(٢) إبن خلدون ، نفسه، ح ٤، ص ٥٠١.
(٣) إبن خلدون ، العبر، ح ٤، ص ٥٠١، وحول مقتل إبن ينالتكين قارن، البيهقى ، ص ٤٦٠-٤٦١، الساداتى، نفسه، ح١، ص ١٠٢-١٠٣.

وفي سنة(٤٢٨هـ) وأوائل سنة (٤٢٩هـ) غزا مسعود الهند جريا على عادة أبيه وفتح في سفره هذا قلعة (هانسي) في جنوب شرقي البنجاب الذي استحوذ عليها في ربيع الأول من العام الأخير. وقد عاد مسعودا في أثر هذه الغزوات كأبيه موقرا بالغنائم مجللا بالفخر إلى غزنة، ولكن أيام هذه الفتوحات كانت آخر عهد شوكته، فقد حطم التركمان السلاجقة، نتيجة لبضع هزائم مجده مرة واحدة. (١)

السلطان مسعود والتراكمة الغز والسلاجقة :

كما رأينا في تاريخ السامانيين فقد كانت بلادهم تحدها من الشمال والشمال الشرقي مساكن مجموعة من الترك لم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام بعد، وكان الأمراء السامانيون أكثر أوقاتهم يجردون جيوشهم على مساكنهم للجهاد والسبى والغنم، وكانوا يسمون بلادهم دار الكفر كما فعل نوح بن أسد الساماني قبل تأسيس الأسرة السامانية إذ استولى على مدينة (اسبيجاب) منهم، واستحوذ الأمير إسماعيل العادل على مدينة (طراز) ، والأمير نصر على بلاد أخرى ناحية فرغانة. وكان غير أولئك الترك الذين سكن أغلبهم الحدود الشرقية والشمالية الشرقية للولايات السامانية طائفة أخرى أيضا منهم سكنوا شمال بحيرة خوارزم (بحيرة آرال الحالية) وعلى حدود مصب سيحون وجيجون والصحراء الواقعة بين بحيرة آرال والخرز وكانوا يسمون عامة بالغز، ولما كان هؤلاء الترك الذين يشتركون فيما يبدو مع التركمان الحاليين في الأصل والعنصر تسع قبائل يسموا أيضا (تغراغز) أي التسع قبائل الأغزية (غز) التي شاعت فيما بعد مخفف لفظة الغز هذه.

---

(١) عن فتح هانسى ، أنظر الساداتى، نفسه،ح١، ص ١٠٤.

وقد قام السامانيون بتهجير جموع كثيرة من تراكمة الغز عن مساكنهم الأصلية باقتضاء مصالح بلادهم وحدودهم، وأسكنوهم في البلاد شمالي ما وراء النهر التي استولوا عليها من قبضة الأتراك الشرقيين منذ فترة قريبة مثل اسبيجاب والمدن التي على مصب نهر سيحون. وكان من بين قبائل الغز هذه قبيلة عرفت باسم رئيسها (سلجوق) فسميت بالسلاجقة وقد آثرت الاستقرار في منطقة مصب نهر سيحون أي في جنوب بحيرة خوارزم. وسرعان ما دخل سلجوق في الإسلام وأدخل في طاعته مدينة (جند) من بلاد ماوراء النهر وكان أهلها مسلمين[١]، فلما مات أقام أبناؤه بهذه المدينة، لكن مسلمي جمد وقد تضرروا من مهاجمة السلاجقة لهم طردوا بعد موت سلجوق أبناءه وقبيلته عن مدينتهم إلى جنوبها، فأسكنهم السامانيون في قرية (نور) من قرى شمال شرقي بخاري. وقد زاد السلاجقة من يومئذ فصاعدا من شوكتهم وعدتهم يوما بعد يوم، ولما كانوا مسلمين فلم يتعرض لهم أحد وظلت قرية نور ببخاري مسكنا لهم إلى أن ثاروا على الغزنويين ونجحوا في تكوين دولة كبرى لهم.

وكما سبقت الإشارة في شرح حروب السلطان محمود لملوك الخانيين فإن هذه الأسرة قد دخلت منذ أن هزمهم محمود في (كنز) في عام (٣٩٨هـ) تحت حماية الغزنويين، وبقي طغان خان الذي تآمر على الخانيين بعد أيلكخان نصر حتى آخر حياته مطيعا ومحالفا للسلطان محمود. وبعد موت طغان خان في (٤٠٨هـ) خلفه أخوه أبو منصور محمد أرسلان خان، إلا أن (علي تكين) وهو أمير آخر من أمراء هذه الأسرة إدعى الإمارة وظل في حرب مع أرسلان خان حتى موت الأخير.

---

(١) القزويني ، آثار البلاد، ص ٥٥٧.

وقبل أن يموت أرسلان بقليل أي قبل (٤١٥هـ) تغلب على تكين تغلبا كليا، وقد حالف في ثورته هذه التركمان والسلاجقة وأدخل بخاري وسمرقند تحت استيلائهم.

وقصد السلطان محمود ما وراء النهر في (٤١٦هـ) للقضاء على فتنة على تكين وإرجاع إمارة الخانيين لأبناء قدرخان واستولى على بخاري وسمرقند من على ذلك وألقي القبض بالحيلة على إسرائيل إبن سجلوق السابق ذكره رئيس السلاجقة وأودعه حبس إحدى قلاع الهند، وسار إلى أحياء الغز فنهبهم وأثخن فيهم قتلاً وأسراً، ثم رجع إلى خراسان [١]. ثم سمح مخالفا رأى أرسلان جاذب والي طوس لأربع آلاف أسرة من التراكمة السلاجقة بعبور نهر جيحون وسكنى الصحراء الواقعة ما بين سرخس وابيورد فى خراسان. وبعد عامين أقدم هؤلاء الترك كما تنبأ أرسلان جاذب على إيذاء شعب إقليم خراسان فعجز جاذب عن دفعهم وفي النهاية هاجمهم محمود في (٤١٩هـ) وبعد أن أصاب منهم مقتلة عظمى هزم بقيتهم تجاه جنوب خوارزم.

وبعد موت السلطان محمود توسل مسعود لكي يأخذ التاج والعرش من أخيه محمد بعلي تكين، ولكن قبل أن يرد على طلب مسعود كفى أمر محمد، ولم يلق على تكين إلى السلطان الجديد بعد جلوسه كبير بال. وفي (٤٢٣هـ) هاجم آلتون تاش حاكم خوارزم عليا تكين بأمر من السلطان مسعود، وكان علي حليفا للسلاجقة لكنه لم يحقق نجاحا بل ناله جرح في حربه هذه مات متأثرا به بعذ يوم في مكان هذه المعركة. وعقد

---

(١) إبن خلدون ، العبر، ج ٤، ص ٤٩٥.

وزيره المشهور أبو نصر أحمد بن علي بن عبد الصمد صلحا مع على تكين وغدا واسطة السلام بينه وبين السلطان مسعود.

وحينما مات آلتون تاش أناب السلطان مسعود حكم خوارزم لعامل له وولى هارون ولد آلتون تاش عملا دون شأنه وكان ينتظر منصب أبيه، فدعاه هذا إلى محالفة الترك السلاجقة، ثم أعلن في شوال (٤٢٣هـ) قيامه على مسعود لكنه لم يحرز نجاحاً وأخمد مسعود فتنته بيسر وأدب السلاجقة أيضاً. وظل السلاجقة الأتراك مقيمين فيما وراء النهر حتى (٤٢٥هـ) وكان على تكين على قيد الحياة يعاملهم بلطف ورأفة. فلما مات هاجم ابناه وقائد جيشه السلاجقة وطردوهم مما وراء النهر. ومن ناحية أخرى قتل حاميهم الآخر هارون بن آلتون تاش حاكم خوارزم في نفس الأوان بيد غلمانه، وصار المقام حوالي خوارزم غير ممكن لهذه الجماعة، فارتحلوا إلى السفوح الجنوبية لجبال شمال خراسان أي في جنوب صحراء التركستان الحالية وحوالي مدينة نسا، وأرسلوا منها رسالة بتوسط صاحب ديوان خراسان أبي الفضل السوري بن المعتز إلى وزير السلطان أحمد بن عبد الصمد الوزير السابق لآلتون تاش والذي وصل منصب وزارة مسعود في (٤٢٤هـ) بعد موت أحمد بن حسن الميمندي، فشفع له مسعود وكانت تربطه بهم أيام وزارته لآلتون تاش علاقة مودة وطلب إليه أن يسمح لهم بالإقامة بخراسان. وكانت هذه الرسالة من أبناء ميكائيل بن سجلوق الثلاثة محمد طغرل وداود حقربيك وبيقو، وقد بلغت مسعودا حينما كان مشغولا بقتال أتباع أبي كاليجار كوهي في طبرستان.

وبعد أن وصل مسعود إلى نيسابور أجمع بعد تردد طويل أن يبعث جيشا لدفع الترك عن خراسان ومع أن رأى الوزير والأخيار غيره كان

لا يدعو إلى استمالة السلاجقة الذين أظهروا عجزهم وطاعتهم له، إلا أن مسعودا رفض ذلك وأرسل بجيش خليط من الجنود الترك والهنود والعرب والأكراد بقيادة الحاجب بكتغدي لقتال الترك، غير أن هذا الجيش لقي الهزيمة على مقربة من مدينة نسا في شعبان (٤٢٦هـ) من داود السجلوقي وعاد بكتغدي منهزما إلى مسعود بخراسان، وكانت هذه الهزيمة أول وهن كبير أصاب شوكة السلطان مسعود ودولته وجعلت السلاجقة، خلافا لذلك أكثر جرأة وشجاعة. وبعد هذه الواقعة أرسل السلاجقة رسولا إلى السلطان خوفا من نقمته عليهم وجعلوا شفيعهم لهم عنده أحمد بن عبد الصمد مرة أخرى واعتذروا عما حدث منهم، فترك مسعود الذي كان في خوف من قوة رؤساء هذه الطائفة الولايات الثلاثة نسا وأبيورد وفراوه (على بعد اربعة منازل من نسا) لطغرل وداود وبيغو على الترتيب ولقب كلا بدهقان وترك حكم هذه البلاد للإخوان الثلاثة فاستراح مؤقتا من فتنة الترك.(١)

وفي شعبان (٤٢٩هـ) بعد أن عاد السلطان مسعود من الهند أمر كبير حجابه (سباشي) الذي ولي خراسان من فترة قبل ذاك أن يقاتل طغرلبك وداودا ويؤدب السلاجقة. وكان سباشي رجلا مماطلا، ويبدو أنه كان حليفا للسلاجقة لأنه عند مواجهتهم فيما بين مرو وسرخس وقبل أن تحسم المعركة جمع أمواله وهرب متسترا بأستار الليل وتبعه أكثر جنده في الصباح، فاستحوذ طغرلبك بيسر على الجزء الأعظم لخراسان وألحق به نيسابور، إذ أخذوها من أبي سهل الحمدوي الذي كان طرد إليها من الري وجلس طغرلبك على عرش مسعود بها في شوال (٤٢٩هـ) وأعلن

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع: ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٥٠٢-٥٠٤، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٩٥-١٩٦.

نفسه سلطانا. والذي سعى أبلغ من غيره لانتصار التراكمة السلجوقيين كان أحد رؤساء نيسابور لقب بقائد بوزكان واسمه أبو القاسم علي بن عبد الله الجويني وقد سخط على صاحب ديوان خراسان أبي الفضل السوري بن المعتز وظلمه وظلم سائر عمال الغزنويين فتواضع سرا مع السلاجقة. وبعد دخول طغرلبك نيسابور استخلص أبا القاسم الجويني لخدمته ثم رفعه بعد ذلك أي في (٤٣٦هـ) إلى وزارته.(١)

وبعد هذه الواقعة الهامة لم يحرك السلطان مسعود حتى أوائل (٤٣٠هـ) ساكنا، فلم يتحرك إلا في هذا العام من غزنة إلى بلخ، ولما سمع الترك النازلون حوالي بلخ بنهوض السلطان ارتحلوا من أمام جيشه وسلكوا طريقهم إلى الصحراء. وقد أوعزت هزيمة سباشي عامة أعداء السلطان مسعود على التمرد ومن بين هؤلاء بوري تكين ولد إيلك نصر خان الذي عصا فيما وراء النهر، وتحالفت خوارزم أيضا وهي التي دخلت من (٤٢٦هـ) أي بعد قتل هارون بن آلتون تاش تحت طاعة أخيه أبي العباس خندان وخرجت عن دائرة نفوذ مسعود وتحالفت مع السلاجقة، وكان الخوف من أن تخرج بلاد ماوراء النهر وخوارزم جميعا عن سيادة الغزنويين بعد خراسان الغربية والرى والجبل (التي كان استولى عليها علاء الدولة كاكويه).

وأجبر مسعود على أن يعبر جيحون بعد أن عمر الجسر الذي كان مقاما على كثب من ترمذ بين خراسان وما وراء النهر وذهب متعقبا بورى تكين وأبقى أحمد بن عبد الصمد في الجوزجانان وما حول بلخ.

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٥٥٩.

وحينما وصل مسعود إلى المناطق حول الصاغانيان عاد السلاجقة بإيعاز من أبي العباس خندان من الصحراء وتقدموا عن طريق سرخس إلى الجوزجانان وبلخ، فكاتب أحمد بن عبد الصمد السلطان بهذه الحادثة وأفهمه أنه يحتمل أن يقصد السلاجقة تحطيم جسر ترمذ وإذا تم لهم ذلك فسوف يستشكل رجوع السلطان. فكر مسعود راجعا على جناح السرعة فوصل ترمذ في أسبوعين وطلب بيقو أخو طغرلبك وداود اللذان استقرا بنيسابور عفو السلطان، فقبل عذرهم مرة أخرى، ثم أتى من هراة إلى طوس بعد عقد معاهدة معه أن يدفع أخويه. إلا أن الترك مع قبول طاعة السلطان أقدموا على نهب متعلقاته وجيشه بهراة وطوس، ومع أن مسعود كان ينبههم في كل مرة فيعتذرون، إلا أنهم لم يرفعوا أيديهم عن الإغارة والحرب وإذا انهزموا من ناحية فكانوا يهاجمون في نواح أخرى.[1]

وأخذ قادة التركمان السلاجقة أخيرا على عاتقهم وهم طغرلبك وبيقو وداود وأخ لهم من أمهم هو إبراهيم ينال، بعد المشورة في أمر حرب مسعود أو الانسحاب إلى جرجان والري، أن ينتزعوا القسم الشرقي لخراسان أي بلخ وترمذ وفارياب وهراة أيضا بالحرب من يد السلطان وتجمعوا من أجل هذا الهدف على حدود مرو وعزم السلطان مسعود في رمضان (٤٣٠هـ) برفقته جميع قواده إلى مرو وحينما بلغ قلعة دندانقان بالقرب من مرو واجهه السلاجقة من ناحية وواجه الجفاف جنده من ناحية أخرى، فلم يستطيعوا وعددهم مائة ألف أن يقاوموا ستة عشر ألفا فلقوا هزيمة عظيمة، وهرب مسعود إلى هراة وأعمل السلاجقة في أحمال المؤن الضخمة التي تحملها جند مسعود والتي أضحت أحد أسباب

---

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٩٧.

هزيمتهم الرئيسية إغارة وغنما. وكانت واقعة دندانقان بمنزلة حكم النهاية لسلطنة الغزنويين في ما وراء النهر وإيران لأن طغرلبك عاد إلى نيسابور لساعته وذهب بيقو إلى هراة وداود إلى بلخ وأمر إبراهيم ابن ينال بالسيطرة على العراق العجمى، وأدخلوا جميع إيران وما وراء النهر تحت إمرة دولتهم بأسرع ما يكون وقضوا على أكثر الأسر المحلية، فضلا عن الغزنويين، التي كانت باقية في تلك البلاد.[١]

وفاة السلطان مسعود في (٤٣٢ هـ) :

وأتى مسعود غزنة بعد فراره من مرو وأمسك بجماعة من الأمراء من بينهم سباشي وبكتغدي وبعث بهم ليحبسوا بالهند. ثم أرسل ابنه مودوداً ومعه أحمد بن عبد الصمد في ربيع الأول (٤٣٢هـ) بجيش جرار إلى خراسان ليجلي عنها السلاجقة وقصد هو الهند ليشتي بها واصطحب جلال الدولة محمد أخاه الأعمى. وفي أثناء الطريق أغار بعض غلمانه على الخزائن السلطانية وانقسم الجيش جماعتين على نفسه وانغلب أتباع مسعود، فأسر الغالبون مسعوداً ورفعوا أخاه الأعمى محمداً إلى الإمارة بالتهديد وحبس مسعود في حصن (كيرى) في ربيع الآخر (٤٣٢هـ) بأمر أخيه ثم قتل في السجن بعد ذلك بقليل.

كان مسعود مثل أبيه شجاعا رشيدا مقاتلا محبا للشعراء، شغوفا بالإنشاء والتعمير حتى غصت بلاده بالكثير من المدارس والمساجد والرباطات وزاد بلاد أبيه وسعة بسبب فتح الرى وبلاد الجبل وكرمان والسند وجرجان وطبرستان، لكن اللهو والشرب والاستبداد غلب على طبعه، وكانت الهزائم الكبرى التي جرت له بسبب لهوه المفرط واستبداده

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص ٥٠٤-٥٠٥.

بالرأي. فلم يطـع المخلصيـن لدولتـه حينمـا منعوه من تنفيـذ أفكـاره فـي حروبه في جرجان ومعاملته مع السلاجقة، ولم يدع الشراب واللـهو حتـى في اثناء ثورات خراسان وهجمات السلاجقة وبذلك كان غـافلاً عن إدراك مشكلات الأمور الخارجية. (١)

السلطان مودود بن مسعود (٤٣٢ـ٤٤١):

لما قتل مسعود عاد أخوه محمد إلى غزنة، وأرسل إلـى إبن أخيـه مودود بخراسان يتنصل من تبعة قتل أبيه، فرد عليه بهذه العبارة التى تنم عن حزنه وعزمـه علـى القصـاص مـن قتلـة أبيـه فقـال: "أطـال الله بقـاء الأمير القاسم (محمد بن محمود سبكتكين)، ورزق ولد المعتوه أحمد عقـلا يعيش به، فقد ركب أمرا عظيما، وأقدم علـى إراقـة دم ملـك مثـل والـدى، الذى لقبه أمير المؤمنين سيد الملوك والسلاطين. وستعلمون فى أى حنف تورطتم، وأى شر تأبطتم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون:

نفلـق هاماً مـن رجـال أعـزة عليـنا، وهم كانوا أعـقّ وأظلمـا"

سار مودود من خراسان قاصدا غزنة وحارب عمه محمدا، وكـان قد عاد من الهند، بالقرب من دينور علـى طريـق كـابل وبشـاور، وانتصـر عليه، ودخل غزنـة وقتل أولاده جميعاً إلا عبد الرحيم الـذى أحسـن معاملـة مسعود عند القبض عليه وغضب لمقتله، كما قتل كل من رمـى بالإشـتراك فى هـذه المؤامـرة، وبنـى فـى المكـان الـذى انتصـر فيـه علـى عمـه قريـة ورباطاً، سماهما فتح آباذ، ودخل غزنـة فى شهر شعبان سنة ٤٣٢هـ.

---

(١) البيهقى، نفسه، ص ٣٧ـ٣٨ (من المقدمة) ابـن خلـدون، العبر، ج٤، ص ٥٠٥ـ ٥٠٦، الساداتى، نفسه، ج١، ص ١٠٥، ١٠٦.

وقد اثار انتصار مودود مخاوف الغز السلاجقة، فثار عليهم أهالى البلاد التى خضعت لهم، ودخلوا فى طاعة مودود الذى استقر أمره بغزنة، ولم يعد يخشى أحدا إلا أخاه (مجدودا). وكان أبوه مسعود قد سيره إلى الهند وولاه إقليم البنجاب فى سنة ٥٢٦هـ كما تقدم، فعصى أخاه مودودا واستقل بلاهور والمولتان، وجهز جيشاً سار به نحو غزنة، ولكنه مات فى شهر ذى الحجة من سنة ٤٣٢هـ (أغسطس سنة ١٠٤١م) بعد أن وصل إلى لاهور بثلاثة أيام. وقد اصبح السلاجقة على مر الأيام خطراً يهدد الدولة الغزنوية، ففى سنة ٤٣٥هـ، انتصر ألب أرسلان بن داود السجلوقى على جيش مودود الغزنوى، ومع ذلك تمكنت جماعة من جيوش مودود من القضاء على جماعة من الغز بنواحي بست[١].

ولم يقل اهتمام مودود بشئون الهند عن أسلافه فيها؛ فالروايات تذكر أن ثلاثة من ملوك الهند تحالفوا مع بعض رجالاتها مثل نواسى شاه إبن جيبال ملك ويهند، وديبال هرياثة، وحاصروا لاهور حاضرة الغزنويين فى هذه البلاد، وأن مودودا أرسل جيشا كبيرا للقضاء على قوة الهنود وتقويضهم حلفهم، فانهزم سخبال.

وكان من أثر هذا الانتصار أن استعاد الغزنويون هيبتهم فى بلاد الهند الشمال إلى حين. وكان مودود يعمل على استرداد البلاد التى استولى عليها السلاجقة فى عهد أبيه، فحاربهم فى سنة ٤٣٥هـ كما تقدم، وطلب إلى عمال الأقاليم مساعدته على تحقيق أغراضه، ووعدهم بإقراراهم على مايفتحونه من بلاد، وغمرهم بالأموال الضخمة. ومن ثم نرى صاحب أصبهان ينشط لمساعدته لولا أن هلك كثير من جنده فى

---

(١) إبن خلدون، العبر، ج٤، ص ٥٠٦-٥٠٨، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٤، ص ٩٩-١٠٠.

الصحراء، كما نرى ملك الترك يسير إلى ترمذ ويطرد السلاجقة منها، وتذهب طائفة من هؤلاء الترك إلى خوارزم ويسير مودود من غزنة سنة ٤٤١هـ لحرب السلاجقة، ولكن المرض ينتابه، فيعود إلى حاضرة ملكه، ويموت فى العشرين من رجب من هذه السنة، وهو فى التاسعة والعشرين من عمره، بعد أن ملك تسع سنوات وعشر أشهر [١].

وحال موت مودود المبكر دون القضاء على قوة السلاجقة؛ فقد عرف بالشجاعة والإقدام، وعمل على توطيد ملكه وإعادة مملكته إلى ماكانت عليه فى عهد جده يمين الدولة محمود الغزنوى. [٢]

ولاية عبد الرشيد – فروخ زاد (٤٤١-٤٥١هـ):

تولى مسعود الثانى بعد وفاة أبيه مودود، ولكنه لم يبق فى السلطنة سوى خمسة أيام، ثم تقلد السلطنة بعده عمه أبى الحسن على بن مسعود الأول. وقد انتهز عبد الرشيد بن يمين الدولة محمود الغزنوى فرصة الاضطراب الذى ساد الدولة الغزنوية بعد موت مودود، ودعا الجند إلى طاعته فأجابوه، وساروا إلى غزنة ففر على بن مسعود، واستقر الأمر له وتلقب عز الدولة، وشمس دين الله ، وسيف الدولة وقيل إنه تقلب أيضاً جمال الدولة.

وقد عمل عبد الرشيد على طرد السلاجقة من خراسان، مستعينا فى ذلك بطغرل زوج أخت مودود وحاجبه الذى أرسله إلى هذه البلاد. ولما أنس طغرل من نفسه القوة قصد غزنة حتى أصبح على بعد ستة فراسخ منها، وحاول خداع عبد الرشيد، مدعياً أن الجند تألبوا عليه وألحوا فى

---

(١) إبن خلدون، العبر ، ح ٤، ص ٥٠٨-٥٠٩.
(٢) حسن إبراهيم حسن، نفسه ، ح ٤، ص ١٠٠.

العودة للمطالبة بزيادة أرزاقهم. وعلى الرغم من اعتصام عبد الرشيد بقلعته في غزنة، قبل عليه طغرل وقتله سنة ٤٤٤ هـ، واستولى على بلاده وتزوج إبنة مسعود الأول.

ولكن عمل طغرل لم يرض بعض القواد، كما أنه لم يرض نائب الغزنويين في الهند برغم مابذله من جهود في إغرائه واستمالته إليه. واتصل هذا الوالي بوجوه القواد، كما اتصل بزوجة طغرل، وأنكر على هؤلاء أغضاءهم وقعودهم عن الأخذ بثأر عبد الرشيد. وبذلك أثار هذا الأمير حماسة بعض القواد، فدخلوا على طغرل وقتلوه، وولوا فروخ شاه الذي اعتمد على خرخيز نائب الغزنويين في الهند في إدارة دولته. (١)

قضى (فروخ) في السلطنة سبع سنين في محاربة أعدائه، وخاصة السلاجقة، ولم يأمن جانب قواده ومماليكه. ويحدثنا بن الأثير في حوادث سنة ٤٥٠ هـ أن بعض قواده ومماليكه ثاروا عليه واتفقوا على قتله وهو في الحمام، ولكنه نجا بمساعدة بعض أنصاره. ويظهر أن هذه الحادثة قد أثرت في حالته النفسية تأثيرا سيئاً، حتى إنه أخذ يكثر من ذكر الموت ويحتقر الحياة؛ ولم يعش بعد هذه الحادثة طويلا، فمات في شهر صفر سنة ٤٥١هـ، وتولى السلطنة من بعده أخوه إبراهيم إبن مسعود (٤٥١-٤٩٢هـ)، الذي طالت سلطنته، وعقد الصلح من السلاجقة، وفتح في الهند كثيرا من القلاع التي امتنعت على أبيه مسعود الأول وجده يمين الدولة محمود الغزنوي من قبل.

---

(١) إبن خلدون، العبر ، ج ٤، ص ٥١٠.

ولاية ظهير الدولة ابراهيم أخو فرخ زاد (٤٥١-٤٩٢هـ):

بعد أن جلس السلطان ابراهيم خلفا لأخيه دخل فى صلح، فى أول خطوة له، مع جغرى بك السلجوقى وأجمع أمرا أن ينهى النزاع الذى بقى من عهد مودود حتى يومه مابين أصحاب جغرى بك وابنه ألب أرسلان والغزنويين للاستيلاء على خراسان لأنه حتى وقتذاك لم يقدر السلاجقة على القضاء على الغزنويين فى غزنة ولم يستطع الغزنويون أيضا استرداد خراسان.

وتعاهد ابراهيم وجغرى وقررا أن يكون كل منهما مالكا لما تحت يده من متصرفات، وألا يتعرض أحدهما للآخر ولا يرهق دم الناس بلا ذنب بسبب هذا الصراع. وقد ظل الطرفان فترات يراعيان هذه المعاهدة حتى أنه نتيجة هذا الصفاء والاخلاص زوج ألب أرسلان أحد أولاده من ابنة السلطان ابراهيم، وزوج ابن لألب أرسلان آخر وهو ملكشاه ابنته بعد ذلك لمسعود ولد السلطان ابراهيم.

كان السلطان ابراهيم ملكا عادلا عاقلا فاضلا دينا حكم اثنتين وأربعين سنة بهدوء وراحة وقصد الهند فى هذه الفترة مرارا للجهاد، من بينها نجاحه فى سنة (٤٧٢هـ) بافتتاحه بضع قلاع وإصابته قدرا من الغنم والأسر منهم. وقد بلغت درجة تدينه أنه كان يصوم تطوعا ثلاثة شهور فى كل سنة ويكتب القرآن الكريم بيده كل عام ويرسل بنسخة إلى الكعبة. وكانت حكومة الهند فى عهد ابراهيم لأحد أولاده واسمه سيف الدولة محمود من (٤٦٩) حتى (٤٨٠هـ) ومحمود هذا الذى اشتغل غالبا بالجهاد فى الهند هو مخدوم وممدوح خاص للشاعر الكبير مسعود

إبن سعد بن سليمان الذى كان نفسه من الأمراء والمحاربين وكان يجالد بسيفه فى ركاب سيف الدولة محمود [١].

ولاية علاء الدولة مسعو بن إبراهيم (٤٩٢-٥٠٩هـ):

ولما تقلد علاء الدولة مسعود العرش فى (٤٩٢هـ) سير ولده الأمير عضد الدولة شيرزاد لحكم الهند، ففتح عضد الدولة وهو من ممدوحى مسعود بن سعد بن سليمان أيضا، فى الهند فتوحات كثيرة وكانت هجماته حتى الحدود التى بلغها الغزنويون وحسب فى عهد السلطان محمود، فضلا عن أن قسما من البنجاب دخل فى ملكية مسعود الثالث أيضا. وزوجة مسعود كما أشرنا هى ابنة السلطان ملكشاه السلجوقى وأخت السلطان سنجر.

ولاية أرسلان شاه بن مسعود الثالث (٥٠٩-٥١١هـ):

وبعد موت علاء الدولة مسعود خلفه ولده أرسلان شاه، لكن أخاه شيرزاد ادعى حكمه فقتله أرسلان شاه وحبس اخوته الآخرين ماعدا بهرام شاه الذى فر إلى خاله سنجر بخراسان، وعامل والدة بهرام شاه وكان زوجة أبيه باستخفاف.

وظل أرسلان شاه يحكم فى غزنة حتى شوال من سنة (٥١١هـ). وفى هذا الوقت سير سنجر فى مرو، أميرا من أمرائه هو الأمير (أنر) مع

---

(١) مسعود بن سعد المتوفى (٥١٥هـ) من كبار شعراء القصائد فى القرن الخامس ومعاصر العصرين الغزنوى والسلجوقى، أصله من همدان وولادته بلاهور، صاحب مسعودا بن ابراهيم الغزنوى فى حروبه بالهند، فلما ساء ظن ابراهيم بمسعود ألقى به فى الحبس وبحاشيته ومنهم الشاعر الذى مكث عشر سنوات حبيسا نظم فيها أفضل قصائده التى سميت بالحبسيات. وقد أطلق سراحه ليعود ثانية نحو ثمانية أعوام حتى خرج عام (٥٠٠هـ) كان بالحبسياتى يعرف العربية والهندية وله أشعار بالعربية أيضا.

بهرام شاه إلى سجستان، ولحق بـهما هنـاك الأمير أبـو الفضل نصر بـن خلف ملك نيمروز، وعزم سنجر على اتيان غزنة برغم ممانعـة السلطان محمد لفكرته هذه، وقبل غزنة بفرسخ واحد أصاب أرسلان شاه فى شوال (٥١١هـ) بهزيمة شديدة وأبلـى الأمـير أبـو الفضل السجستانى فـى هـذه الحرب بلاء حسنا. وورد سنجر غزنــة تـام الانتصـار وأجلس بـهرام شـاه على عرشها. وقبل بناء على الميثاق الذى واثق به سنجر خاله أن يخطـب للخليفة وللسلطان محمد وسنجر ثم له، وأن يرسل مـائتين وخمسين ألـف دينار سنويا إلى ديوان سنجر، ثم كتب سنجر خبر هذا الفتـح المبيـن الـذى لم يسـبق للسـلاجقة فـى تاريخـهم (لأن أحـدا مـن السـلاطين السـلاجقة لـم يستحوذ على غزنة مـن قبـل) إلـى أخيـه السـلطان محمـد. وكـان السـلطان محمد فى هذه الآونة فى مرض الموت، وخلفه أخوه سنجر علـى حكـم كـل البلاد السلجوقية (فى ذى الحجة من ٥١١هـ).

ولاية يمين الجولة بهرام شاه بن مسعود (٥١١-٥٤٨هـ):

وبعد أن عاد سنجر إلى خراسان واستقر بهرام شاه علـى كرسـى الغزنويين الدولة أعاد أرسلان شاه وكان قد فر إلـى الـهند واستعاد غزنـة من أخيه. فقصـد بـهرام شـاه خراسـان ليسـتمد سـنجر ثـم طـرد أخـاه مـرة أخرى من غزنـة بعد مقام شهر واحد بها، لكن هذه المرة وقع أرسلان شاه أسيرا فقتلـه أخـوه وأصبـح بـهرام شـاه ملـك غزنـة والـهند تحـت حمايــة السلطان سنجر، لكن الغزنويين كما مرت الإشارة لم يكن اسـتقلالهم كـاملا وكانوا يؤدون الجزية للسلاجقة.

وقد أمضى بهرام شاه القسـم الأكـبر مـن أيامـه مـن الشـطر الأول لحكمه الذى طال إلى حد ما، فى إدارة أمور الـهند والغزو الجهاد بـها بسـبب

الصفاء بينه وبين سنجر وأمنه من جانب خراسان وعمل على النهوض بدولته من جديد، وجهد في إقرار الأمور في الهند فقضى على فتن البنجاب والملتان ورد عصبة الأمراء الهنادكة عن لاهور، وكانت الآمال قد بعثت في أنفسهم من جديد لطرد الغزنويين من بلادهم، ونجح بهرام في تثبيت أقدامه بالهند من جديد. (١)

لكنه في سنة (٥٢٩هـ) استنكف أن يرسل المال للسلطان سنجر متذرعا بضخامته، فأتاه السلطان مقاتلا فلم يجد بهرام شاه محيصا من إظهار العجز وطلب العفو، فاستدعاه السلطان ليقابله لكن بهرام شاه ركن إلى الفرار من أمامه اشفاقا فدخل السلطان غزنة واغتنم كل أموال بهرام شاه، ثم أمنه ودعاه إلى غزنة وعاد إلى خراسان في سنة (٥٣٠هـ).

وكان البلاء العظيم الذي ابتلى به بهرام شاه في الشطر الثاني لحكمه والذي قضى على شأفة الدولة الغزنوية في إيران وفي الهند كلتيهما هو تعاظم قوة أسرة الأمراء الغوريين الذين كانوا ينزلون فيما بين غزنة وهراة.

فقد ساهم بهرام شاه في أحوال الغوريين عندما آمن قطب الدين محمد الغوري الذي استوحش من أخوته قبل ذلك فلاذ بغزنة وذلك بسعاية جماعة من الأشرار، فصارت هذه الحادثة سبب ظهور العداء بين الغوريين وبهرام شاه. فقدم سيف الدين السوري بجيوشه إلى غزنة وهزم بهرام شاه بالهند وجلس هو على عرش غزنة. ولما علم بهرام شاه في شتاء هذا العام أي (٥٤٤هـ) أن الجنود السوريين قد آبوا إلى بلاد الغور وأن وصول الامداد إلى سيف الدين السوري المعتلي عرش غزنة في هذا

(١) الساداتي، نفس المرجع، ص ١٠٨.

الفصل أمر مستحيل أتى غزنة على حين غرة فقبض على سيف الدين وقتله.

وصمم علاء الدين حسين الذى كان حانقا لقتل أخيه الأول ثم اشتعل غضبا لسماعه قتل أخيه الثانى، مقسما بأغلظ الأيمان أن يقلب غزنة رأسا على عقب ويمحو آثار أسرة بهرام شاه، فهاجم بهرام بجيش كبير وبعد ثلاثة حروب انتصر فيها أجبره على الفرار إلى الهند. ثم أعمل السيف ليل ونهار سبعة أيام فى الناس وحرق غزنة وأخرج أجساد السلاطين الغزنويين خلا جسد محمود ومسعود وابراهيم وأشعل فيها النار وحطم كثيرا من الأبنية والعمائر والكتب. وبعد عودة علاء الدين الغورى وهزيمته وأسره بيد السلطان سنجر عاد بهرام شاه في عام (٥٤٧هـ) إلى غزنة ومات فيها فى السنة التالية. ولقد كان بهرام شاه أحد أفضل وأشهر السلاطين الغزنويين لأنه كان ينافس فى تربية الشعراء وأهل الفضل السلطان سنجر معاصره، وكانت غزنة ولاهور تضارعان (مرو شاهجهان) فى عهده فى هذا المجال. ويجب ذكر أسماء (مسعود بن سعد بن سلمان) و (السنائى الغزنوى) [١] و(عبدالواسع الجبلى) [٢]

---

(١) السنائي هو الحكيم أبو المجد مجدود بن آدم مدح مسعودا بن ابراهيم وبهرامشاه أول الأمر، ثم آثر العزلة والزهد بعد لقائه الصوفية بخراسان ثم السفر إلى مكة وغيرها إلى أن عاد إلى غزنة نحو عام (٤١٨هـ) فظل بها حتى موته. ومن آثاره ديوانه الشامل قصائد وغزليات ومقطعات وحديقة الحقيقة وسير العباد إلى المعاد وطريق التحقيق وكارنامة بلخ ومثنويان هما عشاق نامه وعقل نامه، ويمكن اعتبار سنائى أول شاعر للغزل الصوفى الإيرانى مزج المعانى الصوفية بمضامين العشق.

(٢) الجبلي المتوفى سنة (٥٥٥هـ) هو بديع الزمان عبد الواسع بن عبد الجامع الغرجى مادح سلاطين غزنة والسلطان سنجر السلجوقي وملوك الغور والخوارزميين، كان ماهرا فى علوم عصره خاصة الأدب موشحا كلامه بالصناعة اللفظية، وأنشد الشعر بالعربية فسماه العوفى بذى البلاغتين، (تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ٢٠٦، هـ ٢).

و (سيد حسن أشرف الغزنـوى) [١] و (عثمـان المختـار الغزنـوى [٢] مـن الشعراء العظام الذين مدحوا بهرام شاه. ومن أشهر الكتـب المتعـددة التـى ألفـت باسم هـذا الملك بـالنظم والنـثر (حديقــة الحقيقــة) [٣] المنظومــة المعروفـة للحكيـم السنائى والتـى نظمـها هـذا الشـاعر الأسـتاذ فــى عــام (٥٢٥هـ) قبل وفاته بقليل، ثم (كليلة ودمنـة بـهرامشاهى) مـن انشـاء قلـم المنشئ الكبير (أبى المعالى نصر الله بن عبد الحميد الشيرازى) [٤] والتـى تعد احدى سامقات النثر الفارسى ، ثم (البصائر اليمينية) فى التفسـير مـن تأليف فخر الدين محمد بن مسعود النيسابورى الذى كان من أجلــة علمـاء بلاط بهرام شاه، وفى عام (٥٣٠هـ) حين قـدم سـنجر لتـأديب بـهرام شـاه بغزنـة تقدم هذا العالم سفيرا من جانب صاحب غزنــة إلـى السـلطان وجعـل سنجر يترأف بحال بهرام شاه.

---

(١) هو أشرف الدين أبـو محمـد حسـن بـن محمـد الحسـينى الغزنـوى الملقب بالأشرف والمتوفى عـام (٥٥٧هـ) مـن واعظـى وفصحـاء القرن السـادس، مـدح الغزنويين والسلاجقة، ويشمل ديوانه أربعة آلاف بيت فى القصائد والغزل والترجيعات فى سائر الموضوعات. (تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٢٠٦، هـ ٣).

(٢) وهو أبو المفاخر خواجه حكيم سراج الدين أبو عمر عثمان بن عمر عاصر مسـعود بن سعد والسنائى وأبا الفرج الرونى الشاعر ومدح الغزنويين، ويشمل ديوانه ثمانية آلاف بيـت ولـه مثنـوى فـى قصـة شـهريار بـن بـروز بن سـهراب بـن رسـتم البطـل الأسطورى واسمه (شهريار نامه) ألفه تلبية لرغبة السلطان مسعود بن ابراهيم.

(٣) حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة من أهم آثار السنائى وتشمل عشرة آلاف بيت الفـت باسم بهرام شاه الغزنوى على عشرة أبواب فـى التوحيـد وذكـر كـلام البـارئ ونعـت النبى وصفة العقل وفضيلــة العلـم وذكـر النفـس وصفـة الأفـلاك، ومـدح بـهرام شـاه والحكمة والأمثال وصفة تصنيف الكتاب. ويتضمن الحكمة والمواعظ والموضوعات الصوفية وبيان مقام العلم والعقل. (نفس المرجع ، ص ٢٠٦، هـ ٥).

(٤) أبو المعالى نصر الله المتوفى فى النصـف الثـانى للقرن السـادس كـاتب بـهرام شـاه ووزير خسرو شاه، ومن آثار ترجمة كليلة ودمنــة إلـى الفارسـية مـن العربيـة وهـى نموذج للإنشاء الفصيح الذى احتذاه كتاب القرن السادس ومن جاء بعدهم.

ولاية تاج الدولة خسرو شاه بن بهرام شاه (٥٤٨-٥٥٥هـ):

بعد موت بهرام شاه خلفه ابنه خسرو شاه لكن الغوريين كانوا قد حازوا جانبا عظيما من القوة فى هذا الوقت وسار السلطان سنجر شيخا واهنا، وحل التراكمة الغز فى ممالك سنجر لهذه الأسباب ولقد كان خسروشاه غير قادر على الحفاظ على قصبة أجداده، فاستولى الغز منه على غزنة فى عام (٥٥٥هـ) ففر إلى الهند وانحصر من هذا الوقت فصاعدا الملك الغزنوى فى الهند الغربية. ولقد عاد خسروشاه إلى غزنة من جديد تحت حماية السلطان سنجر، وبعد مقتله وضياع ملكه على أيدى التركمان، إرتد خسروشاه إلى الهند ثانية حيث قضى بلاهور عام ٥٥٥هـ، سنة وفاته.

ولاية سراج الدولة خسرو ملك بن خسرو شاه:

(٥٥٥ – ٥٨٢هـ)

بعد فتح غزنة على يد الغز أتى خسرو شاه لاهور وتوفى بها وخلفه ابنه (خسرو ملك أو ملكشاه) أميرا عليها. وفى عهده استصفى الغوريون غزنة من الترك ولما قروا بالا من هذه الناحية توجهوا لفتح بقية البلاد الغزنوية وأخرج شهاب الدين محمد بن سام بيشاور ولاهور والمولتان أي وديان حدود كابل والسند عن كف خسرو ملك بالتدريج، وطلب خسرو ملك الصلح فى عام (٥٨٢هـ) من شهاب الدين لكن قبل أن ينجح فى هذا المسعى قبض عليه أشياع شهاب الدين.[1] وبهذه الحادثة انتهت دولة آل محمود. وظل خسرو ملك حتى عام (٥٩٨هـ) محبوسا فى الغور ثم قتل فى هذا التاريخ. وهكذا زالت الدولة الغزنوية على يد شهاب

(١) الساداتى، نفسه، ج ١، ص ١١٠، عباس إقبال، نفسه، ص ٢٠٧.

الدين الغورى، ومن ثم تداعى سلطان الغزنويين فى الهند، وإنقسمت إلى أسرات اسلامية مستقلة. وكان سلاطين الغزنويين كما ذكر (إبن الأثير) من أحسن الملوك سيرة ولاسيما جدهم محمود، فان آثاره فى الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهودة. ويعلق (فيليب حتى) على صعود وسقوط الغزنويين بقوله " إن ظهور الدولة الغزنوية كان يمثل أول انتصار العنصر التركى فى صراعه مع العنصر الفارسى على السيادة النهائية فى الإسلام". ويرى (حتى) أن الدولة الغزنوية لاتختلف فى أساسها عن الدولة الصفارية أو الدولة السامانية، وأرجع ثباتها وإستمرارها رغم تفكك أوصالها إلى قوة السيف. ومن ثم فإنه لما تراخت اليد التى كانت تقبض على هذا السيف، لم يكن بد من أن تتداعى هذه الأجزاء التى كانت تتألف منها الامبراطورية الغزنوية، بعد وفاة السلطان محمود الغزنوى.[1]

---

(١) حسن إبراهيم حسن، نفس المرجع، ح ٤، ص ١٠٢.

أسماء الحكام الغزنويين وأيام امارة كل منهم

أبو اسحاق البتكين	٣٥١-٣٥٢ هـ
اسحاق بن البتكين	٣٥٢-٣٥٥ هـ
بلكاتكين	٣٥٥-٣٦٢ هـ
بيرى	٣٦٢-٣٦٦ هـ
ناصر الدين سبكتين	٣٦٦-٣٨٧ هـ
اسماعيل بن سبكتين	٣٨٧-٣٨٨هـ (سبعة شهور)
١- يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتيكين	٣٨٧-٤٢١ هـ
٢-جلال الدولة أبو أحمد محمد بن محمود	(٤٢١هـ(سبعة شهور)
٣-شهاب الدولة أبو سعد مسعود بن محمود	٤٢١-٤٣٢ هـ
٤-شهاب الدولة أبو الفتح مودود بن مسعود	٤٣٢-٤٤١ هـ
٥-٦- بهاء الدولة أبو الحسن على بن مسعود ومسعود بن مودود	٤٤١ (مجموع شهرين)
٧- عز الدولة أبو منصور عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين.	٤٤١-٤٤٤ هـ
٨- جمال الدولة أبو الفضل فرخ زاد بن مسعود بن محمود	٤٤١-٤٥١ هـ
٩- ظهير الدولة أبو المظفر ابراهيم أخو فراخ زاد	٤٥١-٤٩٢ هـ
١٠- علاء الدولة أبو سعيد مسعود بن ابراهيم	٤٩٢-٥٠٩ هـ
١١- سلطان الدولة أبو الفتح أرسلان شاه بن مسعود الثالث.	٥٠٩-٥١١ هـ

١٢- يمين الدولة شاه أبو المظفر بهرام شاه بن مسعود ٥١١-٥٤٨ هـ

١٣- تاج الدولة أبو شجاع خسرو شاه بن بهرام شاه ٥٤٨-٥٥٥ هـ

١٤- سراج الدولة أبو الملوك خسرو ملك بن خسرو شاه [١] ٥٥٥-٥٨٢ هـ

---

(١) عباس إقبال، نفسه ، ص ٢٠٨.

الفصل الثامن
الدولة الغورية
(٥٤٣-٦١٢هـ/١١٤٨-١٢١٥م)

- تقديم.
- عرض جغرافى لممنطقة الغور.
- أصل الغوريين وبداية ظهورهم.
- قيام الدولة الغورية.
- سلطنة سيف الدين السورى.
  (٥٤٣-٥٤٤هـ/١١٤٨-١١٦٠م).
- ولاية علاء الدين حسين الغورى (جهان سوز).
  (٥٤٤-٥٥٦هـ/ ١١٤٨-١١٦٠م).
- ولاية سيف الدين محمد بن علاء الدين الغورى.
  (٥٥٦-٥٥٨هـ/١١٦٠-١١٦٢م).
- ولاية غياث الدين محمد بن سام الغورى.
  (٥٥٨-٥٩٩هـ/ ١١٦٢-١٢٠٢م).
- الصراع الغورى الخوارزمى.
- وفاة غياث الدين محمد.
- ه لاية شهاب الدين محمد الغورى.
  (٥٩٩-٦٠٢هـ/١٢٠٢-١٢٠٥م).
  - فتح الهند.
  - حروب شهاب الدين محمد الخوارزميين والخطا.
  - وفاة شهاب الدين محمد.
- ولاية غياث الدين محمود.
  (٦٠٢-٦١٢هـ/١٢٠٦-١٢١٥م).

الفصل الثامن

الدولة الغورية

(٥٤٣-٦١٢هـ / ١١٤٨-١٢١٥م)

تـقـديم:

عرض جغرافى لمنطقة الغور:

تنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها وهو جبال الغور. وكانت الغور أو (غورستان) منطقة جبلية واسعة تمتد من هراة إلى الباميان وتخوم كابل وغزنة، وهى جنوب نهر هراة. وهذه المنطقة عبارة عن وديان المناطق الجبلية التى تسمى الآن (كوه بابا) أى جبل بابا و (سفيد كوه) أى الجبل الأبيض، وتتصل جبال خراسان عن طريقها بسلسلة جبال هندوكوش. وبهذه المنطقة (الغور) كما أشار جغرافيو العرب مخارج (منابع) كثير من الأنهار الكبيرة مثل نهر هيرمند، ونهر هرى رود، ونهر خواش، ونهر فره، ونهر مرغاب الذى كان يخرج من حدود غرجستان. ولقد جرر القسم الغربى من هذه المنطقة وكان يسمى غرجستان ولاية هراة. ولعل قرب المنطقتين غورستان وغرجستان كان وراء الإلتباس الذى وقع فيه (ياقوت الحموى) حينما قرر أنهما منطقة واحدة، وأن غرجستان تكتب غالبا غورستان.

وغرجستان أو (غرشستان) كما يذكر القزوينى، تقع شرق باذغيس عند منابع نهر مرغاب، وهى منطقة جبلية أيضا عرفت عند الجغرافيين العرب باسم (غرج الشار)، ويلقب ملك هذه الجبال بـ(الشار).

والغرج كما ذكر المقدسى هى الجبال، فتفسير غرج الشار إذن هو جبال الملك، ولكنها صارت تعرف عند العوام باسم غرجستان وملكها يعرف باسم (الغرجة). وفى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى كان يوجد فى هذه الناحية الواسعة عشرة جوامع فى مختلف بلدانها. وأكبر مدينتين فى منطقة غرجستان هما: أبشين وشورمين، وذكر ياقوت الحموى إسم مدينتين أخريين فى غرجستان هما: (سنجة وبيوار) وموضعيهما فى الجبال.

أما مدينة أبشين (أفشين أو بشين) فكانت تقع على الضفة الشرقية لنهر مرغاب، وكان يوجد حولها البساتين، واشتهرت بزراعة الأرض بوفرة فكان يحمل منها الزيت والأرز إلى بلخ، وكان لها حصن مكين ومسجد جامع. وشورمين (سورمين) تقع فى الجبال على بعد أربع مراحل جنوب أبشين، واشتهرت بالزبيب الذى كان يحمل منها الى النواحى القريبة. ورغم أن أبشين وشورمين كانت أكبر مدن غرجستان، إلا أن (ملك الغرجة) لم يتخذ إحداها مقرا له، ولكنه كان يقيم بقرية كبيرة فى أحد جبال غرجستان تسمى بليكان (أو بلكيان). [١] "وعلى هذه الولاية دروب وأبواب حديد فلا يمكن أحدا دخولها إلا بإذن، وثم عدل حقيقى ونظر عزيزى وبقية من سنن العمرين ورسوم تقر بها العين، لا عمال ظلمة ولا أسباب مغيرة مايؤخذ من أغنيائهم فهو موضوع فى فقرائهم، ومن جنى جناية فالعفو أو الحد، ومع ذلك قوم سلماء صالحون من الطينة الأولى". [٢]

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧١، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٠٩، ٣٤٨ ياقوت الحموى، معجم البلدان، ح ١، ص ٨٠٣، ص ٧٢، ١٦٣، ١٨٦، القزوينى، آثار البلاد، ص ٤٢٥-٤٢٦، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٤٥٨.

(٢) المقدسى، نفسه، ص ٣٠٩-٣١٠.

أما السفوح الشمالية للولايات الجبلية الغور والغرجستان التى تعد بداية سهول ماوراء النهر ووادى الفروع الجنوبية للأمودريا، فقد كانت تسمى قديما (طخارستان)، وهى المنطقة التى تسمى حاليا بالتركستان الأفغانية. ويسميها إبن حوقل طخيرستان، وهى أكبر مدن الطالقان، وبينها وبين الجبل غلوة ولها نهر كبير وبساتين وكروم، ويذكر القزوينى أن بدخشان تعد من ناحية طخارستان وتوجد بشمالها [١]. وكانت غالبية سكان الغور فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى من الكفار الوثنيين، وإن كان بها بعض المسلمين كما يذكر إبن حوقل. وبالغور شعاب عامرة ذات عيون وبساتين كثيرة خصبة جداً وأنهار، وقد اشتهرت ببعض المعادن مثل الفضة والذهب، ويوجد أكثرها عند الباميان ونهر كابل (أطلق العرب عليه إسم بنجهير أى خمسة جبال بلغة سكان هذه البلاد)، ويستخرج أغزر هذه المعادن من موضع يعرف باسم (خرخيز). و(بنجهير) مدينة على جبل، ويغلب على أهلها العبث والفساد، وتشتهر بمزارعها الخصبة ويغلب على نهرهم البساتين. [٢]

وبعد سقوط دولة الغزنويين استقل رؤساس الغور وكانوا قبل ذلك من أعوانها ـ كما سنرى ـ وأنشأوا لهم عاصمة تسمى (فيروز كوه)، وهى قلعة عظيمة فى جبال الغور، ويسميها يـ"ـ ت الحموى (بيروز كوه) أى جبل الفيروز. ومن نواحيها كما يذكر (المستوفى) مدينة هنكَران. وهناك بعض القلاع فى منطقة الغور مثل (كليون وفيوار) وبينهما مقدار عشرة

---

(١) إبن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧٤، القزوينى، نفسه، ص ٣٠٦.
(٢) إبن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧٥.

فراسخ ، وقلعة خستار. ويذكر القزوينى مدينة أخرى من مدن الغور الكبرى هى (خوست) أو (خشت). [١]

وكان (الباميان) تؤلف القسم الشرقي من الغور، وهى قصبة كورة عظيمة تحمل نفس الإسم. وكانت الباميان مركزا بوذيا عظيما قبل الإسلام، وكانت فى القرن الرابع كما يصفها الإصطخرى "تكون نحوا من نصف بلخ، وهى على جبل وليس لها سور"، وأرضها خصبة جدا يسقيها نهر كبير. وقد أشاد المقدسى بذكرها فقال عنها أنها " ناحية واسعة كثيرة الخير وقصبتها صغيرة". وكان يوجد فى مدينة الباميان بعد الاسلام جامع وأسواق عامرة بالمتاجر، ولها أربعة أبواب تفضى إلى خارجها ومن أكبر مدن كورة الباميان في القرن الرابع ثلاث هى: بسغورفند و سكيوند ولخراب. وهناك أيضا بلدة سبران وهي بين بست وكابل [٢] ، ولقد وصف الجغرافيون العرب أصنام البوذيين (البد) فى الباميان، لاسيما الصنمان العظيمان اللذان نقرا في أسفل الجبل، ويسمى أحدهما (سرجبت) والآخر (خنكبت) أى بوذا الأحمر وبوذا الأشهب، وليس لهما فى الدنيا نظير، وكان هذان الصنمان يوجدان فى بيت ذاهب فى الهواء بأساطين مرفوعة منقوشة فيه كل طير خلقه الله على وجه الأرض. [٣]

---

(١) الإصطخرى، ص ٢٧٢، إبن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧١، ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج٣، ص ٨٢٣، ص ٤ ص ٩٣٠، القزوينى ، آثار البلاد، ص٣٦٥، ٤٣٠.

(٢) إبن حوقل، نفسه، ص ٣٧٥، المقدسى، نفسه، ص ٣٠٣، القزوينى، نفسه، ص ٣٩٠.

(٣) ياقوت ، نفسه، ج١، ص ٤٨١، القزوينى ، نفسه ، ص ١٥٤. هذان التمثالان هما أكبر تمثالين لبوذا فى العالم الذى يؤمن بالبوذية، حيث يبلغ طول أحدهما ٥٥ مترا والآخر ٣٦ مترا ، ويعود تاريخهما إلى نحو ١٥٠٠ عام. ومن دواعى الأسف والحزن أن حركة طالبان الإسلامية الحاكمة فى أفغانستان قد قامت بتدمير تماثيل بوذا التاريخية فى النصف الأول من شهر مارس ٢٠٠١م(ذى الحجة ١٤٢١هـ) وفى مقدمتها التمثالان العملاقان فى مدينة باميان التى تقع فى وسط أفغانستان=

وكان يوجد بالباميان أيضا عدة معادن مثل الزنبق وعين كبريت، ينبع منها ماء كثير ولها صوت وغلبة، من إغتسل بهذا الماء يزول جربه، وإذا عرضت عليه شعلة النار يشتعل، وليس بنواحى الباميان مدينة على جبل سواها، والفواكهة تجلب إليهم وليس لهم بساتين، وقد خربت الباميان ومدنها على يد جنكيزخان. (١) وكان لقب ملك الباميان فى القرن الثالث الهجرى كما يذكر إبن خرداذبه (شيرباميان)(٢). ورغم أن الغوريين قد اتخذوا مدينة فيروز كوه عاصمة لهم فى بداية دولتهم، إلا أنهم سيطروا بالتدريج على طخارستان فى الشمال وأهم مدنها الباميان، وعلى غرجستان والجبال وهراة فى الجنوب والغرب، ثم إختاروا باميان وهراة ومن بعدهما غزنة مجالا لعروشهم.

أصل الغوريين وبداية ظهورهم:

لم يكن أصل الغوريين ونسبهم معروفا على وجه الدقة. والمتعارف عليه حتى الآن أنهم كانوا من الشعوب الجبلية التى كانت تقطن فى منطقة الغور، وكانوا مستقلين بصفة عامة بسبب الوضع الطبيعى لمساكنهم كأكثر العشائر الجبلية، ولم يتمكن الملوك الفاتحون

=حاليا، على الرغم من الجهود الدولية التى شاركت فيها منظمات عربية وإسلامية لإنقاذ هذا التراث الإنسانى. ولقد تعددت ردود أفعال المنظمات الدولية تجاه عملية تدمير التماثيل البوذية، فقد وصفتها منظمة اليونسكو بأنها عمل غير إنسانى ويعتبر "جريمة ضد الثقافة"، بينما وصفتها الأمم المتحدة بأنها مأساة، وقالت الخارجية الأمريكية إن هذا التدمير لتراث تاريخى ودينى لايعوض، ويُعد جريمة ضد الجنس البشرى. كما تظاهر آلاف الأفغان اللاجئين فى الهند واستنكروا هذه العملية البشعة ورددوا الشعارات المعادية لحركة طالبان التى دمرت جزءاً مهما من التراث الإنسانى.

(١) الإصطخرى، نفسه، ص ٢٧٧، ٢٨٠، إبن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧٥، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٠٣، ياقوت الحموى، نفسه، ح١ ص ٤٨١، القزوينى، نفسه، ص ١٥٤، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٦٠-٤٦١.

(٢) إبن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ٧٠.

والغزاة من السيطرة عليهم بسبب صعوبة الوصول إلى بلادهم. ولما أصبح لملوك الغور شأن عظيم واتسعت دائرة أملاكهم فى بلاد الأفغان والهند، إدعوا نسبا شريفا فى الجاهلية والإسلام، فقالوا إنهم من أبناء الضحاك بطل (الشاهنامة) المعروف، كما ادعوا أن أحد أجدادهم الأعلين، ويدعى (شنسب) قد اعتنق الإسلام على يد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ولهذا عرف سلاطين الغور حينا من الدهر بأسم آل شنسب. وتذكر الروايات أن يعقوب الصفار فشل فى السيطرة على الغوريين والإستيلاء على بلادهم، فعندما تقدم للاستيلاء على بلاد الرخج وكابل، فر رؤساء الغوريين أمام تقدم جيوشه ولاذوا بمناطقهم الجبلية بالغور، فعجز يعقوب عن تعقبهم لصعوبة الوصول إليهم. (١)

ويعتبر (محمد بن السورى) من أبرز شخصيات الغوريين قبل تأسيس دولتهم نحو منتصف القرن السادس الهجرى. وكان محمد بن السورى هذا زعيما للغوريين، وكان معاصرا لسبكتكين وإبنه محمود الغزنوى، ودائما ماكان الغوريون يهاجمون أملاك الغزنويين فى منطقة (بست) وكانوا يفسدون السابلة ويمتنعون بجبالهم الوعرة الضيفة، وأقاموا على ذلك متمردين على فسادهم وقطع الطرق، إلى أن تصدى لهم السلطان محمود فى عام ٤٠١ هـ، فى جيوش جرارة وسار معه التونتاش الحاجب صاحب هراة وأرسلان صاحب طوس ، وهاجم الغوريين هجوما مكثفا، فاضطر محمد بن السورى إلى التقهقر أمامه والتحصن باحدى قلاع الغور، ولما أعياه طول الحصار وفت فى عضد المدافعين، استسلم محمد بن السورى وطلب الأمان من السلطان محمود الذى قبض عليه أسيرا وهو وقرابته وخاصته وأودعه السجن، وملك قلعتهم وغنم جميع

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٢١٠.

أموالهم، وبعد فترة أسف إبن سورى على نفسه فتناول سما كان معه ومات فى الأسر، فأناب محمود الغزنوى إبن الزعيم الراحل فى حكومة الغور خلفا لأبيه. (١)

ولقد تمتع الغوريون باستقلالهم الذاتى فى بلادهم الأصلية رغم تبعيتهم للغزنويين، وظلت أسرتهم تحكم بلاد الغور بلا إنقطاع ، وإن كانوا على مايبدو قد جنحوا للهدوء والسلم زمن سلطنة ظهير الدولة إبراهيم الغزنوى (٤٥١-٤٩٢هـ/١٠٥٩-١٠٩٩م) الذى كان يتصف بقوة الشكيمة كما يذكر الوزير نظام الملك فى مؤلفه القيم "سياست نامة". وإستمر وضع الغوريين كحكام مستقلين تحت السيادة الغزنوية حتى السنوات الأولى لسلطنة بهرام شاه الغزنوى (٥١٢-٥٤٧هـ/١١١٨-١١٥٢م)، والسلطان سِنْجِر السلجوقى، ففى عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م، دخل الغوريون تحت السيادة السلجوقية. وتفصيل ذلك أن السلطان بهرام شاه الغزنوى وكان حليفا للسلطان سنجر السلجوقى منذ أن قام الأخير بمساعدته للاستيلاء على عرش غزنة فى عام ٥٠٨هـ، قد قام بظلم الرعية وإغتصب أموالهم، فارتاب السلطان سنجر فى ولائه وعدم إخلاصه في الوفاء بوعوده، فسار سنجر إلى غزنة، ولكن بهرام شاه فر منها قبل وصول السلاجقة إليها وقيامهم بجباية أموالها، ومن منفاه أرسل بهرام شاه إلى سنجر يتضرع ويسأل الصفح عن جرمه والعفو عن ذنبه، فأرسل سنجر السلجوقى إلى بهرام شاه المذعور يطلب منه العودة إلى غزنة، ووضح له أنه ماجاء إلى غزنة طامعا فيها، وإنما قصد بذلك إصلاحه ورده إلى الطاعة، فعاد بهرام شاه إلى غزنة فى سنة ٥٣٠هـ ،

---

(١) إبن خلدون، العبر، ج٤، ص ٤٨٥.

وقد تأكدت طاعته هو وبلاده لسنجر السجلوقى، وبالتالى صارت تبعية الغوريين للسلاجقة أيضا. [١]

ومع ذلك فقد كان للغوريين بزعامة الملك عز الدين حسين ببهرام شاه المطيع لسنجر السلجوقى علاقات حسنة، توثقت فيما بعد بمصاهرة قطب الدين محمد الغورى (الملقب بملك الجبال) له، وتذكر الروايات أن سبب إلتحام محمد الغورى ببهرام شاه فى غزنة هو أن الغورى وكان مقيما فى (فيروز كوه) التى بناها بنفسه، قد حدث بينه وبين اخوته صراعا فخافهم على نفسه، ولذلك لاذ ببهرام شاه صهره بغزنة، فعظم شأنه عنده. وفى عام ٥٤٢هـ اندلعت الفتن بين بهرام شاه وأخيه أرسلان فمال قطب الدين محمد بن الحسين الغورى إلى أرسلان، وارتاب به بهرام لذلك، ولما انقضى أمر أرسلان بالفشل، سار محمد الغورى فى جموعه إلى غزنة فى سنة ٥٤٣هـ بقصد زيارتها فى الظاهر، بينما كان يبطن الغدر ببهرام شاه، فلما شعر بهرام بمقصده الحقيقى قام بالقبض عليه وحبسه ثم قتله بالسم خفية، فاستوحش الغوريون لذلك. [٢]

وتجدر الإشارة إلى أن عز الدين حسين ملك الغور الذى عاصر السلطان سنجر السلجوقي وبهرام شاه الغزنوى قد أنجب سبعة أبناء بلغ أربعة منهم الحكم، ولذلك لقب بأبى السلاطين. أما الأبن الأكبر للملك عزالدين حسين وهو الملك فخر الدين مسعود فلم يستطع أن يخلف أباه سلطانا فى بلادهم الأصلية (الغور)، لأن أمه كانت جارية تركية، ولذلك انتهت سلطنة الغوريين إلى أخيه شاه بن الحسين ثم ملك من بعده أخوه سيف الدين شورى بن الحسين، فقام بتوزيع أملاك أبيه بين أخوته وأناب

(١) إبن الأثير ، الكامل، طبعة الدكتور الدقاق، ح ٩، ص ١٥٥-١٥٦، ٢٨٤.
(٢) إبن الأثير، الكامل، ح٩، ص ٣٥٦- ٣٥٧،إبن خلدون ، العبر، ح٤،ص٥٢٣.

لكل منهم حكم بلد منها، فكان من نصيب أخيه الأكبر فخر الدين مسعود حكم ولاية طخارستان وذلك في سنة (٥٥٠هـ) [١].

قيام الدولة الغورية فى أفغانستان والهند

سلطنة سيف الدين السورى

(٥٤٣-٥٤٤هـ/١١٤٨-١١٤٩م)

يعتبر الملك سيف الدين سورى بن الحسين المؤسس الحقيقى للدولة الغورية فى أفغانستان والهند. فقد اتخذ هذا الملك من حادثة مقتل أخيه قطب الدين محمد الغورى على يد بهرام شاه الغزنوى فى عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م، ذريعة للقضاء على حكم الدولة الغزنوية المتداعية للسقوط، فجمع قواته للثأر لأخيه وسار على رأسها نحو غزنة والتحم مع بهرام شاه فى معركة حامية الوطيس، فى جمادى الأولى ٥٤٣هـ، فانجلت هذه المعركة بهزيمة بهرام شاه وفراره إلى الهند ودخل سيف الدين الغورى غزنة وجلس على عرشها وضمها إلى أملاكه بالغور، ويعتبر استيلاء الملك سيف الدين السورى على غزنة في هذا التاريخ بداية سلطنة الملوك الغوريين المستقلة ، حيث عظمت قوتهم وعلا شأنهم وتركوا بلادهم الجبلية. [٢]

ويبدو أن الملك الجديد لغزنة قد إستقر حكمه بها، ففرق قواته عنه وأعادها إلى الغور، وفى الوقت نفسه كان بهرام شاه يرقب هذه الأحداث بتحفز فلما تأكد له عودة القوات الغورية إلى بلادها، انتهز فرصة

---

(١) إبن خلدون ، العبر، ح٤، ص ٥٢٤، عباس إقبال، نفس المرجع، ص ٢١١.

(٢) إبن الأثير ، الكامل ، ح ٩، ص ٣٥٧.

حلول فصل الشتاء لسنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م، وإمتلاء الطرق بين غزنة والغور بالثلوج وصعوبة الإتصال بينهما، وجهز قواته فى الهند لاستعادة ملكه المفقود فى غزنة، وجعل على مقدمته السلار بن الحسين وأمير هندوستان ابراهيم العلوى، فلما علم سيف الدين السورى بذلك، خرج للقائه فى جمع قليل من جنده الموجودين معه فى غزنة لصعوبة وصول الإمدادات إليه من الغور، فانفض عنه عسكر غزنة وانضموا إلى سيدهم السابق بهرام شاه، فوقعت الهزيمة بالملك الغورى ووقع أسيرا فى يد بهرام شاه الذى استقر بغزنة، فأمر بالتشهير به هو ووزيره السيد الماهيانى، وأركب كلا منهما ناقة وطاف بهما فى طرقات المدينة بإهانة بليغة وقد جلل وجهيهما بالسواد، وكان الناس يقذفونهما بالتراب والفضلات ثم قتلهما وصلبهما على باب غزنة، فأوقد بذلك نار الحقد عليه التى كانت مشتعلة قبل مقتل أخيه قطب الدين محمد الغورى. [١] ويصف ابن الأثير سورى بن الحسين بقوله إنه" كان أحد الأجواد، له الكرم الغزير والمروءة العظيمة، حتى إنه كان يرمى الدراهم فى المفاليع إلى الفقراء لتقع بيد من تقع، ومن يتفق له". [٢]

ولاية علاء الدين حسين الغورى (جهان سوز):

(٥٤٤-٥٥٦هـ/ ١١٤٨-١١٦٠م)

بعد مقتل قطب الدين محمد ملك الجبال على يد بهرام شاه، إنتقلت إمارة فيروز كوه إلى أخيه (بهاء الدين سام)، فقام بعقد علاقات ودية مع جيرانه الملوك المحليين بغرجستان وكان كل منهم يلقب باسم (شاز)، لكى

---

(١) إبن الأثير ، الكامل، ح ٩، ص ٣٥٧. إبن خلدون، العبر، ح٤، ص ٥٢٤، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام، ح ٤، ص ١٦٤، عباس إقبال، نفس المرجع، ص ٢١١-٢١٢.

(٢) إبن الأثير ، نفس المصدر والجزء والصفحة.

يأمن جانبهم ويحافظ على إستقلال إمارته من تطلعاتهم. فلما قتل سيف الدين السورى أجمع إخوته على رئاسته للغور لأنه أكبر أبناء الملك عزالدين حسين (رغم وجود الملك فخر الدين مسعود الأسن منه، والذى حرم من زعامة الغوريين لنفس السبب السابق ذكره). واستعد بهاء الدين سام بجيش ضخم يطلب به دم أخويه المقتولين على يد بهرام شاه وقصد غزنة. ولكنه مرض مرضا شديدا فى الطريق قبل الوصول إليها بسبب حزنه الشديد على أخويه القتيلين، ثم قضى نحبه متأثرا بمرض الجدرى، فأجمع الغوريون على سلطنة أخيه علاء ا لدين حسين بن حسين الغورى.

ولم يتقاعص علاء الدين الغورى عن نيل ثأر أخويه اللذين قتلا على يد بهرام شاه صاحب غزنة، بل أقسم بأغلظ الأيمان أن يقلب غزنة رأسا على عقب وأن يمحوا آثار الغزنويين، وأعد لذلك جيشا ضخما من شعب الغور وغرجستان وتوجه به إلى غزنة فىعام ٥٤٤هـ، فلما علم بهرام شاه بذلك عاد مسرعا من الهند لدفعه بأفيال وجيش عظيم، وقاتل علاء الدين قتالا شديدا وامتدت المعارك بينهما إلى عدة مواضع فى سجستان، وبين سجستان وغزنة ، وأخيرا بالقرب من غزنة، وفى المرات الثلاثة تحقق النصر لعلاء الدين الغورى، فلاذ بهرام شاه إلى الهند وإستحوذ علاء الدين على عاصمة الغزنويين وأنزل بأهلها العقاب الصارم، فأعمل السيف ليل نهار سبعة أيام فى رقابهم ونهب المدينة وجعلها طعمة للنيران مدة أسبوع، وأحرق الكتب التى كان السلطان مسعود قد حملها إلى غزنة من خزائن علاء الدولة صاحب أصفهان فى عام (٤٢٥هـ)، [1] وسوى بآثار الغزنويين وعمائرهم الأرض، ثم أ خرج أجساد السلاطين الغزنويين عدا أجساد محمود ومسعود وإبراهيم، وأشعل

---

(١) إبن خلدون ، العبر، ج٤، ص ٥٠٠.

فيها النار، ثم أخرج جسدأخويه وعاد إلى الغور عن طريق (بست)، فعرج عليها وأمر بتخريب عمائر الغزنويين وأبنتيهم بها أيضا، ولقب علاء الدين بعد إحراق غزنة بلقب (جهان سوز) أى محرق الدنيا، ملك الدنيا والدين. [١]

لكن على الرغم من هذه المآسى التى حلت بغزنة على أيدى الغور لم يصب الأدب بسوء، بل على العكس من ذلك كان محل تقديرهم . فقد ذكر (نظامى عروضى السمرقندى) أن علاء الدين الغورى حين أمر بنهب غزنة وتخريب عماراتها "اشترى مدائح محمود ومسعود وإبراهيم (الغزنويين) بالذهب وخبأها فى خزانة كتبه". ولم يجرؤ أحد فى عسكر علاء الدين فى هذه المدينة المنكوبة أن يطلق على ملوك الغور لقب سلاطين. ولعل موقف علاء الدين هذا من رفات السلاطين محمود ومسعود وإبراهيم ومدائحهم، إنما يعود لتقديره هو شخصيا لهؤلاء السلاطين العظام ودورهم فى نشر الإسلام فى هذه البقاع وتحقيقهم العدل والأمن لرعاياهم، ويدل على ذلك أيضا أنه كان دأب القراءة فى الشاهنامة ماقاله مؤلفها الفردوسى فى مدح السلطان محمود " أول ماينطق به الطفل الرضيع فى مهده "محمود" (الغزنوى) تتمثل فى جسمه صولة الفيل ، وفى روحه علم جبريل، وفى كفه مطر الربيع، وفى قلبه نهر النيل، ملك العالم محمود، ذو العزة القعساء الذى جمع بين الذب والحمل على مورد الماء". [٢]

---

(١) إبن الأثير، الكامل، ح٩،ص ٣٧٦، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٢١٢-٢١٣.

(٢) ترجم الأستاذ براون أرجوزة نظامى عروضى: (جهار مقاله) إلى الانجليزية، كما ترجمت أيضا إلى اللغة العربية (بعناية عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٩).

فرض علاء الدين الغورى سيطرته على جبال الغور ومدينة فيروزكوه فاستفحل ملكه واستعمل العمال، وكان فيمن ولاه بلاد الغور إبنا أخيه سام بن الحسين، وهما غياث الدين وشهاب الدين، فأحسنا السيرة فى عملهما واستمالا الأهالى بالعدل، وبذلا الأموال فأحبهما الناس وانتشر ذكرها فى الآفاق [(١)] . وطمع علاء الدين الغورى بعد ذلك فى ملك خراسان فبعث جيوشه إلى هراة باستدعاء أهلها، فحاصرتها حصارا طويلا ثم ملكها بالأمان، غير أن قواته نهبت (تاب وأوبة ، ومارباد) ويتضح من رواية لإبن الأثير أن غزو علاء الدين الغورى لهراة كان لحساب السلطان سنجر السلجوقى فى الظاهر، بينما كان يبطن غير ذلك، فبعد أن دخلها خطب فيها لهذا السلطان. غير أن علاء الدين الغورى طمع فيما يبدو فى مد سلطانه على حساب أملاك السلاجقة، فزحف إلى بلخ وبها الأمير (قماج) من قبل السلطان سنجر، واستمال كبار حاشيته فغدروا به وملك علاء الدين بلخ. ثم أعلن عصيانه لسلطان سنجر السلجوقى وإمتنع عن إرسال التحف والهدايا التى كان يرسلها سنويا من بلاد الغور إلى بلاطه. ولما علم السلطان سنجر بذلك خشى ازدياد نفوذه وزحف إليه فى عام ٥٤٧هـ، وقاتله وقتل من الغورية خلقا كثيرا ولاسيما الرجالة، وظفر به عند مدينة (أوبه) وأسره، غير أنه عاد وعفى عنه وأخلى سبيله وعامله بقدر كبير من الشهامه والرقة والعقل، [(٢)] وعندما حضر علاء الدين

---

(١) إبن الأثير ، الكامل ، ح ٩، ص ٣٧٧.

(٢) يقول إبن الأثير (الكامل، ح ٩، ص ٣٧٦) إن السلطان سنجر أحضر علاء الدين بين يديه وقال له "ياحسين لو ظفرت بى ماكنت تفعل، فأخرج له قيد فضه وقال: كنت أقيدك بهذا وأحملك إلى فيروزكوه، فخلع عليه سنجر ورده إلى فيروزكوه"، إبن خلدون ، العبر، ح ٤، ص ٥٢٤-٥٢٥.

مجلس السلطان، وهبه سنجر طبقا كان أمامه مليئا بالجواهر القيمة، وإرتجل شعرا يمدحه به، فقال (الأبيات مترجمة إلى العربية): [١]

أسرنى الشاه ولم يقتلنى — مع أنى أستحق القتل يقينا
بل وهبنى طبق در ثمين — وهكذا كان عفوه وجوده فى الأولى والثانية

وقد اختاره السلطان سنجر أولا لمنادمته، ثم أعاده إلى قاعدة ملكه فى الغور (فيروز كوه).

وفى أثناء غياب علاء الدين الغورى أسيرا ونديما فى بلاط سنجر السلجوقى، أضمر بعض أمراء الغور الحسد لإبنى أخيه سام (غياث الدين وشهاب الدين)، وعند عودة علاء الدين إلى حاضرته أوغروا صدره عليهما وإدعوا عصيانهم له، ورموهما بتدبير قتله والإستيلاء على ملكه. فأراد علاء الدين أن يمتحن طاعتهما قبل أن يقمعهما، فأرسل فى طلبهما فامتنعا عن الحضور، إذ نمى إليهما الخبر بما دبره لهما حاشية السوء، فأرسل إليهما عمهما جيشا بقيادة (خروش الغورى) فأنزلا به الهزيمة وأسر قائد الجيش، فأبقيا عليه وأحسنا إليه وخلعا عليه، وعندئذ أظهر غياث الدين وشهاب الدين العصيان لعمهما وقطعا الخطبة له على منابر أعمالهما، ولم يجد علاء الدين بدا من السير إليهما بنفسه ، فقاتلاه قتالا شديدا حتى إنهزم فطلب منهما الأمان لنفسه فأمناه وأحسنا معاملته وأجلساه على العرش وتفانوا فى خدمته، "فبكى علاء الدين وقال: هذان صبيان قد فعلا مالو قدرت عليه منهما لم أفعله"، فكافأهما وزوج أحدهما

---

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الاسلام، ص ٢١٣.

وهو غياث الدين إحدى بناته وقلده ولاية عهده، ولكنه تغير عليهما بعد مدة وسجنهما. وبعدما أمن جانبيهما إنشغل علاء الدين الغورى بالفتح، فتمكن من فتح بعض قلاع سجستان وطخارستان ووادى نهرمرغاب، وفي نهاية عمره لبى دعوة الدعاة الإسماعيلية، ثم توفى بعد هذا بقليل فيعام ٥٥٦هـ/١١٦٠م. وكان كما وصفه (إبن الأثير) من أحسن الملوك سيرة فى رعيته. (١)

ولاية سيف الدين محمد بن علاء الدين الغورى:

(٥٥٦-٥٥٨هـ/١١٦٠-١١٦٢م)

وبعد وفاة علاء الدين (جهان سوز) خلفه إبنه السلطان سيف الدين محمد على عرش الغور وفيروزكوه، وفى عهده نشط دعاة الإسماعيلية وكثر أتباعهم، وكان هؤلاء الدعاة قد دعوا السلطان السابق علاء الدين الغورى ووجدوا منه عطفا نحوهم، غير أن سيف الدين الغورى شعر بخطورة دعوتهم وعمد إلى القضاء عليهم فى بداية حكمه، وأمر بقتلهم حيث وجدوا فى بلاده. وقد تبادل المراسلات والهدايا مع الملوك والأمراء الذين خطب ودهم ومودتهم، كما أطلق سراح إبنى عمه غياث الدين محمد وشهاب الدين محمد من حبسهما. (٢)

---

(١) إبن الأثير ، الكامل ، ح٩، ص ٣٧٦-٣٧٧، ٤٤٧-٤٤٨،إبن خلدون ، العبر، ح٤، ص ٥٢٥، حسن ابراهيم حسن ، المرجع السابق ، ح ٤، ص ١٦٧.

(٢) إبن الأثير ، الكامل ، ح ٩، ص ٤٤٨.

ولم يمكث سيف الدين محمد فى سلطنة الغور طويلا، فقد صار فريسة هجوم الترك الغز ولم تنقض مدة طويلة من حكمه (حوالى سنة وعدة أشهر)، فقد قام هؤلاء الترك بالإستيلاء على خراسان وسجستان وكرمان [١] من أملاك سنجر السلجوقى وذلك فى أواخر حكمه، وأطلقوا أيديهم فى نهب جميع النواحى المجاورة ومنها أملاك الغوريين فى غرجستان، فأعد سيف الدين محمد العدة لقتالهم وسار على رأس جيش لحربهم (ببلخ) وخرج فى ركابه جماعة من خاصته ، وسمع أمراء الغز بذلك، فألحوا فى طلبه وأوقعوا به فقاتلهم، ووقعت خيانة فى صفوف جيشه أودت بحياته، فقد كان قائد جيش الغور يحقد على السلطان قتله أخاه، فرمى السلطان برمح فى صدره فخر صريعا من على جواده، فأجهز الغز على جيشه وقتلوا منه الكثير وذلك فى شهر رجب سنة ٥٥٨هـ. وأسر بعض آخر وهرب الباقون ولحق عسكره ببلادهم، وكان سيف الدين عند مصرعه فى العشرين من عمره. وكان عادلا حسن السيرة، "فمن عدله وخوفه عاقبة الظلم أنه لما حاصر أهل هراة وملكها، أراد عسكره أن ينهبوها فنزل على درب المدينة وأحضر الأموال والثياب فأعطى جميع عسكره منها، وقال هذا خير من أن تنهبوا أموال المسلمين، وتسخطوا الله تعالى، فإن الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم". [٢]

---

(١) وهى مدينة بين غزنة والهند ، وسكانها قوم يقال لهم أبغان، وهى على إسم كرمان المعروفة وليست هى (إبن الأثير ، ح ٩، ص ٣٧٦).

(٢) إبن الأثير، الكامل، ح ٩ ، ص ٤٦٢.

ولاية غياث الدين محمد بن سام الغورى:

(٥٥٨ـ ٥٩٩هـ/١١٦٢ـ١٢٠٣م)

بعد مصرع السلطان سيف الدين محمد رفع الأمراء الغوريون إبن عمه وصهره غياث الدين أبا الفتح محمداً بن سام على العرش، فخطب له على منابر الغور وغزنة. [1]وفى بداية حكمه واجه السلطان الجديد ثورة عمه الأكبر فخر الدين مسعود بن حسين الذى كان يحكم طخارستان وباميان منذ عام ٥٥٠هـ من قبل علاء الدين جهان سوز، ورغم أن فخر الدين كان أكبر أبناء (أبى السلاطين) عز الدين حسين ولم يبق من ولده السبعة غيره، لكنه لم يتولى سلطنة الغوريين، فظن أن الفرصة مواتية بعد وفاة إبن أخيه سيف الدين محمد بن علاء الدين لضم أملاك الغوريين إلى سلطانه، ومن أجل تنفيذ حلمه القديم عقد تحالفات سياسية وعسكرية مع أعداء الغوريين، مثل الأمراء التابعين للسلطان سنجر والذين أذاقوا مرارة الهزيمة على أيدى الغزنويين، مثل الأمير قماج حاكم بلخ والأمير تاج الدين يلدز والى هراة، وإتجه المتحالفون إلى فيروز كوه لتقويض دعائم حكم السلطان الجديد.

واستعد السلطان غياث الدين وأخوه شهاب الدين لمواجهة هذا التحالف، والتقوا مع تاج الدين يلدز الذى كان أسبق الحلفاء وصولا إلى فيروزكوه فى معركة طاحنة فقتلاه وفرقا جنده، ثم عاجلا الأمير قماج بالهجوم وهزماه أيضا وأرسلا رأس يلدز وعلما من أعلام جيش قماج إلى باميان مقر حكم عمهما فخر الدين مسعود، فاضطرب الأخير لهذا الموقف إضطرابا شديداً وعزم على العودة إلى طخارستان، لكن الغوريين تقاطروا

---

(١) إبن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٧٧.

عليه وعاجلوه بعد الفرار وأسروه، إلا أن إبنى أخيه عاملاه بكل التواضع والإحترام وأعاداه إلى إمارته باميان كما كان قبل تمرده عليهم. (١)

وبعدما تخلص غياث الدين من ثورة عمه فخر الدين مسعود وإستتبت له الأمور بالغور وقوى أمره، إستعد لتحرير أملاك الغوريين التى استولى الأتراك الغز عليها، منذ خمس عشرة سنة (٥٥٥هـ) فجمع جيشا جرارا يتكون من الغورية والخراسانية والخلج وجعل على قيادته أخيه شهاب الدين، فسار إليهم فى عام ٥٦٩هـ وقاتلهم وهزمهم واستخلص غزنة منهم وكانوا قد حكموها خمس عشرة سنة أذاقوا فيها أهلها ألوان التعذيب وعاملوهم معاملة قوامها الظلم والجور والعسف. ثم سار شهاب الدين الذى إشتهر بحسن سيرته وعدله إلى كرمان (وهى بين غزنة والهند وليست كرمان المشهورة) وعبر نهر السند واستولى على بعض بلادها الجبلية مثل شنوران، كما استصفى غياث الدين هراة أيضا فى عام ٥٧١هـ من يد أحد عبيد سنجر السلجوقى السابقين، وطوع إليه أيضا بوشنج وسجستان وجوزجانان ومروالروذ، ووسع حدود دولة الغوريين من ناحية الغرب والجنوب الغربى سعة عظمى. (٢)

وفى سنة ٥٧٩هـ ، سار شهاب الدين على رأس جيش كثيف من الخراسانيين والغور، فعبر نهر السند وحاصر لاهور وبذل الأمان لخسروشاه وأنكحه إبنته وسوغه مايريد من الإقطاعات، على أن يخرج إليه ويخطب لأخيه السلطان غياث الدين محمد فرفض ذلك، وبقى شهاب

---

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٢١٥.

(٢) إبن الأثير، الكامل، ح ٩، ص ٣٧٨، إبن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٢٥، عباس إقبال، نفسه، ص ٢١٥، ومرو الروذ ناحية واسعة بين الغور وغزنة، وينسب إليها القاضى الإمام العالم الفاضل حسين المروروذى عديم النظر فى العلم والورع (القزوينى، آثار البلاد، ص ٤٥٥).

الدين يحاصره حتى أعياه الحصار وخذله أهل البلد، فبعث وفداً من أهل لاهور على رأسه خطيب وقاضي المدينة يستأمنان له فأمنه شهاب الدين الغورى، ودخل البلد واستولى عليها من يد صاحبها الغزنوى خسروشاه بن بهرام (٥٥٥-٥٨٢هـ/١١٦٠-١١٨٦م) وأحسن معاملته وبقى خسروشاه عنده مكرما، ثم طلب أخوه غياث الدين محمد إرسال خسروشاه إليه، فارتاب من ذلك فأمنه شهاب الدين وحلف له وبعث به وبأهله مع جيش يحفظونهم، فلما وصلوا بلاد الغور أمر به فقتل في إحدى القلاع. وبذلك زالت الدولة الغزنوية على يد شهاب الدين الغورى سنة ٥٨٢هـ(١١٨٦م) ، وتداعى سلطان الغزنونيين فى الهند بعد مائتى وثلاث عشرة سنة تقريبا، وانقسمت دولتهم إلى دويلات إسلامية مستقلة. وكان سلاطين الغزنونيين كما ذكر إبن الأثير[١] " من أحسن الملوك سيرة، ولاسيما جدهم محمود (الغزنوى) فإن آثاره فى الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهورة".

لو كان يقعدُ فوق الشمس من كرمٍ   قومٍ بآبائهم أو مجدهم قعدوا"

استقر سلطان غياث الدين الغورى وقوى أمره واتسعت رقعة مملكته وكثر عدد جنده، وأصبح بحيث يستطيع أن يعلن نفسه سلطاناً على البلاد. لذلك نراه يبعث إلى أخيه شهاب الدين يأمره بإقامة الخطبة له بالسلطنة على منابر الهند حيث استقر سلطان الغور فى لاهور، وبعد أن كان لقب غياث الدين محمد "شمس ا لدين"، أصبح الأن يلقب بألقاب

---

(١) إبن الأثير، الكامل ، ح ٩، ص ٣٧٩.

"غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين"، كما تقلب أخوه شهاب الدين بلقب عز الدين. (١)

الصراع الغورى الخوارزمى:

فى الوقت الذى كان السلطان غياث الدين وأخوه الملك شهاب الدين يقومان بهذه الفتوحات العظيمة فى خراسان والهند، كانت الأسرة الخوارزمشاهية القوية الناهضة قد أعلنت عن وجودها ورفعت شعار القوة والسلطنة فى خوارزم وبلاد ماوراء النهر وخراسان، وأسسوا فى هذه المناطق دولة فتية فاقت دولة الغوريين فى القوة والعظمة خاصة فى عهد حاكمها السلطان (علاء الدين تكش ٥٦٨هـ/٥٩٦هـ) وكان معاصراً للأخوين غياث الدين وشهاب الدين، وقد حاز هذا السلطان شهرة وقوة فوق العادة بسبب فتوحاته العظيمة ، وكان سلطان خوارزم يجاور سلطنة الغوريين من ناحية خراسان وجوزجانان.

وفى عام ٥٨٦هـ أخذ جلال الدين محمود سلطانشاه أخو علاءالدين تكش سلطان خوارزم (وكان قد عصا أخاه واستولى على حدود مرو الرود وبنجده وهى حدود ملك الغوريين) يهاجم بلاد الغوريين على الرغم من حسن العلاقات بينهما فأرسل السلطان غياث الدين جيشا لردهم أكثر من مرة، وفى احدى المعارك بين الطرفين نجح شهاب الدين وملك شمس الدين بن فخر الدين مسعود أمير باميان وتاج الدين ملك نيمروز عام ٥٨٨هـ فى تطويق جيش سلطان شاه، فأصابوه بهزيمة فادحة بالقرب من شاطئ نهر مرغاب، فلاذ بالفرار.

---

(١) إبن الأثير الكامل ح ٩، ص ٣٨٠، إبن خلدون ، العبر، ح ٤، ص ٥٢٦.

وبعد وفاة السلطان علاء الدين خوارزم شاه وولاية إبنه علاءالدين محمد في عام ٥٩٦هـ ، ظن الغوريون أن الفرصة مواتية للإستيلاء على خراسان، فجهزوا جيشا ضخما وهاجموا مدن خراسان الهامة مثل أبيورد ونسا وسرخس ومرو وطوس وهى صلب مدن الدولة الخوارزمية وكان ذلك فى عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، ثم تقدموا حتى حدود قهستان وجزجان وبسطام، [١] وأضحت خراسان مرة واحدة موطئ الجند الغورى، ولقد تحقق للغوريين كل هذه ا لإنتصارات بفضل تحالفهم مع إبن أخى علاء الدين محمد خوارزم شاه، وبعد أن اغتصب غياث الدين هذه البلاد الخوارزمية أقطعها بعض أتباعه ثم رحل إلى أملاكه فى بلاد الهند.[٢]

تقدمت الجيوش الغورية بعد ذلك نحو نيسابور وأرسلوا إلى (على شاه) نائب علاء الدين محمد خوارزمشاه بها. ينذروه بالحرب إن امتنع من الطاعة وسلم لهم المدينة، فرفض الإنذار واستعد للحصار، وزحفت الجيوش الغورية نحو المدينة وخرّبوا العمائر بظاهرها وقطعوا الأشجار، وحمل (محمود بن غياث الدين) على الأسوار وضايق أهلها، ونجح فى أن يستولى على بعض أسوارها ورفع راية أبيه السلطان غياث الدين عليها، وفى الوقت نفسه حمل شهاب الدين من الناحية الأخرى للأسوار، فسقطت بين يديه وملك البلد ونهب جنوده عامتها، ثم نادوا بالأمان ورفع النهب،

---

(١) بسطام مدينة كبيرة بقومس بقرب دامغان، وينسب إليها سلطان العارفين أبو يزيد تيغور بن عيسى البسطامى صاحب العجائب (القزوينى، آثار البلاد، ص ٣٠٨).

(٢) إبن الأثير، الكامل، ح ٩، ص ٣٨٠، إبن خلدون ، العبر، ح٤، ص ٥٣٣، حافظ أحمد حمدى، الدولة الخوارزميةوالمغول، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٤٩، ص٣٣.

واعتصم الخوارزميون بالجامع فأخرجهم أهل البلد وسلموهم لغياث الدين.(١)

ثم اتجه الغوريون بقيادة شهاب الدين إلى (هستان) بعدما علموا بوجود قرية بالقرب منها معظم أهلها إسماعيلية، فدخلها وقتل المقاتلين وسبى الذرية وخرب القرية، ثم سار إلى مدينة (كناباد) وكان جميع أهلها من الاسماعيلية فضرب حولها الحصار. وكانت أعمال شهاب الدين الوحشية مع الاسماعيلية رغم عقد الصلح معهم سبباً فى حدوث جفوة بين غياث الدين وشهاب الدين، فقد أرسل صاحب قهستان إلى غياث الدين بشكوى يستغيث من شهاب الدين ويذكرونه بالعهد الذى أبرم بينهما. وبينما كان شهاب الدين مشغولا بحصار (كناباد) أتاه رسول أخيه السلطان غياث الدين يطلب إليه الرحيل من قهستان وفك حصار كناباد، فأبى فانفذ الرسول أمر السلطان باجباره على العودة كرها وسل سيفه وقطع حبال سرادق شهاب الدين، فرحل الأخير مع عسكره غاضبا وأبى المقام فى غزنة ورحل إلى بلاد الهند، فغزاها فى عام ٥٩٨هـ وهزم الهنود عند نهر واكد واستباحهم وملك المدينة عنوة، ثم صالح ملكها على جزية يؤديها إليه، ثم عاد إلى غزنة.(٢)

وفى ذى الحجة من ٥٩٧هـ هاجم السلطان خوارزم شاه الغوريين على مقربة من نيسابور وهزمهم، فطلب غياث الدين وشهاب الدين عفوه فعفا عنهما ورحلا عن خراسان. ولكنهم عاودا الهجوم على خراسان فى عام ٥٩٨هـ/١٢٠١م ، وطلبوا من خوارزم شاه تسليمهم قطعة من

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٧٢-٢٧٣.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٧٣، إبن خلدون، العبر، ح٤، ص ٥٣٣-٥٣٤، الساداتى ، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية، ص ١١٣.

خراسان فرفض، فاتخذوا من رفضه ذريعة لقتاله وهاجم الملك شهاب الدين مدينة طوس وأضر أهلها كثيرا. ويذكر إبن الأثير أن علاء الدين خوارزم شاه بعد أن تخلص من متاعبه والأخطار التى أحاطت بدولته عقب وفاة أبيه، أرسل فى سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م ، إلى السلطان غياث الدين كتابا يعتب فيه عليه ويؤنبه، وقد جاء فى هذا الكتاب "كنت اعتقد أن تخلف علىّ بعد أبى وأن تنصرنى على الخطا، وتردهم عن بلادى، فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لاتؤذينى وتأخذ بلادى، والذى أريده أن تعيد ما أخذته منى إلىّ، وإلا إنتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الأتراك، إن عجزى عن أخذ بلادى، فإننى إنما شغلنى عن منعكم عنها الإشتغال بعزاء والدى وتقرير أمن بلادى، وإلا فما أنا بعاجز عنكم وعن أخذ بلادك خراسان وغيرها"، [١] وتجدر الإشارة إلى أن السلطان غياث الدين لما بلغه وفاة خوارزم شاه أمر كما يذكر إبن الأثير" أن لاتضرب نوبته ثلاثة أيام، وجلس للعزاء على مابينهما من العداوة والمحاربة، وفعل ذلك عقلا منه ومروءة". [٢]

ولما وصلت هذه الرسالة إلى السلطان غياث الدين صانع سلطان خوارزشاه حتى يحضر شهاب الدين من غزوة الهند ، غير أن صاحب خوارزم على مايبدو طمع فى غياث الدين وأراد استغلال فرصة غياب أخيه شهاب الدين، وأرسل إلى نائب الغوريين فى خراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور ويتهدده إن لم يصدع لأوامره، فكتب صاحب خراسان بذلك إلى مولاه غياث الدين وأوضح له أن أهل نيسابور يميلون إلى الخوارزمية، فوعده السلطان الغورى بالنصر، وقد أتبع السلطان

---

(١) إبن الأثر، الكامل ، ح ١٠ ، ص ٢٧٧، إبن خلدون، نفسه ، ٤٣، ص ٥٣٤، حافظ أحمد حمدى، الدولة الخوارزمية، ص ٣٣-٣٤.

(٢) إبن الأثير، الكامل ، ح ١٠، ص ٢٦٦-٢٦٧.

الخوارزمي كتبه بعدة حملات عسكرية على البلاد الخراسانية، فقد خرج على رأس قواته في عام ٥٩٩هـ/١٢٠٢م نحو خراسان، فلما وصل إلى نسا وأبيورد هرب هندوخان إبن أخيه ولحق بغيّاث الدين في فيروزكوه، فملك خوارزمشاه مرو وسار إلى نيسابور وحاصرها شهرين، فلما أبطأ عن حاكمها الغوري وصول الإمدادات من فيروزكوه شعر بصعوبة موقفه وعدم جدوى المقاومة، ولذلك إستأمن لصاحب خوارزم وخرج إليه هو وأصحابه فأحسن إليهم، وطلب علاء الدين صاحب خوارزم من هذا الوالي أن يسعى في الصلح بينه وبين السلطان الغوري غياث الدين وأخيه شهاب الدين فوعده بذلك.(١)

سعى صاحب خوارزم لصلح الغوريين، واصطنع أحد أعيان الدولة الغورية ويدعى الحسن بن خرميل ليكون مع صاحب خراسان في طلب الصلح عند غياث الدين. ورحل لفتح بعض المدن مثل سرخس وغيرها، ثم عاد إلى بلده، ومن عاصمة ملكه أرسل مرة أخرى إلى السلطان غياث الدين الغوري في طلب الصلح ، فواق هذه المرة وأرسل أميرا من أكابر الدولة الغورية يدعى (الحسن بن محمد المرغني نسبة إلى مرغن أحدى قرى الغور) لعقد الصلح، ولما وصل هذا الوسيط عند خوارزمشاه تبين غدره وقبض عليه وسجنه، وسار (خوارزمشاه) إلى هراة وحاصرها، فلما وصلت هذه الأخبار إلى السلطان غياث الدين صمم على معاقبة سلطان خوارزمشاه الغادر، وأرسل عساكره مددا لهراة مع إبن أخته (ألب غازي) فنزل على خمسة فراسخ منها، ثم خرج بنفسه على رأس قواته إلى هراة ليمنع سقوطها في يد خوارزمشاه الذي كان يضرب حولها الحصار منذ أربعين يوما، فلما علم خوارزمشاه بذلك توقع وصول شهاب

---

(١) ابن الأثير، الكامل ، ح ١٠، ص ٢٧٧،إبن خلدون، العبر، ح٤، ص ٥٣٤-٥٣٥.

الدين الغورى من الهند وبالتالى لحاقه بـهراة، أدرك خوارزمشاه صعوبة الاستيلاء على هراة فأرسل إلى أميرها وصالحه على مال يؤديه إليه، وفك الحصار وارتحل عنها، وبلغ الخبر شهاب الدين فخرج على رأس قواته إلى طوس فى طريقه إلى خوارزم لحصارها، فجاء الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فأثنى عزمه وسار إلى هراة ومنها إلى مرو، لكن جند خوارزمشاه أحاطوا به فيها، فلاذ منهزما بالفرار إلى الغور. (١)

ومع أحد أسباب صراع الغوريين والخوارزمشاهيين الرئيسة هو المجاورة وطمع أحدهما فى الاستيلاء على بلاد الآخر ، إلا أن عاملا آخر أوسع من دائرة نيران هذا القتال والجدال وهو الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ) لأنه كان يعيش فى عداء شديد للخوارزمشاهيين من عهد استيلاء علاء الدين تكش على إيران الغربية وتفكيره في القضاء على دولته، ولكي يأمن شر هجوم الخوارزميين كان يبعث بالهدايا الفاخرة والرسل إلى غياث الدين الغورى ويحرضه على مهاجمة بلاد خوارزم شاه كا وقع فى (٥٩٤هـ) حين أوعز الناصر إلى غياث الدين الغورى بالحملة على بلاد خوارزم شاه بعد أن استخلص علاء الدين تكش بلاد الرى وهمدان وأصفهان من يد عمال الخليفة وصار معارضاً له ليجبر الغورى تكش على العودة إلى خوارزم. وعاد تكش إلى خوارزم ولكى ينتقم من الغوريين تحالف مع الأتراك القراختائيين الذين يحكمون فى كاشهر وكانت ماوراء النهر تابعة لهم أيضا وحثهم على مهاجمة بلاد الغوريين وقصد هو بنفسه طوس بهدف ضم هراة. لكن قادة الغوريين هزموا القراختائيين وتصالح خوارزم شاه مع الغوريين. وفى عهد السلطان محمد خوارزم شاه

---

(١) إبن الأثير، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٨-٢٧٩، ٢٨١، ، إبن خلدون، العبر، ج ٤ ، ص ٥٣٦.

ورث نفس معاملة أبيه للخليفة، مما جعل الخليفة يعاود تحريض غياث الدين وشهاب الدين على ملك خوارزم فتتابعت غزوات هذين الأخوين على خراسان وخوارزم وأكثرها كان بتحريض الناصر، ولم يتورع هذا الخليفة المخادع فى عدائه للخوارزميين وعناده لهم، عن تحريض الكفار القراخطائيين والمغول وفى النهاية سقطت أسرته بيد المغول الذين دعاهم إلى البلاد الإسلامية بنفسه. [١]

وفاة السلطان غياث الدين محمد:

توفى غياث الدين الغورى سنة ٥٩٩هـ وقد اتسع ملكه. وكان كما وصفه إبن الأثير [٢] ، مظفرا منصورا فى حروبه لم تنهزم له راية قط. وكان جوادا حسن الاعتقاد كثير الصدقات، وقد شيد الخانقاهات فى الطرق، وأسقط المكوس ولم يتعرض إلى مال أحد من الناس. وكان من عادته إذا مات غريبا فى بلده لايتعرض لتركته حتى يأتى وارثه ويأخذها ومن مات ببلده أودع ماله ليوزعه القضاة على مستحقيه طبقا لقواعد الشريعة الإسلامية. وإذا وصل إلى بلد من البلاد عم إحسانه الفقهاء وأهل الورع والدين وخلع عليهم وفرض لهم العطايا فى كل سنة من خزانته، كما وزع الأموال على الفقراء. وكان يشمل بعطفه ورعايته كل من وصل إلى حضرته من العلويين والشعراء وغيرهم. وقد أولع بالأدب والبلاغة وعرف بحسن الخط حتى كان ينسخ المصاحف بخطه ويقفها على المدارس التى بناها. وعلى الرغم من ميل غياث الدين محمد إلى عقائد

---

(١) عاصر إبن الأثير صاحب الكامل الخليفة الناصر واتهمه بالظلم وقبح السيرة وأنه أطمع التتر فى بلاد المسلمين، لمزيد من التفاصيل: أنظر الكامل فى، ح١٠، ص ٤٥٣.

(٢) إبن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٦٤،٢٨٢-٢٨٣، القزوينى، آثار البلاد، ص ٤٣٠،إبن خلدون ، العبر ، ح ٤، ص ٥٣٧.

المذهب الشافعى وبناءه المساجد لاصحاب هذا المذهب، لم يؤثر أصحاب مذهب على مذهب، بل كان يسوى بينهم وبين غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى، كما أثر عنه أنه تحول إلى هذا المذهب ـ بعدما كان يدين بالكرامية ـ على يد محمد بن محمود المروروزى، وكان من فقهاء الشافعية. وكان غياث الدين يقول: التعصب فى المذاهب من الملك قبيح.(١) وكان (فخر الدين مباركشاه) المروروذى أهم وأكبر شعراء عصر السلطان غياث الدين، ولقد شرع هذا الشاعر فى نظم تاريخ سلاطين الغوريين ونسبهم على وزن شاهنامة الفردوسى علاء الدين جهان سوز ثم أتمه باسم غياث الدين.

ولاية شهاب الدين محمد الغورى:

(٥٩٩ـ٦٠٢هـ/ ١٢٠٢ـ١٢٠٥م)

بعد وفاة السلطان غياث الدين محمد كان إبنه محمود الذى حمل نفس لقب أبيه، ينتظر أن يترك عمه شهاب الدين محمد سلطنة الغور له، إلا أن شهاب الدين حال دون تولية محمود السلطنة خلفا لأبيه، وجلس هو على العرش واتخذ لنفسه لقبا جديد هو معز اندين، ولكنه لم يحرم إبن أخيه من الرناسة فلقده إمارة بست وإسفرايين ليبعده عن التطلع إلى العرش فى الغور. غير أن السلطان الجديد على مايبدو لم ينس إساءة أخيه السلطان السابق غياث الدين له عندما كان يحاصر إحدى قرى قهستان، وصب جام غضبه على أسرته بعد وفاته؛ فالروايات تذكر أن غياث الدين كان كلفا باحدى مغنياته فتزوجها، فلما مات غياث الدين قبض

---

(١) إبن الأثير ، الكامل ، ح١٠ ، ص ٢٦٤، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ٤؛، ص ١٦٩.

عليها شهاب الدين وضربها ضربا مبرحا وضرب ولدها غياث الدين محمود وزوج أختها، واستولى على أموالهم وممتلكاتهم ثم نفاهم إلى الهند فى أقبح صورة ونبش قبور موتاهم ورمى بعظامهم. [١]

فتح الهند (٥٧١ـ ٦٠٢ هـ):

ويعتبر السلطان معز الدين محمد بن سام أو الملك شهاب الدين السابق هو أعظم ملوك الغور من كل جانب فقد تحققت فى أيامه أعظم وأكبر فتوحات الغوريين مع أنه لم يحكم سوى سنتين وشهر واحد، هذا فضلا عن حروبه بخراسان وخوارزم.

وبعد فتح لاهور انقلب شهاب الدين محمد من هذه المدينة إلى الهند الوسطى أى ولايتى راجبوتانا وأجره على رأس قوات عظيمة من الغورية والخلج والخراسانية، فالتقوا وإقتتلوا، لكنه هزم فى المنطقة الأخيرة، ومع شدة تجلده وحنكته فقد كان أدنى إلى أن يلقى حتفه. فقد تلقى ضربة أقعدت يده اليسرى عن الحركة، وضربة آخرى على رأسه سقط منها إلى الأرض، وفى عاقبة الأمر أنجاه أتباعه وآب شهاب الدين حانقا متأثرا إلى أجره، وأمر من شدة الغضب أن يقيد الأمراء الغوريين الذين انهزموا فى هذه الحرب أمام مخالى خيلهم المملوءة شعيرا، وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم، فأكلوه خوفا على حياتهم، وعاملهم باذلال، ويقال أنه من تاريخ هذه الهزيمة حتى فوزه فى (٥٨٨هـ) بالانتقام مما حل به كان يتحاشى فى هذه الفترة أن يستبدل قميصه أو أن ينام مع زوجته. وكان الحاكم على جميع الراجات الذين حاربوا المسلمين إمرأة

---

(١) إبن الأثير ، الكامل ، ح ١٠ ، ص ٢٨٢ ، إبن خلدون ، العبر، ح ٤ ، ص٥٣٦ ـ ٥٣٧، حسن ابراهيم حسن ، نفسه ، ح ٤ ، ص ١٧٠.

هي أكبر من ملوكهم كما يذكر إبن الأثير. (١) ولعل هذه الملكة هي الراجا الذى ذكره عباس إقبال والدكتور الساداتى باسم (بريت وى) ووصفه بأنه القائد العسكرى الذى هزم الغوريين. (٢)

وفى (٥٨٨هـ) هاجم شهاب الدين محمد بجند كثيف أمده به السلطان غياث الدين أجرة منطلقا من غزنة وفى (تانى سر) على اثنين وتسعين ميلا شمال غربى (دهلى) أصاب بريت وى وقد خف مائة وخمسون أميرا هنديا لموازرتها بهزيمة فادحة أسرت فيها (بريت وى) ثم قتلت وحاز الغوريون غنائم كثيرة من بينها أربعة وعشرون فيلا حربيا. ويعلق إبن الأثير على هذه المعركة بقوله " وتمكن شهاب الدين- بعد هذه الوقعة - من بلاد الهند، وأمن معرة فسادهم، وإلتزموا له بالأموال، وسلموا إليه الرهائن وصالحوه، وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دهلي وهى كرسى الممالك التى فتحها من الهند، فأرسل عسكرا من الخلج مع محمد بن بختيار، فملكوا من بلاد الهند مواضع ماوصل إليها مسلم قبله، حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق". (٣)

وقد جعل فتح تانى سر سائر الهند الشمالية حتى وسطها تحت تصرف الغوريين، وبعد أن قام الملك شهاب الدين بشكر الله تعالى على هذا الفتح المبين أناب غلامه قطب الدين أى بك فى الولايات المفتوحة ثم عاد إلى أخيه بغزنة.

وفى عام (٥٩٠هـ) تملك الملك شهاب الدين قنوج وبنارس، وفى (٥٩٢هـ) سيطر على قلعة كواليور ومن بعدها فى (٥٩٧هـ) نهرواله، ثم

(١) إبن الأثير ، الكامل ، ج ٩، ص ٣٨١.
(٢) عباس إقبال، المرجع السابق، ص ٢١٩، الساداتى، نفسه، ج١، ص ١٥٥.
(٣) إبن الأثير ، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٢.

استولى بعد هذا بقليل قطب الدين آيبك وقواده الآخرون على ولايات بـهار والبنغال [١] وبهذا دخل القسم الأعظم للهند بعد فترة وبعد أن كان مجـزءا تحت حكم موحد وصار فى طاعة دولة مسلمة فارسية اللغة.

ومع أن أكثر هذه البلاد قد تم فتحه بيد السلطان محمـود الغزنـوى وخلفائه، إلا أن تسلط الغزنويين لـم يدم إلا علـى القسـم الغربـى للـهند أى الوادى الأعلى للجانح وسهول السند، وطرد راجـات الـهند تدريجـا العمـال الغزنويين من الهند الوسطى والشرقية. أمـا استيلاء الملـك شـهاب الديـن الغـورى وغلمانـه وقـواده فقـد بقـى مسـتمرا خـلاف الغزنوييـن، ومـع أن شـهاب الديـن قـد عاجلـه أجلـه وتجـزأت دولتـــه الواسـعة، إلا أن غلمـان الغوريـين المسـلمين قـد حفظـوا جميـع البـلاد المفتوحـة كمـا كـانت تحـت حكمهم، وحـافظوا على الإسلام واللغة الفارسـية فيـها علـى أثـر الفتوحـات المتجددة ودوام حكمـهم، واسـتمر هـذا الحـال حتـى عـهد تولـى السـلاطين الكوركانيين الذين ورثوا غلمان الغوريين فى هذا الامر.

وظل الملك شهاب الدين الغورى حتى (٥٩٩هـ) سـنة وفـاة أخيـه السلطان غياث الدين محمد نائبا عن أخيـه مجـاهدا بالسـيف باسـمه، فلمـا مـات أخـوه انتـهت إليـه سـلطنة الغـور ومـن هـذا الأوان لقـب بالسـلطان معزالدين. [٢]

حروب شهاب الدين مع الخوارزميين والخطا:

وفى شهر رجب سنة ٦٠٠ هـ استرد خـوارزم شـاه محمـد مدينـة هراة من ابن أخت شهاب الدين الغورى. [٣] وفـى هذه السـنة تـرك شـهاب

---

(١) ابن الأثير، الكامل ، ج ١٠، ص ٢٧٤-٢٧٥.
(٢) عباس إقبال، المرجع السابق ، ص ٢٢٠.
(٣) ابن الأثير ، نفسه ، ج ١٠، ص ٢٨٥.

الدين الغورى غزنة حاضرة ملكه قاصدا لاهور لغزو بلاد الهند. ولما علم خوارزم شاه محمد بذلك حاصر مدينة هراة؛ فلم ير شهاب الدين بدأ من العودة إلى خراسان. ثم أغز السير حتى بلغ ظاهر مدينة مرو حاضرة خراسان، ودار القتال بين جند شهاب الدين وجندة خوارزم شاه الذى استنجد بالخطا من أتراك بلاد ماوراء النهر، فساروا إلى بلاد الغور. ولما علم شهاب الدين الغورى بذلك عدل عن الاستمرار في القتال مع خوارزم شاه محمد، وعاد إلى بلاده والتقى بمقدمة جيش الخطا (صفر سنة ٦٠١هـ) في صحراء (أندخوى) وأحل بهم الهزيمة. فقتل فيهم وأسر كثيراً ثم دهمه جيش كثيف من الخطا أحل الهزيمة بشهاب الدين وأسره وكثرت الأراجيف بقتله. بينما كان قد دخل أندخوى فيمن معه وحصره الكفار بها ثم صالحه الخطا وأطلقوا سراحه بعد أن قتل أكثر جنده ونهب جميع خزائنه، ثم سار شهاب الدين إلى غزنة ولحق به أحد مماليكه إلى الهند ويدعى (أيبك بال تر) ودخل المولتان وقتل نائبه فيها، واستولى على البلاد وأساء السيرة في الرعية وظلمهم وأخذ أموالهم وأدعى السلطنة لنفسه. ولما نمى خبره إلى شهاب الدين سار إلى الهند وقبض عليه وقتله (جمادى الآخرة سنة ٦٠١هـ). [1]

ولم ينس شهاب الدين هزيمته على أيدى الخطا والأتراك وعول على أخذ الثأر منهم وغزو بلادهم. وقد ذكر المؤرخون أنه سار على رأس جيش يتألف من عشرين ألف مقاتل قاصدا الخطا، ولما وصل إلى بلادهم فرق عسكره في مفازة قليلة الماء، وكان الخطا قد نزلوا بطرفها، وكلما خرجت طائفة من الغور فاجأهم الخطا وفتكوا بهم قتلا وأسراً، ومن سلم

---

(١) إبن الأثير ، الكامل، ح ١٠، ص ٢٨٥-٢٨٧، إبن خلدون ، العبر ، ح ٤ ، ص ٥٣٧-٥٣٨، الساداتى، نفسه ، ح١، ص ١١٧.

منهم فقفل هاربا إلى بلاده. وقد وصل شهاب الدين وقد أعياه التعب والارهاق هو وجنده دون أن يعلم بما حل بجنده الذين تعرضوا للهلاك، فقاتل الخطا الذين بلغ عددهم أضعاف عدد جنده وحصروه في "أندخوى" وكادت الهزيمة تحل بجيشه. وهنا فكر شهاب الدين في خدعة حربية تكللت بالنجاح؛ فقد أمر طائفة من جنده بأن تسير ليلا وتعود إليه في الصباح، وظن الخطا أن المدد قد أتى من بلاد الغور وأخذ الخوف يدب إلى قلوبهم. وكان صاحب سمرقند وكان مسلماً يدين بالطاعة للخطا، وقد خاف على الإسلام والمسلمين إن هم ظفروا بشهاب الدين، لذلك نراه يثير مخاوف الخطا من تدفق الأمداد على شهاب الدين، وأشار عليهم بأن يجنحوا للسلم ويطلبوا الصلح، فوافقوا على رأيه، وأرسلوا إلى سلطان الغور فى الصلح وأرسل صاحب سمرقند إلى شهاب الدين سرا يشير عليه بأن يتظاهر بالامتناع عن إجابة الغور إلى الصلح أولا ثم يجيبهم إليه قبل فوات الفرصة. فلما أتت رسل الخطا تظاهر شهاب الدين بقوته وأبى قبول الصلح، ثم عاد فأجابهم إليه، وأبرم الصلح بين الفريقين على ألا يغير أحدهما على الآخر. وبذلك عاد شهاب الدين محمد بن سام الغورى إلى بلاده وتخلص من هزيمة محققة على أيدى الخطا. (١)

ولما ذاع نبأ مقتل شهاب الدين محمد على أيدى الخطا وأن أصحابه لم يقفوا له على أثر، تنافس أمراء دولته على الحكم وقامت الثورات في أطراف بلاده، ومن هؤلاء الثائرين "دانيال" صاحب جبل الجودى (٢) ، وكان قد أسلم. فلما بلغه مقتل شهاب الدين إرتد عن

(١) إبن الأثير ، الكامل، ح ١٠، ص ٢٨٧-٢٨٨، حافظ أحمد حمدى، الدولة الخوارزمية، ص ٤٤، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح٤، ص ١٧٠-١٧١.

(٢) لعل هذا الجبل كما يذكر د.حسن إبراهيم حسن (نفسه، ح٤، ص ١٧١هـ) هو المذكور في القرآن في سورة هود (١١ : ٤٤) التى تنص على أن سفينة نوح=

الإسلام. كما ثار (بنو كوكر) وكان موطنهم في الجبال بين لاهور والملتان متعصبين بها لمنعتها، [١] وأدخلوا صاحب جبل الجودى في طاعتهم وقطعوا الطريق بين لاهور وغزنة.

وقد أرسل شهاب الدين مملوكة قطب الدين أيبك قائده في الهند والمولتان يأمره بأن يدعو بنى كوكر إلى الطاعة ويتهددهم بالحرب إلا لم يجنحوا للسلم، فلم يثق زعيمهم بقوله وهدد بتخريب البلاد، وكثرت جموعه وقويت شوكته وجبى الأموال باسمه. ولما نمى ذلك إلى شهاب الدين أمر مملوكه قطب الدين بالعودة إلى بلاده وقتال بنى كوكر، فعاد إلى دهلى واستعد للحرب. وأقام شهاب الدين في "فرشابور" مهد الغور إلى منتصف شهر شعبان سنة ٦٠١هـ، [٢] ثم عاد إلى غزنة واستعد لحرب الخطا، فاتفق أن كثرت الشكاوى ضد بنى كوكر، بقيامهم بقطع الطرق وترويع الناس، وفى شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢هـ سار على رأس جيش كبير، وانقطعت أخباره من غزنه وفرشابور وانتشرت الأراجيف بهزيمته، ولكنه كان قد أغز السير إلى بنى كوكر، فدهمهم ونشب بينهما القتال وأقبل قائده قطب الدين في عسكره ونادوا بشعار الإسلام وأحلوا الهزيمة ببنى كوكر، وطاردوهم في كل مكان حتى بلغوا أكمة احتمى بها الكوكرية، فأضرم جند شهاب الدين النار فيها وغنم المسلمون " مالم يسمع بمثله حتى إن المماليك كانوا يباعون كل خمسة بدينار ركنى". وهرب زعيم الكوكرية بعد أن قتل إخوته وأهله. أما ابن دانيال فقد استجار بقطب الدين

=عليه السلام قد رست على جبل الجودى حين أمر الله سبحانه وتعالى الماء بأن يكف قائلا (وقيل يأرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين).

(١) إبن خلدون، العبر، ج ٤ ، ص ٥٣٨.

(٢) فرشابور مدينة وولاية واسعة من أعمال لاهور، وهى تقع بينها وبين غزنة (إبن الأثير، نفسه، ج ١٠، ص ٣٠١، هـ١).

أيبك، فأجاره وشفع فيه إلى شهاب الدين فأجابه إلى طلبه واستولى على قلعته وعاد إلى لاهور ، وأخذ يستعد لحرب الخطا ثم عاد إلى غزنة، وأرسل إلى بهاء الدين سام صاحب " باميان" يأمره بالأستعداد للسير إلى سمرقند ويعمل جسرا ليعبر هو وعساكره عليه. [١]

كذلك خرج على شهاب الدين الغوري " التيراهية" وكانوا يسكنون البلاد الجبلية المحيطة بولاية " فرشابور". وكانوا على الوثنية، إذ ولد لهم بنت وقف أبوها على باب داره ونادى: من يتزوج هذه؟ من يقبلها؟ فإن أجابه أحد تركها وإلا قتلها. وكان للمرأة عدة أزواج. "فإذا كان أحدهم عندها جعل مداسه على الباب، فإذا جاء غيره من أزواجها ورأى مداسه عاد"، وطالما أغاروا على حدود بلاد الغور وأوقعوا بالمسلمين. وإذا وقع في أيديهم أسير من المسلمين أمعنوا في تعذيبه. وقد قيل إنهم أسروا رجلا من فرشابور فأمعنوا في تعذيبه أياما. وقد سأل زعيم التيراهية هذا الأسير عن حالة البلاد الإسلامية وقال له: لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطيني ؟ فقا له" اى يعطيك الأموال والإقطاع ويرد إليك حكم هذه البلاد التى لكم". فأعاد هذا الزعيم الأسير إلى شهاب الدين يعرض عليه قبوله الإسلام، فعاد ومعه رسول " بالخلع والمنشور بالإقطاع". وسار هذا الزعيم مع جماعة من أهله إلى شهاب الدين فأسلموا على يديه، ثم عادوا إلى بلادهم واستراح الناس من شرهم. [٢]

---

(١) إبن الأثير ، الكامل، ج ١٠، ص ٣٠٠-٣٠١، إبن خلدون ، العبر، ج ٤، ص ٥٣٩.

(٢) إبن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٣٠٢-٣٠٣، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٤، ص ١٧٢.

وفاة شهاب الدين محمد:

امتد ملك شهاب الدين محمد الغورى على غزنة وبعض بلاد خراسان، وقتل وهو يصلى العشاء على أيدى بعض الكوكرية من الهنود الذين كانوا قد لزموا عسكره عازمين على قتله ثأرا لما ألحقه بأهلهم من قتل وتشريد، وكان شهاب الدين قد عاد من لاهور يحمل مالا يحصى من الأموال التى اشتملت على ألف ومائتى حمل. وكان شهاب الدين قد أمر جنده في الهند باللحاق به، كما أمر جنده بخراسان بالاستعداد والتأهب حتى يصل إليهم ليغزوا بلاد الخطا الجبلية. (١)

ولما قتل شهاب الدين اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الدين وطلبوا منه الاحتفاظ بالأموال والملك إلى أن يتفقوا على من يخلفه في الحكم من البيت الغورى، ثم أخفوا جراحه وأظهروه بمظهر الحى ووضعوه على المحفة، وسار الوزير والأمراء والمماليك أمامه حتى وصلوا إلى غزنة حيث دفن شهاب الدين في ٢٨ من شعبان سنة ٦٠٢هـ.

وكان شهاب الدين مقداما كثير الغزو في بلاد الهند. وكان حسن السيرة عادلا يحكم بين الناس بما يوجبه الشرع. فكان القاضى يحضر إلى قصره في أيام السبت والأحد والأثنين والثلاثاء ويحضر معه كبار الأمراء،فإذا أصدر القاضى أحكامه أخذ كبار رجال الدولة في تنفيذها لا فرق بين صغير وكبير وشريف ووضيع. وكان شهاب الدين يدين بعقائد المذهب الشافعى (وقيل بعقائد المذهب الحنفى)، ولكنه كان لايفرق بين

---

(١) إختلفت الروايات حول مقتله، فمن يقول أن الكوكرية هم الذين قتلوه لنيل ثأرهم منه، فطعنوه ٢٢ ضربة قاتلة بالسكاكين، وهناك من يقول إن الاسماعيلية هم الذين قتلوه لأنهم خافوا خروجه إلى خراسان وكان له عسكر يحاصر بعض قلاعهم. (إبن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٣٠٣.

مذهب ومذهب، وكان العلماء يجتمعون بحضرته فيتناولون المسائل الفقهية وغيرها. ومن هؤلاء الفقهاء فخر الدين الرازى الذى كان يقوم بالوعظ في قصر الأمير، وقد أثر عنه أنه وعظ يوما فختم وعظه بقوله مخاطباً شهاب الدين ياسلطان ! لاسلطان يبقى.. وإن مردنا إلى الله، فبكى شهاب الدين وأكثر من البكاء.

وكان شهاب الدين رقيق القلب لين الطبع، لقيه صبى علوى وهو راكب فدعا له وقال إنه ما أكل شيئا منذ خمسة أيام، فعاد شهاب الدين لساعته ومعه الصبى وأمر فقدم له أشهى الطعام أمامه، ثم بعث في طلب أبيه وسلمه إليه. ووزع كثيراً من المال على العلويين. ويذكر إبن الأثير أن أحد مماليكه كان مدينا بمبلغ عشرة آلاف دينار لتاجر من مراغة يعيش فى غزنة، فلما إستشهد هذا المملوك، أمر السلطان شهاب الدين بإعطاء إقطاع المملوك للتاجر إلى أن يستوفى دينه.(١)

ولاية غياث الدين محمود:

(٦٠٢-٦١٢هـ/١٢٠٦-١٢١٥م)

لم ينجب شهاب الدين محمد ولداً ذكرا يخلفه في الحكم، ومال وزيره مؤيد الملك ومعه الأتراك إلى تولية غياث الدين محمود (أبن أخيه غياث الدين محمد) صاحب بست وأسفرايين، ومال الأمراء الغورية إلى تولية بهاء الدين سام صاحب باميان وابن أخت شهاب الدين ، وسار بعض أمراء الغور إلى بهاء الدين سام ونقلوا إليه نبأ مقتل خاله، وحثوه

---

(١) إبن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٣٠٤-٣٠٥، القزوينى، آثار ، ص ٤٣٠-٤٣١، إبن خلدون ، العبر، ح ٤، ص ٥٤٠-٥٤١، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ح ٤، ص ١٧٣.

على المسير إلى غزنة ليجلس على عرش السلطنة. فكتب بهاء الدين إلى أمراء الغور بغزنة يأمرهم بحفظ البلد ويعلمهم بمسيره إليهم، كما كتب إلى أحد الأمراء وهو علاء الدين محمد (بن شجاع الدين أبي علي) صاحب "فيروزكوه" يستدعيه إليه ويعده الجميل، وإلى غياث الدين محمود ابن غياث الدين محمد، وإلى إبن خزميل والي هراة يأمرهما بإقامة الخطبة له، وحفظ مابأيديهما من الأعمال، ولم يكن يظن أن أحداً منهما يخالفه.

سار بهاء الدين سام إلى غزنة في عسكره ومعه أبناه علاء الدين محمود وجلال الدين، ولم يكد يسير مرحلتين حتى شعر بصداع أخذ يتزايد وأيقن بالموت، فعهد إلى ابنه علاء الدين بالملك من بعده وأمره بأن يسير مع أخيه إلى غزنة، وأمرهما بأن يحفظا مشايخ الغورية وضبط الملك، وأن يرفقا بالرعية ويبذلا الأموال لكسب محبة الناس، وأن يصالحا غياث الدين محمود على أن تكون له خراسان وبلاد الغور، وأن يحتفظا بغزنة والهند. ثم توفى بهاء الدين سام وبلغ إبناه علاء الدين وجلال الدين غزنة ونزلا بدار السلطنة في مستهل رمضان سنة ٦٠٢هـ، وتلقاهما أمراء الغور وأهل البلاد، كما تلقاهما الأتراك على كره منهم. (١)

أما غياث الدين محمود فقد كان مشغولا بحرب علاء الدين محمد بن شجاع الدين أبى على صاحب "فيروزكوه" . وكان غياث الدين يشعر بقوة منافسة بهاء الدين، لهذا رأى التريث حتى تنكشف الأمور، فلما انتشر خبر وفاة بهاء الدين بايع الأمراء غياث الدين وجلس على العرش، وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين محمد، وأقيمت الخطبة له بسلطنة الغور

---

(١) إبن الأثير ، الكامل ، ج ١٠، ص ٣٠٦.

(١٠ رمضان سنة ٦٠٢هـ). وقد أمر غياث الدين محمود الأمير تاج الدين الدز (بضم الدال مع تشديد الزاى) بأن يخرج ابنى بهاء الدين سام منها، وقد لبى الدز طلب غياث الدين، وكان في الواقع يريد أن يتخذ من ذلك وسيلة لامتلاك غزنة، وأرغم علاء الدين محمود على الخروج من غزنة، ونهب الأتراك ماكان معه وألقوه عن فرسه وأخذوا ثيابه ولم يتركوا له غير سراويله، ولما علم الدز بذلك اعتذر إلى علاء الدين وبعث إليه بدواب وثياب ومال، فأخذ مالبسه منها وترك الباقى. فلما وصل إلى "باميان" ركب حمارا ولبس السواد فأخرجوا له مراكب ملوكية وملابس جميلة، فلم يركب ولم يلبس، وقال" أريد أن يرانى الناس" وماصنع بى أهل غزنة حتى إذا عدت إليها وخربتها ونهبتها لايلومنى أحد". ثم دخل دار الإمارة وأخذ يجمع الجند. أما الدز فقد عمل على استخلاص الملك لنفسه، فعرض الوزارة على مؤيد الملك وزير شهاب الدين محمد فأجابه على كره منه، كما طلب الدز من غياث الدين محمود أن يخاطبه بالملك ويعتقه من الرق ويزوج ابنه من ابنته (أى من ابنة الدز) فلم يجبه غياث الدين إلى طلبه لوجود الفارق الاجتماعى في الكفاية الزوجية. (١)

وأما علاء الدين محمد بن شجاع الدين أبى على، فقد ولاه السلطان شهاب الدين بلاد الغور وما يليها، ولما بلغه قتل شهاب الدين سار إلى "فيروزكوه" خوفا من أن يسبقه إليها غياث الدين محمود فيملكها ويستولى على خزانتها، كما حاول "الذر" استمالة كبار الأمراء إليه ودعاهم إلى مساعدته عل حرب خوارزم شاه علاء الدين محمد وبهاء الدين صاحب باميان، ولم يهتم بشأن غياث الدين محمود استخفافا به واستهتارا لشأنه، فبايعوه وبايعوا ابنه من بعده. ولما بلغ غياث الدين

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ح١٠، ص ٣٠٧-٣٠٩.

محمود خبر موت بهاء الدين سام كما تقدم أمر باقامة الخطبة له بالسلطنة. [١]

وقد استتب الأمر لغياث الدين محمود فدخل في طاعته "إبن خرميل" والى هراة، وكان قد عزم على الدخول في طاعة خوارزم شاه. ثم عاد والى هراة فخلع طاعة غياث الدين محمود وانضم إلى خوارزم شاه حين علم بأن علاء الدين محمود وأخاه جلال الدين قد سارا نحو غزنة لاستردادها من يد الدز (٦٠٣هـ). وانتهز خوارزم شاه هذه الفرصة فاسترد بلخ وكانت تابعة لغياث الدين. [٢] أما الدز الذى خان عهد مولاه غياث الدين واستولى على غزنة وطرد علاء الدين وأخاه جلال الدين صاحبى باميان منها، فقد دهمته جيوش علاء الدين الغورى، فخرج لقتالهما فطارداه إلى كرمان، فاستولى عليها ثم عاد إلى غزنة واستردها من جديد، واختلف مع أخيه جلال الدين في اقتسام الغنائم، وظهر بخلهما فكرههما أهل غزنة ومالا إلى حكم غياث الدين محمود لكرمه وإحسانه. ثم افترق الأخوان، فأقام علاء الدين بغزنة وذهب جلال الدين إلى باميان، مما أطمع "الدز" في السير إلى غزنة وإعادتها إلى حوزته من جديد، ولما تحقق أمله في الاستيلاء على غزنة طمع في استرداد كرمان التى استولى عليها وأحسن إلى أهلها. [٣]

ولم تقف المتاعب التى أثارها الدز في وجه الغوريين عند هذا الحد، فقد قتل علاء الدين محمود صاحب باميان، ثم يمم شطر باميان

---

(١) إبن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠، ص ٣٠٩-٣١١.

(٢) إبن الأثير، نفسه ج ١٠، ص ٣١٢-٣١٣، حافظ أحمد حمدى، الدولة الخوارزمية، ص ٣٤.

(٣) إبن الأثير ، الكامل ، ج ١٠، ص ٣١٧،٣١٨.

فأسر أخاه جلال ا لدين وعاد به إلى غزنة، وفى سنة ٦٠٣هـ عاد عباس (عم علاء الدين وجلال الدين) إلى ملك باميان. [١]

ولنعد إلى الكلام على علاقة غياث الدين محمود بالدز، فقد طلب من الدز أن يقيم الخطبة، ولكنه استمر في تمرده حيث أمر الخطيب بأن يخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين وتلقبه بتاج الدين الدز، الأمر الذى أثار حنق أهل غزنة، إذ كانوا يعاونوه ظنا منهم أنه يحتفظ بولائه لغياث الدين محمود ويعترف بسلطنته. فلما أرسل غياث الدين محمود يعاتب الدز على تمرده أصر هذا على طلب عتقه، فلم يجد غياث الدين بدا من إجابته إلى طلبه وبعث إليه بالهدايا والخلع ومن بينها "ألف قباء وألف قلنسوة ومناطق الذهب وسيوفا كثيرة وجترين ومائة رأس من الخيل"، وبذلك صفا الجو بين الدز وغياث الدين محمود ولكن هذا الصفاء لم يدم طويلا، إذ طلب "ابن خرميل" صاحب هراة الدخول في طاعة غياث الدين وأبدى استعداده لإخراج "الدز" من غزنة بالقوة، فإذا تم له ذلك قسم مال غزنة ثلاثة أقسام: قسم للسلطان غياث الدين محمود، وقسم لخوارزم شاه، وقسم للعسكر، وكان خوارزم قد أرسل إلى غياث الدين يعرب عن رغبته في مصاهرته. وقد وافق غياث الدين على طلب ابن خرميل، ولما اتصل هذا النبأ بمسامع الدز جزع لذلك جزعا عظيما، ظهر أثره عليه فعاد إلى تمرده وقطع الخطبة لغياث الدين [٢]، واستولى على بست وغيرها، كما أمر صاحب سجستان بقطع الخطبة لخوارزم شاه علاء الدين محمد، وهدد ابن خرميل بالإغارة على بلاده، وأطلق علاء الدين صاحب باميان من أسره وسير معه خمسة آلاف فارس لإعادته إلى

---

(١) ابن الأثير، نفسه، ح١٠، ص ٣١٨-٣٢٣.

(٢) ابن الأثير ، نفسه، ح ١٠، ص ٣٢٥-٣٢٦.

ملكه وزوجه ابنته. ثم استولى قائد خوارزم شاه على مدينة هراة من إبن خرميل وقتله فى عام ٦٠٥هـ، وهذه عاقبة الغدر ، ثم أمد خوارزمشاه علاء الدين محمد خاله " أمير ملك" بالمسير إلى فيروزكوه قصبة بلاد الغور، وأن يقبض عليه وعلى أخيه على شاه بن خوارزمشاه، وأن يستولى على فيروزكوه من غياث الدين، فسار أمير ملك إلى فيروزكوه فاستولى عليها وقتل غياث الدين الغورى وأخى خوارزمشاه فى يوم واحد،" واستقامت خراسان كلها لخوارزمشاه، وذلك سنة خمس وستمائة" (١).

ولم يلبث علاء الدين محمد أن استولى على كافة أرجاء خراسان وملك باميان، وأصبح بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة وقتل من بها من الجند الغوريين ولا سيما الأتراك. وهرب الدز (وكان غائبا عن باميان) إلى لاهور، فلحقت به جيوش أتباع شهاب الدين محمود وأحلت به الهزيمة وقتلته. وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدى الخوارزميين بعد أن انهكت قواها فيما شنته من حروب على الخطا والخوارزميين وعلى بلاد ماوراء النهر وسمرقند وخراسان وغيرها. ويعلق إبن الأثير على سقوط الدولة الغورية بقوله" ولقد كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة وأعدلها وأكثرها جهادا، وكان محمود هذا عادلا حكيما من أكرم الملوك أخلاقا". (٢)

---

(١) إبن الأثير، الكامل ، ج ١٠، ص ٣٣٤-٣٣٧، حسن ابراهيم حسن، نفسه ، ج٤، ص١٧٦.

(٢) إبن الأثير، نفسه ، ج ١٠، ص ٣٣٧.

الملاحق

الملاحق

(١) الملحق الأول:

شجرة نسب السامانيين

(٢) الملحق الثانى:

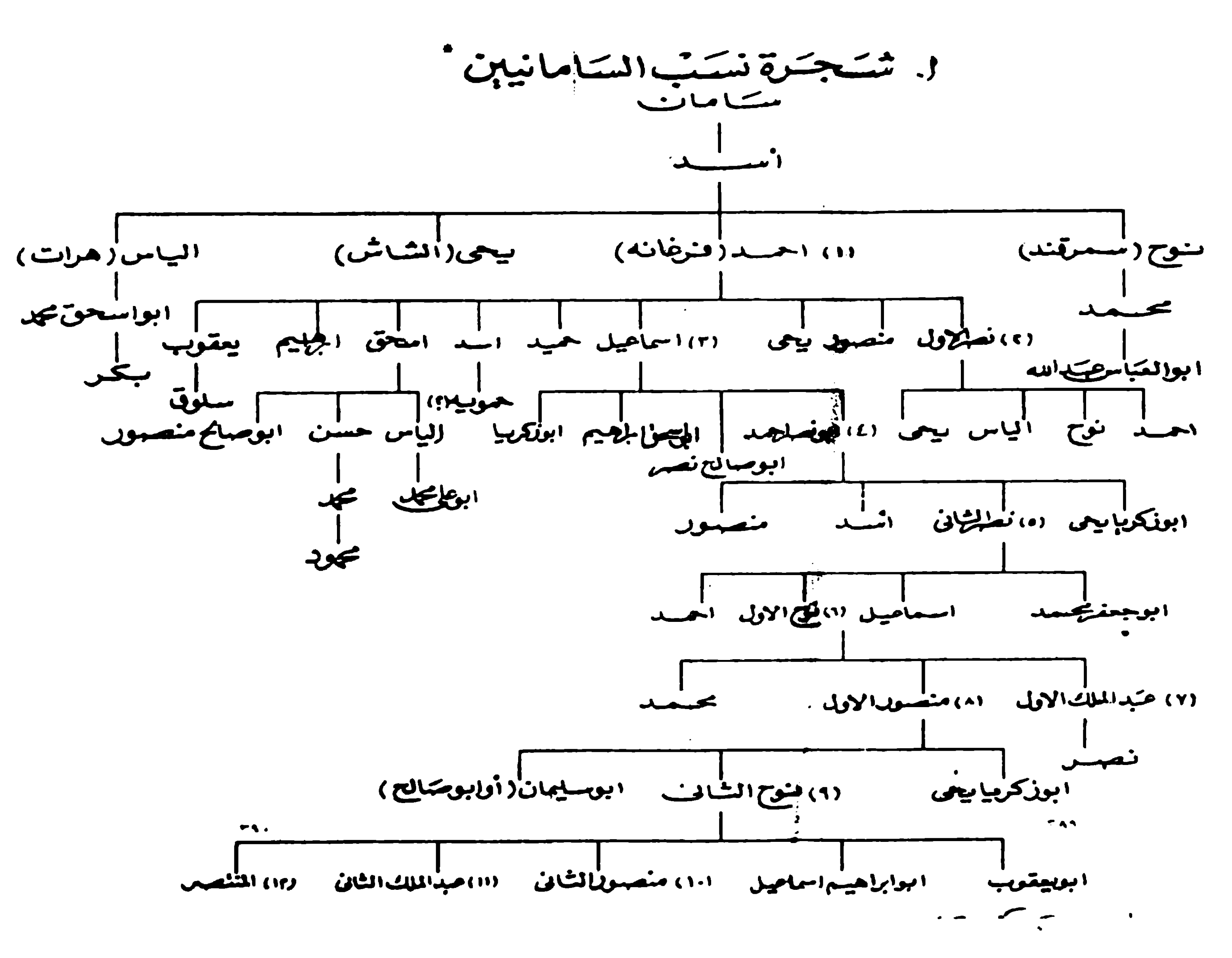
الدولة الساجية بالجبال.

(٣) الملحق الثالث:

شجرة نسب الغوريين.

الملحق الأول

أ. شجرة نسب السامانيين *



* بارتولد، تركستان، ص ٣٨٩.

الملحق الثاني

الدولة السَّاجيَّة، بالجبَال (١)

كان أبو الساج ديوداذ من كبار قواد الأتراك، وتوفى عند عوده من عسكر عمرو الصفار باستدعاء الأمير الموفق له بجُند يسابور في شهر ربيع الآخر سنة ست وستين. وخلّف ولدين محمد بن أبى الساج، ويوسف بن أبى الساج، فأقام محمد يتنقل فى جلائل الأعمال إلى أن وجهه المعتمد فى آخر أيامه إلى المراغة لانتزاعها من يد عبد الله بن الحسين العلوى المتغلب عليها وذلك فى سنة تسع وسبعين، وتوفى المعتمد وولىّ الإمام المعتضد فوصل الخبر إليه بأن محمد بن أبى الساج افتتحها بعد حرب شديد، وحصار طويل قبل فتحها.

الأفشينُ محمد بن أبى الساج

فى سنة خمس وثمانين ومائتين ولاه المعتضد بالله أرمينية وأذربيجان، وسائر بلاد الجبل، فأقام فيها الى أن توفى فى سنة ثمان وثمانين ومائتين ، فكانت مدة مملكته مذ ولاه المعتمد على الله قريبا من تسع سنين.

ديُودَاذ بن الأفشين

لما توفى محمد بن أبى الساج اجتمع الأجناد على نصب ولده ديوداذ مكانه، وخالفهم عمه يوسف فى غلمانه، فالتقوا فى شهر شعبان

---

(١) إبن ظافر الأزدى، أخبار الدول المنقطعة، تحقيق د. عصام هزايمة وآخرون، دار الكندى للنشر والتوزيع، إربد، الأردن ١٩٩٩، ح ١ ، ص ١١٠-١١٨.

من السنة، فانهزم ديوداذ، وخيّره عمه بين البقاء معه أو النفوذ إلى باب الخليفة، فاختار النفوذ إلى باب الخليفة، فوصل بغداد يوم الخميس لتسع بقين من شهر رمضان من السنة بعينها، وكانت مدة ولايته شهراً أو شهرين، والله أعلم.

الأمير يوسف بن أبى الساج

وتولى يوسف بن ديوداذ بلاد أذربيجان، وارتفع شأنه فيها ارتفاعا عظيما، وملك ملكا كبيرا، وأقام واليا حتى سنة خمس وثلاثمائة، فجرى منه ما أوجب تسيير الإمام المقتدر بالله خاقان المفلحى فى جيش لحربه، وكان فاتكاً المعتضدى، فامتنع من الخروج، فقبض عليه وحُبس وقبضت دوره وأملاكه. وحين صار الجيش بهمذان عرضهم خاقان، وسار إلى ابن أبى الساج فى عشرة آلاف، والتقوا بسُكونة، وابن أبى الساج فى سبعة آلاف، فحمل أخو صعلوك، وهو فى ميسرة ابن أبى الساج وحمل ابن حتارم على ميمنته، فانهزم جيش خاقان، ونجا خاقان إلى قم، وسار ابن أبى الساج إلى الرى بعد أن منع من اتباع المنهزمين، فاربط أكثرهم.

ولما وصل الخبر إلىمدينة السلام ندب الأستاذ مؤنس لحرب إبن أبى الساج، فخرج فى شوال منها، وقلد عبد الله بن محمد الفارقى أعماله مع ارمينية، وكان الحسين بن حمدان مسجونا لنفاقه، فعرض عليه الخروج لمحاربة ابن أبى الساج، فلم يفعل، وسار مؤنس العجل، ولما قرب بعث نافذا الخادم إلى ابن أبى الساج يعرض عليه تسليم الري للسلطان، وبقاء مافى يده عليه من أعماله، فأجاب إلى ذلك، وخرج عن الري وتسلمها نافذ، وكتب مؤنس إلى السلطان بذلك فأبى، وأمره باتباع

يوسف وإخراج الأعمال عن يده. وكان يوسف بعث أخاً صعلوكاً إلى قزوين يجبى له أموالها فجباها ثم استأمن إلىّ مؤنس، وفاز بما جبى.

والتقى مؤنس ويوسف فى موضع يعرف بشَاه، ومؤنس فى خمسين ألفاً بين فارس وراجل، والتقت طلائع يوسف وعليها على بن وصيف مع طلائع الأستاذ، وعليها سيما مابويه، فتقنطر سيما فأسر وبعث به (علي بن وصيف) إلى سبك غلام يوسف، فأمر بضرب رقبته، وبعث بها إلى مولاه بكرة وقد أمر وستر، وحمل عسكر مؤنس على يوسف، فانهزم جميع عسكره، وكان معزلاً للحرب خمسمائة مملوك عن يمين عسكره، وغلامه سبك فى ثلاثمائة عن يساره، وكان مؤنس قد أمر العسكر كله بالحملة، فنهاه أخو صعلوك عن ذلك، فلم يفعل وكان ينتظر مجئ الفارسية. وحين رأى يوسف عسكره قد انهزم حمل من جانبه فيمن معه. وحمل سبك فيمن معه.

وكان الأستاذ لما انهزم وجاءت خيل يوسف وسبك فظنها خيل الفاتكى، فبعث يستعجلهم، فقال الرسول: الأستاذ يستعجلكم، فقالوا: ومن الأستاذ؟ قال: مؤنس، فوقع عليه غلمان سُبك وسلبوه، وحمل سَبك مما يلى سفح الجبل وابن أبى الساج من الناحية الأخرى فحطموا العالم، فلم يكن لمؤنس إلا حمل المال الذى معه والنجا بخاصته، واحتوى يوسف على جميع سواده، ومنع من القتل وأمر رجال السلطان بوضع سلاحهم وأقاموا عنده أياماً ثم كساهم ودفع لكل راجل ديناراً وثوباً وللفرسان أيضاً.

وقد كان سبك رام المسير وراء مؤنس لأنه تيقن أسره، فمنعه مولاه، وقال له: يابنى إذا أسرنا مؤنساً لم يكن فى خزائننا مانجزه به، ولا ما نخلع عليه، ولا فى أموالنا فضلة لما نهبه إجلالاً له، فشكر له مؤنس

ذلك فيما بعد، وأطلق يوسف هلال بن بدر وأعطاه أموالاً عظيمة، ولم يبق أحداً إلا وأنعم عليه.

ورجع الأستاذ إلى زنجان منهزماً، وقاعدة مملكة يوسف إذ ذاك مدينة أردبيل. وكاتب الدار النبوية بخبر الهزيمة، فخرجت إليه المراسم بالثبوت بزنجان إلى أن تجتمع إليه العساكر ثم يعود إلى أردبيل. فأقام بها إلى أن دخلت سنة سبع، ووافاه أحمد بن أخو صعلوك الساماني المقدم ذكره في هذا الكتاب من أبهر إلى زنجان في جيشه، وأقام على بن حسان وعلى بن وهسوذان ملك الديلم ورحل مؤنس عند تكامل عساكره على تعبئة، فلقيه يوسف على ظاهر أردبيل يوم الجمعة النصف من صفر سنة سبع وثلاثمائة، وقاتل أشد قتال، فانهزمت عساكره، وبقى في خاصة غلمانه ثابتاً على ربوة، فحمل عليه الأمير أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة في جماعة من بنى تغلب، وكاد أن يقلعه وثبت يوسف له وعاد أبو الهيجاء من ورائه ثم انقلب عليه حاملاً فانهزم، وتبعه أبو الهيجاء، فأسره بعض أعدائه وهو مجروح، وأحضره إلى مؤنس فأكرمه، وضرب له مضرباً إلى جانب مضربه، ونجا غلامه سُبُك الساجي وخاصته فلم يدرك.

وعاد مؤنس إلى بغداد ومعه يوسف، وقد كان أعدَّ له عجلة ليشهره عليها ويركب المخانثة معه فيها ينوحون عليه، فبلغ ذلك مؤنساً فانكره، وقال مثل هذا الأمير الجليل لايشهر. وسأل الإمام المقتدر بالله في تبطيل ذلك، فأجابه. ودخل مؤنس في يوم الاثنين لتسع خلون من ربيع الآخر سنة سبع، وقد زينت له الشوارع، واجتمع الناس اجتماعاً لم ير مثله والأمير يوسف بين يديه على جمل، عليه الدراعة التى كانت على

عمرو بن الليث وهو مطرق، والناس يدعون الله أن يرق قلب الخليفة عليه لما يرون من جماله ويعرفون من شهامته.

ولما وصل دار الخليفة رجَّلوه ودخلوا به إليه فرآه ووعده الوزير حامد بن العباس والرئيس على بن عيسى عنه بالجميل. ثم أدخل قاعة أعدت لحبسه فجلس فيها. واصطنع الخليفة غلامه سُبك بسؤال مؤنس وولاه ما كان لسيده حفظاً لجانبه.

وأقام يوسف محبوساً إلى أن شفع فيه مؤنس، فأطلقه المقتدر وخلع عليه وأوصله إليه لثمان خلون من المحرم سنة عشر وثلاثمائة، وولاه سائر أعماله أذربيجان وأضاف إليه ديار ربيعة، وآمد، وشمشاط، ورسم له انتزاع بلاد الرى، وأبهر، وقزوين، وزنجان من نواحى صعلوك.

وسار يوسف من بغداد فى شعبان سنة عشر وثلاثمائة، ووصل إلى أردبيل فوجد غلامه سُبك قد توفى، فوجد عليه وجداً عظيما، وكان حسن العشرة معه أيام سجنه لا يتصرف إلا على أوامره ولا يجلس إلا دون مجلسه. ولما وصل إليها سار قاصداً قتال أخى صعلوك وسار الآخر إليه فالتقوا بين أبهر وزنجان وعدة أخى صعلوك أكثر من عدة الأمير يوسف، فحمل عليه يوسف بنفسه حملات كثيرة فانهزم وأدركه وضربه من يده ضربة عظيمة ألقاه بها عن جواده فخرَّ صريعاً. وكانت الوقعة لسبع خلون من ذى الحجة سنة إحدى عشرة.

وأقام يوسف رخى البال إلى أن أتته قاصمة الظهر، وغاية العمر فى سنة خمس عشرة، وذلك أن أبا طاهر سليمان بن الحسن الجنابى القرمطى، صاحب هجر والأحساء لما طغى على البصرة وأخربها، وهزم جيوش الخليفة وكسرها، استدعى الخليفة يوسف من أذربيجان ورسم له

بمحاربته، فسار يوسف إلى نواحى الكوفة وبلغ الجنابي خبره فسار إليه فالتقوا على مكان يعرف بالخندق بين الحيرة والنيل فى يوم السبت لعشر خلون من شوال سنة خمس عشرة وكان يوسف فى نحو أربعين ألفا بين فارس وراجل، والجنابى فى نحو أربعة آلاف، وبات القرامطة من قتال يوسف، وغلمانه مالم يروا مثله حتى هموا بالفشل ثم انهزم أكثر من معه وبقي فى نحو خمسمائة مملوك فحار فى أمره، وقال: أرونى صاحب أمرهم لعلى أحمل عليه فاموت به، فقيل له: هو من جملة أصحاب الخيل الدهم الذين شعارهم البياض، وكذلك كان زي سليمان وإخوته حتى لايعرف بعضهم فى الحرب من بعض، فحمل عليهم وهزم عليهم وغلمانه ينقصون وشملهم القتل والأسر والانهزام حتي حمل فلم يرجع وأسر وقتل بعد ذلك باربعة أيام.

وولد فى سنة خمسين ومائتين وقتل فى الوقت الذى ذكرناه، فكانت مملكته مضافة إلى مدة غلامه سُبك أيام القبض عليه نحو من سبع وعشرين سنة، وكان عمره خمساً وستين سنة. وكان شجاعاً صارماً لا يملأ قلبه شئ مع لين فى كلامه وفتور فى ألفاظه، وكان كثير اللجاج، من لجاجته وقعته مع القرمطي، وكذلك وقعته مع غلامه وصيف السبكى، وهي حكاية عجيبة. وكان زاهر المروءة يقول شعراً نازل الطبقة.

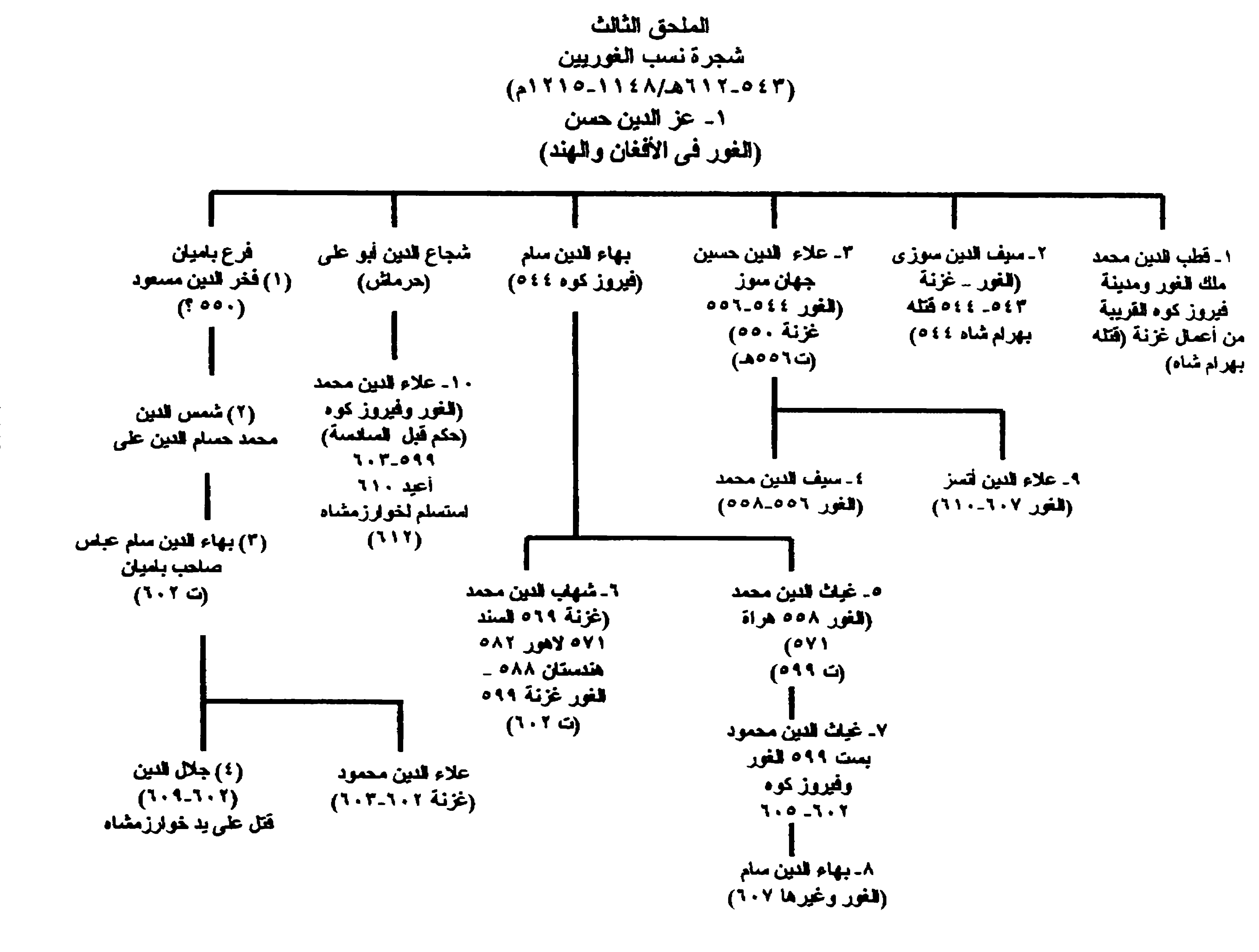
كتابه : ابن دانيال النصرانى ثم محمد بن خلف إلى أن قبض عليه بواسط عند مسيره لحرب الجنابى، ثم الحسن بن هارون.

أبو المسافر الفتح بن محمد بن الأفشين

قلده الخليفة فى ذى الحجة سنة خمس عشرة بلاد عمه، فسار إليها وملكها، واستمرت مملكته لها إلى أن قتل غلامه بالدُوّا بأردبيل فى

شهر شعبان سنة سبع عشرة وثلاثمائة، فكانت مملكته نحو سنة ونصف، وتغلب على بلاده وصيف السُّروانى غلام عمه ثم مفلح بعد غلامه، وترك أبو المسافر ولداً يقال له أبو الفرج وهو أحد قواد الدولة العباسية كان فى صحبة ابن رائق.

تمت الدولة الساجية


الملحق الثالث
شجرة نسب الغوريين
(٥٤٣-٦١٢هـ/١١٤٨-١٢١٥م)
١- عز الدين حسن
(الغور فى الأفغان والهند)
١- قطب الدين محمد ملك الغور ومدينة فيروز كوه القريبة من أعمال غزنة (قتله بهرام شاه)
٢- سيف الدين سوزى (الغور - غزنة ٥٤٣-٥٤٤ قتله بهرام شاه ٥٤٤)
٣- علاء الدين حسين جهان سوز (الغور ٥٤٤-٥٥٦ غزنة ٥٥٠) (ت٥٥٦هـ)
بهاء الدين سام (فيروز كوه ٥٤٤)
شجاع الدين أبو على (حرماش)
فرع باميان (١) فخر الدين مسعود (٥٥٠ ؟)
٩- علاء الدين أتسز (الغور ٦٠٧-٦١٠)
٤- سيف الدين محمد (الغور ٥٥٦-٥٥٨)
١٠- علاء الدين محمد (الغور وفيروز كوه (حكم قبل السادسة ٥٩٩-٦٠٣ أعيد ٦١٠ استسلم لخوارزمشاه (٦١٢)
(٢) شمس الدين محمد حسام الدين على
(٣) بهاء الدين سام عباس صاحب باميان (ت ٦٠٢)
٥- غياث الدين محمد (الغور ٥٥٨ هراة (٥٧١) (ت ٥٩٩)
٦- شهاب الدين محمد (غزنة ٥٦٩ السند ٥٧١ لاهور ٥٨٢ هندستان ٥٨٨ - الغور غزنة ٥٩٩ (ت ٦٠٢)
٧- غياث الدين محمود بست ٥٩٩ الغور وفيروز كوه ٦٠٢-٦٠٥
٨- بهاء الدين سام (الغور وغيرها ٦٠٧)
علاء الدين محمود (غزنة ٦٠٢-٦٠٣)
(٤) جلال الدين (٦٠٢-٦٠٩) قتل على يد خوارزمشاه

مصادر ومراجع الكتاب

أولا: المصادر العربية والمعربة.

(١) إبن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، بيروت ١٩٦٥.

(٢) إبن إسفنديار: تاريخ طبرستان، تصحيح عباس إقبال، طهران ١٣٢٠س.

(٣) إبن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الوهاب النجار، القاهرة ١٣٥٧هـ،الجزء التاسع والعاشر طبعة الدكتور محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م.

(٤) إبن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٥م.

(٥) إبن خرداذبه : المسالك والممالك، إعداد وتقديم خير الدين محمود قبلاوى، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٩٩م.

(٦) إبن خلدون: العبر، الطبعة الثالثة، نشر الأستاذ خليل شحادة ومراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ١٩٩٦.

(٧) إبن خلكان : وفيات الأعيان، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩م.

(٨) الحموى: معجم البلدان، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٠٦م.

(٩) ــــــــــ: معجم الأدباء، القاهرة ١٩٣٨م.

(١٠) إبن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م.

(١١) إبن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة ١٣١٧هـ.

(١٢) إبن طيفور: كتاب بغداد، نشر عزت العطار الحسينى، القاهرة ١٩٤٩م.

(١٣) إبن ظافر الأزدى: أخبار الدول المنقطعة (تاريخ الدولة العباسية، تحقيق الدكتور محمد بن مسفر بن حسين الوهرانى، مكتبة الدار، المدينة المنورة ١٩٨٨م.

———————— : أخبار الدول المنقطعة، تحقيق الدكتور عصام هزايمه وآخرون، جزءان، دار الكندى للنشر والتوزيع ، إربد، الأردن ١٩٩٩م.

(١٤) إبن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٩٤٧م.

(١٥) إبن كثير : البداية والنهاية ، الطبعة الأولى، مصر ١٩٣٢م.

(١٦) إبن النديم: الفهرست، طبع مكتبة خياط، بيروت بدون تاريخ.

(١٧) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر ، ط١، مصر بدون تاريخ.

(١٨) البغدادى: الفرق بين الفرق، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة إبن سينا، القاهرة ١٩٨٨م.

(١٩) البلاذرى: فتوح البلدان، علق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣م.

(٢٠) البيهقى: تاريخ البيهقى، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، مطبعة الأنجلو ، القاهرة ١٩٥٦م.

(٢١) الثعالبى: يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محيى عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٧م.

(٢٢) الجهشيارى: كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة ١٩٣٨م.

(٢٣) السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحى، ح٢، القاهرة ١٩٦٤م، ح٣، القاهرة ١٩٦٥م.

(٢٤) السلمى : طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة، القاهرة ١٩٥٣م.

(٢٥) السيوطى: تاريخ الخلفاء، تقديم عبد الله مسعود، دار القلم العربى، حلب ١٩٩١م.

(٢٦) الشهرستانى: الملل والنحل ، طبعة القاهرة ١٩٤٨م.

(٢٧) العتبى: تاريخ اليمينى، فى جزئين على هامش الفتح الوهبى للمنينى، القاهرة ١٢٨٦هـ.

(٢٨) الإصطخرى: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، القاهرة ١٩٦٢م.

(٢٩) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين، بيروت ١٩٦١م.

(٣٠) ــــــــ : الأغانى، القاهرة ١٩٢٦-١٩٦١.

(٣١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف، مصر بدون تاريخ. وأيضا: المطبعة الحسينية ، القاهرة، بدون تاريخ.

(٣٢) القفطى: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت بدون تاريخ.

(٣٣) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، بغداد بدون تاريخ، القاهرة ١٣٠٣هـ. طبعة بيروت ١٩٦٨م.

(٣٤) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦م.

(٣٥) مسكويه : تجارب الأمم ، مصر ١٩١٥م.

(٣٦) المقريزى: إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلف، نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٩٦م.

(٣٧) مجهول: تاريخ سيستان ، تصحيح ملك الشعراء بهار، جاب دوم إيران ١٣٥٢.

(٣٨) مجهول : أخبار الدولة العباس وفيه أخبار العباسى وولده، تحقيق عبد العزيز الدورى وزميله، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧١م.

(٣٩) نظام الملك: ساست نامه، ترجمة وتعليق السيد محمد العزاوى، القاهرة ١٩٧٥م.

(٤٠) النرشخى: تاريخ بخارى، عربة عن الفارسية وقدم له وحققه أمين عبد المجيد ونصر الله الطرازى، دار المعارف ، مصر ١٩٦٥م.

(٤١) النوبختى: فرق الشيعة، صححه وعلق عليه محمد صادق الأبجر، النجف ١٩٣٦م.

(٤٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨هـ.

ثانيا : المرجع العربية والأجنبية المعربة.

(١) أمين (دكتور أحمد): ظهر الاسلام، القاهرة ١٩٥٣م.

(٢) ـــــــــــ: ضحى الإسلام، القاهرة ١٩٣٨م.

(٣) الباشا (دكتور حسن): مدخل إلى الآثار الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩م.

(٤) أشتيانى (عباس إقبال): تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة دكتور محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٠م.

(٥) أبو سيف (دكتور فتحى): المشرق الإسلامى بين التبعية والإستقلال، القاهرة ١٩٨٧م.

(٦) ـــــــــــــ: خراسان تاريخها السياسى والحضارى من سقوط الحكم الطاهرى إلى بداية الحكم الغزنوى، القاهرة ١٩٩٥م.

(٧) بارتولد(فاسيلى فلاديميرو فتش): تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم، الطبعة الأولى، الكويت ١٩٨١م.

(٨) ـــــــــــــ: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م.

(٩) بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة دكتور فارس نبيه وزميله، جزءان ، ١٩٦١م.

(١٠) ـــــــــــــ: تاريخ الأدب العربى، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر بدون تاريخ.

(١١) جمال الدين (دكتورمحمد السعيد): دولة الاسماعيلية فى إيران، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٥م.

(١٢) جنكيزخان (عبد العزيز): تركستان قلب آسيا، الجمعية الخيرية التركستانية، مصر ١٩٤٥م.

(١٣) حسن (دكتور حسن إبراهيم): تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، القاهرة ١٩٥٣م.

(١٤) حسن (دكتور زكي محمد): الفنون الإيرانية ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٤٦م.

(١٥) حمدى (حافظ أحمد): الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٤٩م.

(١٦) حيدر (دكتور محمد على): الدويلات الإسلامية فى المشرق، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٤م.

(١٧) الخضرى (محمد الخضرى): محاضرات فى تاريخ الدول الإسلامية: الدولة العباسية، القاهرة ١٩١٦م.

(١٨) الدورى (دكتور عبد العزيز): العصر العباسى الأول، بغداد ١٩٤٥م.

(١٩) الساداتى (دكتور احمد محمود): تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم، الجزء الأول، سلسلة الألف كتاب رقم (١٥٨)، القاهرة ١٩٥٧م.

(٢٠) سالم (دكتور السيد عبد العزيز): العصر العباسى الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٩٥م.

(٢١) سيد (دكتور أيمن فؤاد): تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٨٨م.

(٢٢) السرنجاوى (عبد الفتاح): النزعات الاستقلالية فى الخلافة العباسية، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٤٥م.

(٢٣) شاخت وبوزورث: تراث الإسلام ، ترجمة د. حسين مؤنس ود. إحسان صدقى العمد، الطبعة الثانية، سلسلة عالم المعرفة، رقم (١٢)، الكويت ١٩٨٨م.

(٢٤) الشكعة (دكتور مصطفى): بديع الزمان الهمدانى رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧٥م.
(٢٥) الشرقاوى (عفت): فى فلسفة الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٨م.
(٢٦) العبادى (دكتور أحمد مختار): فى التاريخ العباسى والفاطمى، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٩٩م.
(٢٧) عبد الحميد (دكتور سعد زغلول): التاريخ العباسى والأندلسى، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٥م.
(٢٨) عبد القادر (حامد عبد القادر): قصة الأدب الفارسى، لجنة البيان، القاهرة ١٩٥١م.
(٢٩) عبد النور (دكتور جبور): إخوان الصفا، مجموعة نوابع الفكر العربى رقم (٧)، الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر ١٩٨٣م.
(٣٠) عيسى (احمد): تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، دمشق ١٩٣٩م.
(٣١) فامبرى (أرمنيوس): تاريخ بخارى، ترجمة دكتور أحمد محمود الساداتى، مراجعة د. يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٦١م.
(٣٢) قنديل (إسعاد): فنون الشعر الفارسى، القاهرة ١٩٧٥م.
(٣٣) كريستنس (آرثر): إيران فى عهد الساسانيين، ترجمة دكتور يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٧م.
(٣٤) لسترنج (كى): بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة، بغداد ١٩٥٤م.
(٣٥) لوبون (غوستاف): حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠م.

(٣٦) لين بول (ستانلى): طبقات سلاطين الإسلام، ترجمة عن الفارسية مكى طاهر، تحقيق على البصرى، القاهرة ١٩٨٦م.

(٣٧) ماجد (دكتور عبد المنعم) : التاريخ السياسى للدولة العربية،(جزءان) الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٥م.

(٣٨) متز (آدم): الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧٥م.

(٣٩) محمد (دكتورة نبيلة حسن): محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية، مكتب كريدية إخوان، بيروت بدون تاريخ.

(٤٠) محمود (دكتور حسن أحمد) والشريف (دكتور أحمد ابراهيم): العالم الإسلامى فى العصر العباسى، القاهرة ١٩٦٣م.

(٤١) معروف (ناجى): علماء ينسبون إلى مدن أعجمية وهم من أرومة عربية ، مجلة كلية الآداب ،جامعة بغداد، بغداد ١٩٦٥م.

الفهرس